رواية أحببت معذبي

بقلم: وداد جلول

تعريف

في ركن مظلم من المدينة، حيث تتراقص ظلال الليل على أنغام الخطيئة، ترعرع إياد معين. شاب في ريعان شبابه، لم يتجاوز التاسعة والعشرين عاماً، لكنّ الحياة نقشت على قلبه خطوطاً متعرجة من القسوة والبرود. ملامحه كانت تجسيداً للرجل الذي لا يُقهر، بجسد ضخم وكأنه جبل راسخ، ونظرات ثاقبة من عينين عسليتين تُخفيان وراءهما عالماً مظلماً من الذكريات الأليمة. ورث ثروة طائلة عن والد متسلط جعله يكره معنى الحياة ذاتها، فبات يُنفق حياته بين أروقة شركته التي يُديرها بقبضة حديدية، وبين أحضان النساء اللاتي يُشكّلن له متنفساً مؤقتاً من جحيم ماضيه.

وعلى ضفة أخرى من نهر الحياة، كانت تتفتح حياة الشريف كزهرة لوتس نقية وسط المستنقع. فتاة في العشرين من عمرها، جمالها بسيط وجذاب، كأنها قطعة من السماء سقطت على الأرض. عينان واسعتان تُشبهان بريق النجوم تُضفيان على وجهها البريء سحراً لا يُقاوم. رغم أنّ الحياة لم تبخل عليها بالألم، فقد عاشت يتيمة الأب تحت رحمة أم منحرفة أدمَنت الرذيلة، إلا أنّها ظلت متمسكة بطيبتها وأخلاقها كأنها تُريد أن تُثبت أنّ الجمال الحقيقي ينبع من داخل الإنسان.

في الجانب الآخر من المدينة، ترعرع ينال، شاب مُشرق كالشمس، مع والدته التي كانت الصديقة الحميمة لوالدة إياد. جمعته بإياد صداقة قوية منذ الصغر، فكان له بمثابة الأخ الذي لم يلده. كان ينال يمتلك قلباً طيباً ونقياً، وروحاً مُفعمة بالتفاؤل، وكأنه خُلق ليُنير ظُلمات حياة صديقه إياد. كان ينبض قلبه عشقاً لفتاة تُدعى سلام، وهي فتاة جميلة تتمتع بروح مُستقلة وجاذبية خاصة، إلا أنها كانت تحمل في قلبها حُباً لشاب آخر.

تلك هي الشخصيات الرئيسية في قصتنا، والتي ستُقاد خيوط حياتها لتتقاطع مع بعضها البعض في سلسلة من الأحداث المُشوّقة والمُثيرة.

1

في شقة متواضعة، حيث البساطة عنوان الأثاث وترتيب الأشياء يعكس نظاماً مُجبراً أكثر منه اختياراً، كانت حياة تقف قرب نافذة غرفتها الصغيرة تُراقب عبرها لوحة شتوية تُرسم بألوان رمادية. قطرات المطر تتساقط بغزارة

على زجاج النافذة، تُشبه دموعاً صامتة تنهمر من سماء ثقيلة. كان وجه حياة فاتناً كلوحة فنية رقيقة، ببشرة بيضاء ناعمة وشعر بُنّي داكن يتدلى على كتفيها كأنه شلال من الحرير. عينان زرقاوان واسعتان تُحدقان في الخارج، وكأنهما تبَحثان عن إجابة لسؤال حائر في أعماقهما.

فتحت حياة النافذة ببطء، فداعب الهواء البارد وجهها بلطف، وأرسل قشعريرة خفيفة سرت في أوصالها. تطايرت خصلات شعرها بحرية مع نسمات الريح الباردة التي حملت معها رائحة المطر والتراب. كان الشارع شبه مهجور، والهدوء يُخيم على المكان إلا من صوت قطرات المطر وهي تُلامس الأرض بشوق. ابتسمت حياة ابتسامةً هادئة، فهي تُحب فصل الشتاء بأجوائه الساحرة التي تدعوها دائماً للغوص في أعماق أفكارها.

أغلقت حياة النافذة واستدارت بجسدها النحيل، وهي تُفرك يديها ببعضهما محاولةً تدفئتهما. توجهت نحو سريرها وأمسكت بكتاب كانت تقرأ فيه عن علم النفس، فهو العالم الذي وجدت نفسها فيه، وكأنه الملاذ الوحيد لها من واقع حياتها المُظلم.

ولكن سرعان ما قطع صوت والدتها الخشن حبل أفكارها، وكأنه صاعقة أيقظتها من حلم جميل إلى كابوس مرعب. انتفضت حياة من مكانها وهي تُدرك جيداً أن "المعتاد" على وشك أن يبدأ. دخلت سمر والدة حياة، إلى الغرفة وهي تُقطّب جبينها بغضب:

"حياة! كم مرة ناديت عليكِ ولا تُجيبين؟ أين ذهبتِ بأفكاركِ الضائعة كالعادة؟"

أجابت حياة بصوت منخفض وهي تُحاول إخفاء انزعاجها:

"أنا آسفة ماما، لم أسمعكِ. كنت أُذاكر."

نظرت لها سمر بازدراء وهي تُطلق تنهيدة ساخرة:

"تُذاكرين؟ وما فائدة هذا العِلم الذي لن ينفعكِ أبداً؟ ألم أُخبركِ ألف مرة أن تتركي هذه الخرافات وتُفكّري في مستقبلكِ بشكلٍ جدي؟"

ابتلعت حياة غصة حزن صامتة في حلقها ولم تُجب، فواصلت سمر حديثها بنبرة قاسية:

"على كل حال، انهضي الآن وساعديني في ترتيب الأغراض. الرجال سيأتون بعد قليل، وأريد كل شيء جاهزاً."

شعرت حياة بثقل على صدرها وكأن جبلاً انهار فوق رأسها عند سماعها لكلمات والدتها. كانت تلك هي الحياة التي اعتادت عليها، حياة بلا طعم أو لون، لياليها مظلمة تُشبه أرواح أولئك الرجال الذين يأتون إلى منزلهم كل ليلةٍ

يبحثون عن ملذات رخيصة، بينما تجلس هي في غرفتها تُحاول أن تُخفي دموعها وراء صفحات كتبها. لم تكن حياة لتتقبل يوماً عمل والدتها أو تُبرره، لكنّها كانت تُدرك جيداً أنّها عاجزة عن تغيير الواقع الذي تُعيشه.

جلس إياد غارقاً في ظلام مكتبه الفخم، تتراقص على وجهه أضواء خافتة منبعثة من المدينة التي لا تنام خلف زجاج مكتبه البانورامي. بين يديه استقرت أوراق صفقة تحمل في طياتها أرقاماً خيالية، لكنها بدت بلا معنى أمام فوضى ذكرياته. حدّق بنظراته الثاقبة في السطور أمامه، محاولاً عبثاً أن يغرق نفسه في متاهات العمل لينسى، ولو للحظات، جحيم طفولته التي لا زالت تلقي بظلالها الثقيلة على قلبه. تنهد بقوة، وأرخى جسده على ظهر الكرسي الجلدي الفخم، وأغمض عينيه مستسلماً لصور من الماضي تتدافع في رأسه كأشباح لا تكلّ ولا تمل.

فلاش باك

دوّت صرخة طفل تائهة بين جدران المنزل الفخم، صرخة مُشبّعة بالألم والذعر. طفل لم يتجاوز عمره العاشرة، يرتجف على الأرض، وجهه صغير يحمل آثار ضرب مُبرح، دموعه الساخنة تختلط بكدمات على ذراعيه النحيلتين.

"أرجوك يا أبي.. أنا آسف.. لن أكررها أبداً.. أرجوك سامحني!"

توسّل الطفل بصوت مُتقطع، يبحث عن ذرة رحمة في عيون والده غياث، لكن عبثاً! كان غياث يقف أمام ابنه كجبل من الجليد، لا يعرف للحنان طريقاً، وجهه قاسي مُتجهّم كأنه على وشك أن ينفجر.

"سأقتلك يا لعين.. سأقتلك! اللعنة عليك وعلى والدتك الحقيرة!"

انهال غياث على ابنه بالضرب مجدداً، صوت صفعاته يتردد صداه في أرجاء المكان كطلقات نار تخترق قلب الطفل المُرعوب. لم يجد الطفل في نفسه قوة للدفاع عن نفسه، أو حتى الصراخ، فقد استسلم لألمه وقدره المُحزن.

فجأة، ظهرت من بين ظلال المنزل امرأةٌ منهكة، وجهها شاحب يحمل ندوب الزمن والحزن. ركضت نحو ابنها بهمّة تحسد عليها، وقف بينه وبين وحشية زوجها.

"غياث توقف! كفى! سوف تقتله!"

صرخت الأم بصوتٍ مُرتجف، تحاول بجسدها النحيل حماية فلذة كبدها من بطش زوجها. لكن غياث لم يكترث لتوسلاتها، بل دفعها بعيداً دون أدنى شفقة أو رحمة.

"ابتعدي أيتها الحقيرة!"

سقطت الأم أرضاً، تتلوى من ألم الدفعة التي تلقتها. نظرت إلى ابنها وعيناها تغرقان في بحر من الدموع.

"أرجوك يا غياث.. سيتأذى.. أرجوك ارحمه!"

توسلت الأم مرة أخرى، صوتها يُمزق القلب، لكن غياث لم يتزحزح عن موقفه.

"ابتعدي عن طريقي وإلا نلتِ ما ينالك أنتِ الأخرى!"

صرخ غياث في وجهها بحدة لا تُحتمل. وقفت الأم ببطء، وجسدها يرتجف من الخوف والغضب في آن واحد.

"حسناً.. اضربني أنا بدلاً عنه! فقط اتركه وشأنه!"

صرخت الأم بتحدٍ لم تعهده في حياتها من قبل. اقترب منها غياث بغضب جامح، وأمسكها من شعرها بقوة وانهمك في ضربها دون رحمة، بينما يجلس الطفل يرتجف في زاوية من زوايا الغرفة، عاجزاً عن فعل أي شيء سوى البكاء بصمت.

نهاية الفلاش باك

فتح إياد عينيه ببطء، في محاولة يائسة لإبعاد وحش الماضي الذي لا ينفك يطارده. مسح عرقاً بارداً يطلّ على جبينه، و أخذ نفساً عميقاً ليُهدئ من روعه. "لقد كان ذلك منذ زمن بعيد" قالها لنفسه بصوتٍ مُتعب حزين، محاولاً إقناع نفسه بأن تلك الذكريات لم تعد سوى مجرد أشباح لا قوة لها عليه الآن.

انتشل صوت مألوف إياد من غرقه في ظلمة الماضي. ليطل صديقه ينال واقفاً أمامه، علامات الاستفهام تتراقص على وجهه.

"إياد، أين ذهبت بأفكارك؟ أنا أحدثك منذ زمن!" قالها ينال بنبرة أظهرت قلقه على صديقه.

اعتدل إياد في جلسته، محاولاً بشق الأنفس أن يبدد سحابة الكآبة التي خيمت على ملامحه.

"لا شيء، لا شيء..." تمتم بصوت متعب، قبل أن يضيف محاولاً تغيير المسار "أخبرني، ما أخبار الصفقة؟"

أطلّت ابتسامة ارتياح على وجه ينال.

"لقد نجحنا! كل شيء سار كما خططنا."

لكن تلك الأخبار السارة لم تحرك ساكناً في ملامح إياد. "جيد،" همس ببرود وهو يلتقط قلمه ليدون ملاحظة عابرة على ورقة أمامه.

لم يفُت ينال تلك اللامبالاة في صوت صديقه.

"إياد، أنت لا تبدو بخير. هل أنت متأكد أن كل شيء على ما يرام؟"

ارتسمت على ثغر إياد ابتسامة باهتة أشبه بسخرية مُرّة.

"لا شيء يُذكر، صدقني."

زفر ينال بقلة حيلة، فقد اعتاد على غموض صديقه وانطوائه. رمقه بنظرة فحصت كل تفصيل دقيق في ملامحه، محاولاً أن يدرك سر ذلك الحزن الذي يخيم على عينيه، لكنه فشل كالعادة.

"هل ستمضي أمسيتك مع إحدى صديقاتك اليوم؟" سأل ينال بصوت خافت، يحمل نبرة ساخرة أراد منها أن تُخفف من حدة الجو.

التوى وجه إياد في عبوس، وانطلقت كلماته بنبرة منفعلة.

"ينال، أرجوك! أنت تعلم أنني لا أحب الحديث في هذا الموضوع. غيّر الموضوع لو سمحت."

تنهد ينال بضيق، فقد اعتاد على رفض صديقه لتدخله في حياته الشخصية. "أردت فقط أن أساعدك، صدقني. أنا أفعل ذلك من أجل مصلحتك."

"أنا أقدّر اهتمامك، لكنني لا أحتاج إلى مساعدة في هذا الشأن." قالها إياد بنبرة حازمة قطعت طريق النقاش بينهما.

أدرك ينال أن لا جدوى من مواصلة الحديث في هذا التوقيت. ألقى نظرة أخيرة على صديقه المتعب، ثم قال بصوت هادئ:

"كما تشاء. سأتركك الآن لترتب أفكارك. إلى اللقاء."

أومأ إياد برأسه مودعاً صديقه، الذي ما إن غادر المكتب حتى أرخى جسده على الكرسي مجدداً، وأغمض عينيه محاولاً عبثاً أن يجد سبيلاً للراحة والسكينة.

انحنت سلام على كومة من الأوراق، مُحاولةً إقناع نفسها بأنّ امتحان الغد يستحقّ بعضاً من تركيزها. لكنّ حروف كتبها تتراقص أمام عيونها كأوراق الشجر في عاصفةٍ هوجاء، تلك العاصفة التي أثارها في قلبها شابٌ أسمه "رائد". كان كافياً أن يتسلّل اسمه إلى أفكارها حتى ينسدل ستار الفوضى على عالمها الهادئ. لم تتذكّر كيف ولا متى زرع نفسه في أعماقها، كلّ ما تعلمه أنّه بات نجمها الوحيد في سماء مُظلمة.

التقطت هاتفها بقلبٍ ينبضُ بتوتّرٍ مُرهق، وحاولت الاتصال به. رنت النغمة مراراً وتكراراً لتصطدم في كلّ مرة بجدارٍ من الصمت المُحطّم. أعادت المحاولة مجدداً وعلى وجهها تلك الملامح البريئة التي تتوسّل ردّاً لا يأتي. مع كلّ محاولة فاشلة، كان غضبٌ كامن يتصاعد في صدرها كبركانٍ على وشك الانفجار.

سمعت سلام طرقاتٍ خفيفة على باب غرفتها، وأدركت في الحال أنّها جدّتها، ملجأها الوحيد في دنيا باتت مُظلمة من دون رائد. "تفضلي جدّتي،" قالتها بصوتٍ حاولت أن تُخفي فيه رعشة قلبها.

دخلت الجدة الغرفة ببطء، وعلى وجهها تلك الابتسامةُ الدافئة التي لطالما أَشْعرت سلام بالأمان. في يديها كوبٌ من العصير الطازج، تقدّمه لحفيدتها بحنانٍ مُفرط.

"حبيبتي، أعلم أنّكِ متوترةٌ من أجل امتحان الغد. لذلك فكّرت أنّ هذا العصير سيساعدكِ على الاسترخاء قليلاً."

تلقّت سلام الكوب من يد جدّتها، وابتسامةٌ خفيفة ترسمت على محياها.

"شكراً لكِ جدتي. أنتِ لا تنسينني أبداً."

نظرت لها الجدة بعينين مثقلتين بِخبرة السنين، فقد لاحظت أنّ حزن حفيدتها أعمق من مجرد قلق الامتحانات.

"سلام حبيبتي، ملامحكِ تُخبرني أنّ هناك ما يُقلقكِ أكثر من الامتحان. هل تريدين الحديث معي بِصراحة؟"

تردّدت سلام لحظةً صغيرة، ثمّ قالت بصوتٍ منخفض:

"لا شيء يا جدّتي. فقط بعضُ التوتّر من الدّراسة."

لم تقتنع الجدة بكلام حفيدتها، لكنّها فضّلت منحها بعضَ الوقت والخصوصية. رَبّتت على يدِها بحنانٍ قائلةً:

"سلام، تذكّري دائماً أنّني هنا من أجلك. إذا احتجتِ لأيّ شيء، لا تتردّدي في الحديث معي."

غادرت الجدة الغرفة بهدوء، لتُغلق الباب خلفها وتترك سلام وحيدة مع فوضى مشاعرها. ظلت سلام تنظر إلى باب غرفتها المُغلق وهي تُفكّر في كلام جدّتها. هل تُخبرها عن رائد وعن ذلك العشق الذي يُحرق قلبها؟ أم أنّ عليها أن تُواجه وحدها ذلك الصّمت المؤلم؟

أعادت النظر إلى كتبها وهي تتنهد بِثقل. "ربّما على رائد الانتظار،" همست بينها وبين نفسها، "فامتحان الغد أكثر إلحاحاً."

لكنّها أدركت، وهي تُحاول بِصعوبة التركيز في كلماتٍ بلا طعم ولا لون، أنّ قلوبَنا لا تعترف بقوانين المنطق ولا بمواعيد الامتحانات. فالحبّ عندما يقرّر الاستقرار في قلبٍ ما، فإنّه يُعلن نفسه حاكماً وحيداً، لا يعترف بِغيره سلطاناً.

تَغَوّلتْ الموسيقى الصاخبة على المكان، تَخترقُ الجدران وتُزاحمُ أصواتَ الضحكاتِ الثميلة ورنينَ الكؤوسِ المُتصادمة. عَبقٌ كريه من دخان السجائرِ يُسيطرُ على الأجواء، يُشكّلُ غيمةً كئيبة تُخفي خلفها وجوهاً باهتة تائهة

في متاهةِ الضياع. وفي زاويةٍ من زوايا تلك القاعةِ المُظلمة، جلست "سمر" تُحاول عبثاً أن تُخفي حزنها الدامس تحت قناعٍ من الضحكاتِ المُصطنعةِ وسحرٍ زائفٍ من جمالٍ ذابل.

أحاط بها أربعةُ رجالٍ، وجوههم تَشي بقسوةٍ مُرعبةٍ تُخفي خلفها نوايا خبيثة. كانت بينهم كَفريسةٍ تائهة تُحاول بشتّى الطرقِ أن تُرضي جلاديها. كؤوسُ الخمرِ تتراقصُ على طاولتهم، تروي عطشاً لا ينتهي للنّسيانِ والضياع.

اقترب منها "حسان"، رجلٌ في أوائل الأربعينيات، تَفوحُ منه رائحةُ الغدرِ والخداع. كانت ابتسامتهُ زيتيةً ناعمة كالحيةِ التي تُغازلُ فريستها قبل الفتكِ بها.

"سمر قلبي،" همس بصوتٍ أجشّ، "أريد أن أطلب منكِ خدمةً صغيرة."

ضحكت سمر ضحكةً مجوفة:

"عيوني لك يا حبيبي، اطلب ما تريد."

أَطلّت ابتسامةُ نصرٍ على وجه حسان، فقد علم أنّ الطُّعم قد وقع في الفخ.

"مئةُ ألف دولار،" قالها ببرودٍ وهو يُراقب تَغيّر ملامحها.

اتّسعت عينا سمر بِدَهشة، لم تصدّق أذنيها، ثمّ قالت بِصوتٍ يكاد يُخنقهُ الجشع: "مئةُ ألف دولار؟ لي أنا؟"

أومأ حسان برأسهِ مُجيباً بتلك الابتسامة المُريبة:

"لكِ أنتِ فقط، مقابل طلبٍ صغير."

تملّك الفضولُ من سمر، فسألته وهي تُحاول إخفاء الرّعشة التي اعترَت صوتها: "وما هو هذا الطّلب؟"

أَخذ حسان نَفَساً عميقاً من سيجارتهِ، وأطلق الدّخان في الهواء ليُشكّل غيمةً من الضبابِ تُحيطُ بِوجهه كأنّه يُريد إخفاء ملامحِ الشّرّ التي بدأت تتّضح رويداً رويداً.

"أريدُ رؤية ابنتك،" قالها حسان بصوتٍ هادئ بارد أشبه بصوتِ أفعى تستعدُّ للانقضاض.

تجمدّت ملامحُ سمر، وسقطت كلماتهُ على مسامعها كالصّاعقة. أحست بقشعريرةٍ باردةٍ تسري في أوصالها، ورعشة خوفٍ تَستولي على كيانها. ظلت صامتةً لِلحظات، تحاول استيعاب ما يدور حولها، ثمّ قالت وهي تُحاول بِصعوبةٍ التّماسك:

"ابنتي؟ لماذا تريد رؤية ابنتي؟"

ابتسم حسان بِسخريةٍ مُقيتة، وقال بصوتٍ أشبه بالفحيح:

"لا يُهمّكِ السببّ. يكفي أنّ هذا هو شرطي. أُريد رؤيتها فقط، ثمّ سأُغدقُ عليكِ بالأموال التي لن تحلمي بها طوال حياتك."

حاولت سمر الاعتراض، لكنّ كلماته تقطّعت على شفاهها كأنّها غُصّ يَخنقُها. لقد باتت محاصرةً بين جشعِها وحبّها لِابنتها.

"ولكن... ابنتي لا تحبّ هذه الأماكن، ولن توافق على المجيء إلى هنا." قالته وهي تُدرك أنّها تُصارع ريحاً لا تُقاوم.

"لا يُهمّ،" قال حسان ببرود، "هذه مشكلتكِ أنتِ. اجعليها تأتي بأيّ طريقةٍ كانت، ولن أُغادر هذا المكان إلا وبرفقتي ابنتكِ ومبلغكِ كاملاً."

أدركت سمر أنّها لا تملك رفاهيةَ الاختيار، فقد أوقعها حسان في فخّهِ المُحكم. أطرقت برأسها وهي تُردّد بصوتٍ مُنكسِر:

"سأحاول.. سأحاول أن أُقنعها."

ابتسم حسان ابتسامةً واسعةً، وامتدت يدُه تُربّتُ على يد سمر في إيحاءٍ وقحٍ أمام أنظار رفاقه. قهقهت سمر بِدلالٍ مُصطنع، ثمّ نهضتْ تتمايلُ أمامه كأنّها تستمدّ ثقتها من نظراتهِ الجائعة. توجهت نحو غرفة ابنتها "حياة" بخُطواتٍ ثقيلة، تُخفي خلف قناعِ الجرأةِ بركاناً من الترددِ والخوف.

طرقت سمر باب الغرفة بِخفّة، وتناهى إلى مسامعها صوت ابنتها من الداخل: "من هناك؟"

زفرت سمر هواءها بِضيق وهي تُردّد:

"أنا يا حياة، افتحي الباب."

ما إن سمعت حياة صوت والدتها حتى اطمأنّ قلبها، وسارعت تُزيل مزلاج الباب. دخلت سمر الغرفة وأغلقت الباب خلفها بِحركةٍ سريعة وهي تُلقي على ابنتها بِأمرٍ مُفاجئ:

"حياة، ارتدي أجمل ما لديكِ وتعالي معي. هناك رجلٌ يريد التعرّف عليكِ."

تجمدّت ملامح حياة من الصدمة، واتّسعت عيناها بِذعرٍ وهي تَحدّقُ بِوالدتها بِذهول.

"أمي، ماذا تقولين؟ أرجوكِ، أنتِ تعلمين أنّني لا أحبّ هذه الأجواء. دعيني وشأني."

اعترض صوت سمر نبرةٌ من الغضب والضيق،

"حياة، لا تُثيري غضبي واتركي هذه التصرفات الطّفولية! أقول لكِ هناك رجلٌ يريد رؤيتك، وهذا أمرٌ لا يناقش. لن يَحدُث لكِ أيّ مَكروه، كلّ ما عليكِ فعله هو الذهاب ومُصافحته والجلوس معنا لِبضع دقائق، ثمّ لكِ مطلق الحرّية في العودة إلى هنا."

هزّت حياة رأسها بِرّفضٍ قاطع، وخطفت أنفاسها بِصعوبةٍ بين الكلمات:

"لا، أرفض. لن أفعل ذلك. أرجوكِ يا أمي، لا تُجبريني."

بلغ غضبُ سمر مداهُ عند سماع كلمات ابنتها الحازمة، فانفجرت في وجهها بِصوتٍ مُرعب:

"يا للعنة! لماذا أنتِ عنيدةٌ هكذا؟ ألم تَفهمي بعد؟ أقسم لكِ إن لم تُطيعي أوامري هذه المرة، فسأترك ذلك الرجل يَدخل إليكِ بنفسه، وعندها لن أستطيع حمايتك!"

انهارت حياة بِالبكاء، فقد أيقنت أنّ لا فائدة من مُقاومة جبروت أمّها. لم تكن تلك الحياة التي حلمت بها، ولكن ما الذي بِوسعها فعله؟ تركت دموعها تَنسابُ على خديها بِحريرةٍ، ثمّ نهضتْ بِخُطى ثقيلة لتُنفّذ أوامر والدتها المُرّة. اختارت فستاناً بسيطاً يُغطّي جسدها النّحيل، وخرجتْ من غرفتها و قلبُها يَرتجفُ بين ضُلوعِها كَطائرٍ محبوسٍ في قفص.

ما إن ظهرت حياة في القاعة المُزدحمة حتى ساد الصمت لحظاتٍ قليلة، تلاها همهماتٌ منخفضةٌ ونظراتٌ فحصت جسدها بِوَقاحةٍ مُقيتة. تَحوّلت تلك الوجوهُ القاسية إلى ذئابٍ جائعة، تَتَلَهّفُ لِافتراس براءةِ تلك الفتاةِ التي وُضِعَتْ قُرباناً لِشهواتهم المَريضة.

نهض حسان من مكانهِ ببُطءٍ ، واقترب منها بخطواتٍ ثابتة كأنّه يَخطو فوق أحلامها المُحطّمة. ابتسم بمَكرٍ قائلاً:

"هيا عزيزتي، لا تَخجلي وتعالي اجلسي بِجانبي. لن أُؤذيكِ."

لم تَستَطع حياة رفع عينيها للنظر إلى ذلك الوجهِ المُقزّز، وظلّت تُحدّقُ في الأرض كأنّها تَبحثُ عن مَلاذٍ آمنٍ بين ثنايا السّجادة. اقتربت بِخُطواتٍ متردّدة وجلست على حافةِ الأريكة بِحياء، تحاول بِشتّى الطرقِ إخفاء ارتجاف جسدها الصغير.

"ما اسمكِ يا جميلة؟" سأل حسان بِصوتٍ أجشّ.

ابتلعت حياة ريقها بِصعوبة، وشعرت بِغصّةٍ مؤلمةٍ تَعتَصرُ حنجرتها، لكنّها أجبرت نفسها على الكلام بِصوتٍ مُتقطّع يكاد يُسمع:

"حياة..."

ابتسم حسان بِإعجابٍ مُزيف:

"اسمٌ جميلٌ كجمالك، يا حياة."

أطرقت حياة برأسها أكثر، ولم تُعقّب على كلامه. كانت كلّ حواسكِها في حالةِ تأهّبٍ أمام ذلك الواقع المُرعب الذي وَجدت نفسها غارقةً فيه رُغماً عنها. كانت تُمنّي النفس بِأنْ تَمُرّ تلك اللّيلة بِسلام، وأن تستيقظ من ذلك الكابوس الذي يُهدّد براءةَ روحها.

فجأة، تَحطّم صمتُها المُطبق على صوت أحد رفاق حسان وهو يُوجّه حديثه إلى سمر بِسخريةٍ لاذعة:

"يبدو أنّ ابنتكِ ما زالت غريبةً عن هذه الأجواء، أليس كذلك يا سمر؟"

ضحكت سمر بِصوتٍ عالٍ فاضح، وقالت وهي تُلقي نظرةً خاطفة على ابنتها المُتشنّجة:

"أجل، ما زالت صغيرةً على هذه الأمور. لكنّها ستتعلم مع الوقت، أليس كذلك يا عزيزتي؟"

ردّ عليها الرجل بِضحكةٍ خبيثة:

"لا تَقلقي، سَنُساعدها نحنُ على التّعلم بِسرعة."

تَسارعت دقّات قلب حياة، وأدركت أنّ عليها الخروج من ذلك المأزق بِأسرع وقتٍ ممكن. انتفضت من مكانها فجأة، وصرخت بِوجهِ حسان الذي حاول الإمساك بِيدها بِجُرأةٍ مُقزّزة:

"ابتعد عنّي! أنتَ مُقزّز!"

لم يَعُد بِوسعِ حياة التّحمّل أكثر من ذلك. ركضت نحو غرفتها بِكلّ ما أوتِيَت من قوة، أغلقت الباب خلفها بِقوة، وانهمرت دموعها بِحرارةٍ أمام ذلك العجز الذي يُقيّدها ويَحُول بينها وبين الحرّية.

2

كان غارقاً في أوراق العمل، وكأنه يحاول أن يُخفي نفسه وراء تلك الأرقام والصفقات.

فجأةً، انفتح الباب بهدوء، لتدخل سكرتيرته الشخصية، بقوامها الرقيق وابتسامتها الهادئة.

"سيدي إياد، هناك رجل يُدعى حسان رابح يريد مقابلتك. يبدو أنه هنا بشأن صفقة الإسمنت." قالتها بنبرة رسمية تحترم جدية العمل التي يُفضلها رئيسها.

رفع إياد رأسه ببطء، ونظر إليها مجيباً "أدخليه على الفور." قالها بصوت هادئ لكنه يحمل في طياته نبرة حزم لا تُقبل الرفض.

أومأت وخرجت لتدخل الضيف. دخل حسان بخطوات واثقة، وكأنه يمتلك العالم بأسره. كان رجلاً في منتصف العمر، ذو بنية قوية ونظرة ثاقبة توحي بالذكاء والدهاء.

تبادل الرجلان التحية برسمية واضحة، وجلس حسان على الكرسي المقابل لمكتب إياد.

"سعيد بلقائك سيد إياد، أتمنى أن تكون بأفضل حال." قالها حسان بصوت عميق يحمل نبرة اللباقة والدبلوماسية.

رد إياد ببرود، وكأنه لا يريد إضاعة الوقت في المجاملات.

"بخير، شكراً لك. إذاً، أعتقد أنك هنا بشأن صفقة الإسمنت، أليس كذلك؟"

ابتسم حسان بخفة، وكأنه كان ينتظر هذه اللحظة.

"في الحقيقة، لقد جئت لأمر آخر تماماً..."

تعجب إياد ليقول:

"قل ما لديك يا حسان، ما الذي يجول في خاطرك؟"

تنهد حسان بعمق قبل أن يُجيبه:

"أريد أن أدعوك لسهرة مميزة هذه الليلة، سهرة تليق بمكانتك يا صديقي. ما رأيك أن تُشرّفني بمرافقتك؟"

رفع إياد إحدى حاجبيه بفضول وهو يُحدّق بحسان بترقب:

"سهرة مميزة؟ وأين ستكون هذه السهرة؟"

ارتسمت على وجه حسان ابتسامة مُلتبسة وهو يُجيب:

"في منزل امرأة أعرفها، امرأة فائقة الجمال وتتمتع بسحر خاص. لديها في منزلها كنز ثمين، كنز أعتقد أنك ستُسَرّ برؤيته."

رفع إياد حاجبيه مجدداً، وقد ازداد فضوله لمعرفة ما يُخفيه حسان:

"كنز ثمين؟ لم أفهم، ماذا تقصد؟"

ضحك حسان بخبث:

"لا تتعجل يا صديقي، كل شيء سيتّضح في وقته. ثق بي، لن تندم على مرافقتي. ستكون سهرة لا تُنسى، ستغير من مزاجك الذي يبدو عليه التعكر."

أومأ إياد برأسه موافقاً، فقد أيقن أن حسان يُخفي عنه أمراً ما، وأنه مُصمم على اكتشافه:

"حسناً، سأُرافقك. متى سنلتقي؟"

"في تمام العاشرة والنصف، سأكون في انتظارك"، أجاب حسان بحماس وهو ينهض من مكانه. "من دواعي سروري أنك قبلت دعوتي، إلى اللقاء."

صافح حسان صديقه وغادر المكان بثقة، تاركاً إياد يغرق في أفكاره مجدداً. تساءل إياد عمّا ينتظره في تلك السهرة الغامضة، وما هو ذلك الكنز الثمين الذي تحدّث عنه حسان؟

**

ما إن اختفى حسان وراء أبواب الشركة الزجاجية العملاقة، حتى انفرجت أسارير وجهه في ابتسامة ماكرة، كأنه عنكبوت نسج خيوطه بإحكام في انتظار وقوع فريسته. لقد أتقن دوره ببراعة، واستطاع أن يخدع إياد بكلماته المنمقة ووعوده البراقة.

أخرج حسان هاتفه بسرعة، وكأنه لا يستطيع الانتظار حتى يُخبر شريكته في الجريمة بنجاح خطته. ضغط على زر الاتصال، وانتظر بفارغ الصبر سماع صوتها.

"حبيبي، اشتقت إليك." تسلل صوت سمر إلى مسامعه، فأشعل في قلبه نيران التشفّي والرغبة في الانتقام.

"أوه، لا تُدركين كم أشتاق إليكِ أنا أيضاً." قالها حسان بصوت منمق، يُخفي وراءه حقداً أسود يتأجج في صدره. "اسمعيني جيداً، أريدكِ أن تُحضّري لسهرة لا تُنسى الليلة، سيكون لدينا ضيف هام جداً، يجب أن نُبهره بكل شيء."

ارتفعت نبرة الحماس في صوت سمر.

"أمرك حبيبي، لا تقلق، سيكون كل شيء جاهزاً."

أضاف حسان بصوت منخفض، وكأنه يسرّ لها بسر خطير:

"أريد من حياة أن تكون حاضرة أيضاً الليلة، أعتقد أنها ستكون مفاجأة سارة لضيفنا العزيز."

ضحكت سمر بدلال، وكأنها تُدرك تماماً ما يدور في خلده.

"كما تريد حبيبي، لا تقلق، سأدعوها لتجلس معنا الليلة."

أغلق حسان الخط، وارتسمت على وجهه ابتسامة منتصرة. لقد أحكم فخ الشبكة حول إياد، وسيصل لمصالحه بأقرب وقت.

في ركن هادئ من حديقة الجامعة، كانت حياة تُحاول أن تُخفي وراء صفحات كتابها نظرات الشفقة والازدراء التي تُلاحقها كظلها. كانت جميلة كفراشة هشة تُحاول النجاة من عاصفة هوجاء، لكن ذلك الجمال كان سلاحاً ذو حدين، فقد جذب إليها أنظاراً لم تَحمِل لها سوى الأذى والاحتقار.

مرت من أمامها فتاتان، وكأنهما تتعمدان أن تُسمعاها كلامهما الجارح.

"انظري إلى هذه الفتاة، يا لها من بائسة! تُرى كم تُساوي كرامتها في قاموسها هي ووالدتها؟" همست إحداهما بسخرية لاذعة.

أضافت الأخرى بصوت منخفض لكنه كان واضحاً كالشمس:

"أقسم بأنها قد أصبحت مثل والدتها، من يُصدق أن فتاة تَربت في مثل هذه البيئة ستكون بريئة!"

لم تستطِع حياة أن تُحجّم دموعها التي انهمرت على وجنتيها كسيل عرِم طريقاً. أغلقت كتابها بقوة، ونهضت من مكانها بخطوات متعثرة، وكأنها تَحمِل على كتفيها أثقال العالم بأسره.

وصلت إلى منزلها وهي في حال لا تُحسد عليها، تجرّ خلفها ذيول الحزن والانكسار. دخلت غرفتها بصمت، وأغلقت الباب على نفسها وكأنها تُريد أن تختفي من هذا العالم القاسي.

لحقت بها والدتها سمر بعد قليل، وكانت ملامح الدهشة ترسم على وجهها المتجهم.

"ما بكِ يا حياة؟ لماذا تَبكين؟"

انفجرت حياة في وجه والدتها بصراخ يمزق نياط القلب:

"كله بسببكِ أنتِ! أنتِ السبب في كل شيء! ليتكِ لم تكوني والدتي أبداً!"

صرخت حياة بكلمات كانت كحراب تغرز في قلب سمر.

تجمّدت سمر مكانها، وكأن صاعقة أصابتها. لم تعتد أن تسمع مثل هذا الكلام من ابنتها، هي التي لطالما سيطرت عليها بالترهيب والوعيد. لكن النظرة التي رأتها في عيون حياة في تلك اللحظة أفزعتها، كانت نظرة يأس وامتعاض، نظرة من وصلت إلى حافة الهاوية ولم يعد لديها ما تخسره.

"ماذا تقولين أيتها الغبية؟" هدرت سمر بصوت مرتجف من شدة الغضب. "ألا تخجلين من نفسك؟ أنا أؤمّن لك كل ما تحتاجينه، أنفق عليك أموالاً لا تحلمين بها، وأخيراً هكذا تكافئينني؟"

هزت حياة رأسها بسخرية مرّة.

"أموال؟ وما نفع الأموال عندما تُباع بها الكرامة والشرف؟" قالتها وكلماتها تقطر سمّاً:

"أنتِ لا تدركين شيئاً يا أمي، أنتِ غارقة في عالمك المظلم، لا يهمك سوى المال والسلطة، حتى أنكِ لستِ مبالية بسمعتك أمام الناس."

لم تستطع سمر أن تحجم يدها هذه المرة، فهوت على وجه حياة بصفعة مدوية أطرقت لها رأسها إلى الخلف.

لكن حياة لم تبدِ أي ردّة فعل. لم تعد تشعر بالألم الجسدي، فقد اعتادت عليه. كانت نظراتها فارغة كأنها تحدّق في الفراغ.

"لا بأس، اضربي كما تشائين." قالتها بصوت مبحوح. "أنتِ هكذا دائماً، عندما تعجزين عن الرد تلجئين إلى الضرب والإهانة."

كانت كلمات حياة بمثابة ريح باردة لم تحرّك ساكناً في قلب تلك الأم التي قست على فلذة كبدها. مسحت حياة دموعها بظهر يدها بيأس وهي تتجه نحو فراشها الصغير، تبحث بين طياته عن شيء من الأمان والحنان الذي حُرمت منه.

اقتربت سمر من ابنتها ووقفت أمامها بكبرياء مصطنع، وهي تشير إليها بإصبعها بأمر:

"اسمعي جيداً، سيحضر ضيف هام إلى هنا بعد قليل، وعليك أن تهتمي بمظهرك جيداً وتخرجي أمامه بأحسن حُلّة. أريدك أن تكوني في أجمل صورة لترضيه. هل فهمتِ؟ وإلا فأنت تعلمين جيداً ما ينتظركِ."

توقفت سمر للحظات قليلة قبل أن تُكمل حديثها بنبرة حادة أشبه بفحيح الأفعى:

"لا يهمني ما حدث معك من قبل، ولا يهمني سوى أن تنفّذي أوامري بحذافيرها. انهضي الآن وأسرعي بترتيب نفسك، فلا وقت لدي لإضاعته."

انتهت كلمات سمر القاسية لتغلق الباب خلفها بقوة أفزعت حياة. ظلت الفتاة جالسة مكانها بصمت مريب، تُحدّق في الفراغ بنظرات خالية من أي أمل. كانت تدرك جيداً أنه لا مفر لها من طاعة أوامر والدتها، فقد تجرّعت مرارة العصيان من قبل. تنهدت حياة بيأس وهي تنهض من مكانها بخطوات ثقيلة، متّجهة نحو الحمام لتغتسل بماء بارد لعله يخمد نار الخوف التي تأكل قلبها.

خيم الصمت على المكان بينما توالى وصول الرجال إلى منزل سمر كعادتهم كل يوم. إلا أن حسان، رفيقهم المتأخر كعادته، كان برفقته هذه المرة ضيفٌ مميز. ما إن دقّ جرس الباب معلناً وصوله، حتى نهضت سمر لترحب بهما. وقفت أمام المرآة للحظات تعدل من هندامها، ورسمت ابتسامة مصطنعة على وجهها قبل أن تفتح الباب.

"مساء الخير"، نطقتها سمر بصوتٍ ناعم، بينما انعكست ابتسامتها على وجه حسان الذي دخل متبوعاً بصديقه. كان إياد، ذلك الضيف الذي طالما حدثها عنه حسان، يتفحص المكان بنظراته الثاقبة التي لم تخفَ شخصيته المهيبة. رجلٌ بقامةٍ فارعة، ونظرةٍ تحمل في طياتها ثقةً لا تخطئها عين. ارتسمت على وجهه ابتسامة باردة وهو يُلقي التحية على سمر، ليُلقي بعدها نظرة فاحصة على تلك المرأة التي وقفت أمامهم، عارضاً جمالاً مصطنعاً لا يخفي وراءه سوى قصةٍ من الحزن والضياع.

"أعرفكِ يا سمر بهذا السيد الوجيه، إياد معين، أشهرُ رجال الأعمال في الشرق الأوسط"، قالها حسان بفخرٍ وهو يُشير بيده نحو صديقه.

"تشرفنا يا سيد إياد"، تمتمت بها سمر وهي تُحاول إخفاء ارتباكها تحت قناعٍ من الثقة. بينما أومأ إياد برأسه مُكتفياً بابتسامةٍ خفيفةٍ لم تُغادر شفتيه.

عَمّ الصمت أرجاءَ المكان للحظاتٍ قليلة، قبل أن يُقرر حسان كسر ذلك الصمت المُريب قائلاً:

"أين ابنتكِ يا سمر؟"

"إنها في غرفتها، سأناديها الآن"، أجابت سمر بنبرةٍ هادئة، قبل أن تَنصرف إلى غرفة ابنتها.

اقترب حسان من إياد ليُهمس له قائلاً:

"أريدك أن تُخبرني برأيك بهديتي التي ستأتي الآن، لقد دَلَلتُك عليها يا صديقي، والباقي عليك."

نظر له إياد بحاجبٍ مرفوع، فقد أدرك مقصده من تلك النظرة. رمقه بإيماءةٍ مُقتضبة، وهو يُخفي خلف ملامحه الجادة فضولاً مُلحاً لِرؤية تلك الفتاة التي تحدّث عنها صديقه كثيراً.

على صعيدٍ آخر، دخلت سمر غرفة ابنتها لتجدها ما زالت على حالها، غارقةً في عالمها الخاص. تَجهم وجه سمر وهي تصرخ بابنتها:

"ألم تُغيري ملابسكِ بعد؟ ألا تعلمين أن لدينا ضيوفاً في الخارج؟"

"لن أخرج، دَعيني وشأني"، أجابت حياة بنبرةٍ باردة تحمل في طياتها الكثير من التمرد.

"هيا أيتها اللعينة، لا وقت لدينا للعب، قومي وجهزي نفسكِ"، قالتها سمر بغضبٍ وهي تُحاول جذب ابنتها من يدها.

"لن أفعل، اترُكيني"، صرخت حياة وهي تُقاوم محاولات والدتها لإجبارها على الخروج.

"حسناً إذاً، سأدعُ السيد حسان ليدخل بنفسه ويُخرجكِ، وعندها لن تَستطيعي منعَه. بل ربما لا تَخرجي من هنا أبداً، وعندها سأستمتع بسماع صراخكِ ونحيبكِ"، هددت سمر ابنتها بصوتٍ حازم.

تجمدت حياة مكانها للحظات، كأن كلام والدتها كان بمثابة سياطٍ من لهيب على جسدها الهزيل. انتفضت من مكانها، وارتسم الرعب على ملامحها البريئة. أمسكت بيد والدتها برعشةٍ خفيفة وهي تتوسل لها بصوتٍ مرتجف:

"لا، لا أرجوكِ أمي، لا تفعلي ذلك، أخاف منه."

تنهدت سمر بقوةٍ وهي تُحاول إخفاء قسوة قلبها تحت قناعٍ من البرود:

"حسناً، سأعطيكِ فرصةً أخيرة، لكن إياكِ أن تُغضبي ضيوفنا. ارتدي ملابسكِ واخرجي خلال خمس دقائق، وإلا فَـ أنتِ تعلمين ما ينتظركِ."

انسحبت سمر من الغرفة تاركةً وراءها حياة غارقةً في دوامةٍ من الخوف والحزن. انهارت على فراشها وهي تشعر بقلبها يتمزق من البكاء. لم يسبق لها أن شعرت بهذا القدر من العجز والضياع. أطاعت أوامر والدتها رغماً عنها، فقد تعلمت من تجاربها السابقة أن عصيانها لن يُجدي نفعاً، بل سيزيد من عذابها.

في الغرفة المجاورة، كان إياد يُراقب الموقف بصمتٍ مريب، بينما تخترق نظراته الحادة أستار الغرفة ليصل إلى تلك الفريسة الجديدة التي تنتظره. كان فضوله يتأجج مع كل لحظة تمر، بينما يستعد لإضافة اسمٍ جديدٍ إلى قائمة ضحاياه.

ما هي إلا لحظات حتى ظهرت حياة من جديد، وكأنها شبحٌ هزيلٌ يتحرك بخوفٍ في أرجاء المكان. كانت مُخفِضةً لرأسها، تُخفي دموعها المنسابة خلف ستارٍ من خصلات شعرها البني الطويل. تقدمت منهم بخطواتٍ مترددة، رافضةً أن تُلقي التحية، وكأنها تُعلن صمتاً احتجاجاً على ذلك القدر الذي يُجبِرها على العيش فيه.

جَحَظت عينا إياد وهو يرى تلك الفتاة لأول مرة. كانت تتمتع بجمالٍ هائل لا يمكن إنكاره، جمالٌ طبيعي عذري لا يشوبه زيفٌ ولا تصنع. أحسّ بدقات قلبه تتسارع وهو يُدرك أنها ستكون صيداً سهلاً لغرائزه.

"تفضلي يا حياة، اقتربي واجلسي هنا"، قالها حسان وهو يُشير إلى المكان الخالي بجانبه.

رفعت حياة رأسها ببطءٍ لتنظر إلى حسان بنظرةٍ خاليةٍ من أي أمل، نظرةٌ كشفت عمّا تختلج به نفسُها من حزنٍ ويأس. سقطت دمعةٌ حارقةٌ من عينها على خدها، فبادرت بمسحها بسرعةٍ قبل أن يُلاحظها أحد.

"أُريد أن أَجلس مع حياة بمفردنا"، قالها إياد بصوتٍ حاسم وهو يُوجه نظره إلى سمر التي كانت تُراقب المشهد بصمت.

تملّك الغضب سمر لِلحظات، إلا أنها أخفت ذلك الغضب خلف قناعٍ من اللامبالاة وهي تُجيب:

"هي لك كما تشاء، افعل ما يحلو لك"، نطقت بها سمر بسخرية لاذعة، وهي تراقب إياد بنظرات ماكرة. كانت تعلم جيداً ما ينتظر ابنتها، إلا أن قلبها الذي قَسَتْه سنواتٌ من الضياع لم يعد يحمل في طياته سوى البرود واللامبالاة.

نهض إياد من مكانه بثقة مفرطة، متجهاً نحو حياة التي كانت تُحاول جَاهدةً إخفاء رعشتها التي بدأت تستبدّ بجسدها النحيل. جلس بجانبها وهو يُحدّق بها بنظرات ثاقبة كأنها تخترق حُجب ملابسها لتصل إلى أعماق روحها الهزيلة. ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تُحاول الابتعاد عنه بقدر الإمكان، لكن دون جدوى، فقد حاصرها بوجوده الطاغي الذي يملأ أرجاء المكان.

مرر إياد يده ببطء على وجنتها في لمسة مقززة أشعرتها بالقشعريرة، وهمس في أذنها بصوتٍ أشبه بفحيح الأفعى:

"ما رأيكِ أن ننتقل إلى غرفتكِ، هناك يمكننا التحدث بحرية أكبر؟"

نظرت إليه حياة بخوف وهي تنفض يده عنها بقوة غير متوقعة، وكأنها تستمد قوتها من ذلك الخوف الذي يعصر قلبها الصغير.

"لا... لا أريد." تمتمت بها بصوتٍ مرتجف، محاولةً أن تُظهر له بعضاً من تلك الصلابة التي لا تشعر بها أبداً.

زفر إياد بضيق وهو يُحاول السيطرة على غضبه الذي بدأ يتفاقم، فلم يعتد على مقاومة فرائسه له.

"لا تُتعِبيني أيتها الصغيرة، فأنتِ لا تعرفين مع من تتعاملين"، قالها بنبرة حادة تحمل في طياتها تهديداً واضحاً.

ترددت حياة للحظات، بينما راحت عيناها تتأملان الفراغ ببحثٍ مستميتٍ عن طوقِ نجاةٍ من ذلك المأزق. هزّت رأسها نفياً بخوفٍ وهي تُتمتم بصوتٍ يشبه الهمس:

"لا... لا أريد."

اقترب إياد منها أكثر وهو يُحاول طمأنتها بكلماتٍ زائفة:

"لا تخافي يا صغيرة، لن أؤذيك." كانت نبرته هادئة مُخادعة، تحمل في طياتها تهديداً مستتراً لم تدركه حياة بسذاجتها.

وما إن امتدت يدُه الخشنة لتلمس جسدها بطريقةٍ مقززة، حتى انتفضت حياة واقفةً تقاوم بكل ما أوتيت من قوة. صفعت وجهه بكفٍّ صغيرة أحدثت صوتاً مدوياً في أرجاء الغرفة، وهي تصيح بوجهه:

"أيها اللعين! لا تلمسني."

تجمد الجميع مكانهم من فرط الصدمة، وكأنما أصابهم الصاعقة. لم يتوقع أحدٌ أن تتجرأ تلك الفتاة على مقاومة إياد معين، ذلك الرجل الذي تُهابُه قلوب الرجال قبل النساء. أما هو، فقد اشتعلت نيران غضبه الجامح، وتحولت ملامحه إلى قناعٍ مرعبٍ يقطر شراً. تقدم منها بخطواتٍ ثابتة وكأنه وحشٌ كاسر يستعد للانقضاض على فريسته.

3

تساقطت خصلات شعر "سلام" على وجهها وهي تتقلب على سريرها، تحاول عبثاً طرد مشاعر الضيق والملل التي تخنقها. كانت أفكارها مشدودة نحو "رائد" كخيوط رفيعة يتلاعب بها الهواء كيفما يشاء. لم تعد تفهم طبيعة علاقتهما الملتبسة، ولا تلك التصرفات الغريبة التي يُغدقها عليها بين المد والجزر.

حاولت الاتصال به مراراً وتكراراً، لكن صوت رنين هاتفه كان يصطدم في كل مرة بجدار من الصمت المحبط. وفي لحظة بدت فيها كمن فقد الأمل، صدح صوت رنين هاتفها هو الآخر، فانتفضت من مكانها كمن مسّها طيف، واندفعت نحو الهاتف تلتقطه بلهفة غريق تعلق بقشة.

لكن خيبة أمل جديدة انتظرتها على الطرف الآخر، فلم يكن سوى صوت صديقتها المزعجة يقتحم عليها عالمها الخاص. أغلقت "سلام" الخط بوجهها بحركة عصبية، وشعرت بحنق يتصاعد في صدرها كأنها بركان على وشك الانفجار.

قررت الخروج من غرفتها للبحث عن بعض السلوى في حضن جدتها الحنون، لكنها وجدتها غارقة في نوم عميق. تنهدت بحزن، وتوجهت نحو المطبخ لإعداد فنجان من القهوة الساخنة، علّها تجد في رائحته النفاذة بعض السكينة.

عادت إلى غرفتها وهي تحتسي فنجان قهوتها بحذر، تحاول أن تُسكن من روعة قلبها الذي لا يهدأ. التقطت هاتفها مجدداً، وقلبت فيه بملل، لكن مفاجأة صغيرة انتظرتها هناك: ست مكالمات فائتة من "رائد"!

حدقت "سلام" في شاشة الهاتف بذهول، لا تصدق ما تراه عيونها. كيف لها أن تُفوّت كل هذه المكالمات؟ وفجأة، كأنها تذكرت شيئاً مهماً، اندفعت تعيد الاتصال به بلهفة شديدة.

"رائد؟ أين أنت؟ لماذا لم تجبني عندما اتصلت بك؟" قالتها "سلام" بصوت متقطع يكاد يخنقها التوتر.

"سلام؟" جاء صوت "رائد" على الطرف الآخر بارداً،

"وماذا يهم ذلك الآن؟ لقد مللت من محاولاتي للتواصل معك، يبدو أنك مشغولة عني جداً."

ابتلعت "سلام" ريقها بصعوبة، وأحست بخيبة أمل مريرة تتسلل إلى قلبها.

"لا يا رائد، أنت تظلمني! كنت بجانب جدتي، لم أسمع رنين الهاتف، أقسم لك!"

"أوه، حقاً؟" قالها "رائد" بسخرية،

"وهل تخبرينني الآن أنك تفكرين بي في كل لحظةٍ وأنكِ اشتقتِ إلي للغاية؟"

احمرّ وجه "سلام" خجلاً، وانطلقت كلماتها عفويةً لا تخلو من بعض الدلال: "بالطبع اشتقتُ إليك، جداً جداً..."

"حسناً، إذن أُرِيدُ رؤيتكِ غداً," قال "رائد" بصوتٍ أكثر جدّية،

"أُرِيدُ التأكّد من مشاعركِ هذه."

"بكل سرور," قالتها "سلام" وقلبها يرقص فرحاً،

"ولكنْ أينَ سنلتقي؟"

"في بيتي بالطبع," أجابها "رائد" ببُطءٍ مريب،

"أينَ سنلتقي غيرَ ذلك؟"

تجمّدت ملامح "سلام" من الصدمة، وانعقد لسانها عن الكلام.

"بيتك؟ لا أعتقدُ أنّ هذهِ فكرةً جيّدة، رائد. لماذا لا نَلتقي في مكانٍ عام أفضل؟"

ساد صمتٌ قصير على الطّرف الآخر، تلاه انفجارٌ مُفاجئ من الغضب المُصطنع: "ماذا تَقصدين يا "سلام"؟ هل تُشكّكينَ بي؟ هل هذه هي ثِقتُكِ بي بعدَ كل هذا الحُبّ؟"

"لا يا رائد، أرجوكَ أنتَ تُسيء الفهم! أنا فقط..." لم تَستَطع "سلام" إكمال جملتها، فقد أغلق "رائد" الخطّ في وجهها بِحدة.

أطرقت "سلام" برأسها حزناً وخيبةَ أمل، وتحوّلت قهوتها السّاخنةُ إلى بُحيرةٍ من الدموعِ المُرّة التي لم تَستطع كبتها. كيف لها أن تُفسّر له أنّها ليست كغيرها من الفتيات؟ أنّها تربت على مبادئَ وقيمٍ تمنعُها من الذّهاب إلى بيت شابٍ وحدها، حتى وإن كان هو حبيبها؟

أيقنت "سلام" في تلك اللّحظة أنّها غارقةٌ في مُستنقعٍ من العلاقاتِ المُستحيلة، وأنّ قلبها الذي اختار "رائد" لِيَسكُنَه، قد خانها هذهِ المرّة.

اتخذ إياد خطوةً واحدةً نحو حياة، كأنها خطوةُ نمرٍ يهبطُ من جبلٍ عتيد. بجمود صخرةٍ صماء وبرود فولاذٍ مسنن، وقف أمامها ينظر إليها بعينين تحترقان بشرارة غضبٍ مكبوت. كانت نظرتها تتحداه، تثير فيه نيراناً خفية لم تعهدها من قبل. ابتسم بسخرية لاذعة، ابتسامةٌ لم تتجاوز حدود أنفه، كأنه يستهزئ بجرأتها الطفولية.

"من تكون هذه الفتاة حتى تتجرأ على مواجهة "إياد"؟" تساءل في سره، وروحه تغلي كحِممٍ بركانية تبحث عن منفذٍ للانفجار. لقد عُرف دائماً بشخصيته الفولاذية التي لا تلين، وقوته التي لا تهاب شيئاً. ولكن هذه المرة، كان هناك شيءٌ مختلف، شيءٌ أيقظ في دواخله وحشاً نائماً كان ينتظر اللحظة المناسبة لينقضّ.

ظل "إياد" واقفاً مكانه بجمود تمثال، لا تغادر عيناه عيني "حياة" اللتين كانتا ترمقانِه بتحدٍ وخوفٍ في آنٍ واحد. توقعت "حياة" أن ينهال عليها بصفعةٍ مدوّية تسكت صوت جُرأتها وتشل يدها، أو أن ينفجر في وجهها بوابلٍ من الشتائم والصراخ. ولكن "إياد" لم يفعل، وإنما ظل صامتاً كأنه في حالة صدمةٍ مفاجئة، وكأن كلماتها وصفعتها له قد حولته إلى قطعة حجرٍ باردة لا حياة فيها.

وفي تلك اللحظة الفارقة، أدركت "حياة" أن "إياد" ليس كغيره من الرجال الذين اعتادت عليهم في عالمها المظلم. لقد صرخت في وجه "حسان" من قبل، فتلقّت صمتاً مريباً أشبه بهدوءٍ يسبق عاصفةً هوجاء. أما "إياد"، فقد كان رد فعله مختلفاً، مخيفاً، محيراً. لقد رأت في عينيه ما هو أشدّ فتلاً من الضرب والإهانة، لقد رأت في عينيه عاصفةً من الغضب البارد الذي يبشّر بانتقامٍ مرعب.

تنفست "حياة" الصعداء عندما رأت "إياد" يستدير مبتعداً عنها دون أن ينطق بحرفٍ واحد، تاركاً خلفه أجواءً مشحونةً بالتوتر والترقب. سارعت بالدخول إلى غرفتها، لا تلقي بالاً لتلك النظرات المستغربة التي لاحقتها من قِبل الحضور. لقد نجت هذه المرة، ولكنها أدركت أنها قد أيقظت وحشاً نائماً، وأن عليها الاستعداد لمواجهة غضبه الذي سيكون أشد وطأةً من أي عقابٍ آخر.

أما "إياد"، فقد غادر المكان وروحه تغلي كمرجلٍ فوق نارٍ هائجة. لم يعتد أحدٌ على مرّ التاريخ أن يتحداه بهذه الطريقة أو أن يمد يده عليه سوى والده، وخاصةً ليس فتاةً صغيرةً تجهل من يكون. لقد قرر في سره أن يعاقب "حياة" على جُرأتها، ولكن ليس بالطريقة التي تتوقعها. سينتقم منها ببرود، بحكمة، بدهاءٍ محكم يجعلها تتمنى لو أن الأرض انشقت وابتلعتها قبل أن تتجرأ على مواجهته. لقد بدأت الحرب الآن، و"إياد" لا يعرف الخسارة.

في صباح اليوم التالي، انبثقت سناء من بين طيات غفلتها، لتبدأ يومها كما اعتادت، بتحضير فطورٍ دافئٍ لولدها الوحيد ينال. وضعت الطبق على المائدة بعنايةٍ أموميةٍ وتوجهت إلى غرفته لإيقاظه. لكنّها تفاجأت وهو يستقبلها بابتسامةٍ هادئةٍ وقد بدّل ملابسه، فلم يعتد الاستيقاظ بهذه السرعة من قبل.

"صباح الخير يا عزيزي، ما الذي أيقظك في هذا الوقت المبكر؟" سألت سناء وابتسامةٌ مُندهشة ترتسمُ على محياها.

أجابها ينال بغمزةٍ مرحَة:

"غريبٌ أليس كذلك؟"

بادلته سناء الابتسامة وهي تشير إلى مائدة الطعام:

"أجل غريبٌ جداً، هيا بسرعة فـ الطعام يبرد."

أومأ ينال برأسه وانطلق إلى المائدة ليبدأ بتناول فطوره بشهيةٍ مفتوحة. لاحظت سناء أنَّ ابنها يُريد قول شيءٍ ما، وكأنّه يحتفظ بسؤالٍ في داخله.

"ما الأمر يا ينال؟ أراك شارد الذهن اليوم، هل يوجد ما يُقلقك؟"

حَمْحَمَ ينال بارتباكٍ وهو يُحاول جمع كلماته:

"في الواقع.. كنتُ أتساءل.. لماذا لم تعد سلام تأتي إلى هنا يا أمي؟"

ابتسمت سناء بمكرٍ وهي تُدرك مغزى سؤال ابنها:

"إذاً هذا ما يُفكّر به ابني ينال هذه الأيام؟"

احمرَّ وجه ينال خجلاً من مُلاحظة والدته. أراد تغيير مجريات الحديث بسرعة، فَهمس بارتباك:

"لا.. لا شيء من هذا القبيل يا أمي.. كنتُ أَتساءلُ فقط."

"لا تُخفِ عَليَّ يا بُني، أَفهمُ ما يجول في خاطرك." قالتها سناء بدفءٍ وهي تُربّتُ على يد ابنها.

"سلام لديها امتحاناتٌ في هذه الفترة، لذلك هي منشغلةٌ بدراستها. سَتَعودُ لزيارتِنا بمجرد انتهائها."

أومأ ينال بفهمٍ وعاد إلى تناول طعامه وعلى وجهه بسمةٌ خفيفة. بعد أن انتهى ينال من فطوره، قالت له سناء:

"ينال، هل يُمكنك دعوةُ إياد للغداء اليوم؟ أريدُ التحدّث معه في أمرٍ هام."

"بالتأكيد يا أمي، سَأَدعوه." قالها ينال بسرورٍ وهو يُلقي التحيةَ على والدته ويَخرُجُ من المنزل.

لم يَكُن ينال يُصدّق أنَّ يومهُ بدأ بهذه السعادة، فقد كان قلقاً على سلام واشتاق لرؤيتها. توجه إلى مبنى سكنها وانتظرها في الأسفل. ما هي إلا دقائقُ معدودة وظهرت سلام. ابتسم ينال عند رؤيتها وأسرع لملاقاتها.

"صباح الخير يا سلام." قالها ينال بصوتٍ رقيقٍ وهو يقترب منها.

خَفَضت سلام رأسها بحياءٍ وهي تُتمتم:

"صباح الخير."

لاحظ ينال ارتباكها فابتسم بحنانٍ وقال:

"هل أنتِ في طريقكِ إلى الجامعة؟"

أومأت سلام برأسها دون أن تنطق بكلمة.

"جيد، سَأُوصلكِ."

رفضت سلام بلطف:

"لا شكراً يا ينال، لا أُريد إزعاجك."

"لا تَقولي هكذا يا سلام، فهذا أقل ما أستطيع فعله من أجلكِ. هيا لنذهب قبل أن تتأخري على محاضراتكِ." أصرَّ ينال وهو يُمسك بيدها برفق ويقودها نحو سيارته.

صعدت سلام بجانبه وهي لا تزال تشعر بالخجل والارتباك. انطلق بالسيارة وهو يُحاول فتح حديثٍ معها، إلا أنَّ رنين هاتفها قاطع حديثه. التفت إلى سلام وقال باستغراب:

"لماذا لا تُجيبين على هاتفك يا سلام؟"

ارتسمت على وجه سلام ملامح التوتر والخجل وهي تُجيب ينال بتلعثم:

"لا.. لا.. إنها ليست مهمة.. صديقتي.. سأراها في الجامعة."

نظر لها ينال بشك للحظات، إلا أنه فضل عدم إحراجها بالأسئلة. كانت سلام تغلي في داخلها، فهي لا تُصدّق تصرف رائد هذا، فهو من أغلق الهاتف في وجهها البارحة واليوم يتصل بإصرار! لم تُخفِ سلام ارتباكها عن ينال، الذي حاول تهدئة الموقف بفتح حديث جديد:

"على ذكر الجامعة.. كيف حال دراستكِ؟ سمعتُ أن لديكِ امتحاناتٍ قريباً"

خرجت كلمات سلام بتلقائية:

"أجل صحيح، أُحاول التركيز وبذل قصارى جهدي لأُحقق النجاح."

ابتسم لها ينال بتشجيع:

"بالتوفيق لكِ يا سلام، أنا واثقٌ من أنكِ ستُحققين ما تصبين إليه."

ارتسمت على وجه سلام ابتسامةٌ خفيفةٌ، حاول ينال استغلال هدوء الجو ليُصارحها بما يجول في خاطره، فقال بترددٍ:

"سلام.. أنا.. أردتُ أن أَسألكِ.. هل فكّرتِ بموضوع الارتباط؟"

تجمدت ملامح سلام وشعرت بأن قلبها سيقفز من مكانه. ابتلعت ريقها بصعوبة، لكنها لم تستطع النطق بكلمة. لاحظ ينال ارتباكها فأشفَق عليها وقرر تغيير مسار الحديث مجدداً:

"لا بأس يا سلام، لا تُجبري نفسكِ على الحديث إن كنتِ لا تُريدين. لقد وصلنا إلى جامعتكِ."

تنفست سلام الصعداء لتخلّصها من ذلك الموقف المحرج. شَكرت ينال على إيصالها ونَزلت من السيارة بسرعة، متجهةً إلى داخل الجامعة وهي تُحاول الابتعاد عن نظرات ينال التي كانت تُربكها. أما ينال فقد ظل يُراقبها إلى أن اختفت عن أنظاره، ثم انطلق بسيارته نحو عمله.

في هذه الأثناء، كانت سلام تُحاول الاتصال برائد مجدداً، وهذه المرة أجابها بصوتٍ غاضب:

"لماذا لم تُجيبي على مكالمتي منذ قليل؟!"

رفعت سلام حاجبيها باستغراب وقالت بنبرة حادة:

"وما يُهمّك أنت بالأمر؟ ألم تكن أنت من أغلق الهاتف في وجهي البارحة؟"

"أجل، وأنا نادمٌ على ذلك." قالها رائد بنبرة حزينة مُصطنعة.
"أردتُ الاعتذار عمّا حدث، فأنا لم أقصد إغلاق الهاتف بهذه الطريقة."

تنهدت سلام بضيق:
"حسناً، وماذا تُريد الآن؟"

"أريد سماع صوتكِ، لقد اشتقتُ لكِ كثيراً." قالها رائد بصوتٍ دافئ هذه المرة.

لم تستطع سلام إخفاء تأثرها بكلماته، فهي طالما انتظرت منه هذه الكلمات. "وأنا أيضاً." همستها بخجل.

"أعدكِ يا حبيبتي أنّني لن أُكرّر ما حدث مجدداً، أرجوكِ سامحيني."

"لا يُهم، لقد سامحتك."

"حقاً؟! هذا يعني أنّكِ ما زلتِ تُحبينني؟"

"بالتأكيد أُحبك، ولكن..."

قاطعها رائد لهفة:
"لا تقولي 'لكن' يا سلام، أريدكِ أن تُثبتي لي حبكِ هذا."

"وكيف أُثبت لك ذلك؟"

"بأن تأتي إلى شقتي اليوم."

توترت سلام مجدداً وقالت بارتباك:

"لا.. لا أستطيع، أعتذر منك ولكن..."

"ألا تثقين بي يا سلام؟" قاطعها رائد بصوتٍ حزين.

"بلى أثق بك ولكن..."

"لا يوجد 'لكن' يا سلام، إن كنتِ تثقين بي فأثبتي لي ذلك."

"حسناً، أعدك أن أُفكر بالأمر."

"هذا ما أريده منكِ يا حبيبتي. فكّري بالأمر وأخبريني قراركِ غداً، أنتظر مكالمتكِ بفارغ الصبر."

أغلقت سلام الهاتف وهي تشعر بأنها تائهة بين خوفها ورغبتها برؤية رائد.

دخل ينال من باب الشركة الزجاجي الضخم، وعلى وجهه تلك الابتسامة الدافئة التي اعتاد إهداءها لزملائه، محيياً بكلمات لطيفة كل من يقابله في طريقه. كان ينال بذلك يشكّل نقيضاً تاماً لصديقه وشريكه إياد، الذي كان يفرض هيبته على المكان بمجرد دخوله. فبمجرد أن تطأ قدم إياد أرض الشركة، تسود الأجواء برهبة غريبة، وتتحول نظرات الموظفين إلى أرضية المبنى تجنباً لمواجهته.

اتجه ينال نحو مكتب إياد وهو يردد في نفسه باستغراب عن سبب تلك الهالة التي تحيط بصديقه. دخل المكتب دون استئذان، فهو الشخص الوحيد الذي يملك هذه الميزة، إلا أنه تفاجأ بمنظر إياد الذي كان يبدو بحالة لم يعتدها من قبل. كان إياد منهمكاً في أفكاره، يجلس على كرسيه ورأسه مسند إلى الخلف، ونظراته شاردة في الفراغ، وكأنه غائب عن الوجود.

اقترب ينال بخطىً هادئة ووقف أمام مكتب إياد، حاول لفت انتباهه عدة مرات وهو يلقي عليه بالتحية، إلا أن إياد كان غارقاً في أفكاره لا يبالي بمن حوله. مدّ ينال يده وحركها أمام وجه إياد قائلاً باللهجة مرحة:

"أَيُّها الغريب، هل أنت هنا؟ أم أن أفكارك قد سافرت بك إلى عالم آخر؟"

انتشل صوت ينال إياد من شروده، فنظر إليه ببرود وهمهم بصوت خالٍ من أي مشاعر:

"أريدك أن تحضر لي بعض المعلومات عن فتاة تُدعى حياة الشريف."

رفع ينال حاجبيه باستغراب وقال بدهشة:

"فتاة؟! هذه أول مرة أراك تبدي اهتماماً بفتاة يا إياد! ومن تكون هذه "حياة" التي استحوذت على انتباهك؟"

تحولت نظرة إياد الباردة إلى نظرة حادة كأنها شعلة من النار، وقال بصوت منخفض ولكن يحمل في طياته تهديداً واضحاً:

"هذه الفتاة التي سأُسحقها تحت قدميّ."

ارتسمت على ملامح ينال علامات الدهشة وعدم الفهم، فقال بصوت واثق:

"لا أفهم ما تقصده يا إياد، ما الذي فعلته لكِ هذه الفتاة حتى تحمل كل هذا الغضب تجاهها؟"

ابتسم إياد بسخرية مريرة، وقال بصوت مُتهكم:

"لقد تجرأت على مواجهتي وتحدي أوامري، سأريها من أكون وما الذي يستطيع "إياد فعله."

حاول ينال تهدئة صديقه، فهو يدرك جيداً أن إياد ليس في مزاج يسمح بالمناقشة أو الجدال. فقال بصوت هادئ:

"حسناً يا إياد، سأحضر لك كل ما تريد من معلومات عن هذه الفتاة. سأعود بعد ساعة."

وبذلك، غادر ينال المكتب على عجل، تاركاً خلفه إياد غارقاً في غضبه وأفكاره الانتقامية. لم يكن إياد لينسى أو يغفر لتلك الفتاة ما فعلته، فهي أول من يتجرأ على مواجهته وتحديه بهذه الطريقة. قرر أن يعاقبها بشكل قاسي، عقاب لن تنساه طوال حياتها، عقاب سيرعبها ويجعلها تندم على اليوم الذي فكرت فيه بمواجهته.

مرّت ساعة وكأنها دهر على إياد، الذي كان يتظاهر بالانشغال بتقليب بعض الأوراق على مكتبه، في حين كانت أفكاره مشدودة نحو ذلك الباب الذي سيعيد إليه صديقه بمعلومات عن تلك الفتاة التي أساءت إليه. وحينما فتح ينال الباب ودلف إلى المكتب، رفع إياد نظره إليه بشوق مختلط بفضول قائلاً بصوت أجّش: "ها، ماذا فعلت؟ هل جمعت المعلومات التي طلبتها؟"

أخذ ينال نفساً عميقاً قبل أن يُجيبه بصوت هادئ:

"اسمها حياة مؤمن الشريف، في العشرين من عمرها، طالبة في السنة الثالثة في كلية علم النفس. يتيمة الأب وتعيش مع والدتها في منزل متواضع." ثم توقف ينال لحظة كأنه يتردد قبل أن يُكمل بصوت منخفض:

"والدتها.. لديها سمعة سيئة في الحي، يُقال إنها تُدخل الرجال إلى منزلها بشكل مريب."

كان إياد يستمع بتركيز بالغ، وكأن كلمات ينال ترسم صورة واضحة لتلك الفتاة أمام عينيه. ولما ساد الصمت، ابتسم إياد بسخرية مرّة وقال:

"هذا يعني أنها بريئة طاهرة كالملاك، أليس كذلك؟"

نظر له ينال بعتاب قائلاً:

"صراحة لم أسأل عن هذا الأمر، ولن أفعل. والآن أخبرني لماذا كل هذا الاهتمام بفتاة مثل هذه؟ ماذا حدث بينكما؟"

أخذ إياد نفساً عميقاً وبدأ يروي لصديقه تفاصيل لقائه بحياة ومواجهتها له، وكلما تعمق في سرد قصته، ازدادت دهشة ينال. فلم يكن ليتصور يوماً أن هناك من يجرؤ على مخالفة إياد أو رد له كلمة أو ضربه حتى. وحينما أنهى إياد حديثه، انفجر ينال ضاحكاً بصوت عالٍ قائلاً:

"لا أُصدق! أهذه أول مرة تُهزم فيها أمام امرأة يا إياد؟ أُراهن بأنك وقفت أمامها كالأخرس لا تجيد سوى النظر."

احمرّ وجه إياد من الغضب وقال بصوت منخفض ولكن حاد كموس حلاقة: "اصمت يا ينال! لن أتهاون معها، سأريها من أكون وأجعلها تندم على اليوم الذي وُلِدت فيه."

هزّ ينال رأسه بيأس، فهو يدرك جيداً أن إياد لا يعرف المزاح في مثل هذه الأمور، وأنه حينما يقرر الانتقام من شخص ما، فإنه لن يتراجع حتى ينفذ ما يريد. تنهد ينال بحزن وهمس قائلاً:

"أُشفِق على هذه الفتاة، فَ يبدو أن حياتها ستنقلب رأساً على عقب بسبب لقائها بك." ثم أضاف بصوت هادئ:

"بالمناسبة، تذكرت أن والدتي تريد رؤيتك، تدعوك إلى الغداء اليوم."

نظر له إياد بلا مبالاة وقال بصوت خالٍ من التعابير:

"حسناً، سنرى."

ابتسم ينال ونهض ليعود إلى عمله، تاركاً إياد يغرق في بحر من الأفكار السوداء، تُرسم على وجهه ملامح قاسية كأنها محفورة على صخرة صماء. كان عازماً على تنفيذ ما خطط له، مُصراً على جعل ذلك اليوم يوماً أسود في حياة تلك الفتاة التي تجرأت على تحدّيه.

بعد مرور ساعات قليلة، خرج إياد برفقة ينال متجهاً نحو منزله، حيث تنتظرهما والدة ينال على الغداء. لم تكن تلك الزيارة بدافع المجاملة وحسب، بل كانت بمثابة طقس مقدس بالنسبة لإياد، فلطالما اعتبر والدة صديقه بمثابة أمه الثانية، مُقدّراً حنانها وعطفها اللذين لطالما غمرته بهما.

ما إن وصلا حتى استقبلتهما سناء، بابتسامة دافئة ملأت أرجاء المنزل نوراً. بادلها إياد التحية بابتسامة صادقة، فهو يُكنّ لها كل الحب والاحترام. جلسوا جميعاً على مائدة الطعام، وساد صمت مريح بينهم، قبل أن تُبدّده سناء بسؤالها الذي اعتاد إياد سماعه:

"كيف حالك بنيّ؟ ألا زلتَ على علاقاتك التي لا أُحبّذها لك؟"

ابتسم إياد باتساع قائلاً:

"أنا بخير يا أمي، لا تقلقي عليّ وانسي الأمر."

هزّت سناء رأسها وهي تتنهّد، وبادر ينال بقوله:

"أمي، سأشتكيه لك، إنه يعذبني كثيراً!"

ضحكت سناء بقوة، في حين نظر إياد إلى ينال بغيظ ولوم دون أن ينطق بكلمة.

انتهى الجميع من تناول الطعام وانتقلوا إلى غرفة المعيشة، ودارت بينهم أحاديث عابرة عن أمور عامة، وبعد مرور بعض الوقت، استأذن إياد للانصراف عائداً إلى منزله.

وبمجرد أن دخل إياد إلى غرفته، تحولت ملامحه الهادئة إلى غضب متأجج، وأخرج هاتفه لإجراء مكالمة هامة، كانت بمثابة فاتحة لخطته الشيطانية.

تمدد على فراشه وابتسامة ماكرة ترتسم على وجهه، وهو يردد في نفسه: "سأريكِ يا حياة ما سأفعله بكِ، سأعلمك كيف تقفين أمامي وتتجرأين على صفعي! لن تبقي بريئة وأنتِ برفقتي، انتظري قليلاً وسترين جحيمك بعد ساعات قليلة!"

نظر إلى ساعته فوجدها تشير إلى العاشرة مساءً، فنهض ليُحضّر نفسه للخروج. وبعد أن انتهى من ارتداء ملابسه الأنيقة، توجه إلى منزل حياة، وقلبه يمتليء بالرغبة في الانتقام.

لم يستغرق الوقت طويلاً حتى وصل إلى هناك، وطرق الباب بقوة وثقة. وما هي إلا لحظات حتى فُتح الباب على مصراعيه، لتظهر من خلفه سمر وعلامات التساؤل ترتسم على وجهها. دخل إياد بكل برود وثقة، دون أن يُكلّف نفسه عناء إلقاء التحية.

أغلقت سمر الباب وهي تحاول فهم مغزى هذه الزيارة المفاجئة، وفي هذه الأثناء، كانت حياة تراقب الوضع من غرفتها، وقلبها يدق بعنف من الخوف والهلع. لاحظت سمر شحوب وجه حياة وارتعاش يديها، لكنّها تجاهلت الأمر قائلةً لها:

"هَيّا جهّزي نفسكِ، السيد إياد يريد رؤيتكِ."

هزّت حياة رأسها رفضاً، وارتسم الرعب على ملامحها البريئة كطفلة تُجبر على مواجهة وحش مُخيف. قالت بصوت مرتجف يكاد يُسمع:

"لا.. أرجوكِ.. لن أخرج. دعيني وشأني!"

اقتربت منها سمر وهمست بصوت مهدد:

"لقد قال لي إن لم تخرجي فسيدخل هو بنفسه إليكِ!"

اتسعت عينا حياة دهشة ورعباً، وتدحرجت دموعها على وجنتيها كحبات لؤلؤ منثور. أمسكت بيد سمر بيأس وقالت بصوت مختنق بالبكاء:

"أرجوكِ يا أمي، أرجوكِ.. لا تُجبريني على الخروج. إنه سيؤذيني.. أنا متأكدة!"

ربتت سمر على كتفها مُحاولة تهدئتها، وقالت مُحاولة طمأنتها بكلمات ضعيفة: "اهدئي يا حبيبتي.. لن يحدث لك شيء. إنه فقط يُريد التحدث معك."

ازداد بكاء حياة وهي تُدرك أنّ لا فائدة من المقاومة، فهي تُدرك جيداً طبيعة إياد وجبروته. وسط تناقض المشاعر بين الخوف واليأس، وجدت نفسها تنهض بثقل لترتّب ملابسها وتُغطّي جسدها بثوب مُحتشم، كأنّما تستعد لمواجهة قدرها المظلم.

وبخطوات مترددة وقلب يدق بعنف، وقفت حياة أمام إياد. كانت تُريد الاعتذار له عمّا بدر منها في لقائهما الأوّل، لكن نظراته الباردة وملامحه القاسية جعلتها تتجمّد في مكانها، وتبتلع ريقها بتوتر.

اقتربت حياة بخوف وجلست على أحد المقاعد البعيدة عنه، مُنكسرة ومُخفِضة الرأس كأنّما تنتظر عقاباً لا تعرف مدى قسوته. نظر لها إياد ببرود ولامبالاة، كأنها شيء لا قيمة له في نظره.

ثم في لحظة مفاجئة، حوّل إياد نظره إلى سمر، وأخرج علبة سجائر من جيبه وأشعل إحداها ببطء وثقة. نفث الدخان بقوة وهو يُراقب رد فعل حياة التي كانت ترتعش أمامه كـ ورقة في عصف ريح عاتية.

وبصوت خشن ومُرعب، قال إياد لسمر:

"سأشتريها."....

4

ساد صمتٌ ثقيلٌ كأنه غطاءٌ من ثلجٍ باردٍ يغطي المكان، لا يُسمَع فيه سوى شهقات حياة المتقطعة التي تشبه أنين طائرٍ جريح. كانت عيناها الواسعتان، الغارقتان في بحرٍ من الدموع، تعبّران عن رعبٍ لا حدود له، كأنها تدرك أنها تودّع الحياة التي لطالما عرفتها.

دارت نظرات إياد الباردة في جميع أنحاء الغرفة كأنها نصلٌ حادٌ يمزّق هدوء المكان. ابتلعت سمر ريقها بتوترٍ بالغ، بينما تجمد حسان في مكانه كتمثالٍ صامتٍ، لا يجرؤ على التحرك أو حتى التنفس.

ازدادت شهقات حياة حدةً وارتفاعاً، لكن إياد لم يُعرها أدنى اهتمام. بل على العكس تماماً، فقد بدا مستمتعاً بانهيارها وضعفها. تحدّث أخيراً، بصوتٍ هادئٍ لكنه كان مُرعباً كهدير بركانٍ على وشك الانفجار:

"كم تريدين سعرها؟"

لم تكَد سمر تجيب حتى نهضت حياة وقفت أمام والدتها بترجٍ وقالت بصوتٍ مخنوقٍ بالبكاء:

"أمي، أرجوكِ لا تفعلي بي هذا! سأكون خادمةً تحت قدميكِ، لكن لا تسلّميني له. إنه سيدمّر حياتي!"

ترددت سمر للحظة وهي تنظر إلى ابنتها المتألمة، فهي تدرك من يكون إياد وما بإمكانه فعله، لكن طمعها وجشعها كانا أقوى من عطف الأمومة. وفي هذه الأثناء، عاد صوت إياد البارد ليخرق صمتها قائلاً بنبرةٍ غاضبة:

"لم أسمع إجابتكِ، كم تريدين؟ ليس لدي وقت!"

نظرت له سمر بتوتر، ثم عادت بنظرها إلى ابنتها التي يمزق قلبها البكاء، فابتسم إياد بسخرية وقال:

"ماذا هناك؟ هل أصابتكِ مشاعر الأمومة فجأة؟ أريد إجابةً واضحةً، وبسرعة!"

هزّت حياة رأسها رفضاً بعنف وهي تتشبّث بيد والدتها بيأس، كأنها تتمسّك بقشةٍ لإنقاذ نفسها من الغرق. توسلت لها بصوتٍ محطّم:

"أرجوكِ أمي، أنا ابنتكِ! لا تفعلي بي هذا! لن يرحمني، أرجوكِ، سأفعل لكِ أي شيء، سأترك دراستي وأعمل لأساعدكِ، لكن لا تسلّميني له، أرجوكِ!"

لكن سمر كانت قد اتخذت قرارها. سحبت يدها ببرود وقالت بصوتٍ خالٍ من أي مشاعر:

"ثلاثةُ ملايينِ دولار."

وكأنما سقطت صاعقةٌ على رأس حياة. أهي هذه قيمة ابنتها في نظرها؟ ثلاثةُ ملايينِ دولار مقابل لحياتها وشرفها وكرامتها؟ أصبحت سلعةً تباع وتُشترى بلا رحمة؟

تجمّدت حياة مكانها وهي تراقب المشهد بعينين زائغتين، لا تستطيع تصديق ما تسمعه. وفي هذه الأثناء، قال إياد بصوتٍ ساخر:

"ثلاثةُ ملايين؟ أليس هذا كثيراً جداً؟"

ابتسمت ساخرة، ترتفع زاوية شفتيها في تعبيرٍ مُستفزّ،

"ليس بالشيء الكثير على فتاةٍ بجمالها، ناهيك عن عذريتها".

لمعت عينا إياد للحظة، قبل أن يُخفي انفعاله وراء قناعٍ من البرود،

"لقد أقنعتني".

أخرج دفتر شيكاته من جيبِ سترتهِ الفاخرة، وخطّ بيده توقيعاً سريعاً، مُسلّماً إياه إليها بنظرةٍ مُتحجّرةٍ.

أمسكت سمر بالشيك، تراقص الغرور بين أصابعها،

"أُريده كاش، لا أتعامل بالشيكات".

نهض إياد من مكانه بهدوءٍ مُريب، جسده الضخم يُلقي بظلالٍ مُخيفةٍ على سمر التي وقفت أمامه كالفأرةِ أمام الأسد. اقترب منها بخطواتٍ بطيئةٍ مُتعمدة، كلّ خطوةٍ تُرسّخ الخوف في قلبها. وبحركةٍ سريعةٍ خاطفةٍ، أمسكها من معصمها بقوةٍ، رافعاً إياها عن الأريكة، لتُقابل عينيه الجليديتين.

"أتعلمين من هو إياد مُعين؟" همس بصوتٍ أجشّ، كفحيح أفعى،

"سأُخبركِ أيتها اللعينة، إياد مُعين لا يأخذ الأوامر من أحد، وخصوصاً من حشرةٍ مثلكِ. اشكري ربّكِ لأنني عرضتُ عليكِ المال، لأنني أستطيع الحصول على ما أُريد رُغماً عن أنفكِ ودون دفعِ قرشٍ واحدٍ. لكن، كما قُلتِ، هي جميلةٌ وعذراء، وهذا ما أُريده. والآن، دعيها تُجهزّ أغراضها، سآخذها معي الآن".

نفضها من يده بقسوةٍ، كأنها قطعةُ قماشٍ باليةٍ، لتنظر إليه بنظراتٍ مشتعلةٍ، لكنها لم تتجرأ على مُواجهته بكلماتٍ. نهضتْ بصمت، مُتجهة نحو ابنتها، لتُخرجها من الغرفة، بعيداً عن ذلك الوحشِ ذو الدمِ البارد.

عاد إياد إلى مجلسه، يعلو وجهه ابتسامةٌ باردةٌ، كأنّ ما حدث لم يكن سوى مشهدٍ عابرٍ في مسرحيةٍ طويلةٍ.

دلفت سمر إلى غرفة ابنتها، تُغلق الباب خلفها، قبل أن تتنفس الصعداء، شاكرةً الله أنّ الأمر لم يتجاوز مسك معصمها.

التفتتْ إلى ابنتها، تُراقبها بنظرةٍ خاليةٍ من أيّ مشاعر،

"هيا، انهضي، اجمعي أغراضكِ، ستذهبين معه".

ساد صمتٌ ثقيل أرجاء الغرفة، صمتٌ مخيفٌ لا تقطعه سوى شهقات حياة الباكية، ونحيبُها المر الذي مزّق قلب أمّها سمر. تجمدت الكلمات على شفتيها، كيف لها أن تُواسي طفلتها وفلذة كبدها التي تُساقُ إلى مصيرٍ مجهولٍ مرعب؟! احتدت ملامح سمر، وانقبض قلبها ألماً على ابنتها، زفرت بضيقٍ مُحاولةً كبت براكين الحزن والغضب التي تعتمل في صدرها، ثمّ اتجهت نحو خزانة ملابس حياة، خطواتها ثقيلة كأنها تحمل جبالاً من الهموم على كتفيها.

بأصابع مرتجفة، بدأت سمر بجمع أغراض حياة في حقيبة صغيرة. قطعة تلو الأخرى، كانت ترتب ملابس ابنتها وكأنها ترتب بقايا أحلام محطمة، وكلما لمست قطعةً من ثيابها، تجدد ألم الفراق في قلبها. وما زالت حياة على حالها، غارقةٌ في بحر دموعها، لا تدرك ما يدور حولها سوى أنها تغادر للأبد.

اقتربت سمر من ابنتها وامسكت بيدها. رفعت حياة عينيها نحو أمّها، عيناها حمراوان من كثرة البكاء، وجهها شاحب كالظلام الذي يخيم على حياتها. لم تقل شيئاً، بل استسلمت لمصيرها المر، فهي تدرك جيداً أن لا شيء سيغير من أمرها.

أمسكت سمر بيد ابنتها بقوة، تحاول أن تمنحها قوة لا تملكها، ثم توجهت بها نحو الخارج، حيث كان "إياد" ينتظر بصمت مريب، عيناه تراقبان كل حركة ببرود قاتل. تسلّم حياة من أمّها كأنها سلعة بلا روح، ثم نظر إلى سمر ببرود قاتل. وتسلل صوته كنسيم قارس، مخاطباً سمر بلهجة لا تقبل النقاش:

"أريدك أن تمحي أمرها من ذاكرتك، أنسي تماماً أنك قد أنجبت فتاة. لا أريد رؤية وجهك، ولا تحاولي الاقتراب من حياة، هذا إن استطعتِ أصلاً. هل هذا مفهوم؟"

تجمدت الدماء في عروق سمر، رعشة خوف سرت في جسدها النحيل، فإيماءة رأسها كانت الرد الوحيد الذي استطاعت بذله، فلهجته القاسية ونبرته الحادة كفيلتان بزرع الرعب في قلب أي شخص، فكيف بمن ذاق مرارة أفعاله.

أنهى حديثه بصمت، ليُمسك بذراعها بقوة، ساحباً إياها نحو سيارته الفارهة كأنها دمية لا حول لها ولا قوة.

أرغمها على الركوب، ليُغلق الباب خلفها بعنف، قبل أن يُحيطها بجسده الضخم وهو يشغل المحرك.

انطلقت السيارة بسرعة جنونية، مُخلفةً وراءها غباراً من اليأس والحيرة، لتبدأ رحلة حياة الجديدة في منزل فخم سيُصبح فيما بعد سجناً مظلماً، وكأنها تُساق إلى مجهول مرعب، إلى قلب العاصفة.

تسللت أشعة الشمس الذهبية من بين ستائر غرفة "سلام"، لتلامس وجهها النائم بنعومة، مُعلنة عن بداية يوم جديد. فتحت "سلام" عينيها ببطء، تتكاسل عن مغادرة عالم أحلامها الهادئة. نهضت من فراشها بخطوات ثقيلة، وكأن روحها لا تزال غارقة في سبات عميق. أنهت روتينها اليومي بملل شديد، وكأنها تؤدي واجباً ثقيلاً يُرهق روحها الشابة. زفرت بقوة عندما انتهت من ارتداء ملابسها، مُعلنة استسلامها لبداية يوم بدا مملّاً منذ لحظاته الأولى.

توجهت "سلام" نحو الصالة بخطوات متثاقلة، حيث كانت جدتها تنتظرها على طاولة الفطور. ألقت التحية بصوت خافت، وجلست على الكرسي المقابل لجدتها، وعقلها يضج بأفكار متناقضة كعاصفة هوجاء. كانت صورة رائد

تتراقص أمام عينيها، تلك الصورة التي زرعت في قلبها بذور الحب والأمل، لكنها في الوقت نفسه كانت تُثير في نفسها مخاوف مبهمة كظلال سوداء تُخيّم على نفسها.

"ما الأمر يا "سلام"؟" سألت الجدة بصوت دافئ مشفق، عيونها تراقب حفيدتها بحنان بالغ "لستِ على ما يُرام في هذه الأيام، هناك ما يُقلق راحتك."

انتفضت سلام من شرودها، فقد أربكتها كلمات جدتها التي بدا أنها كانت تُراقبها بدقة. "لا شيءَ يا جدتي،" أجابت بصوت مرتجف تحاول إخفاء ارتباكها

"أنتِ تعرفين أنني أكون هكذا دائماً عندما يقترب موعد الامتحانات، إنها سنة التخرج يا جدتي."

هزت الجدة رأسها بفهم مصطنع، لكن عينيها كانتا لا تَزالان تُحدّقان بها بشك. قالت الجدة بصوت هادئ لكنه حازم،

"أتمنّى أن يكون كل شيء على ما يُرام، فأنتِ أغلى ما أملك في هذه الدنيا."

ابتسمت سلام بتوتر مُحاولة طمأنة جدتها،

"لا تقلقي عليّ يا جدتي، أنا بخير، والآن عليّ الانطلاق إلى الجامعة، سأتأخر على محاضراتي." قبّلت يد جدتها بود، ثم غادرت الشقة بسرعة كأنها تهرب من أسئلة لا تريد الإجابة عنها.

راقبت الجدة حفيدتها وهي تغادر بقلب مليء بالحب والقلق، ثم تنهدت بحزن وهي تتمنى أن تكون مخاوفها في غير محلها. فـ "سلام" ليست حفيدتها فحسب، بل هي روحها التي تشبّثت بالحياة من أجلها، وهي فلذة كبد ابنتها التي رحلت وتركَتها أمانة في عنقها.

عندما كانت "سلام" في الحادية عشرة من عمرها، تعرّض والداها لحادث طائرة أليم، أثناء عودتهما من فرنسا، حيث كانا في رحلة عمل لم يكتب لهما العودة منها. انهارت حياة "سلام" الصغيرة آنذاك، واكتست دنياها بلون الحداد على فراق والديها. لكن جدتها الطيبة أَحاطَتها بحنانها وعطفها، وضمَدَت جراح قلبها الصغير، وسَهِرَت على راحتها وتربيتها.

نشأت "سلام" في كنف جدتها، تتغذى من حبها وحنانها، وتستمد من قوتها العزيمة على مواجهة صعوبات الحياة. لم تنسَ "سلام" طبعاً والديها، فصورتهما لا تزال تزين غرفة نومها، وتحتفظ بذكرياتهما في أعماق قلبها. كلما اشتاقت إليهما، كانت تخرج صورتهما وتتأمل ملامحهما بحب وشوق، كأنها تستمد منهما القوة والعزيمة على متابعة مشوار حياتها.

وصلت "سلام" إلى جامعتها، خطواتها لا تزال ثقيلة، وفكرها مشغول بحيرتها وتساؤلاتها التي لا تجد لها جواباً.
جلست على أحد المقاعد في الجامعة، تحاول أن تركز في دراستها، لكن صورة رائد كانت أقوى من أن تطردها من عقلها.

وفجأةً، ظهر "رائد" أمامها كأنه سراب جميل في صحراء حيرتها. تسارعت دقات قلبها، وغمرت السعادة نفسها رغم كل المخاوف التي كانت تحاصرها.

"صباح الخير حبيبتي،"

همس "الشاب" بصوت رقيق أذاب قلق "سلام" وجعلها بين يديه كفراشة سحرتها أضواء مدينة كبية

"صباح الخير"، همست بها بصوتٍ يكاد يكون مسموعاً.

راقبها رائد بنظراته الثاقبة، بينما ارتسمت على وجهه ابتسامة هادئة،

"ها، هل فكرتِ جيداً حبيبتي؟"

سؤالٌ بسيطٌ، لكنه كان كفيلاً يأن يُحدث زلزالاً في داخلها، لتشعر بيدٍ باردةٍ تعصر قلبها، جاعلةً أنفاسها تتسارع كفراشة محاصرة.

"أجل..."، أجابت بصوتٍ بالكاد يُسمع، تحاول جاهدةً ابتلاع ذلك التوتر المُخيف الذي يكاد يخنقها.

رفع حاجبه قليلاً، متظاهراً بالاهتمام،

"إذاً؟"

انكمشت على نفسها أكثر، تحاول إخفاء ارتعاش شفتيها، قبل أن تجبر نفسها على الكلام،

"ح-حسنا، سنذهب."

اتسعت ابتسامته، كاشفةً عن صفٍ من الأسنان البيضاء، مُشعلاً في داخلها شعوراً غريباً بالمُتعة المُمزوجة بالخوف،

"كنت أعلم بأن حبيبتي الصغيرة ستثق بي، سنذهب بعد الامتحان، اتفقنا؟"

أومأت برأسها ببطء، صغرت في عينيها، بينما هو يُغادر الجامعة بخطواتٍ واثقة، تاركاً خلفه عبقاً من رائحة عطره المُسكرة، وابتسامة خبيثة تُزيّن قسمات وجهه، وكأنها تُعلن عن نواياه الخفية.

تستلقي حياة على الفراش الناعم في الغرفة الفسيحة، مغمضة العينين، كأنها تحاول الهروب من واقعيها المرير إلى عالم الأحلام. تتسلل أشعة الشمس الذهبية من بين ثنايا الستائر لتلامس وجهها الشاحب، فتُجبرها على فتح عينيها ببطء. تُحدّق في المكان بنظرات تائهة، تحاول جمع شتات ذاكرتها المُبعثرة، لتعود إليها أحداث الليلة الماضية كضوء ساطع يُنير ظلام النسيان. تنهار دموعها حارقة على وجنتيها وهي تتذكر كل لحظة من لحظات ذلك اليوم الأسود، يوم أصبحت فيه أسيرة في قبضة ذلك الرجل الذي لا تعرف عنه سوى القسوة والبرود.

Flash back

تتوقف السيارة الفارهة أمام منزل ضخم، واجهاته مُضاءة بأضواء صفراء باهتة، تُلقي بظلالها الطويلة على الأشجار الضخمة التي تحيط به. تُجبر حياة على الخروج من السيارة، بينما دموعها لا تكف عن الانهمار كأمطار لا تتوقف. كانت شهقاتها ونحيبها الشديد يترددان في أرجاء السيارة كترنيمة حزن لا تنتهي. أما هو، فلم يكن يُبدي أي رد فعل سوى نظرات باردة مُتجاهلة تُزيد من إحساسها بالعجز والضياع.

دفعها إياد إلى داخل المنزل بقسوة، لتجد نفسها أمام بهو واسع تُزيّنه الثريات الضخمة واللوحات الفنية الباهظة. أشار بيده نحو الأريكة الجلدية الفاخرة بنبرة آمرة لا تُقبل الرفض:

"اجلسي!".

جلست حياة على حافة الأريكة، تُضمّ ساقيها ببعضهما وتُحاول إخفاء خوفها ورعبها الذي لا يُوصف. وقف إياد أمامها بكل جبروته وعيناه تُحدقان فيها بنظرات ثاقبة تُشعرها بالاختناق، قبل أن يُخرج علبة سجائر من جيبه ويُشعل إحداها ببطء مُتعمد. أخذ نفَساً عميقاً من سيجارته، ثم نفث الدخان بكثافة أمام وجهها مُستمتعاً بمشهد ضعفها وانكسارها.

اقترب منها بخطوات هادئة حتى أصبح على بُعد أُنملة منها، أحست حياة برائحة عطره الفواح تختلط برائحة الدخان، رائحة ستظل عالقة في ذاكرتها تُذكّرها بهذه الليلة المُرعبة. مد يده ببطء ليُلامس وجنتها بنعومة مُريبة، لكنّها أطرقت برأسها بعيداً لتتجنّب لمسته، وهذا ما أثار غضبه.

"أنتِ لي الآن يا حياة... ملك لي وحدي" قالها بصوت أشبه بالفحيح، وهو يُمسك بذقنها بقوة ليرفع وجهها إليه،

"سأُريك معنى أن تتحدّيني وتمدين يدك علي... ستتمنين الموت ولن تُحقّقيه".

انفجرت دموعها كسيلٍ جارفٍ، تُغرق وجهها الشاحب، وتُمزق صوتها الذي تحوّل إلى شهقاتٍ مُتقطعة،

"أرجوك سيدي، لا تفعل بي شيئاً، أرجوك! أنا آسفة على كلّ شيء، أقسم أنني لن أُكررها، فقط لا تؤذيني".

ارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ ساخرة، كأنها تعكس قسوةً دفينةً في قلبه: "سيدك؟ أليس البارحة كنتَ لعيناً، والآن أصبحتَ سيدك؟" صمت للحظةٍ، مُستمتعاً برعبها، قبل أن يُكمل بلهجةٍ هادئةٍ مُخيفة،

"عموماً، لا تخافي، إيذاؤكِ هو آخر ما أفكّر به. كلّ ما أريده الآن هو الاستمتاع بقربكِ قليلاً".

شهقت حياة بخوفٍ، تتسع عيناها الجميلة برعبٍ، وهي تُردد بصوتٍ مُرتجف، "ما الذي ستفعله؟"

اقترب إياد منها أكثر، مُمرراً أصابعهُ بقسوةٍ على وجنتها، بينما تُطالعهُ بنظراتٍ مرعوبةٍ.

"قولي لي ما الذي تريدين أن أفعله، وسأفعله أيتها الجميلة".

ارتجفت شفتاها وهي تحاول التحدث، صدرها يعلو ويهبط بسرعة تُهدّد بنوبة بكاء جديدة. نظرت إليه بعينين متوسلتين، قائلة بصوت متقطع بالرعب: "أرجوك... لا تفعل شيئاً...".

لم يُعر إيادٌ توسّلاتها أي اهتمام، بل ردَّ عليها بصوت أشبه بفحيح الأفعى: "حسناً... لكن بشرط واحد".

حركت حياةُ رأسها ببطء، علامةً على الاستفسار والخوف في آن واحد.

انفرجت شفتاه عن ابتسامة ماكرة وهو يُعلن شرطه بكل برود:

"قبّليني".

اتسعت عيناها رعباً على غير تصديق، وتراجعت بجسدها إلى الخلف حتى لامست الأريكة. هزّت رأسها بعنف وهي تُردد بصوت مختنق:

"لا... لا... مستحيل! أنا لم أُقبّل أحداً في حياتي! لا... لا أريد!".

زفر إيادٌ بضيق وهو يُطالعها بنظرات باردة تخفي وراءها بركاناً من الغضب. مدّد جسده على الأريكة بكل أريحية، قائلاً بلا مبالاة:

"حسناً إذاً.. لا تُلوميني على ما سأفعله بكِ".

انهارت حياةٌ على الأرض وهي تبكي وتنتحب بصوت محطّم، بينما هو لم يُعر لها ولا لحالتها أي اهتمام. ظلَّ ينظر إلى السقف ببرود وهو يُفكّر بطريقة ليُعذّبها ويُذلّها.

انتفضت حياةٌ من مكانها فجأة، كأن تياراً كهربائياً قد سار في جسدها. مسحت دموعها بعنف وهي تصرخ به بصوت مختنق بالغضب والبكاء:

"أنا لم أفعل لك شيئاً حتى تفعل بي كل هذا!... وتأتي اليوم بكل وقاحة وتشتريني من أُمّي التي كانت وقحةً مثلك أيضاً؟! يا لكما من عديمي الإحساس!".

رفع إياد حاجبه بانزعاج وهو ينهض من مكانه ليقف أمامها بشموخه المعتاد. احتدت ملامحه على ما سمعه، وعلى جرأتها معه. أمسكها من مُعصمها بقوة وجرّها خلفه إلى الطابق العلوي دون أن ينطق بكلمة واحدة.

توجّه إلى إحدى الغرف بعيداً عن غرفته الخاصة، غرفةً مُجهّزةً بكل اللوازم التي قد يحتاجها. دفعها إلى داخل الغرفة بقوة فسقطت على السرير الواسع المُغطّى بأفخم أنواع الحرير. بدأ يخلع قميصه الأسود ببطء متعمد، كأنّه يُريد إشعال نار الرعب في قلبها. ظهرت عضلاته المشدودة تحت إضاءة الغرفة الخافتة، مُضيفةً إلى مظهره مزيداً من الهيبة والرجولة الخشنة. ليقول بصوت حاد لا يُقبل الرفض:

"تحمّلي وقاحتي يا حياة...".

تداعى قواها أمام ذلك الوحش الذي يقف أمامها، وكلماته تتردد في أذنيها كصرير الباب في ليلة عاصفة. أحست بالرعب يتسلل إلى قلبها مثل حيّة باردة تزحف ببطء على جسدها النحيل. كلماته "تحملي وقاحتي يا حياة" كانت أشبه بوعد بعذاب لا ينتهي، بوعد بسلب كل ما تبقى لها من براءة وكرامة.

اقترب منها بخطوات ثابتة، كقدر مخيف لا مفر منه. أطبق على شفتيها بقُبلة عنيفة، قُبلة مشحونة بالغضب والرغبة في السيطرة. تلوّت بين يديه كفريسة سقطت في فم أسد ضار، تحاول الابتعاد عنه بكل ما أوتيت من قوة، لكن هيهات... كانت ضئيلة الحجم كثيراً بالنسبة له، وكأنها فراشة صغيرة تحاول الإفلات من قبضة نسر جائع.

احتدّت قُبلته أكثر فأكثر، كأنه يريد معاقبتها على مقاومتها الضعيفة. أحست بأنفاسها تتقطع في صدرها، ودموعها تتدفع من عينيها كسيل عارم. أرادت الصراخ، أرادت دفعه بعيداً عنها، لكن جسدها خانها وتحول إلى كتلة واهنة لا حراك لها.

ابتعد عنها فجأة، وهو يلهث بشدة. اختلطت أنفاسهما الساخنة في الهواء الخانق للغرفة، وأصبح وجهها قريباً جداً من وجهه. لعق دماء شفتيها التي نزفت من فعل قُبلته الوحشية، والتَمعت في عينيه نظرة انتصار مرعبة.

لم يكفه ذلك العقاب البدني الذي ألحقه بها، بل أراد أن يُذيقها مرارة الإهانة ويشعرها بأنها لا شيء سوى لعبة صغيرة بين يديه. وبدأ بتمزيق ملابسها بقسوة وانتهاك صارخ لكرامتها، غير عابئ بصراخها وتوسلاتها المحطمة. تجمّدت مكانها وهي تشاهد فلات قميصها تتناثر على الأرض، كأنها أجزاء من روحها الممزقة.

انكمشت على نفسها وهي تبكي بصمت، تحاول إخفاء جسدها العاري بيديها الصغيرتين. ظنت لوهلة أنه سيكتفي بذلك القدر من التعذيب النفسي، لكنها كانت مخطئة. اقترب منها مجدداً، وهمس بصوت أجش بجانب أذنها:

"هذه ليست سوى فركة أذن صغيرة يا حياة... فلا تحاولي الوقوف في وجهي مجدداً.. وبالمناسبة، أنت مثيرة جداً".

همهم في ختام جملته، وكأنها خاتمٌ لمعاهدةٍ ظالمةٍ، قبل أن يُطبع قبلةً سريعةً، باردةً كالثلج، على رقبتها المُكشوفة. ابتعد عنها بخطواتٍ واثقة، مُتجاهلاً تماماً ذلك الدمار الذي خلّفه في داخلها، ليعود أدراجه إلى غرفته، ويُغلق الباب خلفه بهدوءٍ مُريب.

انهارت حياة على الفراش، غارقةً في بحرٍ من الدموع المُرّة، تلعن حظها العاثر الذي قادها إلى هذا الكابوس، مسجونةً في شباكِ رجلٍ قاسي القلب، لا يعرف الرحمة.

End flash back..

تنهدتْ بعمقٍ عندما استعادت وعيها، مُصممةً على عدم الاستسلام، لن تدعه يُسيطر عليها، ولن يرسم لها طريقاً تسير عليه وهي مُجبرة. كراهيةٌ شديدةٌ كانت تشتعلُ في قلبها تجاهه، تتضاعف مع مرور كلّ ثانيةٍ يقضيانها معاً، فكيف ستتحمل العيش تحت سقفٍ واحدٍ معه؟

"الهروب"، كانت تلك هي الكلمة التي لمعتْ في ذهنها كشعاعِ نورٍ في ظلمةِ ليلٍ حالك، الهروب من ذلك المنزل، من ذلك الرجل، من تلك الحياة التي تُهدد بتحطيمها.

سمعتْ طرقاتٍ خفيفةً على باب غرفتها، فشهقتْ بخفةٍ، وانكمشتْ على نفسها، اعتقدتْ في بادئ الأمر أنهُ هو، عاد ليُكمل ما بدأه، لكنها سرعان ما تراجعتْ عن تلك الفكرة، فهو لن يُكلف نفسه عناءَ الطرق، بل سيقتحم الغرفة دون ترددٍ، فهو لا يعترفُ بحدودٍ، ولا يطلبُ الإذن.

"تفضل"، قالتها بصوتٍ خافتٍ، لتدخل عليها امرأةٌ في أواخر الثلاثينات من عمرها، ترتسم على محياها ابتسامةٌ لطيفةٌ،

"صباح الخير آنسة حياة، السيد إياد ينتظركِ في الأسفل، لقد طلب مني أن أُخبركِ."

تحدّثت رباب، الخادمة، بصوتٍ هادئٍ مُطمئنٍ، بينما أومأت حياة برأسها بصمت، تُحاول جاهدةً السيطرة على ارتعاش جسدها.

غادرت رباب الغرفة، لتنهض حياة مُتوجهةً نحو الحمام، تأملُ أن تُهدئ مياهُ الدش الدافئة من روعها. خرجت بعد قليلٍ، تلف جسدها بمنشفة بيضاء، تبدو عليها ملامحُ الإرهاق، عيناها مُحمّرتان من كثرة البكاء، وشفتيها متورمتين، كأنها تُخبران قصةَ الألم الذي عاشته ليلة أمس.

توجهت نحو خزانة ملابسها، تختارُ ملابسها بعنايةٍ، تحاول جاهدةً استعادة بعضًا من قوتها، لكنّ صوتَ باب الغرفة الذي فُتح بعنفٍ، جعلها تنتفضُ من مكانها.

التفتتْ برعبٍ لتجدهُ يقفُ عند الباب، مُتسلحاً بنظراتٍ ثاقبةٍ كأنها خناجر، يقترب منها بخطواتٍ بطيئةٍ مُتعمدة، تُشعرها بمدى ضعفها أمامه.

تراجعتْ إلى الخلف، حتى التصقتْ بالحائط، محاصرةً بينه وبين جدارٍ باردٍ لا يُقدم لها أي حماية. اقترب منها أكثر، حاصرها بذراعيه، مُشكلاً سجناً من جسده، قبل أن يهمسَ في أذنها بصوتٍ مُخيفٍ،

"لا داعي للخجل مني عزيزتي، لقد رأيتُ تفاصيل جسدكِ الصغير ليلة أمس."

تملكها الخجل في تلك اللحظة، وكأن العالم قد انحسر في زاوية واحدة من تلك الغرفة المظلمة، حيث وُضعت أمام تحدّي غير مسبوق. كانت تلك اللحظة الأولى التي يحدثها بها أحدهم بأسلوب يحمل شغفاً بارداً في طياته. ابتلعت ريقها بقلق، توتر يتسلل إلى أحشائها، وخوف يطغى على نظراتها. ضحكة مكنونة ارتسمت على وجهه وهو يراقب احمرار وجنتيها، كأنهما زهر في بركة ماء ساكن.

نظراته كانت قاتلة، باردة كجليد قارس، تستلب منها القدرة على النطق. حين مدّ يده ببطء على طول ذراعها، شعرت كما لو أن جسدها قد جمد في زمنٍ غير محدد، وكأن تحذيراً خفياً يقضي عليها بالابتعاد. جفلت، فابتعدت برفق وسرعة.

"لم لم تنزلي للأسفل؟ ألم أبعث بالخادمة لتطلب حضوركِ؟" جاء صوته مفعماً بنبرةٍ باردة، كأنما يستنطق جليداً مضطرباً.

ابتلعت ريقها مجدداً، مجففاً من تلك الرجوعات الصوتية، فتحت فمها لتقول: "أجل، لكنني كنت أستحم، لذلك تأخرت قليلاً."

همهمة ماكرة تضجرت من بين شفتيه:

"لم لم تنادي علي لأساعدك في حمامكِ؟"

نظرت له بنار الغضب، قدرتها على التصدي لتلك الدهشة في عينيه، فصرخت بنبرة حادة كما لو أنها تصرخ في أعماق ليلٍ قد أظلم:

"الزم حدودك معي، هل فهمت؟"

ضحكة رنانة خرجت من صدره، وكأنها رنين جرس بفعل عاصف. امتدت يده لتلامس خدها، وكان كجرحٍ بداءٍ مجهول، تحدث بنبرة حادة:

"إياكِ أن ترفعي صوتكِ في وجهي، هيا ارتدي ثيابكِ والحقي بي."

انهمرت كلماته كتنازلاتٍ عن قوته أمامها، ونهضت عيناها لتواجه نظراته الباردة، أبرزت فيها مزيجاً من ورق الشجر المنكسر تحت وطأة الزمهرير. خرج تاركاً إياها، بينما كانت مشاعرها تتنازع بين الخوف والاشمئزاز.

حين خرج، تنفست بعمق، كمن خرج من نفق مظلم إلى ضوءٍ يضيء آلامه. كان قلبها ينبض مراراً، بائحتاً بالتوتر، فتوجهت فوراً لتفك قيود نفسها عن الملابس التي ستمس جلدها في تحدٍ جديد. ولكن فكرة النزول إليه كانت تفزعها أكثر من آلام ثيابها، لذلك قررت البقاء في قصر وحدتها.. في عالم حقيقي من الغموض والقلق.

خطت نحو الباب، وقفت لتحكم إغلاقه، كأنما تلملم نفسها من شظايا تفكيرها. تنفست بعمق بينما تفكر في حالها، هل تكون فعلاً في مواجهةٍ مع حائطٍ مسنودٍ بأسلحةٍ قاتلة؟ هي تتحداه بأفعالها، لكنها لم تدرك بعد من هو إياد، وما القدر الذي يمكن أن يفعله بها إذا استمر التحدي.

هي ما زالت عائدةً حديثة عهدٍ عليه، خطت خطوات غير محسوبة؛ لذلك، كان من المؤكد أنها ستضعه على شفير حافة الجنون. وعندما يحدث ذلك، لن تُغفر لها مغامراتها في عالم لا يرحم، حيث ستمسي فريسة في قبضة مفترس شرس، حكيم بقدر ما هو وحشي. في تلك اللحظة، أدركت كلاً من الخوف والقوة داخلها، ودارت في حلقها تساؤلات عن الأثمان التي ستدفعها في سبيل محاولة معرفة من يكون هذا الرجل، ومن تكون هي في عالمه.

تجلس في حالة من التوتر البالغ، تقضم أظافرها بغفلة، تتخبط في دوامة من الشكوك التي تعصف بفكرها، غير مطمئنة لقرارها المتسرع. كانت قد سبق لها أن بحثت في أعماق قلبها عن أسباب تستحق المغامرة، لكنها الآن تجد نفسها محاصرة بتفاصيل اللحظة. تتحرك قدمها بتوتر، وتتنهد بين الحين والآخر، بينما هو يقبع أمامها، يتأملها بابتسامة مريحة وكأنها لطيفة في هذا العالم القاسي. تبادله ابتسامة متوترة تتخللها الأنين، قبل أن تضغط على شفتيها بقلق.

"ألن نذهب؟" تسارعت الكلمات من فمها كفراشة مذعورة.

رد بابتسامة عذبة تنبع من أعماق نفسه:

"حبيبتي، دعينا نجلس قليلاً، ما بكِ على عجلة من أمركِ؟"

تناقضات المشاعر تتأرجح داخلها، بينما أجابت بتوتر:

"لا، لكن جدتي ستقلق علي إذا لم أعد في وقتي."

ابتسم لها ابتسامة صغيرة، جعلت قلبها يتوقف للحظة، فقال:

"لقد أحضرت لكِ مفاجأة، انتظريني قليلاً."

حركت رأسها بإيجابية، بينما شعور القلق يتسلل مجدداً إلى قلبها. دخل إلى الغرفة ثم عاد حاملاً ثوباً جميلاً يصل طوله إلى منتصف الركبة. انتزع منه ضحكة فرحة عندما رأته: "جميل!" قالت وكأن قلبها قد انتعش.

"هل أعجبكِ؟" سأل، تنبعث من عينيه إشارات مكائد غير مرئية.

أومأت برأسها، ليرد داعياً بثقة:

"أريد أن أرى كيف ستبدين به. هيا، انهضي وارتديه، أرجوكِ، حبيبتي."

ابتلعت ريقها بتوتر، ونزعت أنفاسها:

"لا، لا، سأرتديه فيما بعد."

لكن تغيير تعابيره كان واضحاً؛ انزعج واقترب ليجلس بجانبها:

"حبيبتي، هيا، لأجلي، أريد أن أراكِ، ادخلي هناك وارتديه."

ببطء، حركت رأسها بتردد وانتصبت لتدخل الغرفة، وتغلق الباب برفق خلفها. خلعت ثيابها لتبقى في ملابسها الداخلية، ثم أمسكت بالثوب وارتدته بسرعة، كأنما كانت في سباق مع الزمن. خرجت بابتسامة خجولة، لكنه لم يقتنع بمشاعره بعد؛ اتسعت ابتسامته ونهض ليقف أمامها منبهراً.

"يا إلهي، تبدين جميلة، حبيبتي!" همس وهو يتفحص جسدها بعينيه الجريئتين.

توردت وجنتاها عند سماع المديح، فأجابت بخجل:

"شكراً."

همهم بسخرية:

"أريد أن أتذوق القهوة من يديكِ الجميلتين. هيا، المطبخ أمامكِ."

ابتسمت بحياء وحركت رأسها بالموافقة، متوجهةً إلى المطبخ لصنع القهوة. في تلك الأثناء، كان هو يبتسم بمكر، يدخل الغرفة مرة أخرى ويخرج من هناك بشيء صغير. جلس على الأريكة، مستهجناً ومستهزئاً بحالها، وهو ينتظر أن تأتي اللحظة المناسبة لينقض.

لم تمضِ دقائق حتى خرجت تحمل القهوة بين يديها. قدمتها له، وجلست بجانبه، بينما عينيه تتلصص على سذاجتها. احتست القهوة، وكأنها تتذوق مرارة الحياة. تنهد بقوة ثم نهض ليجلس بجوارها، مما زاد توترها. حاولت أن تبقي على هدوئها، غير راغبة في إظهار شكوكها، لكنها لم تستطع ضبط أنفاسها.

"حبيبتي، ما رأيكِ أن نرى فيلماً جميلاً؟" قال بهمس خفيف.

أجابت:

"لا أمانع، ولكن ما نوع هذا الفيلم؟"

ابتسم بمكيدة مضمرة في عينيه:

"سترين الآن، يا قلب رائد."

عض على شفته السفلى وهو ينظر إليها بجرأة، ثم توجه إلى التلفاز ليضع الفيلم الذي يعده بعناية. بينما كانت هي تجلس منتظرة بفضول، ما إن انطلق الفيلم حتى جحظت عيناها، وسقطت دمعة بريئة على وجنتها دون موعد.

"أوقفه!" صاحت مرتجفة.

نظر إليها باستمتاع:

"دعينا نرى قليلاً، حبيبتي."

"أرجوك، أوقفه!" كررت بلهجة باكية.

أمسك بجهاز التحكم، أوقف الفيلم، ثم نظر إليها بنظرة ماكرة. جلست على الأريكة، وضعت يديها على وجهها، وأجهشت بالبكاء. تقدم نحوها وجلس بجوارها، ومسح على شعرها بيده برفق، وهو يتحدث بنبرة حزينة وساخرة: "توء توء توء، يا له من وقح وسافل الذي فعل هكذا، أليس كذلك، حبيبتي؟"

نظرت له بعينيها الباكيتين:

"أرجوك أعطني هذا الفيلم، أرجوك."

ابتسم بخبث:

"أتظنينني غبياً، مثلاً؟"

تحدثت متألمة:

"أرجوك يا رائد، لا تفعل بي هكذا."

ضحك ضحكة رنانة، وأجاب:

"لم يجبرك أحد على المجيء إلى هنا! أنتِ أتيتِ بقدميكِ، ولن تذهبي قبل أن تعطيني ما أريد."

صدمتها كلماته:

"وما الذي تريده مني؟"

اقترب من أذنها، همس قائلاً:

"أريدكِ، أنتِ."

لا تستطيع تصديق ما سمعته، قلبها يكاد يتوقف. شعور الخيانة يتفتح على كرامتها، لقد أحبته وهو غدر بها، كذب عليها، تلاعب بمشاعرها برؤيته المظلمة: "أرجوك، اتركني، لا تفعل لي شيئاً، أنا سلام، ما بكَ، لما تفعل معي هكذا؟"

ابتسم بسخرية:

"أنتِ أصبحتِ دميتي، سأحركِكِ كيفما أشاء، وستقومين بإطاعة أمري وإلا سأقوم بنشر هذا الفيديو على جميع مواقع التواصل الاجتماعي، أفهمتي أم لا؟"

احتدمت مشاعرها، لم تعرف كيف ترد، أو ما قد تفعله، لكنه لم ينتظر إجاباتها، بل اقتحم شفتها بقبلة حادة وعميقة. بينما أخذت تصرخ، تدفعه بقبضتها الصغيرة، في محاولات يائسة لتخليص نفسها.

كان يجلس في صالة منزله الواسعة، حيث تتناثر الفخامة بين أركانها كأحلام بعيدة. كان جسده يتمايل برتابة تفضح توتره، وقدمه تتحرك بلا وعي، تعبيراً عن حنقه الذي أخذ يشتعل كالنار في الهشيم. عروقه البارزة على جبينه دليل على ثورة مشاعره المتأججة، كان الغضب يحفر عميقاً في ملامحه، ويشعل نظراته التي تبدو كفوهة بركان قد يثور في أي لحظة.

نهض فجأة بعنف لم يألفه، متوجهاً نحو الطابق العلوي كأنه أسد يبحث عن فريسته. انتظرها طويلاً، وكل لحظة تمر كانت كخنجر يغرز في قلبه. لم يهتم بمدى نجاحه في مقاومة نوازعه، فقد استطاع أن يمنع نفسه من الاقتراب منها، حتى لا يقع تحت وطأة تأمل نظرة الانكسار التي تغزو عينيها. لكنه كان يعرف في أعماق نفسه أنه لن يتركها أبداً، فهي تتحداه في فرض سطوتها. وهنا كان جنونه يفرض عليه أن ينطلق نحو عرينه.

توجه نحو غرفتها، وعندما أدرك أن الباب مغلق، عانقته خيبة أمل ساحقة. كانت دقات قلبه تتسارع، وصدور أنفاسه تشبه دقات الطبول في معركة قد بدأت للتو. حرك يده بقوة على الباب، صوته المتصاعد كان كفأس تكسّر الجليد، وهو يتوعدها بأنه لن يرحمها.

حياة التي كانت منكمشة على نفسها في عزلتها، تبكي كالعصفور المحتجز داخل قفصه، تخشى أن تواجهه، فهي تعلم أن الاحتكاك به يعني الاستسلام لنيران الغضب التي لا تنطفئ.

عندما لم تستجب له، كانت أصوات أنفاسه الحادة تضج كعواصف الشتاء، وفي لحظة تجلى فيها جنون الغضب، تحركت خطواته عائدة للخلف قبل أن ينطلق بانفجار شديد لكسر الباب، وكان ذلك إيذاناً بأن الطوفان قد أقبل. كسر الباب كان مثل قناية فاجرة، فما إن انفتح حتى داهمت عينيه عتمة الغرفة، ليعثر على حياة في زوايا الفزع، عيونها الحزينة المحمرة من البكاء تنظر إليه كأنها ترى مجرمًا قد غطى السماء بظلاله.

تقدَّم نحوها، وعيناه تلمعان كفنار في عتمة المجهول، اقترب من سريرها، وأبعد الغطاء عنها بعنف ليرى ملامح الخوف التي تعكس ضياء روحه المنكسرة. لكن قسوة قلبه لم تنفك عن انتزاع أدنى قدر من التعاطف، فكل ما كان يشغله هو عدم طاعتها لأوامره، كأنها تحدّت سلطته بطريقة مباشرة. ثم سمعته يرخي أنفاسه إلى أذنيها كشتاء عاصف، نبرته مزيج من الهدوء والرعب:

"لماذا لم تضيئي لي دروبك بالنزول؟"

لم يكن لديها قدرة على النطق، بل ارتجفت في مكانها، كطائر محاصر يدرس كل معطيات محنته. أكمل حديثه بلهجة مخيفة تُسافر عبر الفضاء الفسيح:

"لماذا لا تطيعين أوامري؟ أحاول أن أكون معك جيداً، لكنك تجبريني على التمرد، لذا..."

ثم اقترب منها، وطبع قبلة سريعة على رقبتها، كأنما يُسجل انتصاره بالعناق، قبل أن يضيف كلامه المشؤوم:

"لذا، تحملي العواقب، لأنني سأريك من هو إياد..."

في تلك اللحظات، اختلطت المشاعر، وكأن الزمن قد توقف، إذ انحنت الحياة أمام شبح الفزع الذي يجسد كل المخاوف المكبوتة، بينما كانت حياة تحتظر تحت وطأة قدرها المظلم.

6

اقترب منها بنظراته الحادة التي تشي بما يدور في أعماقه، ثم استقر بشفتيها قبلة عميقة، أشبه بسنوات من العذاب مختزلة في لحظة. لم تكن تلك القبلة عابرة، بل كانت تعبيراً عن غضب يحترق في داخله كالنار مع الحطب. لم يترك لها مجالاً للتنفس، كأنما كان يحاول خنق كيانها، لولا أنه رأى وجهها الذي اكتسى باللون الأحمر. ابتعد عنها لفترة قصيرة، أنفاسه المتسارعة والحارة تلفح وجهها كعاصفة صيفية، بينما كانت هي تُعاني من انقباض صدرها، تتنفس بسرعة كمن فقد الأمل.

وحتى في خضم الدموع المترسبة على خديها، تملكتها شجاعة غريبة، فهي لم تتوانَ عن صفعه على وجهه كالعاصفة التي تنفجر لتحطيم سكون الليل. تفاجأ بالصفعة، وكأنما وقت الزمان قد توقف للحظة، ثم سرعان ما احتد غضبه مجدداً، وعيناه احمرت كرماد غير مُطفأ، وبدأ اللهاث يتمايل على شفتيه كأفعى مستعدة للانقضاض.

فقد السيطرة على نفسه، وقام بالهجوم عليها بجنون، يُنزل عليها الضربات كما لو كان يمطر شظايا الغضب على قلبه. لم يسمع صراخها الذي يشبه أنين الرياح المشتتة، ولم يعنِ له بكاؤها شيء. كل ما كان يشغله هو سطوته المنتحرة، تلك القوة التي تمنحه شعوراً بالهيمنة حتى فقدت وعيها.

عندما ابتعد عنها، كان ينظر إلى الفراغ بعينين زائغتين، كمن اكتشف عجزه في وجه نفسه. ومن هو الذي يجرؤ على ضرب فتاة كحياة؟ ابتلع ريقه ومسح وجهه بكفه كأنه يحاول محو آثار الجنون التي جرفته بعيداً. نهض من مكانه، يتجول في أرجاء الغرفة كنمر ضال، وعقله يدور في دوامة من الأرق والندم.

وهنا، كان الطوفان من الصرخات تعود، لتكسر دائرة صمته بإعلان وصول الطبيب. جاء الأخير ونظر لحالة حياة المروعة، وقد شجب نظراته، ليقول بجدية:

"سيد إياد، الفتاة بحاجة إلى الراحة، فحالتها تستدعي عدم الضغط عليها، وإلا ستتدهور حالتها وتفقد الوعي مرة أخرى."

نظر إليه إياد بعينين مشدودتين كالأفق، وأجابه بنبرة جافة:

"متى ستستيقظ؟"

"فقط بحلول المساء، وهذه الأدوية... تحتاجها."

ولكن الطبيب، وكأنه يخترق جدار الوعي الذي كان يحاول إياد بنائه حول نفسه، اعترض بسؤاله:

"كيف تعرضت لهذه الكدمات؟"

أخذت أنفاس إياد تتسارع، وابتسم الطبيب بتوتر، ليقول في نفسه:

"بالشفاء العاجل، عن إذنك."

لم يكن لإياد رد، بل ظلت نظراته مرهقة حتى رحل الطبيب، تاركاً إياه في عزلته.

توجه نحو السرير، حيث كانت حياة ملقاة كالعصفور الجريح، لام نفسه بشدة على تهوره، بل وعلى تسرعه الذي أودى بها إلى هذه الحالة. أفسح المجال لعتبة التردد لتعبر عذابه، وراح يتأمل ملامح وجهها الهادئ وكأنما يراها للمرة الأولى. لكنه لم يكن يهتم بها لأسباب إنسانية، بل لأنه أرادها قوية وصحية عندما يحين الوقت لتسديد دينه.

وعندما التقت أصابعه بشعرها، خاف أن تنزلق روحه وراء تلك القسوة التي دبت في نفسه. تذكر سبب إقامتها معه، فتجدد الغضب في قلبه. اقترب منها، ونسي أحاسيسه كعاصفة جرفتها الأمواج، ثم تمتم بكلمات هامسة تحمل بداخلها وعودً مدمرة:

"أريدكِ أن تستيقظي سريعاً، لأريك كيف سأعذبك وكيف ستفقدين عفتكِ على يدي، عزيزتي حياة."

توقف للحظة ليشتم رائحة الورود المنبعثة من جسدها، ولكن هذا الجمال لم يرحمه، بل زاد من ظلمه. انتشر عبير رائحتها في أفقه كغيمة مفعمة بالمشاعر المتناقضة، ليدرك بأن هذه الفتاة ليست أكثر من وسيلة لنيل انتقامه.

بصوتٍ مملوء بالنوايا المظلمة، تابع:

"لا تطيلي بالنوم، حبيبتي، فقد انتظرت طويلاً، آن أوان جعل قلبك يرقص خوفاً."

أنهى جملته، ثم ابتعد عنها، كمن يتخلص من عبء، وخرج من الغرفة متوجهاً إلى شركته، وهو يتوعدها بأفعال لا يمكن أن يسامح نفسه عليها، ذلك الشغف الذي منحه للفتاة المسكينة كانت جراحه أكثر عمقاً مما يبدو.

▪▪▪

كانت تمضي في سبيلها إلى منزلها وقد اخترقت قلبها خناجر الندم والخيبة، كأنما ارتكبت جريمة بوعي أو دون وعي. لم تفعل شيئاً يستحق كل هذا الألم، ولكن مجرد ذهابها إلى بيته والتمتع بجسدها تهمة لا تغتفر. لقد خان ثقتها واستغل عواطفها كالأدوات، مستحوذاً عليها للوصول إلى أهدافه الأنانية.

تساقطت دموعها بغزارة، تسكن في عينيها حكايات من الخيبة والضعف، وبينما كانت تائهة بين ماضيها المؤلم وحاضرها الكئيب، رأت نفسها في مرآة جدتها، تلك الحكيمة التي طالما كانت لها السند والعون. كيف ستواجهها بكلمات الاعتراف والإحباط؟ كيف ستعبر عن خيبة الأمل التي شعرت بها تجاه شخص منحته مشاعرها بلا تردد؟

الدنيا حولها تلاشت وكأنما أظلمت، وراحت تكرر في أحشائها أسئلة موجعة. كيف غدر بها؟ كيف استطاع استغلال قلبها البريء؟ كم كانت ساذجة حين استسلمت لوسامته وكلماته المعسولة، وكيف استطاعت أن تبني أحلامها حول إنسان كان في الأصل قاسي القلب؟ لم تدرك أن الطعنات تأتي غالباً ممن تسكنهم أسرار قلوبنا، وأنها كانت جوهرةً مكنونة في أعين مَن يعتبر الحب لعبة.

شعرت بآلام عميقة وسط حزنها المستمر. كيف لها أن تحاجج قلبها الذي علمته أن الحب جمال وصدق، بينما لم يكن له غير الجرح والخيانة؟ لماذا كان بجانبها؟ هل كانت مجرد تسلية في حياته، أو فراغ عاطفي ملأه بها؟ لكنها رغم كل الحب حصدت الألم، والدموع التي سكبتها كانت غالية، وكأن كل واحدة منها كانت تعبيراً عن انكسار الروح.

وبينما كانت أشعة الغروب تتسلل، مما جعل السماء تتلون باللون الذهبي الأليم، دخلت البناء، مشغولة بذاتها وذالك الشاب الواقف أمامها، سرعان ما انتبهت لصوته الجاد.

"سلام مابكِ؟" سألها بصوت يعلو على ضجيج أفكارها.

التفتت إليه، تكاد تُشعل الجمرات في عينيها، وردت بتوتر رهيب:

"ماذا؟"

تأمل في عينيها، معرباً عن قلقه:

"ما بكِ؟ لماذا تبدين في هذا الحال؟ هل حدث شيء خطير؟"

أشاحت بوجهها عنه، مختزلة ألمها في كلمات باردة:

"لا لم يحدث شيء، شكراً على سؤالك، لكن أرجوك اتركني الآن."

وتركته خلفها، ورمقت بصرها إلى الأرض حيث كانت خطواتها تتلاشى، وكأنما كانت تخشى أن تترك خلفها قلباً مضطرباً يُعاني من مشاعر متضاربة.

بينما كان ينال يراقبها بشغف، تفاعلت مشاعره بين الشفقة والألم، فهو لم يكن يعرف سبب تصرفاتها المتقلبة. في بعض الأيام كانت تفتح له قلبها، وفي أخرى تكون كالصخرة. لم يكن يعلم أن كل تفاعل يأتي في سياق مأساوي يتعلق بالذي غدر بها؛ رجل لا يعرف عن الحب شيئاً حقيقياً، وذو قلب مليء بالظلام.

ومع ذلك، قرر أن يسرد آلامه أمام إياد، فعندما التقيا في المكتب، كانت أجواء الحزن تغلف المكان.

"ماذا، هل رأيت حبيبة قلبك وتحدثت معك بطريقة متعجرفة أم أن هناك شيئاً آخر؟" سخر منه إياد، وقد رآه يدخل بعبوس، كأنه يحمل جراحاً جديدة.

نظر ينال إلى الأرض، وكأنه يخفي سراً عميقاً، ورد بصوت يكاد يكون همساً: "في كل مرة أتيت إليك تسخر مني، ولكنني أعود بكل سذاجة لأشتكي لك."

تنفس إياد بعمق، وقد أحس بالذنب تجاه صديقه، وقال بهدوء:

"لكن، إلى متى ستستمر في هذا العذاب أيها الغبي؟ لماذا لا تحاول أن تتسلم الواقع؟ عشقك لها يدمر روحك."

أجفل ينال، وكأنما أصابته كلماته بسهم مباشر. أجاب ببأس:

"لكنني نذرت حبي لها، لا أستطيع أن أراها تتألم."

رد إياد بشيء من الجدية:

"تتألم بمفردك، لكنك لا تُدرك أنها لا تبادلك نفس الشعور. عليك أن تكون شجاعاً، اقطع هذا الشعور قبل أن يتحول إلى جرح عميق ينهش قلبك."

وبرغم كل شيء، كانا يجلسان في مكتب يصنعان أحلاماً جديدة. لكن في أحد الزوايا، كان هناك قلب مجروح يدق بصوت عالي، يحمل آمالاً وآلاماً كموج البحر العاتي، مستعداً لوضع حكاية جديدة عن الحب، ولن يتوقف حتى تُداب الجراح.

ظل ينال جالساً، كتمثال صامت ينحت في حجر الجليد، إذ كانت كلماته تتردد في عقله مثل نغمة حزينة تعزف على أوتار قلبه. كان يعرف أن هذا العشق سيتسبب في هلاكه يوماً ما، ولكنه كان عاجز عن الفكاك منه. كلما رآها كان قلبه يخفق كأنه يرتدي عباءة من العواطف الملتهبة، وها هو يتخبط بين مشاعره القوية وكبريائه المهزوم.

"سأحاول أن أبتعد، سأحاول أن لا أهيم بحبك، ولكن على من سأكذب؟" همس لنفسه، ولكن قلبه لم يكن يستجيب لأوامره البائسة. كيف له أن يبتعد عن زهرة الحياة التي نمت وسط أعماقه منذ أن التقاها؟ منذ أن دخلت حياته براءة الطفولة، وكبر الحلم بعينيه وعلى روحها، أصبح تواجدها هو الهواء الذي يتنفسه.

استرجع ذكريات طفولتها، كيف كان يلاعبها، وكيف كبر حبه لها مع كل لمسة، كل ابتسامة. كان بعمر تسعة عشر ربيعاً، وقتما اقتحمت عليه حياته كإعصار من المشاعر. كانت طفلة صغيرة، ولكنه تألم بجروح العاشق الناضج. عذبه حبه الطويل، وأضناه بالصبر الذي لم يدم، وعاش كالأبله وهو يتجرع ذل هذا الحب في كل لحظة.

تنفّس بعمق ثم قال أخيراً بنبرة تفتقر إلى الحيوية:

"حسناً، ما أخبار الصفقة الجديدة؟"

تحدث إياد بتجهم يعكس صحو أفكاره:

"أمضينا العقد وانتهينا."

همهم ينال، وعلى ملامحه علامات الاستفهام:

"بالمناسبة، ماذا فعلت بتلك الفتاة التي تدعى حياة؟"

نظر إليه إياد باشتعال الغضب، وكأن سؤال صديقه قد أشعل ناراً كانت كامنة:

"لا شأن لك."

ابتسم ينال بسخرية، ونبرات حديثه تحمل في طياتها رائحة الفضول:

"منذ متى تقول لي 'لا شأن لك'؟ يبدو أن الأمور قد تضخمت، أليس كذلك؟"

تنهد إياد بقوة، تاهت نظراته في أرجاء المكتب، كأنه يبحث عن مخرج من حوارات السأم:

"اشتريتها من والدتها، إنها مستفزة لأبعد حد. أكاد أفقد عقلي من عنادها، لذلك قمت بضربها اليوم."

أبدى ينال تعجبه، لم تعجبه كلمات صديقه، فعبّر بحدّة:

"كيف تضربها يا إياد؟ ألا تعلم بأن هذا ليس من الرجولة؟"

ابتسم بسخرية مرة أخرى، والتي كانت تعكس انحرافه عن بوصلة القيم:

"أجل أعلم، لكن هذه الفتاة مستفزة بشكل لا يوصف. كما أنها لم تر شيئاً مني بعد."

هز ينال رأسه يميناً ويساراً، وخرجت من بين شفتيه تمتمة:

"لا يوجد أمل منك."

رد إياد ببرود، وهو يلتقط خيوط الحديث:

"هل قلت شيئاً؟"

لم يكن لينال صوتاً ليرد، بل أدرك أن صديقه يعيش في عاصفة من الغضب والخيبة:

"لكني لا أستطيع أن أتخيل كيف تفكر، لنترك هذا الأمر. اسمع، هل ترغب حقاً في التقرب منها؟"

إياد، الذي لم يكن قد استوعب بعد ما قاله ينال، اكتفى بالاستماع. فكر: ماذا يعنى بالتقرب؟ هل يقصد أن يدخل عالم الحب مرة أخرى بعد أن تحطم قلبه في تلك العلاقة السابقة؟

"سأذهب لأنتهي من أعمالي، إلى اللقاء." أنهى ينال حديثه، وغادر المكتب تاركاً إياد غارقاً في أفكاره.

تنفس إياد بعمق، وكلمات صديقه ترن في ذهنه. لقد خذلته امرأة تعلقت بها روحه، وتزوجت من غيره. دفعه الألم إلى الكره، ليس فقط تجاهها بل تجاه الحب نفسه. أراد أن يحطم قلبها كما حطمت قلبه، ولكنه عرف أنه لن يفعل. خانته مشاعره، فتركها للزمن كناية عن الانتقام.

توجه إلى منزله، وحين فتح الباب عليها وجد حياة في غرفتها وقد استيقظت لتوها. بنظرات جافة، سرعان ما غلبتها دموعها لتبكي. عواطفه تجمدت، أُودعت في ثلاجة من قسوة ذكريات الحب والمعاناة. لم يشعر بالحزن، لم يعد يُدرك أي شعور إنساني.

ابتسم بسخرية، ليجلس بجانبها:

"اسمعيني جيداً، إذا كنت تريدين أن تكوني بخير، فاستمعي إليّ ولا تكوني عنيدة. وإلا سترين ما لم تحسبيه أبداً. ما زلت جيد المعاملة معكِ، ولم تري شيئاً من غضبي بعد يا حياة. لذا أطيعيني، ومن دون عناد وتحدٍ، لأنكِ في كلتا الحالتين ستخسرين."

ومع مرور الكلمات، كان كل منهما في عالم آخر. واحدة تغرق في بحور البكاء، والآخر تتسرب إلى أغوار من الغضب واللا مبالاة.

أسرها الحزن وكأنما هو سلاسل من الحديد تقيدها. دموعها تدحرجت بصمت، وكأنها نهر من الألم يغمر قلبها، بينما كان يتنهد إياد بقوة، في محاولة خادعة للسيطرة على نفسه. لقد كان قلبه ينبض بغضب مكبوت، ولم يمنعه سوى سكون حياة. فقد منذ أن وطأت قدماها أرض منزله، لم يرَ منها إلا العناد، ذلك العناد الذي كان له مرآة عواطفها النبيلة، ولكنها كانت محاصرة داخل جدران خفية من اليأس.

بابتسامة ساخرة، أطلق إياد صيحة لا تخلو من الاستهزاء، مردداً:

"ألن تكفين عن البكاء، يا فتاة؟ دموعك ستنفذ، حتماً!". كان صوته يهتز من الضحك، لكن في أعماق كلماته كانت تشير إلى شيئاً أكثر قسوة؛ شعور بالاستعلاء، شعور يعكس صراعات روحه.

فجأة، توقفت حياة عن البكاء، وكأنما استجابت لنداء داخلي، لترد بنبرة ترتجف فيها الأمل:

"حسنً، سأطيع أوامرك، لكن لي رجاءٌ صغيرٌ: لا تقترب مني، ولا تريني وجهك أبداً".

وقف إياد في دهشة لتلك الجملة التي أطلقته منها، وضحك بشدة حتى أدمعت عيناه. لم يزده هذا الضحك إلا وسامة، فقد بدا كالأعصار في عينيه غموض شغوف، ولكن بينهما كانت حياة؛ شعلة من الفوضى والضعف.

تحرك نحوها في تحرك سريع، ليصبح وجهه مقابلاً لوجهها. همس في أذنها بنبرة غامضة وحادة:

"اسمعيني يا حياة، أنا لا أستقبل الأوامر من أحد، أفعل ما يحلو لي، ومع من أريد. لذا، اتقي شري وغضبي. لعلمك أنتِ جميلة للغاية، ولا أستطيع احتمال وجود امرأة مثلِك حتى ولا أقترب منها."

حياة، كلما ارتسمت أمامها صور الآلام والتعذيب، آثارت بداخلها شجاعة مضطربة، فنفت برأسها وقالت بصوت راجٍ:

"أرجوك، لا تقترب مني. أعدني إلى والدتي، أرجوك،"

ولكن ضحكاته الساخره أعادتها إلى واقعها المرير:

"أعتقد أن حياتكِ مع والدتكِ لن تكون رائعة مثلما ستكون هنا، لذا ابقي، أردتي أم لم تريدي، ستبقين هنا رغماً عن أنفكِ، وإلا ستصبحين في عداد الموتى."

ما كان منها إلا أن أجهشت ببكاء حاد، لتعتبرها الحياة أكثر قسوة:

"إذاً اقتلني وخلصني من تلك الحياة البائسة، هيا، ماذا تنتظر؟". ابتسم إياد ببروز، محدثاً بنبرة تعكس سخرية حزينة:

"الموت راحة لكِ، ولكنني أريد لكِ العذاب، صدقيني".

انفجر صوت حياة بالاحتجاج، مبطنة كلماتها بنبرة قاسية:

"هذا لأنك نذل وحقير، ولا يوجد لديك ذرة شفقة." أمسكها من شعرها بحركة سريعة، مما جعل صرخاتها تتعالى في تلك الغرفة المظلمة:

"حياة، لا تفقديني صوابي، هل فهمتِ؟ لا تجعليني أفقد أعصابي، وإلا سترين من يكون إياد، سترين غضبي الذي لم يره أحد بعد."

كانت الآلام تعتصر قلبها، وقبضته كانت كخنجر ينغرس في كيانها، لكنه أطلق سراحها ليقع في صمتٍ مبهم:

"ستأتي الخادمة لتطعمك وتعطيك دواءك، ومن بعدها نامي، هل فهمتِ؟" اعترضت حياة، بحماسة مستبدة:

"لا لم أفهم، ولن أتناول الطعام."

نظراتهما تلاقت كفصول من كتاب ملئ بالصراعات. كان إياد يحاول أن يظهر سلطته على تلك الفتاة، التي أثارت في داخله مزيجاً من الغضب والشغف:

"إذاً، ستخصصين وقتك لي، فقد اشتقت إلى تلمس جسد امرأة، ما رأيكِ؟".

جفلت من كلامه وانكمشت على نفسها كعصفور بريء، ليبتسم بسخرية وينادي على الخادمة.

عندما توجهت الخادمة رباب إلى الغرفة، توقف الوقت لبرهة، وكأن الضياع أصبح قدراً محتماً. "أمرك سيدي"، مخاطبة إياد.

"أجلبي الطعام لها، وأعطِها الدواء، ودعيها تنام، وأبلغي الحرس أن يشددوا الحراسة في الخارج، فقد تكون لدينا قطة مشاكسة تنوي على الهروب...".

كانت حياة ترتجف، متسائلة:

"هل يوجد حرس؟ لم أراهم!". ابتسم إياد بسخرية، وكأنما قلبت الرياح المواقف، ليقول: "وكأنني أهتم لكِ، إياكِ والعبث معي يا حياة، وإلا ستنالين عقابكِ".

أفسح خاطرها المجال لنظراتٍ حادّة، تلاها نظرة باردة منه، قائلاً:

"غبية". وعندما أغلق الباب خلفه، كسر جليد الوحدة، وتفجرت كلمات حياة لتصل إلى آذانه بقوة:

"بل أنت الغبي أيها اللعين التافه، أكرهك!"

ولكن المجهول كاد أن يأتي، فقد فتح الباب فجأة، وبينما كانت تتمنى أن لا يكون إياد قد سمع، وقع بصرها على وجهه الغاضب يتجه نحوها بتؤدة، وكأن عذوبته الوحشية قد ارتسمت على وجهه. شهقت والرعب يهدد كيانها، بينما اقترب:

"من هو الغبي واللعين؟" همس وكأن يده تمتد لتلك اللحظة التي تبين فيها أن القلب محكوم بعدة حبال من الخوف والألم.

7

لم تُلفظ حياة حرفاً، بل ظلت تحدق به بخوف، وكأن الهُموم تتسرب إلى أعماقها كخيوط عنكبوت تُتَشبَّث بكل ركن في روحها. عيناها، المزيج الرائع من لون البحر، كانتا تُخبران قصة تستعصي على اللسان. تاهت بتلك النظرات الحادة اللامعة بالغضب، بينما تسارعت أنفاسها، كأنها تُحاول محاكاة دقات قلبها الذي كان يُصر على الخفقان بقوة. مرت بنظراتها على شفتيه الممتلئة، ثم اكتشفت ذاك الطابع الرجولي المُعبر الذي يزين ذقنه بقوة، وكأن رجولته كانت تسحبها نحو غياهب المجهول.

هو بدوره، شعر بأن عصا الزمن وقفت لحظةً ليواجه تلك النظرات السحرية، التي تنضب منها كل شعاع للشقاء. لا يمكن إنكار أن عينيها هما مرآة لآلامها وحزنها العريق، لكنَّ في تلك الأمواج العاطفية، وجد نفسه لا يُدافع عن نفسه أمام سحرها. بضغطة خفيفة من الشجاعة، اقترب ثم فاجأها بقبلة ناعمة كنسيم الفجر تُلامس الندى على الأوراق، جعلتها تغلق عينيها وتستسلم لأحلامها التي كانت تُراودها منذ زمن. تسارعت كلماته الرقيقة بنغمة فريدة، لكن كان عليها أن تتعلم كيف تُبادل تلك اللحظات السحرية، في حين كان يسحب جسدها إلى عالم آخر، تاركاً خلفهما أي قوانين تحكم الواقع. لكن فجأة انتزعها صوت جرس داخلها، نذير خطر، فابتعدت عنه، مُتفاجأة من اللحظة التي سلبتها وعيها. شهقت شهقة صغيرة، كيف لها أن تستسلم بهذا الشكل لمَن اعتقدت أنها تكرهه؟ كيف غفرت له كل تلك الآلام والمرارات بسهولةٍ غريبة؟ استبدل هو الدهشة بعيون مُترقبة، وفي عيونه كان تفسّخ الهدوء الذي جاء بعد عاصفة عاطفية. غابت ملامح الغضب من وجهه وبدلاً منها ظهر انبهار وحيرة؛ كان يُعاني من سحر عينيها، وكأن اللحظة كانت انطلاقة نحو السماء لاحتسائهما معاً.

كان يفكر بعمق، كيف لبرودة الماضية أن تتلاشى بنار واحدة من تلك اللحظة؟ بما كان يُفكر، ولماذا بدت هادئة في مواجهة ألمه؟ بينما كانت حياة تُخفي دموعها تحت ستار من الخجل، قررت أن تُخفي وجهها بيديها، تحت وطأة اللحظة المُخجلة التي غنت لذاتها. امتصت خجلاً عميقاً وكأنها تتحول إلى تمثالٍ من الشمع، وتجمدت في مكانها. نهض هو أخيراً، معتنقاً مشاعر متضاربة تربط بينه وبين ذاك العتاب الفطري، وغادر الغرفة بسرعة، مُصفراً على الباب خلفه كأنه يُغلق خلفه كل حطام اللحظة.

في داخل غرفته، كانت الشياطين تُحلق حوله، تُندبه للذل الذي وجد نفسه مُنقاداً إليه. لم يقاوم تذكر تلك القبلة، ومداعبة شفتيها اللتان كانت لهما سحر خاص، حتى بلل شفتيه وكأن طعمها ما يزال حاضراً.

"كيف حصلت على ذلك؟" تساءل، مُغازلاً نفسه في صراع داخلي. أين القوى التي كانت تُحرك مشاعره؟ لماذا لم تُناضل، لماذا لم تشتمه بعد القبلة؟وفي هذه الأثناء، هُنا حياة تبكي بصمت، تلوم نفسها بلا ملل أو هوادة.

"كيف استسلمت له وهزمتني مشاعري بهذه السهولة؟" تساءلت، وكأنها تتحدث مع روحها التي منعت عنها الحب. دخلت الخادمة رباب بابتسامة رقيقة، محملة بالطعام والدواء، وجعلت حياة تُبادلها بابتسامة مصطنّعة تحاول أن تُخفي ما بداخلها. لكن ذلك لم يُخدع رباب، فمعرفة أجنحة الهموم لم تقتصر على الأثرياء فقط.

"آنستي، يجب أن تأكلي وتتناولي الدواء لتستريحي"، قالت رباب، ثم حركت حياة رأسها بتردد، عازمةً على كسر هذا الاستسلام. ابتسمت حياة بابتسامة شاحبة، قائلة لها:

"رباب، لماذا هناك حراس أمام الباب؟"

فأجابت رباب بصوت هادئ:

"لأن سيدي يريد ذلك."

ضحكت حياة قليلاً، محاولة تحويل الجو من الكآبة إلى مزحة خفيفة:

"أجل، أعلم... ولكن هل هم كثيرون؟"

حركت رباب رأسها في موافقة صامتة، ولم يُسمع منها سوى همسة تقدم لها طمأنة غامضة. وبعد لحظات من التوتر غير المُعلن، طلبت رباب الإذن بالخروج، تاركةً حياة لتستمتع بوجبتها الخاصة. لكن لم يكن بالإمكان تجاهل الأفكار التي كانت تدور في رأس حياة، فتسللت إلى عالم من الخيال والشوق، وإلى خطة هروبها التي كانت تدور في ذهنها، كقمر في سماء الفضيلة.

تجلس تلك الفتاة الصغيرة على سريرها، تضم ركبتيها إلى صدرها، بينما دموعها تنساب بلا رحمة على وجنتيها المنتفختين. لم تتفوّه بكلمة واحدة منذ أن وصلت إلى هذا المكان، بل انزوت في غياهب غرفة عزلتها، باكيةً في

صمتٍ يجرح القلب، تشتم ذلك الوحش الذي يسعى لافتراس روحها، مبدداً جميع الأحلام الجميلة التي كانت تُراودها. لم يكن لها ذنبٌ سوى أنها أحبت بحرارة، ووضعت ثقتها في شخص لا يمتلك من الإنسانية شيئاً. فجأة انبعث رنين الهاتف من داخل عزلتها، ليُفاجئها برؤية اسمه يلمع أمامها. شهقت بقوة وعضّت على شفتها السفلى، فيما زادت دموعها فورةً، وكأنّها نهراً غاضباً.

لم تستطع تحمل صوته، ولم ترَ سبباً للحديث معه، فقامت بفصل الخط، لكن لم يلبث أن أعاد الاتصال كمن يلتصق بأحلامها التعيسة. نجت من اتصالاته، لكن سكينة قلبها لم تُعَد كما كانت. سرعان ما تلاقت عينيها مع إشعار آخر على شاشة هاتفها؛ كان الفيديو الذي صوره لها، ومع كل ثانيةٍ تمر، كانت آهةً تعلو في قلبها. ألم وكرامة ضائعة برزت في لاوعيها، مُعيقةً لها من التفكير بشكل منطقي. كانت الرسالة التالية حارقة، كلماته تشع بالإذلال:

"لا داعي للهروب مني يا سلام... تذكّري ما يمكنني فعله بكِ... يجب أن تكوني عندي غداً في الساعة الثانية عشر."

ازدادت دوامات الدمع في عينيها، حين أدركت مدى الخطر الذي يُحيط بها، وكيف اشتعلت شرارات الغضب في قلبها. قررت أن تُغير مسار قصتها، معبرةً للمخاوف التي كادت أن تُنهي وجودها. سُرعان ما تحوّلت الفتاة الجميلة ذات القلب النقي إلى أقوى مما كانت، وبدأت تراودها الأفكار عن طرق تُنجيها. ففي ظلمات الحقد، ومكر الدوائر الرديئة، ولدت في داخلها قطة شغوفة، لن تفرط في نفسها، ولن تسمح له بأن يدنس براءتها. عندها رن هاتفها مرة أخرى، وكان الصوت الذي أعاد إليها بعض الأمل:

"أهلاً، كيف حالكِ سلام؟ أردت فقط الاطمئنان عليكِ لأنني شعرت أن مزاجك ليس على ما يرام."

كانت الإجابة مُحاطة بالجمود؛ تنهدت بعمق وكأنها تضع ثقل العالم على عاتقها: "أجل، صراحةً، لست بمزاج جيد، ولكن لا تقلق، أنا بخير، وشكراً على اهتمامك."

همس ينال بنبرة رقيقة، بلل شفتيه قبل أن يقول:

"لا داعٍ للشكر سلام، نحن أصدقاء. أي شيء تحتاجينه، لا تترددي في مهاتفتي، اتفقنا؟"

كانت كلماته كأنها صدى أمل في قلبها المثقل بالآلام. تنهدت بحرقة تمتزج مشاعرها بين الشكر والضعف، ثم أجابت بنبرة مهزوزة تشبه همسات الرياح: "حسناً ينال... مع السلامة."

رد عليها ينال باستغراب:

"مع السلامة."

ومع إغلاقها للهاتف تلاشت القوة التي حاولت اكتسابها في لحظة، لتبدأ عواصف بكائها من جديد، وكأنها تُطلق آهاتٍ مختبئة في أعماقها منذ زمن بعيد. أما ينال، فقد شعر بشيء من الغيمات الثقيلة تتلألأ فوق رأسه، معلنةً عن عاصفة من القلق. كان يدرك أن ما يجري معها ليس من الأمور الهينة، بل شيئاً عميقاً وجارفاً، مما لا يمكن أن يُعتبَر عابراً.

تلاعبت أفكاره كأوراق شجر تتراقص في مهب الريح، وهو يحاول فك شفرات قلقها. بعقله المرهف وبمزيج من مجمل مشاعره، استرجع شريط ذكرياته معها، يعرف كيف تتحفز أفكارها، وكيف تتقاطع مشاعرها، فكان دائماً ذلك الصديق الذي يشكو له الزمن عذابه. منذ طفولتها، كانت تحب العزلة، لم تألف مشاركة آلامها مع أي كان، حتى جدتها العزيزة.

في زوايا مكتبه، بدأ يتنقل بين النهار والليل ذهاباً وإياباً، وكأنما يمشي على حافة بيته المرمم بذكريات الحزن. كيف يمكن له أن يدخل الفرح إلى قلبها المحطم، كيف يمكنه أن يخرجها من ظلال الكآبة التي تحيط بها مثل سحاب كثيف؟ كان يسير بخطى متوترة، مُثقلاً بأفكاره، وكأنما يكافح ضد موجة قاسية من الحزن. وها هو ينسب لنفسه قسوة الوعود التي قطعها لنفسه قبل لحظات، حيث أقسم على عدم الاكتراث بها، ولكن تلك العهود تبددت أمام ضوء عينيها الحزينة، وجذبت قلبه إلى صباحات فرحة سابقة، حيث كان الضحك يختلط بعبير الذكريات الجميلة. أدرك أنه لن يستطيع الإفلات من شباك هذا العشق، كأنه عصفور محبوس داخل قفصٍ من المشاعر المكثفة. إما أن تكون له، فتزهر الحياة من حوله، أو تنحسر عنه ليصبح مجرد مُراقب يتسلى بحزن، محاولاً نسيانها بقدر ما يسهر على آلامه. تنهد بقوة وعاد إلى أعماله، لكنه كان جالساً على مقعده المنزوي بينما كانت أفكاره مطمورة في بحر عذاباتها، وعقله يتقلب بين سطور الحياة الهادئة وظلال المعاناة التي تكتنف روحها. في تلك اللحظة، أحس بحضورها، كان يسكن بين الكلمات، ويطل من بين الأماكن التي تفوح بعبق الذكريات المشتركة، مثل نجم مُضيء في السماء.

في ظلمات المساء، كانت حياة تجلس في ركن غرفتها، حيث التنفس صار عبئاً، والأنفاس المتقطعة تحمل في طياتها أمنياية الحرية. لقد أعدت نفسها بجرأة حتى انتهت من تجهيز هروبها، فقصص الحياة المقيدة لم تعد تحتمل أن تُروى بها مرة أخرى. كل ما كانت تريده هو أن تنفصل عن تلك الروح التي سلبت سعادتها، وشعرت أن الجدران الأربعة، التي من المفترض أن تحميها، قد أغلقت على روحها كقبر مغلق.

أخذت تنظر لساعة الحائط، عقاربها تدور ببطء، وكأنها تتعمد تأخير اللحظة التي ستحط فيها أقدامها بعيداً عن تلك الديار. ولكنها عرفت أنها لن تذهب إلى والدتها، فالذكرى التي تحيط بها، تلقي بظلالها على قلبها، والنفس تشتاق لحياة جديدة، بعيداً عن الانتقادات والقيود. تسللت إلى الممر، دلّت أطراف أصابعها إلى الأرض، وكأنها تحاول اكتشاف عالم جديد كلياً. لكن وكأنما كانت أطياف الحراس تحوم حول المكان، كتبت المشاعر في قلبها من جديد. واحدة من تلك الأقدار، التي جعلت الحراس يقفون في حديقة المنزل مثل تماثيل الحجر، كانت بمثابة عائقٍ آخر لحريتها.

تأملت ذلك السور أمامها، الذي يبدو عقبة عظيمة، وكأن الزمن قد وقف أمام عينيها عازماً على منعها من الخروج. لكنها كانت مصممة على المضي قدماً؛ اختارت أن تتحلى بالشجاعة، فقفزت بكل قوتها، وجسدها الصغير ترك أثره في الهواء كفراشة تحاول الإفلات من قيد شبكة العنكبوت. وعندما سقطت على الجانب الآخر، شعرت بلسعة الهوى تأخذ بأنفاسها، لكن الابتسامة التي ارتسمت على شفتيها كانت بمثابة ضوء أمل يخترق ظلمتها.

"حراسٌ أغبياء، وسيدهم أغبى منهم"

همست لنفسها، وضحكة خافتة ملأت المكان من حولها. ساقاها ابتدأتا بالركض نحو المجهول، وكأنها تركض خلف أحلام غائبة.

بينما كان إياد، بعد لحظاتٍ قصيرة، يعود وسط هدوء المنزل المريب. القلق كان يحيط به كعاصفة، لكنه استغل برودة عواطفه كدرعٍ منيع يختبئ وراءه. دخل إلى غرفتها بسرعة وفتح الأبواب، كأنما الحيرة تملأ قلبه، لكنه لم يجد سوى الفراغ الذي يصرخ بصوت عالٍ. اندفع إلى الحمام ولكن بلا فائدة. وضعت يده في جيبه، ضحكة احتوت على الغضب والسخرية، فعاد إلى الطابق السفلي حيث راحت أرجل الحراس تتراقص في عالم بعيد عن الحذر. وقف أمامهم، عينيه تجلجل بالنار، فتحدث بنبرة يُشعر من خلالها بقوة تسري في عروقه:

"كيف تفشلون في رصد غيابها أيها الأغباء! لكن سأعطيكم فرصة واحدة فقط. اخرجوا للمدينة، وابحثوا عنها، لكن احذروا، إياكم أن تلمسوها. إذا وجدتموها، فإن قلوبكم سترتعش من العقاب الذي أعدّه لكم."

في أذهانهم، احتشد الخوف وانطلقوا يتناوبون على البحث عنها، تلك الفتاة التي استنزفت قواهم ومزقت جدران صبرهم. أما إياد فقد استند برأسه إلى الخلف، وأغمض عينيه، مستغرقاً في خيالات عينيها الناعستين، مبتسماً ابتسامة شريرة، كأنه كان يبحث عن فريسته في صمت الليل. كان يعرف جيداً أنها ستسعى إلى الهرب، لكن ما يدهشه هو حماسها، فهي لم تدرك بعد مع من تتلاعب.

أما حياة فكانت تركض بأقصى ما تمنحها قواها المستنزفة، حينما تلقت ضرباته، ومع ذلك، استطاعت الزحف إلى الأمام، متمسكةً بأملها في الهروب من جحيم ذلك المنزل.خرجت في تلك اللحظة مجموعة من الرجال، بملامحهم القاسية، كأنهم قد هبطوا من كوكب آخر. اتسعت عيناها رعباً عندما اقترب أحد الحراس، بلهجة رسمية قاسية، فقال:

"آنستي، السيد إياد بانتظارك في المنزل، تفضلي معي."

كانت كلماتهم كالمطرقة على قفا أحلامها، كيف علموا بمكانها؟ وأين كان هو عندما اعتقدت أنها بعيدة؟ دخلت السيارة وقد غمرها حزن عميق، تعرف أن هناك فخاً ينتظرها. ستعود إلى جحيمها، إلى ذلك الغضب المتأصل، أو أن تفر لتجد نفسها محاطة برفاق الغضب، فهي في كلتا الحالتين كانت الخاسرة. أنفاسها كانت تتعالى كعزف مؤلم، بينما نصبت رأسها فوق الأمل، فغادرت تلك السيارة لتنغر في شباك الألم.

وصلوا إلى المنزل الذي احتجزها في ظلاله الكئيبة، حيث اختبأ إياد كالنمر الجائع يترقب فريسته. كان يجلس ويحمل كأس الخمر في يده، والدخان يتصاعد من السيجارة بصمت ليخترق المكان. عينا إياد الأشد قسوة من السكين، تلاقت بنظراتها المتوتر. شعرت بأن الحذر والقوة تخللا كل طرفة عين، وكأن الخاسر الوحيد هو عشقها للحياة الذي يتوارى خلف خوف يبدو وكأنه محيط عنيد. عندما أشار بإصبعه، انسل الحارس بعيداً، تخلت حياتها عن أي مخرج ممكن. وهي تتسمّر في مكانها، القلب يضرب في صدرها بشدة، اضطرابها استنشق كل هواء الغرفة. اقترب منها إياد، وخفته في الحركة جعلتها ترتجف، كأنما تتعامل مع وحش لن يرحم. أبتسم ابتسامة مرعبة، وكأن الغيوم احترقت في عينيه، وهمس برفق يمزج عذوبته بالخطر:

"أتهربين مني، يا حياة؟"......

8

ارتجفت أطرافها حين ارتفع صدى نبرته الشرسة، وابتسامته الشريرة التي ظهرت كغيمة كثيفة تظلل وجهه الوسيم. نظرت إليه بعيون مليئة بالخوف، وقد كانت كلماته تتردد في عقلها كأصداء بعيدة. كانت قد استهزأت به منذ حين، وضحكت على غبائه، ولكن الآن وبينما ظلام تلك الليلة يحيط بها كحبل ملتف حول عنقها، شعرت بأن الزمن قد توقف وأن كل شيء قد انقلب.

"لماذا لا تتحدثين، عزيزتي؟" سمعت صوته مفعماً بالتهديد، كأنه ينفذ لذاتها كخنجرٍ مُحدّب. كان ينظر إليها بعينيه العسليتين، اللتين بدتا كعيني نمرٍ جائع، يتربص بفريسته. أحست بالفزع يزرع شوكته في قلبها، وبلعت ريقها بصعوبة، محاولةً أن تجمع الخيوط المبعثرة من كلمات التبرير، ولكن ما من شيء يمكن أن ينجح في تنقية ذلك المطر الأسود الذي كانت عالقة فيه الآن. في لحظة من الضعف، شعرت بدموعها تتساقط، وكأنها نهر يُغرق الجفاف الذي كانت تخفيه. كان انتشاؤه بكاءها كشرارة نارٍ تشتعل في عينيه، جعلته يتجه نحوها بجسده مباشرة، ممسكاً بمعصمها كغاصبٍ للحق بحريةٍ لم تكن لها. اشتدت قبضته، وكأنها عاصفة قد هبت على سماءٍ ملبدة، والوجع الذي تولد في يدها سرى إلى أعماق روحها، مختلطاً بالخوف يعلو مع صرخاتها المكبوتة. عادت إليها مشاعر السخرية التي لطالما نالت من كبريائه، فابتسم بابتسامة الغادرين، متلاعبة بالمخاوف.

"ألا تودين الحديث؟" همس، وكلماته كانت أشبه بلسمٍ مُسمم. انحنى نحوها، رائحته كانت خليطاً من القوة والخطر، وعيناه تغمرهما لهفة الانتقام. جرفها بحركة خاطفة إلى حضنه، وكأنها دمية بين يديه، ليصعد بها إلى قمة جحيمها

الذي لم يكن في أفق الخيال.في تلك اللحظة، كانت أحلامها تتأرجح بين ضوءٍ باهت وظلامٍ حالك، وضياعٍ لم يكن مفراً منه. كل ما بقي لديها هو الرجاء بأن تلك الليلة السوداء، التي اختارتها الأقدار، ستؤول إلى نهاية لم تكن تتوقعها، ولكنها كانت تعرف يقيناً أنه لا ملاذ لها من قبضة مصيره القاسية.

تسللت أشعة الشمس الذهبية محاولة اختراق ستائر الغرفة، حيث جلست سلام على سريرها وكأنها تمثالٌ من شمع، شاردة الذهن، عيناها السوداء تشعان بألم عميق، تعكس كل ما عاشته في الليلة الماضية. وجهها شاحب والهالات السوداء تحيط بعينيها كحافة مظلمة تبرز بؤس روحها. لم تستطع النوم، فقد تجاذبت أفكارها في صراعٍ داخلي لا ينتهي، تبحث عن مخرج من مأزق قصتها الصعبة التي أضحت ككابوس يلازمها. تنهدت عميقاً ورفعت نظرها نحو الساعة التي تشير إلى الحادية عشرة صباحاً، خائفة من اللقاء به، ومن وعيده الذي يترقبها في الأفق. وكأن ذلك الصمت الذي يحف بها يشعرها بالخنق، سمعت طرقات رقيقة على باب غرفتها، فحاولت استجماع شتات نفسها، جففت دموعها ووقفت بتكاسل، لتفتح الباب بعد أن أقفلته على نفسها منذ عودتها البارحة. دخلت جدتها عابسة الجبين، تنظر إلى حفيدتها بقلقٍ عميق. انضمت إلى جانبها، محاطة بروحها الدافئة:

"سلام، ما الذي يحدث؟ منذ البارحة لم تكلّميني، ولم أستطع رؤية ملامحكِ. هل حدث لكِ شيء أم أنكِ في كابوس لا أستطيع إنقاذك منه؟"

وبدلاً من أن تجيب، شغلت سلام شريط ذكرياتها، إذ كانت خائفة من الاندلاع. فأخذت تلقي نظرتها نحو نافذة الغرفة، تتأمل الفضاء الخارجي، وكأن البحث عن الكلمات يشبه البحث عن ظلال في ممرات عتمة. هزت رأسها برفق، مازالت تلتزم بالصمت. أعادت الجدة محاولة استنطاق روحها، لكن صوتها أصبح أكثر حدة، تنبعث منه الألوان العاطفية في جو الغرفة:

"لا تتظاهري بالراحة، أنا أعلم أنكِ لستِ بخير. قولي لي، ماذا يحصل، فأنا هنا لأساعدكِ."

امتعضت سلام، وخرج صوتها المكتوم كزخة مطر في يومٍ مشمس:

"لا شيء، جدتي. فقط أشعر بالتعب، لدي امتحانات يجب أن أذهب إليها، وقد تأخرت بالفعل."

نهضت ببطء، مستسلمة للحياة الروتينية، لكنها لم تستطع التخلص من ذلك الثقل الذي يجثم على صدرها. انشغلت بإتمام روتينها اليومي، وحيث بدت مستقرة، كانت في داخلها تضطرب الأمواج العاتية. غادرت المنزل دون أن تودع جدتها أو تلقي عليها التحية، مختلطة المشاعر، وارفة الشكوك. وفي أحشائها، كانت تتساءل: ماذا سيفعل بها؟ كيف سيجبرها على شيء لا تريده، ما لم يكن زوجاً صالحاً، يؤمن بحبها ويشاطرها الأحلام؟ كانت تمشي والأرض تتلاعب تحت قدميها، بينما كانت دموعها تُعاكس الرؤية، مشوشةً لها الرؤى.

فجأة، صدح صوت هاتفها، بينما قلبها يتسارع، لتجد اسم المتصل يركض في عينيها مثل جرحٍ ينزف. كان هو، تنهدت بعمق؛ همسات الخوف تتداخل داخلها، وجاء صوتها يحمل جعبة من الضيق:

"ماذا تريد؟"

فاجأتها ضحكته المستفزة، التي تشبه أزيز حشرة يقف على أذنها. تمنت لو تنشق الأرض لتبتلعها، إذ أحست بأن بركان الغضب سينفجر في لحظة. جاء صوته كالعاصفة:

"برأيكِ ما الذي أريده يا سلام؟ اسمعيني، لقد قاربت الساعة على الثانية عشرة، وإن لم تكوني عندي في الوقت المحدد... سترين ما سأفعله بكِ. هيا، لا تتأخري!"

أنهى جملته بحزم، وبأمر متسلط، جعل صوت الهاتف يتوقف فجأة، كأن قدراً مُعتماً قد هبط من السماء. شعرت سلام ببراكين الغضب والضعف تنفجر داخلها، وانفجرت من عينيها دموع حارقة. شتمته ولعنته بصوت مرتفع، غير مبالية بنظرات المارة الذين بدوا وكأنهم يشاهدون مسرحية حزن. كانت تفتش عن سبيل للراحة، فقامت بمسح دموعها بباطن كفها، وعزمت على التوجه إليه على الرغم من الارتباك والضياع الذي كان يعتصر قلبها.لم تكن تدرك أن عينين كانت تراقبها، شغوفةً لمعرفة قصتها.

كان ينال يحاول فهم تلك الدراما المشتعلة في سطور عينيها الحزينتين، قرر أن يتبعها، عسى أن يعرف سبب حزن تلك الفتاة التي تأسر روحه بآلامها. تسارعت خطوات سلام نحو المبنى الذي استأجر فيه ذلك الشاب شقته من أجل أن يلبي شهواته، وكأن أسوار ذلك المبنى تحمل في أحشائها قصصاً من القهر والأسى. تنفست بعمق، متجهمة، وصعدت السلالم خطوة بعد خطوة، وكأن كل درجة تشدها إلى الأعماق في بحر هائج من مشاعر متضاربة. عندما وصلت إلى الباب، صغطت جرسه، ففتح لها بابتسامة ماكرة، تحمل في طياتها الكثير من الخداع. تقدم منها خطوة، وأمسك بيدها بلطف ثم طبع قبلة على خدها، وكأن التعبيرات السخيفة للحب قد ملأت المكان.

"حبيبتي، أنتِ فتاةٌ مطيعة، تحبينني جداً"

نظرت له بجمود يعكس النيران التي تحترق في داخلها. اختلطت مشاعر الحب والكراهية بداخلها كالألوان في لوحة فوضوية. لم يصدر منها سوى نظرة احتقار، على الرغم من كل ما كان يكنه قلبها له سابقاً. سحبها إلى داخل الشقة، وأغلق الباب خلفهم بطريقة غير واعية، غير مدركٍ كيف كانت تلك العيون التي تراقبهم، مذهولةً عن عجزها عن الفهم.

داخل الشقة جلس بجانبها، وكانت مسافة كونهما معاً تمتلئ بالفراغ والصمت. اقترب منه ليطبع قبلة على وجنتها، لكنها تراجعت عنه بسرعة، عازمة على إظهار قوتها رغم ضعفها. استمر في التحديق بها، وكأنه بدأ يشعر بشيء من القلق.

"سلام، أنتِ تعلمين ما يمكن أن أفعله بكِ"

قال بصوتٍ منخفض، ولكن حازم. لمعت عيناها بالدموع، وكأنها تتوسل إليه رحمةً:

"أرجوك، لا تفعل بي شيئاً، لا تؤذني، أرجوك"

تنهد بقوة، ورد عليها بلا مبالاة:

"لست أحمقاً لأؤذيكِ، لكن سأفعل ما أريده، فلا تخافي، لن تفقدي عذريتكِ"

ضحك ضحكةً ساخرة، كما لو كان مسرح الجريمة هو المكان المناسب لتلك النكتة. نظرت إليه باحتقار، مشاعرها متلاطمة بين الغضب والقلق. اقترب منها مرة أخرى، طبع قبلة صغيرة على خدها، ومرر يده برقة على وجنتها كأنها عصفور يداعب الرياح. همس لها بالقرب من أذنها بصوتٍ مفعم بالهيام:

"أحبكِ كثيراً، وأريدكِ كثيراً يا سلام."

توقف الزمن ولم تفهم معنى كلامه. كان قلبها ينبض بعنف، بينما هي عالقة بين الأمنيات والمخاوف. ابتلعت ريقها وهي تراه يخلع قميصه، ويقترب منها كعاصفةٍ قادمة بلا استئذان. زادت نبضات قلبها، وانتزعها الخوف من برودتها، ولكنه لم يمنحها فرصة للفرار أو القيامة بفعل خاطئ. توجه نحوها، كأنه يقترب من فريسته، وانقض على شفتيها، ضاغطاً بشغف ورغبة، كأنما كان في سباق مع الزمن، لتنجرف بهما الأمور نحو مجهولٍ مرعب، حيث الحب والكراهية يتعانقان في رقصة غير متوقعة.

استيقظت الفتاة من غفوتها تحت ضوء الشمس الساطع الذي تسلل عبر النوافذ، ليعكس أوجاعها في كل زاوية من ذاك المكان. كانت حالتها بعيدة عن الاطمئنان، فهي شاحبة الوجه، وعيناها حمراوان من آثار البكاء، بينما الشفاه متورمة كأنها تلقت ضربات قاسية. أكثر ما كان يثير الرعب في صدرها أنها كانت عارية تماماً، مقيدةً من يديها بجانب السرير، وكأنها طيفٌ محاصر في حكاية فظيعة لا يمكن الفكاك منها. راودتها أفكارٌ مشوشة، وتسللت إلى ذاكرتها أحداث ليلة مضت كالكابوس الذي يجرّها إلى القاع. كانت تلك ذكرى مؤلمة كالجمر، وتدريجياً بدأت تتكشف أبعاد ذلك الجنون الذي عاشته.

Flash Back.

دخل بها الغرفة، وبدون أدنى رحمة، رمى بها على السرير بطريقة وحشية، فارتفعت صرخة الألم من أعماقها. ازداد بكاؤها، واختلطت دموعها بآهات الرعب، وهو يقترب منها بابتسامة شريرة تتلألأ على وجهه، وكأن الشر نفسه قد نضب من عينيه. وفي هذه اللحظة، امتزج خوفها بفزعٍ غريب، ابتلعت ريقها وهي تشعر بأن العالم قد انقلب.

"ألم تعرفين من هو إياد بعد أيتها الصغيرة؟"

قالها بصوتٍ جاف، كجليدٍ خشن يجرح القلب. كانت تزحف إلى زاوية السرير، وكأن ذلك سيكون بمثابة ملجأ من تلك الأنانية التي يسير بها، إلا أن رعبها زاد عندما رأت الرغبة في عينيه، وامتدت يداه لتمزق ملابسها، كأنما كانت تلك هذه اللحظة ذنبها الأكبر. شعرت بفيضٍ من العري الذي غمرها، وبدا جسدها عارياً أمام تلك القوى الساكنة التي لا تكتفي بمشاهدتها. أجهشت بالبكاء، وكلمات التوسل تتدفق من شفتيها:

"أرجوك، لا تقترب مني، لا تفعل لي شيئاً."

والعالم من حولها يختطف أنفاسها، وهي تحاول أن تخفي ما تبقى من كرامتها بيدين صغيرتين، ولكن دون جدوى، فقراراته كانت محكومة بالرغبات المتوحشة. اقتحم شفتاها بفعل قبلة عنيفة لم تعرفها من قبل، كانت قبلة تشي بغيظه وغضبه، أصابها ألم يصرخ في أعماقها وترك شفتاها تنزف، أدمى تلك اللحظة الجميلة بذكرياتها المثقلة بالحزن، وانتزع منها أنفاس الألم، بينما كان يلعب بطريقة شيطانية، مرتشفاً إياها برغبةٍ مريبة، مستمتعاً بأنينها. جلب حبلاً طويلاً وكبل يديها بجانب السرير، وكأنه يريد أن يستمتع بمشهد تلك الفتاة الصغيرة العارية، التي كانت تبكي لمن لا يتأثر بلحظة ضعفها. كان ينظر لها وكأنها انتصاره، ودموعها كانت تعكس انتصار قسوته. لم يكن يعلم لماذا انقبض قلبه في تلك اللحظة، ولكن تلك الأنفاس المرتعشة نقلت له صدى مشاعر متناقضة لم يكن يريد مواجهتها. اقترب ليهمس من جديد، بفمٍ ملوث بالكلمات المحبطة:

"قلت لكِ، يا حياة، لا تلعبي معي، ولكنكِ لا تسمعين الكلام، ماذا أفعل بكِ الآن؟"

لم تُجيب، بل استمرّت في بكائها الحاد:

"ستظلين هكذا حتى يحن قلبي عليكِ، وعندها سأفك وثاقكِ وأجعلكِ ترتدين ثيابكِ"

قالها وهو يمرر يده على وجنتها برفقٍ زائف، وكأنما كان يزيف الحب بعبارة تحمل في طياتها ألف نحرٍ للعاطفة. ابتسم ابتسامة مُريبة، تكشف عن شخصية متناقضة للتعذيب والمتعة:

"أتعلمين، تبدين جميلة وأنتِ عارية، لا أريدكِ أن ترتدي ثيابكِ أبداً، فقط ابقي هكذا حتى يأتي على مزاجي، عندها سأعود لأمارس معكِ كل ما أريده، وحينئذٍ ستكونين جاهزة، حبيبتي."

أنهى جملته بضحكة مجنونة، ارتسمت على شفتيه كمن استحضر روح الغيوم السوداء التي كانت تحوم حوله. طبع قبلة صغيرة على عنقها، وهي مستسلمة تماماً، متفاعلة فقط بدموع تتدفق على وجنتيها، كأمطار حزينة تهطل على أرض موحلة. أضاف لها ببرود:

"لماذا هذه الدموع حبيبتي؟ لا، لا، وفري دموعكِ للمستقبل يا جميلة. اتفقنا، والآن اخلدي إلى النوم، هيا حبيبتي."

ثم طبع قبلة على وجنتها ورفع الغطاء بحنانٍ زائف ليغمرها، كأنه يرسم حدود العبودية حول جسدها، وغادر الغرفة تاركاً إياها في حضن ضياعٍ حار. كانت تبكي بحرقة، كطفلة فقدت لعبتها المفضلة.

End Flash Back.

قبل أن تخرج من شرودها على نبرة صوت باردة ومثيرة للاستياء. نظرت إليه لترى ابتسامة ماكرة مرسومة على وجهه، يركن بجانب الباب وكأنما يراقب تفاصيل انهيارها. كانت مشاعر الكراهية تشتعل في أعماقها، تتوق لمقتله، ولا ترغب في العيش في ظل وجوده. نظرة حقد تبادلتها معه، في حين كان هو يدير نظرته إليها بعنجهية، اقترب منها وهو يستمتع برؤيتها تجفل من اقترابه، ومرر يده على وجنتها عابثاً، وهي تحاول أن تخفي جسدها العاري بحركة تُظهر دلالتها على الرغبة في الستر من قسوته. قال لها بابتسامة استخفاف:

"لا داعي لذلك، حبيبتي، فأنا قد رأيتكِ عارية وانتهى الأمر."

انفجرت دموعها، وعبرت عن وجعها بطريقة خارجة عن السيطرة، بينما هو يراقبها بشغفٍ مشوّش:

"لا، لا تبكي، أرجوكِ، لا تعلمين ماذا تفعل بي دموعكِ، يا حياة. كفي عن بكائكِ، أرجوكِ."

شهقاتها كانت كزخات رعد، وبدت كأنها تطلق صرخات في فضاء غير مهتم. واصل حديثه باستمتاع:

"ألم تستمتعي بقبلاتي ليلة أمس؟"

لم ترد عليه، بل ظلت تبكي بوجعٍ لا يرحم. ولعب الشيطان في تفاصيل الأمور، فقال:

"ما بكِ؟ لماذا لا تتحدثين حبيبتي؟

تنفس باهتياج محاولاً التنقل بين مشاعره المُتخمة، ثم تابع:

"لقد حذرتكِ من اللعب معي يا حياة، ولكنكِ لم تستمعي، بل عاندتِ وهربتِ. لذا عليكِ تحمل العواقب. أقسم أنكِ لم ترَي شيئاً بعد"

انفجر بكاءها بكل ما أوتيت من قوة، حتى صرخت في وجهه:

"اللعنة عليك! كيف تجرؤ على أن تكون بهذه القسوة والأنانية؟ اتركني بحالي، لا أريد أن أرى وجهك، أنا أكرهك!"

ضحك وكأن كلماتها كانت تعزف لحناً قاسياً على أوتار الفوضى.

"ومن قال لكِ إنني أحتفظ بكِ هنا لأنني أحبك؟ أنا أيضاً أكرهكِ جداً. ولأنني أكرهكِ، سترين جحيمي الذي لا ينتهي! سأدعكِ تطلبين الموت، وكل هذا لتتعلمي كيف تقفين بوجهي."

اجتاحت دموعها المزيد من الدفء، حيث بكاؤها أصبح أشبه بأنينٍ في ظل العتمة التي تحيط بها.

اقترب منها بأنفاسه المتعسرة، ضاحكاً:

"أتعلمين ماذا تفعل والدتكِ، تلك اللعينة؟"

ضحك بصخب، وكأنه يجني فرحته من مآسي الآخرين، ثم قال:

"إنها تتاجر بالمخدرات، صدقيني، أستطيع أن أجعلها تقضي بقية حياتها في السجن، ما رأيك في هذا؟ وبهذا الأمر، سأكون قد أخذت حقكِ منها، أليست هي من باعتكِ لي؟"

ابتسم بتلك الابتسامة المستفزة التي تُثير في قلب حياة جمرات الكراهية، نظرت إليه بحقدٍ متوتر، وكأنما تعبر عن شجاعتها في مواجهة ظالم استخدم كل أسلحة قسوته ضدها، فردت عليه بلهجة نارية:

"بل أنا أريد أن أتخلص منك، لأنك سافل وحقير وحثالة. اللعنة عليك وعلى حظي العاثر الذي أوقعني في طريقك!"

احتدمت ضحكاته مجدداً وكأن كلماتها كانت تُدغدغ قسوة الواقع. ولكنه وسط هذه العصابة من الكلمات الجارحة، لم يهزأ بها. ربما كان سبب ذلك طبيعة حالته؛ إذ كانت مخدّراته تسحب منه الوعي وتجعله يعيش في عالمٍ غريب، مختلف تماماً عن ذلك الذي كانت تعيشه حياة. هو لم يكن يستهلك تلك المواد كثيراً، ولكنه كان يعتمد عليها ليرتقي بحال مزاجه المعتم، كأنه يتجرع ما تبقى من بهجة في عالم فقد ليونته.

وبينما هو يضحك بصخب، شعرت حياة بأن هذه اللحظة ليست سوى تذكير لها بجحيم وضعها؛ حيث حاولت جذب التاريخ الذي دار بينهما إلى الوراء، محاولة فك قيودها بأظافر مشروخة، ومثل قطة جائعة في شباك عدو. لكن القلب القاسي يبدو أنه لم يكن يرغب في منحها ولو جزءاً من جحيمها، فأتى صوت البازغ من فمه يحمل أوامره القاسية:

"لا تحاولي فك وثاقكِ، لأنكِ لن تهربين مني. ستكونين لي يا حياة، ستكونين لي أنا فقط! هل تفهمين؟"

كانت عبرات حياتها تتراقص بين شغف الخلاص وخوف الاستعباد، وفي صدرها كانت تشتعل نيران الأسئلة: كيف يمكن أن يكون إنسانٌ مريضاً بتلك الدرجة، يحتكر الحب والألم كأنهما ثمار شجرة واحدة، يقطف الثمرة حينما يشاء ليزهر الحزن في قلوب الآخرين؟ ركضت أشباح تلك الأفكار في عقلها، بينما تسللت دموع جديدة لتراق، وتلك البسمة الوقحة كانت تُحيط به كممسوس بأفكار المخدرات.

أنهى جملته وهو يمسك وجهها برفق، حديثه يتسم بنبرة هامسة ترافقها ظلال من الخبث، واقترب بقوة منتزعة، ليغمر شفتيها بقبلة عميقة، كانت تُشعل في داخلها مشاعر متناقضة بين الانفعال والخوف. حركت رأسها بعنف كأنها تسعى لابتعاده، ولكن قبضته كانت أقوى من تأملاتها، كأنما الصورة الفظيعة للواقع اعتنقت تقبيلتها لتبعد عنها بقية الأمل.

تساقطت دموعها كضمادات رقيقة على وجنتيها، وهي ترسل نظرة يائسة إلى هذا الكائن الغريب برغم قسوته. ابتعد عنها للحظة، وابتسامة غير واعية ترتسم على وجهه، كأنه يروي لنفسه قصة انتصار مشؤومة. ووسط شهقاتها المتقطعة، جاءت كلماتها مترجية:

"أرجوك، فك وثاقي ودعني أرتدي ثيابي. أشعر بالبرد أرجوك، إذا أردت يمكنك إقفال الباب عليّ، ولكن فقط فك وثاقي."

همهم إليها وفي داخله شعور غامض بالاستجابة، ليقول بصوت مشوب بالسرور:

"حسناً، ولكن بشرط."

حركت رأسها بارتباك، متسائلة عن طبيعة الشرط الذي يكمن في صدره، ليتابع بابتسامة ماكرة أضاءت عينيه بكل لؤم:

"سنستحم معاً."

جحظت عيناها بشدة، ورمت برأسها في رفض قاطع، فقالت بصوت يحمل صدمة مفعمة بالتحدي:

"ما الذي تهذي به، يا نكرة؟"

ضحك على ردها، كأنما كانت كلماته تُغمس في القسوة، ثم أضاف بلؤم

"ما سمعته هو ما كان. وإذا كنتِ ترفضين، ستظلين هكذا."

نظرت إليه بحقد متقد، وصارت الكلمات تندفع من فمها بالكراهية:

"اغرب عن وجهي، اللعنة عليك! اتركني، هيا، اذهب."

ابتسم لها بوقاحة وهو يستدير بجسده، يتمدد بجوارها على السرير دون أن ينطق بحرف، اختار أن يغمر نفسه في تأملات الشرود التي استسلمت لكل تلك الأرواح المظلمة. بينما كانت هي تنفجر في بكاءٍ مرير، تنحت بأصوات ضياعها، فانتبه إليها إياد، مبتسماً وكأنما يستمتع بمشهد المسرحية المقرفة التي أعدها:

"حسناً، سأفك وثاقكِ لكي تأكلي وتأخذين دوائكِ. انظري كم أنا حنون، أرأيت حبيبتي؟"

ولكن بكاءها ظل هو النشيد المرافق، ما جعل ابتسامته تغرق في أصوات الألم، فأضاف:

"صدقيني، أحببت تعذيبكِ، وعَلِمت كيف أعتاد عليكِ. ستظلين معي طوال العمر، اتفقنا؟"

نهض بتكاسل ليُفك قيودها، تبعتها رؤى الآمال المكسورة وهي تعتدل بجلسة تهزها مشاعر الرغبة في الخلاص. تغطت بالغطاء، وحركت خطواتها نحو حمام الغرفة، تحت نظرٍ يراقب تفاصيل جسدها الشاحب بشرود عميق.ظل يلاحق خيالها كما لو كانت كائناً من الأحلام، وهو يحدث نفسه بشغف مثير للحيرة؛ كيف له أن يفعل كل تلك الأفعال بنعمة الجمال الذي يراها أمامه؟ منذ أن دخلت حياته، لم يظهر لها سوى الجانب المظلم، لماذا لا يُظهر لها وجهه الآخر، لكي يكسب قلبها ويقبل عليها كما يشاء؟ تسللت الأفكار المنحرفة إلى داخله، كأنه يحاول إقناع النفس بأن هذا الأسلوب سيساهم في عدم إرهاق روحه بكثير من الصراعات. وببساطة، لم يكن ليتركها تغادر، ولن يغفل عنها قط مهما كلفه الأمر. بينما كان يفكر بكل تلك الخطط، انتشله من زوبعة أفكاره صوت هاتفه يرن بعنف، ليتحرك مُسرعاً خارج الغرفة ثم المنزل، متجهاً نحو مظهرٍ جديد من الفوضى، حيث انتظره العالم الخارجي بوجهه القاسي، ليُلقي وراءه كابوساً هارباً، ولتظل حياة محاصرة في عالمه المظلم.

"ماذا هناك، ينال؟"

تحدث إياد وهو يخطو خارج عتبة المنزل، طغت مشاعر القلق على صوته عندما وردته عبارة ينال القلقة:

"إياد، أريدك أن تأتي حالاً إلى المكتب. لقد افتعلت مصيبة."

تجلى القلق على وجه إياد، حيث عقد حاجبيه وشعر قلبه يقرع كطبول الحرب. تساءل ملياً:

"ما الأمر؟ تحدث."

ابتلع ريقه كأن كلماته عالقة في حنجرته، وأجاب بصوت خافت:

"عندما تأتي سأحدثك بكل شيء. أنا منتظرك في مكتبك."

أنهى إياد المكالمة وعقله مشغول بالأفكار.

كان عازماً على عدم ترك حياة تفلت من قبضته، أوصى الحراس بصرامة أن لا يدعوا لها أي منفذ للهروب. كان عقابه لهم ينتظر، لكن في تلك اللحظة لم يكن لديه متسع من الوقت للتفكير، فصديقه كان في محنة، ومن واجبه الوقوف بجانبه. أما عقاب الحراس وأمر حياة، فسينتظر.

في لمح البصر، وصل إياد إلى الشركة، وهرع كالسهم نحو مكتبه، تحت وقع نظرات الموظفين المتعجبة. بعضهم ألقى عليه التحية، لكن لم يكن شيئاً من ذلك يعنيه، فكل ما يشغل باله كان ينال. دفع باب المكتب ووجد صديقه جالساً، يضع كلتا يديه على رأسه، ساكناً كالتمثال، جامد الملامح، لا يدل على أي انفعال. اقترب منه إياد وكأنه يحاول استدراجه من عالمه البائس، وجلس بجانبه، واضعاً يده بحنان على كتفه:

"ما الأمر، ينال؟ ماذا حدث؟"

التفت ينال إليه، عينيه تشعان بالانكسار، صوته متصدع وكأن كل كلمة يقوله تمزق قلبه:

"لقد كانت عنده في المنزل، يا إياد."

تعجب إياد من تلك الحالة التي ينضح بها صديقه، متساءلاً بحيرة:

"من التي كانت في منزل من؟ لم أفهمك."

تحدث ينال بنبرة تتسم بالضعف، وكأن قلبه المثقل بالبكاء يخرج من حنجرته:

"سلام."

انهمرت دمعتان بريئتان من عينيه، وكأنهما نهر من الألم الذي اكتفى بصبّ نفسه في أعماق قلبه. قال بنبرة متوجعة:

"لحقت بها، ورأيتها تدخل إلى منزله. وكان يقول لها 'حبيبتي، مطيعة وتحبني جداً'. لقد خانت قلبي يا إياد، لم أعد أريدها أبداً. لا أريد رؤيتها، إنها خائنة وحقيرة. شتمتها وهزأتها عندما التقيت بها في المبنى، ومن بعد ذلك تركتها ومشيت."

كان إياد صامتاً، يستمع له بعناية تفوق الوصف، داخله صراع بين التعاطف مع صديقه وبين الإدراك أن انفعاله قد يكون قاصراً. رأى فيه الأحمق الذي لم يمنح سلام الفرصة لتبرير اختياراتها. تنهد بعمق، وكأنما يحاول أن يستنشق شيئاً من الهدوء، ثم قال بصوت مليء بالحكمة:

"أنت مخطئ في تصرفك. كيف يمكنك شتمها بينما لا تعرف ما حدث معها؟ كان يجب عليك أن تعطيها الفرصة لتسرد قصة جرحها، ومن ثم تحكم عليها. الأمور ليست دائماً بالسطحية التي نراها."

استمر الحديث بينهما، كعاصفة تدور في دوامة من المشاعر المتناقضة، في حين أن كل كلمة كانت لها وقعها، وكل دمعة كانت تحمل قصة. في تلك اللحظة، استشعر إياد أن محادثتهما كانت بوابة لعالم معقد من الألم والخداع، وأن الصداقة الحقيقية تكون في الاستماع، والتفهم، والمزيد من التسامح.

توقف ينال عن البكاء، وقد تراجعت ملامح وجهه إلى جمود مؤلم، كأنه تجمد في لحظة من الزمن. قال بصوت متهدج:

"لم أُبصر شيئاً أمامي، لم أستطع أن أرى سوى كراهيتي لها عندما رأيتها تدخل له. لذا، لم أبالي."

زفر إياد بقوة، محاولاً استيعاب ما يحدث، ثم سأله بقلق:

"حسناً، قل لي، ماذا قلت لها عندما رأيتها"

أغمض ينال عينيه، محاولاً نسيان تلك النظرة المنكسرة ودموع تلك الفتاة التي عانت ما يعانيه، لكنه لم يستطع التخلص من ذكرياته. استحضر في ذهنه ما حدث بعد أن رآها تدخل إلى منزل رائد:

فلاش باك:

كانت سلام تخرج من منزله وكأن الدنيا تبكي معها. كانت تمشي كالشبح، خيبات الأمل تتخبط في عينيها، تُخنق أنفاسها من سطوة الألم. تركته خلفها، مبتعدة عنه، وتلك الابتسامة الشريرة لا تفارق وجهه. لم تكن تدري أن الأعين تراقبها، تلاحق خطواتها، مشتعلة بالغضب والغيرة.

عندما وصلت إلى منزلها، كانت رائحة العتاب تملأ الأجواء، ووجدت ينال في انتظارها، كالأعصار الذي يتأهب للاجتياح. ما إن رآها، حتى انتفض كأن شعلة نار قد اندلعت بداخله. اقترب منها ممسكاً بمعصمها بقوة، وكأنما يحاول أن يحشد كل مشاعر الغضب التي تتراكم داخل قلبه.

"هل استمتعتِ مع ذلك الشاب الذي كنت عنده في منزله؟" ومجرد نطقه بتلك الكلمات كان كالسوط الذي يجلد قلبها.

ما لبثت أن انهمرت الدموع من عينيها كالشلالات، استدارت لتواجهه في ذهول، تساؤلات تتراقص في عقلها. كيف عرف؟ هل رآها؟ هل كان يراقبها؟ أم أن الأمر كان صدفة؟ لم تستطع استيعاب حجم الألم الذي وقع عليها. وعندما همس بكلمات مؤلمة لها، كانت كالقضبان التي تسجن مشاعرها المشتعلة:

"لقد رأيتكِ وأنتِ تدخلين شقته. ظننتكِ فتاة عفيفة، لكنكِ لم تكوني سوى رخيصة. صدقيني."

انفجرت دموعها مجدداً، وكأنها تعيش صدمة الحياة. صرخ بما لم تتمكن هي من تصديقه:

"كيف تجرؤين على السماح له بفعل ما فعله بكِ؟ كيف تذهبين له أيتها الحمقاء؟ ألا تخافين على نفسك وعلى جدتك إن علمت بأفعالك الرخيصة؟ طوال حياتي كنت أتمنى نظرة رضا منكِ. كنت أتمنى أن تمنحي قلبي الحب الذي يستحقه. ولكنكِ، تركتيني من أجل من يريد التمتع بكِ. حسناً، لن أحزن من أجل فتاة رخيصة مثلكِ. أتعلمين شيئاً؟ لن أُبالي بكِ من الآن فصاعداً. إياكِ وأن أراكِ مرة أخرى!"

كانت كلماته حادة كخناجر، تتنقل بين جروح قلبها، وتخترق أعماق روحها. بينما كانت مبللة بالدموع، لم تستطع استيعاب شتائم ينال. كيف يمكن له أن يحكم عليها دون أن يستمع؟ كيف لتلك الفتاة التي اعتقدت أنها تعيش في عوالم الأحلام أن تجد نفسها مخذولة على هذا النحو؟ رحى الأفكار تتصادم في مخيلتها. تعلمت قيمة الحب والعطاء منه؛ تذكرته وهو يشتري لها الحلويات في صغرها، وكيف كان يقدمها لها بابتسامة تمتزج بالحنان.

أحاطتها ذكريات مؤلمة منطفئة، ولم تعد تفهم كيف يمكن لمن كان لها السند والأمان، أن ينقلب عليها بهذا الشكل. كانت تجلس على حافة الألم، تدرك بعمق أن الظلم هو أكثر ما يؤلمها. كيف يمكن لمن تحبه أن يفتح لها معركة يجهل تفاصيلها؟ كلما تذكرت أنين قلبها، كلما اكتست بلون اليأس. وبدلاً من الوقوف في وجه ذلك الميل إلى الاستسلام، راحت تجرب الخروج من هذه الدوامة.

استمرت دموعها في السقوط بلا رحمة، وكل لحظة في حضور ينال كانت أكثر قسوة من سابقتها. بينما هو ينظر إليها بإشمئزاز، يرحل عنها إلى الشركة، تاركاً إياها في حالة انهيار، لم يعد بإمكانها الوقوف. في لحظة غياب تركها، فقدت وعيها وسقطت على الأرض، مختفية في غياهب عالمها الوردي، حيث لا ألم، حيث لا كذب، حيث لا

خيانة. كانت آخر صورة جالت في خاطرها هي صورة والدة ينال، التي كانت تضمها في لحظة ضعفها، قبل أن تُغلق الأبواب أمامها، وتخدش أحلامها المستقرة.

انتهى ينال من سرد الأحداث، وتنهد في ضيق، مكتفياً بالصمت الذي أحاطه كالسحاب الرمادي. كان يفكر في ما فعله صديقه، ويدرك أنه ظلم تلك الفتاة، التي يعرف جيداً تربيتها ونشأتها. ثم التفت إلى ينال الذي كان يبكي بحرقة، فتفجرت كلمات إياد منه كراية تنكسر تحت وطأة العواصف.

"أها، حسناً، ستظل هكذا تبكي وتتحسر عليها، ألا ترى أنك أحمق؟ لماذا لم تحاول أن تفهم ما تمر به؟ مابك ينال؟ لم أعد أعرفك، تصرفاتك أصبحت لا تُطاق بصراحة."

لم يتحدث ينال، بل استمر في بكائه، فتابع إياد برغبة في إيقاظ صديقه من غفلته:

"ينال، يجب أن تصلح ما فعلته. أنا لا أشجعك على حبك لها أو ما شابه. لا، لا أريد منك أن تظلم الفتاة، بل يجب عليك أن تفهم كل شيء عنها. إذا كانت في محنة، فلا شك أنك يجب أن تكون السند لها. هل تفهمني؟"

مسح ينال دموعه ببطء وبحركة يائسة، وحرك رأسه موافقاً دون أن ينطق بكلمة. وفجأة، صدح صوت رنين هاتفه، وكأنما يوقظ فيه ذكريات مؤلمة، ليجيب بصوت خشن ممزوج بالوجع:

"أهلاً أمي."

تحدثت والدته بصوت متسارع وتقطعه أنفاس القلق:

"ينال، يجب أن تأتي إلى المستشفى. سلام أغمي عليها، وقد طلبت الإسعاف، لقد أسعفناها. تعال بسرعة."

تسارعت دقات قلبه، وامتلأت عينه بالدموع حينما حاول استيعاب ما سمعه. لعن نفسه على ما فعله، فقد كان غباؤه سبباً في وجودها الآن في المستشفى. لم يرد عليها، بل أغلق الهاتف كأنما يحجم عن مواجهة الواقع المروّع، ونهض مسرعاً متجهاً نحو الباب، لكن إياد منعه قائلاً بوضوح مليء بالاستغراب:

"إلى أين تذهب؟ ما الأمر؟"

أجاب ينال، وهو يسرع خطواته:

"سلام في المستشفى."

لم ينتظر لإكمال جملته وركض نحو الخارج كالسهم، وكأن قلقه قد أكسبه سرعة خارقة، قلبه يتوجع في صدره عند التفكير فيما يمكن أن يحدث لها. بينما تنهد إياد بعمق بعدما سمع كلمات صديقه، فأحسَّ بوجع يثقل كاهله. نهض هو الآخر، مُتخذاً الطريق نفسه، عازماً على الذهاب إلى من شغلت باله طوال الوقت.

لم يمض وقت طويل حتى وصل إياد إلى منزله الكبير، مشغولاً بذكرياته. دخل إلى المكان بغرور، لكنه شعر ببرود يغلف الأجواء. تنهد بقوة، ثم اتجه نحو غرفتها. فتح الباب ليجدها متمددة على سريرها، ملتفة حول نفسها، وكأن حزنها قد تجسد في هيئة كسوف يحجب النور. اقترب منها، وعينيه تتفحّصان ملامح الحزن، بينما هي لم تلتفت له، بل بقيت على حالتها.

"هيا، حياة!" نادى إياد، مستحثاً إياها بلهجة آمرة:

"انهضي حتى نتناول بالغداء سوياً."

صوتها، الذي كان رقيقاً كنسيم الربيع، خرج باكياً:

"لا أريد منك شيئاً. اتركني."

ابتسم بخفة، لكنه كان ابتسامه مشوبة بالألم:

"لا أريد أن أتناول الغداء وحدي. تعالي، وإلا ستنالين عقابي. دعك من العناد الآن، سأنتظرك بالأسفل."

أنهى جملته وتوجه إلى الأسفل، وابتسامة ماكرة تنمو على وجهه، بينما كانت هي تفكر في مدى إلحاح الأقدار وما يجري. ترددت لحظة، هل تذهب أم تبقى؟ يمنعها الكبرياء، لكن الخوف من تبعات الجحود وفي الوقت نفسه الخوف على نفسها أجبرها على الإطاعة.

تنهدت بعمق، وقررت الانصياع لتلك الأقدار، ونهضت متوجهة للأسفل. تجولت بأعينها في صالة المنزل، وتأملت التحف والآثريات المدهشة التي تزين المكان، فسرّ بها جمال الألوان ورونق التفاصيل الهادئ. شعرت براحة تسري في عروقها، وأحست أن تلك الألوان المشرقة تمسح بعض الحزن الذي عانق روحها.

ابتسمت برقة، وجاءت ابتسامتها كنسيم صباح ينعش الأوجاع. وفي تلك اللحظة، لاحظ إياد تلك الابتسامة العذبة، ومنذ زمن لم يرَ ملامح وجهها تُضيء، فابتسمت عينيه فرحاً. لكن شيئاً أقرب إلى الشرود انتشله من تأملاته العميقة، عندما دوّت تفاصيل أخبار الخادمة بخصوص جاهزية الغداء. نهض إياد، وجلس على مائدة الطعام، بينما لحقت به حياة وجلست بعيداً عنه، محاطة بالحياء والخجل.

نظر إليها بنظرة باردة، ثم تحدث بحدة:

"كلمة واحدة، ولن أكررها. تعالي واجلسي بجانبي."

خشيت من نبرته، فابتلعت ريقها بصعوبة، ثم نهضت لتجلس بجانبه بصمت وحياء. كان إياد يبتسم ابتسامة راضية، لكونها للمرة الأولى تطيعه وتنصاع لكلمته.

"كلي!" أصدر أمره بنبرة لا تقبل الجدل.

أمسكت حياة بالملعقة، والشعور بالحياء يكتنفها، بينما كانت نظراته تتبعها وكأنها نجمة في سماء حالكة. بدأ يكمل طعامه بصمت، لكن عينيه لم تفارقاها لحظة، كأن البحث عن سرٍ خفي يختبئ وراء ذلك الوجه الجميل. بعد مضي بعض الوقت، نهضت حياة عن المائدة بعد أن ارتوت من طعامها، واتجهت نحو الصالة حيث عمّ صمتٌ قصيرٌ قبل أن تخرقه كلماتها الخافتة، التي حملت نبرة من الخجل والقلق.

"أريد أن أطلب منك شيئاً..."

رفع حاجبيه في دلالة على الاستغراب، ولم يلبث أن ردَّ ببرود تقليدي، يملؤه الغموض:

"تحدثي."

شعرت بالحرارة تتسلل إلى وجهها، وابتلعت ريقها قبل أن تواصل حديثها:

"أريد أن أعود إلى جامعتي."

حدق بها بعمق، كأنما يبحث عن دلالة في عينيها، ولكن لم ينبس ببنت شفة، همهم قليلاً قائلاً:

"حسناً."

شعرت حياة وكأن الأرض قد انفتحت تحت قدميها، كيف تمت الموافقة بهذه السرعة؟ ألا يحق لها أن تتساءل إن كان يتلاعب بها؟ لكن نبرته أعطتها انطباعاً بأن الأمر جدي، وهذه قد تكون فرصتها الذهبية للابتعاد عنه قليلاً، لتفسح لنفسها فسحة من الأمل، بعيدةً عن ذلك السجن المحكم التي كانت محاطة به.

"شكراً"، همست بهدوء.

حرك رأسه، دون أن يضيف شيئاً، فاستدعى الخادمة بأمر صارم لتدعو جميع الحراس. لم تمضِ سوى دقائق معدودة حتى اصطفوا أمامه، بسطور منتظمة، رؤوسهم منخفضة تعبيراً عن الاحترام والخوف في آن واحد. صرخ بصوته الخشن، يتردد صداها في الأرجاء:

"هل ظننتم أنني نسيت عقابكم؟"

أجاب أحدهم بهدوء:

"لا سيدي."

ابتسم إياد ابتسامة عابرة، ثم تابع:

"حسناً، لقد فكرت لكم بعقابٍ سيكون مثالياً ويليق بمقامكم."

تجمدت أنفاسهم، رموشهم ترمش بتوجس، إذ علموا أن عقاب سيدهم ينطوي على المزيد من التعذيب والذل. ضحك إياد بصوتٍ بارد:

"أريدكم أن تفرغوا المسبح من الماء، ثم تعيدوا تعبئته بالكؤوس الصغيرة. هيا، تحركوا!"

انتهت جملته بنبرة آمره وصوت عالٍ، بينما جحظت عينا حياة في صدمتِها، تتأمل مدى قسوة هذا الرجل واستبداده. تحرك الحراس نحو الخارج، حاملين أوامر سيدهم، بينما عادت نظرات إياد لها، تلامس عينيها وكأنها ضوء بارق وسط ظلام حالك.

"كل هذا بسببكِ، لأنهم غفلوا عن حراستكِ، أيتها الجميلة"، قال بنبرة تتلاعب بين التهكم والجدية.

"كيف تستطيع أن تكون بهذا البرود؟ أظن أن أعصابك موضوعة في ثلاجة؟" أجابت حياة بصدمة، مفعمة بالسخط.

أطلق ضحكةً عالية، مختلطة بكحة، مردداً بين ضحكاته:

"لم تري شيئاً بعد. كل ما رأيتيه مني هو مجرد هين أمام موجة غضبي، لذا من الأفضل أن تقي نفسك شرّي."

واجهته بنظرة شذراً، ولملمت وجهها بعيداً عنه، لكن إياد نهض فجأة، وكأنه يبرهن على سلطته بوضوح.

"تستطيعين البدء بدوامكِ في الجامعة اعتباراً من غد، ولكن طاقم الحراسة سيظل معكِ، وسيدخلون معكِ إلى المحاضرات أيضاً. والآن، إلى اللقاء، يا حلوة."

أنهى حديثه المغلف ببرود ساحر وتوجه إلى الأعلى.

تركت حياة هناك، عاقدة الحاجبين، مشغولة بفكرها، زفرت من أعماقها، حينما راحت تشتمه وتوبخه بأفظع الألفاظ، وهي مشمئزة مما يفعله. عواطفها تتصارع بين الأمل والاحتقار، بينما كانت أرواحها الحبيسة تحلم بالتحرر من قيود هذا السجان القاسي.

في زوايا صالة المنزل، كانت تجلس امرأة تسبح في بركة من العفن والحقارة، ووجهها يعبّر عن حياة ممزقة كخيوط العنكبوت المتعفنة. سيمفونية من الدخان كانت تتصاعد من سيجارة الحشيش بين يديها، تفوح رائحتها الكريهة، مختلطة بعبق الفوضى التي تملأ المكان. بجانبها، كان يجلس رجل يشبهها في القذارة، حسان، مثيراً من ضحكاته ما يعكس السواد الذي يكتنف أرواحهم المنهكة.

"حبيبتي، كيف حال ابنتكِ الصغيرة؟" همهم حسان بينما كان يدخن بشغف.

تجردت من مشاعر الأمومة، وضحكت ضحكة قاسية، كرنين قعقعة زجاج مكسور:

"لا أعلم عنها شيئاً، عزيزي. مؤكد أنها أصبحت تحت سطوة ذلك الوسيم المغرور، إياد معين."

ضحك بصوت عالٍ، يغمر المكان بحيرة من صداها المدوي:

"أريد خدمةً منكِ."

بدت لها أنفاسه المليئة بالتبغ كخيوط من خيبة، لكنها اقتربت منه بالدلال والنذالة في آن واحد، قبلته برقة لتحول بعدها إلى مسافة آمنة، مغمورةً بالنزق المغاير:

"ما هو، حبيبي؟"

بلل شفتيه كأنيابه الحادة تصل إلى قلب غامض:

"أريدكِ أن تذهبي إلى مكتبه، وتغرينه. هذا الرجل يموت في حب النساء. ارتدي أجمل ما لديكِ، حاولي أن تكسبي وده. لأنني أحتاج منه شيئاً كبيراً، ولا يمكنني الحصول عليه إلا بمساعدتكِ."

تجمدت ملامح سمر، كيف لها أن تستجيب لنداء شيطاني كهذا؟ ذاك الشبح الذي يجول في خشوع أعماق ذاكرتها، فكيف يمكن أن تتلاعب بمشاعره؟ ابتلعت ريقها، محدثةً نفسها بأن ذلك قد يكون الفخ الذي سيقودها إلى الهاوية:

"حسناً، وما هو الشيء الكبير الذي تريده منه؟"

ابتسم حسان بفخر ساخر، كأنه يستشرف الحظ السعيد:

"غداً، ستذهبين إليه. وعندما تقابلينه سأخبركِ بالتفاصيل، وإذا نجحتِ في مهمتكِ، سأغدق عليكِ بالأموال، أيتها الجميلة."

ضحكوا معاً بصخب، ضحكاً متهوراً، يحملق في عيونهم السوداء تحت تأثير المخدرات. كانت جريحة مأساة حياة سمر، فبعد أن غادرت ابنتها، وجدت نفسها غارقة في مستنقع من الفوضى والفساد. أسلوب حياتها الماجن زاد بشغف بعد مغادرة حياة، كأنها تحتمي بالصخب لتتجاوز ألم الفقد.

في تلك اللحظة، بدت فكرة التعامل مع إياد كأنها مغامرة غير محسوبة العواقب. كيف ستقف في وجهه وهي تعرف أنه الأسطورة التي لا تُنجرّ خلف الشباك بسهولة؟ لكنها كانت عازمة على المخاطرة، متجاهلةً عواقب عملها السخيف، فلطالما آمنت أن ما ستزرعه اليوم ستحصد ثماره غداً، سواء كانت تلك الثمار عفنة أم زكية.

التخبط الذي عاشته في سعيها للبقاء وسط الهاوية التي تشتعل من حولها كان يُملي عليها خطوات احتقان جديدة، وتعهداً بمسار تفاصيل الأيام التالية. كان الشعر الأسود ينساب خلف كتفيها كخيوطٍ مكسورة، بينما كانت المواضيع تتبدل بين الضحكات والصوت العالي، ويظلون جميعاً غارقين في دوامة من ترافقتهم شغب الذكرى.

وبينما كانت تواصل الضحك وتبتعد عن دوامات الشك، كان في داخلها انتماء عميق، أدركت تماماً أنها تستعد لتفجيرٍ قادم يمكن أن يُعيد تشكيل حياتها، حتى وإن كانت تلك الدماء المتساقطة في طريقها تعكس وجهها الأشد قسوة.

10

صباح اليوم التالي، في الغرفة التي تشبه سراباً من البياض، حيث الجدران تتلألأ بألوان النقاء والأثاث ينضح بسكون هادئ. هناك في فراشها، تمددت تلك الفتاة، بشرتها شاحبة وأثر التعب يظهر بوضوح على ملامحها، بينما تساقطت خصلاتها السوداء كأمواج بحرية فوق الوسادة، تأمل فيها أسفل ضوء الصباح الخافت.

وقف أمامها ذلك الشاب، بوجهٍ غارق في الحزن وأعينٍ دامعة تلمع كنجوم بعيدة، يشعر وكأن قلبه يُعصر بين يديه. لامسه شعور ذنبٍ طاغٍ لم يترك له مجالاً للراحة، وكأن دموعها وضعفها محفورة في ذاكرته، لا يستطيع نسيانها. جن جنونه حينما علم بأنها تعرضت لانهيارٍ عصبي، لم يصدق أن كلماته القاسية كانت هي الشرارة التي أضرمت نار آلامها. بل ويؤكد بقلبه المكسور أنه ظلمها، ولكن حتى اللحظة، لم يعرف تفاصيل قصتها مع ذلك الشاب الذي

أتى على ذكره، لكنه كان مصمماً على كشف الحقيقة، حتى لو لم تكشفها هي، فإنه سيتعرف عليها بنفسه، ولكن في الوقت المناسب.

كل ما يريده الآن هو أن تستيقظ، أن تتحسن حالتها، وبعدها لكل حادثٍ حديث. لم يفارقها منذ الأمس، أتى إليها كالسهم، مصمماً على عدم تركها عندما سمع بخبر حالتها. بينما كان يراقبها، فاقترب منها بخطوات حذرة، وكلما اجتازت لحظات الانتظار، كان قلبه ينبض بأملٍ متردد. ومع فتح عينيها بصعوبة، انتشرت على وجهه ابتسامة غير مكتملة، كفجرٍ يقترب بعد ليلةٍ حالكة.

استقرت عيناها عليه، كانت الذكرى كالعواصف تتدفق، كيف يمكن أن يكون هنا بعد كل ما حدث؟ أليس هو الذي جرح مشاعرها، وهزأ بها وتركها وحيدة؟ لقد كانت تلك الأسئلة تتلاطم في قلبها كما تتلاطم الأمواج على شواطئ لا تعرف الاستقرار. وهنا، انطلقت دموعها مثل المطر المفاجئ، تسقط على وجنتيها، أجبرته على النظر في عينيها المتفجرتين بالحزن.

"اذهب من هنا، لا أريد رؤيتك"، كانت كلماتها حادة كخنجر، بينما أمسكت بيدها الصغيرة تخفي بها عمق وجعها.

"سلام، أنا آسف على كل شيء. لم أكن بوعيي حينما نطقت تلك الكلمات، أرجوكِ، سامحيني"، قال لها بحزن مفعم بالألم، بينما صوت همسه يتلاشى في زحمة الإحساس بالندم.

"لا... لا أريد مسامحتك، فقط ابتعد، ولا تريني وجهك أبداً"، هزّت رأسها بينما تملؤها كوامن الألم.

ابتلع ينال ريقه بتوتر، محاولاً السيطرة على العواطف التي تتأجج داخله، فقال بهدوء ممزوج بالأسى:

"من يكون ذلك الشاب الذي كنتِ عنده؟ وماذا فعل لكِ؟".

لم تستطع سلام تحمل الاسم المذكور، فانهارت بصراخٍ غير عادي، وكأن أصوات المشاعر المذبوحة انفجرت فجأة:

"اللعنة عليك وعليه! لا شأن لك، اغرب عن وجهي. كلكم صنف واحد! اللعنة عليكم جميعاً، ارحل عني، أيها اللعين!"

ظلت تصرخ وتبكي، بينما كان هو يحاول تهدئتها كما لو كانت عصفورة جريحة. وفجأة، دخل الطبيب كنسمة هادئة لينقل برودة الواقع إلى الغرفة الدافئة. اقترب منها بكفاءة واحتراف، وعندما أعطاها حقنة مهدئة، حملها النعاس بعيداً عن همومها.

نظر ينال بحزن عميق وهو يستمع لصوت الطبيب، الذي تحدث بصوتٍ منخفض، تنهد ببطء ثم قال:

"سيد ينال، المريضة في حالة توتر قليل. تعرضت لانهيارٍ عصبي بسبب صدمةٍ أو ما شابه، لذا أرجوك، لا تذكرها بأي شيءٍ من الماضي كي لا يعود بها إلى هذه الحالة مرة أخرى".

نظر له ينال بحزن، عينيه تعكسان عمق الذنب الذي يشعر به، ثم حرك كتفيه باستسلام وهو يتنهد، ورحل الطبيب بعد أن تركه في حالة من العجز والضعف. جلس على الكرسي، وضع يديه على رأسه، يفكر بحال محبوبته وما حدث لها بسبب تصرفاته الطائشة. كان غبياً ولعيناً لأنه تفوه بتلك الكلمات القاسية، كان يجب عليه أن يتحدث معها بنوع من الرقي والتفهم، لكن السرعة التي تصرف بها أدت إلى انهيارٍ لم يكن يتوقعه في أسوأ كوابيسه.

استمر في اللوم، تلك اللحظة التي اقتلع فيها من قلبه شعور الأمان تجاهها، لم يكن ليغفرها لنفسه. لكنه، وعزيمته تشتعل، جدد وعده في نفسه: سيكتشف كل شيء عن ذلك الشاب وما كان يجري بينهما، مهما كلفه الأمر، ومهما تطلب منه الزمن، لن يستسلم حتى يعرف حقيقتها.

....

استفاقت حياة على أنوار الشمس التي تشع من وراء ستائر نافذتها، ممزوجة بأصوات العصافير التي تدندن بألحانها المعتادة. شعرت بنشوة غامرة تتدفق في عروقها، فاليوم هو بداية جديدة، يوم عودتها إلى الجامعة، المكان الذي لطالما اشتاقت إليه، حتى وإن كان ذلك يقتضي تحمل بعض الأحاديث المستفزة التي تلاحقها من زملائها.

نهضت من سريرها مسرعةً نحو الحمام لأخذ حمام سريع يساعدها على إنهاء حالة الخمول التي تلبستها. ومع كل لحظة كانت تزداد حماساً، ارتدت ملابسها التي اختارتها بعناية، تنورة سوداء ترسم انحناءات قوامها، وقميص أبيض يلطف من حدة الأسود، وحذاء أسود تكمل إطلالتها الأنيقة.

سمعت صوت الخادمة، التي كانت تؤدي عملها بنشاط، تخبرها بأن السيد إياد ينتظرها على مائدة الفطور. أُصيب قلبها بشعور من الامتعاض، وانفجرت مشاعر الغضب في صدرها كبركان خامد. كان إياد بنظرها، رمزاً للعقبات المؤلمة، وشخصاً لا ترغب في مواجهة عينيه منذ الصباح؛ إذ لم تكن ترغب في أن يعكر صفو يومها.

وقفت أمام باب غرفة الطعام، تحتاج إلى لحظة لالتقاط أنفاسها. ولكن مجبرةً، تخطت عتبة الغرفة متوجهة نحو المائدة، حيث منحها الصمت، ووضعت تحية الصباح على شفتيها لكنها لم تنظر إليه، فيما كان هو ينظر إليها كأنما يستكشف روحها.

كما أسر لها مظهره، فقد ارتدى بذلة سوداء وقميصاً بدا كالسواد الذي يلبس القلب نفسه. في تلك اللحظة، تعلقت عيناها بجاذبيته، وكيف اكتسب هذه الفخامة؛ فقد بدا وسيماً، يجسد الرجولة بوضوح. ثم فجأة استدركت عقلها، مستغرِبةً شرودها، وأطلق لوحته أمام عينيها لتعيدها إلى الواقع.

قال بتلك النبرة الجادة:

"انهضي وغيّري ملابسك، هيا."

نظرت إليه وقد شعرت بالاحتقار تجاه أوامره، فهو لا يملك حق الحكم على اختيارها. لكنها كانت تعرف تماماً أن تمردها سيقودها إلى مواقف غير مقبولة.

أجابته بتحدٍ داخلي:

"أنا أرتدي ما يعجبني، ليس لديك حق التدخل."

تنفّس ببرود وكأن العواصف مكبوتة في صوته:

"إذاً، أرني كيف ستذهبين إلى جامعتك."

ارتفعت الأصوات بينهما، إذ نهضت بعنف وانفجرت في وجهه:

"ولماذا يجب أن تهمّك ملابسي؟ اتركني بحالي!"

فاجأها رده الغاضب، لما أضافه من حدة وقوة:

"لا تقولي ذلك بلغة التهديد، هل فهمتِ؟"

أثارت نبرته الخوف في قلبها، فابتلعت ريقها من الذعر، لتجيب بصوت خافت خجول:

"آسفة، لكن..."

قاطعها بنبرة صادمة:

"لقد اعتبرتكِ عكس والدتكِ، فلا تجعليني أراها فيك، الملابس التي ترتدينها غير مقبولة، اذهبي وبدليها، السائق ينتظرك في الخارج."

هنا، برق الكلمات صدمها، إذ لطالما أرادت أن تكون مختلفة، أن تترك أثراً يعبر عن براءتها. خفضت رأسها بابتسامة مكسورة وعذرٍ منخدع، ممسكة بمشاعرها الضيقة:

"سأفعل ما تريد."

وفي عمق تلك اللحظة، تداخلت مشاعرها بين الخجل والرغبة في التمرد، وكانت هناك معركة قائمة في داخلها بين الحياء والتحدي، أسئلة كثيفة تردّدت في خيالها... من يكون إياد ليحكم على قلوب الآخرين؟ ولكنها كانت تعي تماماً أنه لا مهرب من سلطته، ولكن الأمل لا يزال يتقد في قلبها، ساعيةً للظهور كالحقيقة في عالم مزيف.

تحدثت بكلماتها الهادئة وكأنها تعلن عن نفسها، ثم خرجت متوجهة إلى غرفتها بغية تغيير ملابسها. تخلت عن ملابسها لتتزيَّن ببنطال جينز ضيق وقميص أسود متشرب بالأسرار، ومع سترة سوداء تخفي تحتها هتافات الغموض، وحذاء أسود وأبيض يخطو بثقة على الأرض. بينما كان إياد، واقفاً في مكانه، يتأمل هذه التحولات، يشعر بحيرة تعتريه، إذ لم يكن يعرف كيف تجرؤ على الخروج بهذه البساطة. كانت بالنسبة له جزءاً من ماضيه، ومع ذلك، كلما نظر إليها، أدرك بأن تلك التنكرات تضعها في دائرة الضوء التي لم يكن يسعى لوجودها فيها، فهي في النهاية لا تعنيه كما يُحيطها الغرور من جوانبها.

ورغم ذلك، شعر بجرح غيرة ينمو في قلبه، إذ أنه لا يريد لأحد أن يراها بهذه الملابس المُثيرة للجدل. تنفس بعمق، رافضاً لذاته التأمل في مشاعره الزائفة، وعندها سمع طرقات الباب تعلن عن قدومها، فأمرها بالدخول وعندما دخلت، كانت ملامح الحياء تكسو وجهها، ونظراتها تتجه إلى الأرض كمن يحمل عاراً لا يريد أن يواجهه. ابتسم إياد ابتسامة خفية عندما وقع نظره عليها، وسرعان ما انطلقت الكلمات من شفتيه:

"حسناً، يبدو أنكِ جاهزة. اقتربي إلى هنا."

تقدمت بخطوات مترددة، وعلامات الاستفهام تتجلى على وجهها الملائكي. مد يده نحوها، وبنبرة جادة قال:

"هذا مصروف لكِ. قد تحتاجين شيئاًهناك، وأنا أعلم جيداً أنكِ لا تحملين المال."

نظرت إليه بغضب، أشاحت بوجهها بعيداً، إذ تنفست بصعوبة:

"شكراً، لكنني لا أريد منك شيئاً. ولست طفلة حتى تعطيني مصروفي. ولا أعلم إن كانت هذه الأموال حلالاً أم حراماً."

ارتسمت على وجه إياد ابتسامة ساخرة، كأنما يصرخ في وجهها بكلمات لا تُقال، وكأنّه يريد أن يُذلّها بأقسى ما يمكن:

"على أساس أنّ أموال والدتك حلال، أليس كذلك؟"

كانت كلماته كطعنةٍ في قلبها، تشعر وكأنّها تَفُتّت كلّ ما بنته من كبرياءٍ في لحظةٍ واحدة، فتنهدت بضيقٍ، حزينةً على ذلك الماضي الذي لا يُمكن نسيانه:

"أنا لم آخذ قرشاً واحداً من والدتي. كنتُ أقوم بتلخيص المحاضرات للطلاب في الجامعة وآخذ مبالغ رمزية لكي أصرف على نفسي."

أرادت أن تُبرّئ نفسها من تلك الاتهامات، لكنّه كان مصمّماً على استفزازها.

همهم لها ساخراً منها، وكأنّها لعبةٍ في يديه:

"وفي المدرسة، كيف كنتِ تصرفين على نفسكِ؟ هل كنتِ تكتبين الوظائف للطلاب، أم تقدّمين امتحاناً عنهم؟"

أشاحت بوجهها، وغمّرت عيناها بالدموع وخفضت صوتها:

"والدي كان يصرف عليّ، كان يعمل كموظف بسيط."

عندما ذكرت والدها، تملّكها الشعور بالأسى، فقد كان ذلك الرجل مصدر الأمان والحب في حياتها. بينما انهمك هو في تفكيره، لعَنَ نفسه على سخريته، فشعر بالندم على تلك اللحظات المُرّة التي تُذَكّرها بماضٍ مُؤلم:

"حسناً، خذي مصروفكِ. اطمئني، أموالي ليست حرام."

تنهد بقوةٍ، وكأنّما يُقرّ بهزيمته، فكانت كلماته وكأنّها هدنةٌ غير مُعلنة. نظرت إليه بغضبٍ وغيظ، وكأنّها تُخبئ سُلطةً خفية، سحبتها منه بعنف ونطقت كلمتها بنبرة ساخرة مختلطة ببراءة الأطفال:

"شكراً لك، بابا."

ثم خرجت بغظي كبير وهي تشتمه في سرها، بينما كانت على ملامحه ابتسامة عريضة وضحكة خافتة، فقد استطاعت هذه الفتاة أن تزرع بسمة في قلبه، وهو الذي لا يضحك إلا مع صديقه ينال. ومع حياة، كانت خيوط الحياة تلعب بألوان لم تعهدها من قبل.

خرجت وركبت السيارة، وعلى مسافة قصيرة، تحرك السائق متوجهاً نحو الجامعة، حيث كان طاقم الحراسة الذي خصصه إياد يتبعها بحذر. لم يمر وقت طويل حتى بلغت حياة أرض الجامعة، وكانت الابتسامة تتلألأ على وجهها، لتجذب الأنظار إليها. استغرب الطلاب من حضورها بعد غياب طويل، وتجمع الحرس حولها كما لو كانوا يشكلون درعاً واقياً. لم تعر نظراتهم اهتماماً. تسللت خطواتها نحو حديقة الجامعة وجلست على أحد المقاعد، حيث أتى إليها شاب ذو عيون خضراء وبشرة سمراء، ابتسم لها ببراءة، وجاء ليجلس بجانبها:

"أهلاً حياة، كيف حالكِ؟ أين كنتِ كل هذه المدة؟"

استغربت من وجوده، فاجتاحت ملامح الدهشة وجهها:

"أهلاً جهاد، لكن عذراً، منذ متى تأتي لتجلس معي؟"

ابتسم محاولاً تلطيف الأجواء:

"ما بكِ يا حياة؟ أنتِ صديقتي، ويجب أن أسأل عنكِ، أليس كذلك؟"

لكن جملته قُطعت عندما قال أحد الحراس بصوت حازم:

"عذراً يا سيد. لا يجب عليك أن تجلس مع الآنسة. هيا انهض إذا سمحت."

تعجب جهاد من سلوك رجال الحراسة، وما أن نظر إلى حياة حتى استشعر توترها:

"حياة، من هؤلاء؟"

لم تستطع الرد، فقد تسرب الخوف إلى قلبها، وقطع الحارس الصمت بقوله:

"هيا، يا سيد، لا شأن لك. اذهب من هنا."

علت ملامح حيرة جهاد، بينما انكفأت حياة نحو الأرض، تحاول أن تخفي حيرتها وقلقها عن الأنظار، فقد أصبح الواقع أكثر تعقيداً مما تصورته.

نهض جهاد بعنف، عينيه تشع ناراً متوهجة، وكأنه أسد مفترس يواجه عدوه.

"أنا أحدث صديقتي، أنت لست سوى حارس صغير المقام، لذا لا شأن لك!"

صرخ جهاد كأنما يعلن الحرب على هذا الحارس الذي تجرّأ على التدخل.

صرخت حياة بصوتٍ حزين:

"جهاد، هذا عيب. لو سمحت، اذهب من هنا."

نظر جهاد إليها بصدمة، وكأنّما كلماتها كشفت له عن وجهٍ جديد لطبيعتها. بينما كان الحارس يسيطر على غضبه، يقاوم الرغبة في القفز على جهاد وضربه بلا رحمة.

زفر جهاد بضيقٍ، محاولاً فهم موقفها:

"لا أفهمكِ يا حياة، من هؤلاء؟ أرجوكِ، أفهميني!"

لكنّ الحراس لم يتحملوا وجوده معها، فقد كانت أوامر سيدهم قاطعةً: لا أحد يقترب منها أو يتحدث إليها. أنقضوا عليه بوحشية، وأوسعوه ضرباً أمام صراخ حياة وبكائها. تركوه بعد مدة، ينزف من أنفه وفمه، بينما كانت جميع أعين الطلاب تتابع ما يحدث، تنساب نظرات الشفقة إلى حياة.

تقدم رجال الأمن، أخذوا حياة والحراس وجهاد إلى مكتب المدير. بينما كان الحارس قد أجرى اتصالاً ريعاً ثم أغلق الجهاز.

دخلت المجموعة إلى مكتب المدير، الذي قال بصوتٍ قاسٍ:

"ما الذي يجري هنا؟ ومن ضرب هذا الشاب؟"

تحدث أحد الحراس بصوتٍ حاد:

"أنا من ضربته، لأنه كان يضايق الآنسة."

همهم له المدير بنظرةٍ مشككة:

"أها، وهل أنت حارسها الشخصي مثلاً حتى تدافع عنها؟"

ابتسم الحارس بسخرية، وكأنه يتلذذ بقوة:

"أجل، أنا بالفعل حارسها الشخصي. نحن طاقم حراسة كامل ومكلفون بحماية الآنسة حياة."

تعجب المدير بشدة، وعقد حاجبيه، وكأنه يستوعب هذه المفارقة:

"من تكون حياة؟"

بكت حياة، بكلماتٍ متقطعة:

"أنا."

همهم لها المدير بنظرةٍ مشككة، وكأنه يحاول تذكر شيءٍ ما:

"لكنني أعرفكِ جيداً يا حياة. منذ متى وتأتين بحراس معكِ إلى الجامعة؟"

لم تكن حياة تعلم ماذا تقول، فاختار الحارس أن يجيب نيابةً عنها:

"السيد إياد هو من كلفنا بحمايتها."

همهم له المدير، وكأنما سقطت عليه قنبلة:

"ومن هو هذا السيد إياد؟"

صدح صوت رجولي غليظ، وكأنّما رعدٌ هائل هزّ الغرفة:

"أنا."

دخل عليهم بمشيته الواثقة، بحضارته المتألق، بهيبته المختلفة. نظر إلى حياة التي كانت تبكي بجمود، تقدم ليجلس ضاغطاً بقدميه على الأرض، بينما كان ينظر إلى المدير بجمود.

"أنت يا سيد، لم أسمح لك بالجلوس. هيا، انهض، وتحدث معي باحترام!"

أطلقت عينيه، نظرة باردة متجهاً إلى المدير الذي أوقفه وأمسكه من ياقة قميصه:

"ألم تعلم من هو إياد معين، أيها اللعين؟ مؤكداً أن والدتك دعت عليك من قلبها حتى تتحدث معي بهذه الطريقة."

ابتلع المدير ريقه، بينما دب الرعب في أوردته، إذ عرف من هو إياد معين. لم يُمكنه سوى التوسل للحياة:

"أعتذر ياسيد إياد، من لا يعرفك يجهلك"

همهم له إياد، وابتسم ابتسامة صفراء، قائلاً:

"سأدعك هذه المرة فقط من أجل حياة. أريدك أن تعتني بها جيداً، اتفقنا؟ وإلا لن تحيا للغد."

أنهى جملته بِبرودِهِ المعهود، فحرك المدير رأسه موافقاً، دون أن يتردد.

شاهدت حياة كل ما يحدث بصدمة، لم تكن تصدق انه بهذا الكبر وهذا الحجم. تعلم انه رجل اعمال مشهور، لكنها لم تعرف انه بهذا النفوذ. ظنت انه مشهور داخل عالم رجال الاعمال، وليس في البلاد كلها. ابتلعت ريقها عندما رأته يتقدم منْها وينظر إليها بِبرود.

حرك رأسه لها بمعنى "هيا". توجهت معه دون أن تنطق بحرف، وخلفهما الحراس.

مشيت معه وهي مخفضة الرأس تحت نظرات جميع من في الجامعة. جميع الأنظار موجهة لهم، منهم من ينظر بغيرة، ومنهم بحقد، ومنهم بحسد، ومنهم بخوف. جميع الفتيات تنظرن لكتلة الوسامة هذه، بينما هو لم يشغل باله سوى بالتي تمشي معه وما حدث معها. بلَغَتْ ذروة غضبه عندما علم بالقصة، لذا أتى بسرعة البرق. لم يتحمل أن حياة قد جلست مع شاب، أو بالأصح الشاب الذي جلس معها. عموماً هو قد أكل نصيبه ولن يعود يتجرأ على الاقتراب منها، لذلك تركه هو والمدير. توجه بها إلى سيارته وركبا معاً متوجهاً بها إلى المنزل، لأنه سيحاسبها حساباً عسيراً على جمالها وحسنها..

11

دخل إياد إلى منزله، حياة تَمشِي خلفه كظلٍّ يُلاحق ضوءاً باهتاً. جلس على الأريكة، تعابيره باردةٌ، كأنّها قشرةٌ جليديةٌ تُغطّي بركاناً مُحتدماً. حياة لم تعلم ما الذي تفعله، فقد كانت حائرةٌ، خائفةٌ.

توجهت للجلوس أمامه، متوترةٌ للغاية، تفرك بيديها الصغيرتين، وكأنّها تحاول طمأنة نفسها. ابتلعت ريقها عندما رأته ينظر لها بجمودٍ، عينيهُ كأنهما بِئْرَينِ عميقين يُخفيان أسراراً مُظلمة.

لم يتحدث، ولم تُجِبْ، بل ظلت شارداً بها وبملامحها البريئة، كأنّها لوحةٌ فنيةٌ تُثير إعجابه وخوفه.

خفضت رأسها، وابتلعت ريقها، حتى انطلقت كلماتٌ جليديةٌ من شفتيه:

"كيف تسمحين له أن يجلس معكِ؟"

ابتلعت ريقها بتوترٍ، وحاولت تفسير موقفها:

"صدقني، لا شأن لي. هو من أتى وجلس بجانبي، وأنا قمت بطرده، والحارس أيضاً طرده، لكنه لم يستمع لذلك قاموا بضربه."

همهم لها، وبحركةٍ سريعةٍ اقترب منها ليجلس بجانبها. جفلت من حركته المفاجئة، وتوترت جداً من اقترابه، كأنّها طائرٌ مُحاصرٌ في قفصٍ مُظلم. بدأ يتحسس وجنتها الناعمة بخفةٍ، وهو ينظر لها بِبرودٍ مُرعب. بينما دبّ الرعب في أوردتها، لأنّها تعلم بأنّ برودَهُ هذا سيكون وراءه موجة غضبٍ مُهدّدة.

تحدث بصوتٍ أشبه بالهمس:

"أنتِ لي يا حياة، ولا يجب على أحدٍ أن يقترب منكِ. هل تفهمين؟"

جحظت عيناها بقوةٍ من ماسمعته، ماذا يقصد بكلامه؟ أيعقل أنّ قد جنّ مثلاً؟ ما الذي يهذي به هذا المجنون؟ لم تتحدث، فقط ظلت صامتة، تُحاول أن تنجو من براثن كتلة البرود والغضب والإعصار التي أمامها.

ظلّ يتحسس وجنتها وكأنّهُ يُخدرها، ليقترب ويطبع قبلةً رقيقةً على وجنتها. ابتلعت ريقها بتوترٍ، ونهضت من مكانها لتتوجه إلى غرفتها وتهرب منه. دخلت إلى غرفتها، وأغلقت الباب خلفها، واستندت على الباب وهي تتنفس الصعداء.

توجهت إلى سريرها، وتمددت بأريحيةٍ، دون أن تغير ثيابها. فقط تريد النوم والاسترخاء قليلاً، علها تنسى نظراته وكلماته.

بينما إياد، عندما تركته وصعدت، ظَلّ ساكناً لا يُبدي أي ردة فعل. كل ما فعله هو الشرود، والنظر إلى اللاشيء. ليعود بذاكرته قليلاً إلى الوراء:

Flash back :

منذ سبعة سنوات، وتحديداً عندما كان إياد يجلس برفقة والده، كان والده يأكله المرض، ممدداً على فراشه، وينظر إلى ولده بوهنٍ، ويتنهد بقوةٍ بين الحين والآخر.

لا يعلم إياد ما هو ذلك الشعور الذي أتاه عندما شعر بأنه سيفقد والده، خصوصاً أنّ حالته تدهورت جداً بسبب مرض القلب الذي أصابه.

يفكر بنفسه، وبموت والدته، وبماضيه الأسود، ومعاملة والده له، ليسمع صوت أبيه يقول:

"أسمعني، يا إياد، أعلم أنني ظلمتك كثيراً، وظلمت والدتك أيضاً، وأنا السبب وراء فقدانها. لكنني أطلب منك أن تسامحني على كل ما حدث. ندمت بشدة، خصوصاً بعد المرض الذي نال مني. أنت الذي وقفت بجواري وسندتني، رغم أنني لم أكن في حياتي أباً يستحق أن يكون فخراً وحناناً لابنه.

أدركت أنني قصرت في واجباتي تجاهك وتجاه والدتك، لكنني أقسم لك أن ندماً عميقاً يعتريني. سامحني يا بني، وأريدك أن تتذكر شيئاً واحداً في حياتك: لا تؤمن بوجود الحب في هذا العالم. فالنساء لا أمان لهن، جميعهن صنف واحد. لست أتحدث عن والدتك، بل عن النساء اللواتي عرفتهن، فكلهن خائنات. لا تثق بهن، يا إياد.

لقد أحببت امرأةً غير والدتك، لكنها كانت خائنة وقاسية، ومنذ تلك اللحظة فقدت إيماني بالحب. لذلك، أريدك أن تتجنب ما وقعت فيه. دع الحب والعواطف جانباً، كن كالصلب، يا إياد. أنت رجل بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فلا تستمع لقلبك، بل دع عقلك هو الذي يقودك ويفكر. لا تُشغل بالك بمثل هذه الأمور أبداً.

أعلم أنك واجهت الموقف نفسه مع تلك الفتاة التي تركتك وتزوجت غيرك، لكنك قادر على الصمود والتقدم دونها. فهي كخرقة بالية لا تستحق أن تفكر فيها، فلا تدعها تُعكر صفو حياتك. لا تتعلق بالحب، فإنه لن يجلب لك سوى الألم والحسرة. هل تفهمني؟"

كان يتحدث ويتنهد بين الكلمة والكلمة، أنفاسه متسارعة، وقلبه يتسارع أكثر فأكثر، بينما ولده يستمع له بتركيزٍ واهتمام.

كلمات والده تغلغلت في عقله وكيانه، يعلم بأنّ والده على حق. هو كان أحمقاً عندما صدّق قلبه، وآمن بالحبّ، وأحبّ تلك الفتاة الخائنة. لكنّهُ أقسم على عدم وقوعه في الحبّ أو الإيمان بوجوده حتى. يعلم أيضاً أنّ ّهُ ذاق العذاب من والده، لكنّ كلامه صحيح مئة بالمئة. في يومها، فرح جداً بكلام أبيه، ورسّخه في عقله، لأنّهُ أول مرةٍ يتلقى نصيحةً من أبيه، فهو لم يكن يهتم لأمره أبداً، ولا يعتني به نهائياً. حفظ كلامه جيداً، وحفره في ذهنه، وأقسم على عدم وقوعه في الحب، لكنّ القدر يجري بحكمه علينا، لذا لا يجب على الشخص أن يقسم على شيءٍ لن يفعله، مادام موجوداً ومتاحاً في هذه الحياة.

أفاق إياد من شروده، كأنّما خرج من غيبوبةٍ عميقةٍ، كلمات والده تُلاحقهُ، تُذكّرهُ بعهدهِ، بعهدهِ المُقدّس على عدم السماح لقلبهِ بالاستسلام لِمَشاعِرٍ مُذِمّةٍ. يتذكر كيف أنه أقسم في يومها على عدم رغبته بفتح قلبه لأي امرأة، يهوى تعذيب الناس، وخصوصاً جنس حواء. لكنّ ماذا عن تلك الفتاة؟ ماذا عَنْهُ هُو عندما ينظرُ إليها ويهيم بعينيها؟

ألم يعاهد أبيه على عدم تكرار هذه المهزلة؟ ألم يقتنع بكلامه ويرسّخه في ذاكرته؟ إذاً، ما الذي يحدثُ له؟

لماذا يضعف أمام عينيها؟ بقي طوال هذه السنوات يُحاولُ أن يتخلص من مشاعره، من رحمة قلبه، من رأفته بالناس. كان يُصارعُ نفسهُ كلّ يومٍ لِيَبْدُو أمام الناس بارداً، غاضباً، عديم الرحمة. والآن، تأتي هذه الطفلة، وتُوقِظُ مشاعره الميتة. لا، لن يحدث ذلك! لم يعمل طوال هذه السنين عن عبثٍ، لذا لن يستمع لقلبهِ أبداً.

دائماً عقله من يتحكم به، وليس قلبه. وفي حياتهِ هو لا قلبٌ، لا مشاعرٌ، ولا رحمةٌ. قلبهُ زرع في صدرهِ لِيَضْخّ الدمَ فقط، لا ليُحبّ ويرأف بالناس.

لذا، سيُريها كيف ستكون المعاملة من الآن فصاعداً. هو أخطأ عندما لم يريها شيئاً من فنون تعذيبهِ إلى حد الآن، وكلّ ما رأتْهُ منه لا يُعتبر شيئاً حتى. سيُعاند، يُقاتل، يُصارع، ولن يرضخ لامرأةٍ أو يقع لها. ولنرى إن كان سيستطيع أم لا.

أفاق من تفكيره الأحمق ليمسك بسترتِه، ويتوجه إلى مكتبه ليُمارس عمله، وينشغل عن كل ما يُشغل باله. كان إياد مثل صخرة صلبة متشققة، يُحاول أن يُخفي ما بداخلها، ويُجبر نفسه على أن تُظل مخفية، حتى لو كان ذلك يُؤلمه. عالمه عالم قسوة، عالم صرامة، عالم قوة. لم يكن هناك مكان للضعف، ولا للرحمة، ولا للحب.

لكن تلك الفتاة، ببراءتها، وجمالها، وروحها الطيبة، أزعجت تلك الصخرة، هزت ثباتها، كشفت عن شروخها المخفية. توجَّه إلى مكتبه معاهداً نفسه أن يُحافظ على عهده، على وعده لأبيه. لكن قلبه كان يتحرك كأنه يُحاول أن يُخرج صوتاً يصدح بحب غير مستحق. صوتاً يُحاول أن يُخبره بأنه ليس حجراً بارداً، بل هو بشر غني بمشاعره التي تُحاول أن تُبرز رأسها من خلف أسواره المتشققة.

في زاويةٍ من غرفتها، كانت تلك الفتاة تجلس وحدها، غارقة في أفكارها وهمومها، حزينة، كئيبة، تكاد تنفطر روحها. لقد تلقت طعنتين في قلبها، وعبء الألم كان ثقيلاً لدرجة أنها لم تعد قادرةً على الاستمرار. بعد قضاء فترة من الزمن بين جدران المستشفى الباردة، قررت أن تعود إلى منزلها، لتدرك مدى حاجتها للتعافي بعيداً عن الأنظار. قالت لجدتها بصوت يتقطع:

"أريد العودة إلى البيت." وقد استجاب الطبيب لطلبها، مشدداً عليها أن تعتني بنفسها، وألا تتعرض لأي صدمة تُزيد من آلامها.

جلست تراقب هاتفها الذي بدأ يرن، ومنظر اسم المتصل كان يشعل في قلبها مشاعر متناقضة. كان رائد—— ذاك المُتسبب في الكثير من آلامها—— يطلب الحديث معها. ترددت قليلاً، ثم أجابت بصوتٍ كأنما صُبّ فيه الحزن:

"ماذا تريد؟"

اخترق قلبه صوتها المبحوح، فتردد قبل أن يرد:

"سلام، لقد علمت أنكِ في المستشفى، ماذا حدث لكِ؟"

ابتسمت بسخريةٍ مُرّة، تجتاح مشاعرها:

"أحقاً تسألني ما الذي حدث لي؟! استمع إلى ما أقول، أنا لا أملك القدرة على الحديث الآن، أرجوك، دعني وشأني! أنا مُنهكة جداً!"

تنفس بقلقٍ عميق، محاولاً أن يُخفف عن روحها المُتعبة:

"حسناً، سلام، لن أضغط عليكِ. عندما تتعافين، أريد أن أراكِ في مكانٍ عام، لنلتقي ونتحدث قليلاً، كل شيء سيكون على ما يرام. أعدك بذلك."

أجابت بصوتٍ خافت كأنها تخفي سطور وجعها:

"وداعاً."

أغلق الهاتف، شاعراً بالحزن والندم الذي لم يعرفه من قبل. كان شعور الندم يثقل كاهله، بيد أن هذا الشعور كان مختلفاً، فقد تسرّب إلى أعماق روحه، ويسرّ بأن تكون سلام وحدها من تملك تلك القدرة على تغيير مشاعره. كان قد عاش لحظات حميمية مع العديد من الفتيات، لكن سلام كانت مختلفة— كانت النقاء وسط أوجاع عالمه. أراد أن يُصلح ما دمره، أن يُعيد عطر الحب الذي فقده، وقرّر أن يُغامر بأن يطلب منها المغفرة، ثم ليُقدّم لها نفسه كزوج، حيث سيكون ذلك أسعد أيام حياته، لأن سلام علمته ما معنى الحب.

بينما كان يدور في أفكاره، سمع صوت جرس الباب يُقطع شرود ذهنه، فنهض بتكاسل وفتح الباب، ليكتشف وجهاً غريباً لم يُبصره من قبل. كان الرجل يقف أمامه، نظرته باردة تتخللها نيران الغضب. وبحركة سريعة وجهه تلقى لكمة شديدة كانت بمثابة العاصفة. تراجع رائد متفاجئاً، بينما دخل ينال وأغلق الباب خلفه بقوة. أمسكه من ياقة قميصه، ولم ينطق بكلمة، تتلاشى الكلمات ويتصاعد التوتر.

بتحدٍّ، توجّه رائد إليه:

"من أنت وماذا تريد؟"

أجاب ينال، بغضب في صوته:

"ماذا فعلت لسلام؟"

ارتجف رائد، هاجس الخوف يتسرب إلى قلبه، متصوراً أن تكون سلام هي من أرسلت هذا المجنون. قال، مُحاولاً أن يطمئن نفسه:

"أنا لا أعرف أحداً بهذا الاسم."

هاجمه مرةً أخرى، وكلماته كانت كحد السيف:

"ماذا فعلت لسلام؟ كيف أجبرتها على إطاعتك يا لعين؟"

ارتجف رائد، ربما تحت وطأة موقفه، لكنه أقسم بصدق:

"أنا أحب سلام، صدقني!".

لم يستطيع ينال كبح جماح غضبه، فاندفع نحوه مُقدّماً له لكمات قوية، غاضباً من وقاحة رائد في محاكاة الحب! كيف له أن يكون مُتيماً بها ويرتدي ثوب المحب بينما أفعاله تدل على العكس. نفضه من يده، وابتلعه كالموج وهو يلهث، ليتقدم منه ويُخبره بأنفاسٍ مُعذّبة:

"أقسم لك، إن لم تخبرني بكل شيء، سأدفنك في أرضك ولن أتردد لحظة في فعل ذلك. تحدث، أيها اللعين!"

تدحرجت العبارات بلا طائل، فحرك رائد رأسه مُتعباً ليعترف بكل شيء فعله بسلام.

كان ينال يستمع لاعترافات رائد، بينما يتصاعد الغضب في داخله كبركانٍ ينفجر. لم يكن يستوعب كيف وصلت تلك الدنائة والحقارة إلى هذه الدرجة، وكيف يستطيع هذا الرجل أن يبتزّ بنات الناس، ويفتك بأعراضهنّ، وكأنّهنّ مجرّد دمىٍ مُخَلّعةٍ في يديه!

اقتربَ من رائد، كأنّما ظلٌّ يلاحق ضوءاً خافتاً، وأمسكهُ من ياقته، مُوجّهاً إليه نظرةً قاتلةً، ثمّ تحدث من بين أسنانه:

"رأيتها تدخل إليك منذ ثلاثة أيام، ماذا فعلت لها في يومها؟ تحدث!"

أنهى جملته بصراخٍ مُهلك، مُجبرًا رائدًا على ابتلاع ريقه بتوترٍ، ليقول:

"لم أفعل شيء، لم تتركني أقترب منها، بدأت تصرخ وتبكي فتركتها"

احمرت عيناه، وعروق رقبته برزت من شدّة غضبه. صرخ بأعلى صوته، ثمّ انهال عليه بالضرب المُبرح للمرة الثانية. أمسكه من كتفيه، وأقامه، ثمّ قال بصراخٍ مُهلك:

"أين الفيديو الخاصّ بها؟"

ابتلع رائد ريقه، وصرّح بهدوءٍ، كأنّما يُحاولُ أن يُهدّئَ من ثورة ينال:

"في الغرفة."

أمسكه وجره خلفه، ثم رمى به على السرير، مُهدّداً:

"أخرجه قبل أن أقتلك!"

نهض رائد بتعبٍ ووهنٍ، ليخرج من الجرّار الفيديو الخاصّ بِسَلام. كان اسمها مكتوباً عليه، وسلمهُ لِينال. أخذه يُقلّبه بيده، ثمّ التفتَ وأقترب من الجرّار، وأمسكَ مجموعةً من الأشرطة، كان مكتوباً عليها أسماء فتياتٍ أخريات.

أخذ ينال جميع الأشرطة، حتى الفلاشات الصغيرة، والكمبيوتر المُحمول الخاصّ بِرائد. لم يترك له شيئاً.

جمعها كلّها، واقترب من رائد، وأمسكه من ياقته، ثمّ قال بحدة:

"سأتركك هذه المرة، لكنّي أقسم إن فكرتَ بالاقتراب من سلام، سأقتلك، وأرمي جثتك للكلاب. هل تفهم؟"

حرك رائد رأسه بضعفٍ، ليُخرج ينال من عنده، بعد أن أخذ جميع الأغراض من عنده، تاركاً إياه يبكي بحرقةٍ وندم.

نهض بتعبٍ للصالة، لِيَمسكَ بِهاتِفهِ ويتصل بسلام. أجابتْه بِقَوْلِهَا:

"قلتُ لك اتركني، أرجوك، لا تعاود مُحادَثَتي."

تحدث رائد بِوهْنٍ، بِصوتٍ مُتَحَرّرٍ من كلمات غضب:

"لِمَ فعلتِ ذلك؟"

تعجّبت منه لتقول:

"ماذا فعلتَ؟"

تحدث بِغَضَبٍ وصراخ:

"لِمَ بعثتِ بهذا اللعين إلي؟ أقسم لكِ أنّني لن أرحمكِ، ولا تظنّي أنّكِ ستفلتين من يدي، يا سلام، ستكونين لي، ولن تكوني لغيري. أعدك بذلك!"

لم تُفهم منه سلام أي شيء. لم تعره اهتماماً، وأغلقت الخط في وجهه. نظر هو للهاتف، وهو يتنفس بحدة، ليعاود البكاء، بينما الغضبُ يأكلُ صدرهُ مِنْها ومن فعلتها معه.

في مكتبٍ يتلألأ بضوء الشمس الخافت، كان إياد جالساً على كرسيه المريح، مُغمض العينين، في حالة من السكون العميق. أفكاره كانت كالأمواج تتلاطم في بحر عقله، كل موجة تحمل اسم تلك الفتاة التي لم تغادر تفكيره منذ اللحظة التي عرفها فيها. كان يخشى من التحول الذي قد يطرأ على مشاعره نحوها، فالحب دوامة قد تأخذه بعيداً عن بر الأمان.

فجأة، انتزعته من غفلته طرقات خفيفة على الباب. أمر بصوتٍ هادئ، لكنه يحمل طابع القوة: "ادخل." دخلت عليه السكرتيرة الخاصة به، بابتسامة خفيفة ترتسم على شفتيها، بينما تحمل في عينيها بريق الفضول.

"سيد إياد، توجد امرأة تدعى سمر ترغب في رؤيتك."

عقد إياد حاجبيه باستغراب، متسائلاً في نفسه: من تكون هذه؟" قالها بصوتٍ يحمل مزيجاً من الفضول والريبة.

عادت السكرتيرة لتضيف بحذر:

"لا أعلم، سيدي، فقط قالت لي إن اسمها سمر."

أومأ برأسه في صمت وأفصح:

"أدخليها."

في لحظات، دخلت سمر، مبتسمة ببراءة ظاهرية، لكن إياد كان قد قرأ في العيون أعمق مما يُظهر. وفستانها الأحمر الذي يظهر أكثر مما يغطي يثير في نفسه مشاعر متباينة. برودته لم تستهلكها، بل أججت فضولها أكثر. وقف وهو ينظر إليها وقد رفع حاجبه، ليس فقط دهشة، بل عدم اكتراث أيضاً.

"تفضلي، اجلسي، وادخلي في صلب الموضوع مباشرة. لا أحب المقدّمات." صوته كان كالصقيع.

ابتسمت له بسخرية، ثم تقدمت بخطوات واثقة، وكأنها تتراقص مع أنغام غير مسموعة. مستعرضة أنوثتها بحذر، ونظرت له بمكر غير خافٍ:

"جئت أطمئن عليك."

نظر إليها بإحباط، فكانت ردود أفعاله تعبر عن مشاعر غير مُحتملة:

"صراحةً، لم يعجبني لقاؤك، بل شعرت بالاشمئزاز عندما رأيتك." الكلمات خرجت منه كالسهم، تصيب الهدف بدقة.

انتابتها موجة من الغضب، هي التي لم تُرفض من قبل، ولم تتجرأ الحياة على إهانتها، ترى في عينيه تلك القسوة التي لم تطأها قط. في صدرها كانت نار مشتعلة، وصورة تلك الفتاة ابنتها، تطفو في مخيلتها. هل حظيت بقلبه، وكيف يمكن لهذا الشاب أن يظل صامداً في وجه إغرائها؟ أرادت أن تتحدث ولكنه قاطعها.

"اسمعيني جيداً، لا أريد أن أعرف ما يدور في خلدك، لكني أعلم أنكِ تبحثين عن الشيطان في داخلي. لن تقدمي شيئاً يُذكر، ولن أسمح لكِ باللعب بذاتي." تحدث بلؤم، عينيه تحمل مزيجاً من الاشمئزاز والحنق.

"كيف علمت بكل ذلك؟" كانت صدمتها واضحة، فقد فتحت له أبواب أسرارها ولكن تفاجأت بقوة شخصيته.

"أقول لك بوضوح: أنا لست غافلاً. أخرجي من هنا قبل أن أريكِ ما يمكنني فعله." رد بغضب معتبراً أنها ليست أكثر من سراب يلاحقه.

نظرت له وكأنها تصطدم بحقيقة لم تكن تتخيلها، ثم وجدت نفسها تخرج مهزومة، تتمنى لو كان لديها شجاعة للمقاومة. لكنها تركت المكتب، صدمة الغضب تتردد في أعماقها، وصرير الباب خلفها يعكس قدريتها.

بعد مغادرتها، مسح إياد على وجهه المتجهم، تنهد بقوة. كان عليه أن يواجه ما يدور في قلبه من مشاعر مختلطة. ويجول في خواطره كيف يمكن أن تكون هذه المرأة بهذه الأفعال وابنتها رمز العفة، كيف يُحدث التباين بين حيواتٍ كانت تنبض بجمال وسوء.

بينما كان يستعد لمواجهة حياة، كانت عصفورته البريئة تجلس بمفردها تفكر بقصة قد تسحبها إلى دوامة خطيرة. فقررت أن تتحلى بالشجاعة، وأن تضع أسساً لمواجهة قد تكون قاسية، لكنها تُعلي من شأن القيم التي يُفترض أن تُصان.

12

في أجواءٍ مشحونة بالتوتر، دفع إياد الباب بقوة، ما أحدث صوتاً خافتاً مقطوعاً للصمت الذي كان يطبق على الغرفة. كانت تجلس في غرفتها، حاملةً بين يديها كتاباً، جفلت من دخوله المفاجئ. نظراته كانت محاطة بالبرود المعتاد، لكنه كان يحمل في أعماقه بركاناً من الغضب.

تقدم بخطواتٍ ثقيلة نحوها، عينيها التي امتلأت بالدهشة والقلق. وقفت أمامه، بل لمست حقيقة الفارق الشاسع بينهما في الطول، فقد كانت كزهرةٍ صغيرةٍ أمام شجرة. ابتلعت ريقها بصعوبة، وحاولت تجميع نفسها لتسأله بنبرة مترددة:

"هل هناك شيء؟"

أجابها بابتسامةٍ ساخرةٍ، تسللت عبر شفتيه في غموض:

"والدتكِ جاءت لزيارتي اليوم."

تجمدت ملامحها، وعقدت حاجبيها بتوتر، لتسأله بشغفٍ متردد:

"ماذا تريد؟" ثم برزت على وجهها علامات الأمل، وهي تتابع بلهفة:

"أخبرني، هل تريد أن تعيدني إليها؟ مؤكد أنها ستعيد لك المال، أليس كذلك؟"

كان الفرح يتلألأ في عينيها، لكن نظرة الجمود كانت تعلو وجهه كالسحاب فوق سماءٍ قاتمة. ألهذا الحد كانت تريد أن تتخلص منه وتبتعد عنه؟ غضبُه تضاعف، ولكن لم يشأ أن يُظهره، بل انفجر ضاحكاً بملء حنجرته:

"ترجعك إليها، أليس كذلك؟ تُريدين حقاً أن تعرفي ما الذي كانت تريده؟"

حركت رأسها ببطءٍ، تترقب ما سيقوله، وكان قد بدأ يجول في الغرفة:

"أتدرين، لقد أرادت أن تقترب مني."

صمت لبرهة، ثم نظر إليها بابتسامة خبيثة:

"كانت تعتزم قضاء بعض الوقت معي، نأخذ جولة معاً."

توسعت عيناها بالذهول، بينما تسارعت أنفاسها رافضة ماسمعته:

"كاذب، أنت كاذب! مؤكد أنها أرادت إعادتي، لكنك أنت من منعتها، أليس كذلك؟"

ابتسم لها بسخرية:

"لو كنت كاذباً، لما جئت إليك لأخبرك، ولكن لماذا أخفي الأمر؟ لا يهمني إن صدقتي أم لا، هدفي هو أن تعرفي من هي والدتكِ، وأن تعرفي حقيقتها لتتوقفي عن طرح الأسئلة بلا توقف."

نظرت إليه بعينيها المليئتين بالضياع، وانهمرت دموعها، خجلاً من نفسها ومن الكلمات التي سمعتها. أجمعت شجاعتها وأجابت بجفاء:

"أنا أعلم ما هي حقيقتها، وأعلم كذلك ما هي حقيقتك، فأنت مجرد رجل أحمق، بارد وتافه. جميع الصفات السيئة تميزك، لذا لا داعي لغرورك الذي أكرهه."

وقف أمامها ببساطة، بينما داخله كان بركاناً يوشك على الانفجار. لم يُظهر أي ردة فعل سوى ابتسامة تشير إلى استهزاءه. اقترب منها خطوتين، ثم تحدث بثقةٍ مثيرةٍ للاشمئزاز:

"أنا أفتخر بنفسي، ولن تمسحي تمثالك عليّ، فأنتِ تعيشين تحت سقفٍ واحدٍ معي، وسترين، لن تخرجي من محيطي مثل والدتكِ."

أطلقت تحدياً مليئاً بالعداء:

"ما الذي ستفعله؟ ها أنا هنا، ولن أُحسب على أمثالك. أنت ضعيف، وليس بوسعك أن تخيفيني."

جعلت كلماتها قلبه يشتعل، ونظر إليها بشراسة، وهو يقترب منها، ممسكاً بشعرها بعنف:

"صدّقيني، أنتِ مجرد لعينة صغيرة، وستشاهدين ما سأفعل بكِ."

الألم الذي انتابها من قبضته على شعرها كان شديداً، لكن ما زاد من وجعها هو أنها شعرت بقوته، عندما جرّها خلفه. أدخلها إلى غرفةٍ معزولة، ورمى بها على الأرض، تحتضن آلامها. خلع سترته وشد أكمامه، واتخذ وضعية القرفصاء، عاقداً ناظريه بحدة على وجهها المتجمد من الخوف.

لعنت نفسها لعجزها، أدمعت عيناها من العجز وخجلت من كلماتها:

"أنتَ رجلٌ أحمق وتافه."

اقترب منها بهمسة صاخبة:

"إذاً، تحملي يا حياة."

بيده المتجمدة بها، أوقفها وأمطّرها بالصفعات، وعنّفها كالريح القاسية. كانت تتألم من قبضته المكتومة على رأسها، وهي تطلب الرحمة، ولكن لا حياة لمن تنادي. استمر في ضربه لها، صرخاتٌ تخترق الجدران، وهي تستجدي أن يبتعد، لكنه لم يستطع.

إلى أن تركها. تأملها بجمود، وهي ملقاة على الأرض، لا حول لها ولا قوة، وابتعد ببطء، تاركاً إياها في دوامة من الأسئلة التي لم يكن قادراً على الإجابة عنها. أغلق الباب خلفه، كأنما يود أن يغمر نفسه في غياب تلك الفوضى، ويصعد إلى غرفته.

دخل الحمام ليغسل أثار الضغوطات، ثم خرج متوحداً في صمته، يتسرب إلى سريره كأن شيئاً لم يكن، مخلفاً وراءه صدى الألم والفوضى التي زرعها.

كان حسن يقف في شرفته، حزيناً كغصن شجرة يئن من الريح. تلك العيون البنية، التي كانت تلمع بنورٍ دافئ، غرقت الآن في بحرٍ من الذكريات المؤلمة. لم يزل يشعر بجمالها، بشرتها البيضاء النقية، وشعرها الذي ينسدل على كتفيها كالشلال، وروحها التي كانت تحمل معها دفئ الشمس.

أخذ يتنهد، كأنه يحاول أن يطرد من صدره كلّ تلك المشاعر التي طالما أرّقته. لم يصدق أنّه قد مضى على فراقها ثلاث سنوات. كانت كأنه حلم باهت، عاد ليؤرقه ليلاً بعد ليل.

حاولتْ الابتسامة أن تلوّن وجهه، لكنّها باءت بالفشل، فالذكرى كانت تُخيم عليه كالضباب على المدينة. في كلّ ليلة، يمر طيفها أمامه، وكأنّها تلوّح له من بعيد، وكأنّها تُذكرّه بمشاعره التي لا تزال سجينة في قلبه.

كان يحبها، نعم، كان يحبّها بجنون، ولكنّ القدر شاء أن يبتعد عنها، وأنّها لم تكن إلا حلماً جميلاً سرعان ما تلاشى. كانت تلك العادات والتقاليد، التي لا يأبه بها عادةً، هي التي وقفت كحاجزٍ منيعٍ بينه وبينها.

كان مُجبراً على تركها، تركها ورحل بعيداً دون أن يودّعها، كأنّه قد هرب من عالمٍ مخيفٍ. ولكنّ رحيله لم يكن بمشيئته، بل بمشيئةِ والديهِ، اللذين أصرا على ذلك.

لم يكن بمقدوره أن يفعل شيءاً، فقد كانا هما والديه اللذان تعبا عليه، وقاما بتربيته ليصبحَ شخصاً ناجحاً.

أراد والده أن يبتعد عنها للأبد، ولم يتركه ينبس بكلمة.

"لا أحبذ هذه الفكرة، لا أراها زوجة مناسبة لك. إن كانت والدتها رخيصة، فهي مثلها. كل يوم نرى الرجال يدخلون إليها، وزوجها لم يمرّ على وفاته سنة واحدة."

كان صوت والده سميرٍ مُتعالياً، بينما حسنٌ يفشل في التعبير عن مشاعره:

"أبي، هي ليست كوالدتها، أنا أعرفها جيداً وأحبّها، لذلك أريدك أن تخطبها لي."

كان وجه والده مليئاً بالغضب:

"اسمعني يا حسن، أنا لا مانع عندي بأن تتزوج وتستقرّ في حياتك، لكنّ هذه الفتاة لا! هي ليست زوجةً مناسبة لك."

"لكنّها ليست مثلها، أبي، صدّقني، أنا أحبّها."

"كيف تسمح لنفسك باختيار هذه الفتاة؟ حسناً، لنقل أنّها ليست مثلها، لكنّها والدتها، تحمل شيئاً من دمها، كيف ستتزوجها؟ كيف ستُنجب منها أولاد؟ لا أُريد أطفالاً مُلوّثين بمثلِ هذهِ العائلة."

كان حسن يشعر بالضيق، لم يردّ على والده، بل رمى نظرة حزينة على وجهه وخرج من الغرفة، حاملاً معَه أحلامه المُحطمة.

استفاق من شروده، شعر بشبح الماضي يطاردُه، كان يتمنى أن يطوي تلك الصفحات المؤلمة، وأنّ يبدأ حياةً جديدةً، ولكنّ لم يكن هذا سهلاً.

كانت ألمانيا تُحاول أن تمنحه راحةً من الماضي، لكنّه لم يكن قادراً على إيجادها، كان يعمل ك مهندس معماري، كان ناجحاً في مهنته، ولكنّ قلبه لم يكن سليماً، فقد ظلّ سجيناً في حبس الذكريات، حبس الحب المفقود.

كان يشعر بالذنب، يشعر أنّ ّه قد باع حبه لكي يُرضي والديه، يشعر بأنّه أصبح وحيداً في هذا العالم الواسع.

كان يتصل بوالديه كلّ فترة، يُطمئن عليهما، ولكنّه كان يُخفي عنهم أنّ قلبه مُفتّت، أنّه لم يجد مكاناً له في العالم سوى في أحضان حبيبته التي تركها.

هو يظنّ أنّ ّه يُعاقبهم بهذه الطريقة، أنّ ّه يُريد أن يشعرا بغلطتهما، وأنّ يفهما أنّ حبه لم يكن عبثاً، وأنّ حبيبته لم تكن كوالدتها.

دخلت سمر إلى منزلها، وجهها مشعٌّ بالغضب، وكأنّها حملت معها عاصفةً من المشاعر المتناقضة. كان حسان ينتظرها في القاعة، تقدّم نحوها بلهفة، يودّ أن يرى ما إذا كان قد نجح في خطّته:

"ها حبيبتي، ما الأخبار؟"

نفخت سمر خديها، وكأنّها تحاول طردّ غضبها خارج جسمها:

"الحقير اللعين، لقد هزأني وطردني، لم يُعطيني فرصة للحديث حتى!"

تكوّر وجه حسان غضباً:

"ما الذي تقولينه سمر؟ كيف له أن يرفضكِ، وأن لا يعطيكِ فرصة للكلام؟"

استدارت سمر نحوه، وعيونها مليئة بالغضب:

"صدقني، لقد قال لي بأنّه يعلم ما يدور في رأسي، ولن أصل إلى مرادي، وطردني من عنده، وهدّدني إن عدت إليه مرة أخرى سيقتلني."

مسح حسان وجهه بكفه:

"وما العمل الآن؟ كيف سنصل إلى مرادنا؟"

عقدت سمر حاجبيها:

"وما هو مرادك؟ إلى ماذا تريد الوصول؟"

تنهد حسان:

"أريد منه أوراقاً مهمّة، وإذا حصلت عليها سيخسر كل شيء، وسأكسب أنا، أيتها البلهاء. من أجل ذلك قلتُ لكِ بأنّ تذهبي له وتتقربي منه، لكي تساعديني."

همهمت سمر بسخرية:

"ألا تكفيك هذه الأموال التي لديك، عزيزي؟ يا لك من رجل طامع ومستبد!"

احتقن وجه حسان:

"اصمتي، سمر، لستُ طامعاً لأمواله، إنّما أريد أن يمحى اسمه في السوق، وأكون أنا المسيطر، لتكون الإمبراطورية لي، وليست له. فهمتي؟"

صمتت سمر، ووضعت يدها على رأسها، كأنها تُحاول أن تكبح غضبها ليردف حسان:

"حسناً، لدي حفلة، وكل رجال الأعمال مدعوون إليها، ومن بينهم السيد إياد. لذا أريدك أن تكوني معي، علّ وعسى تستطيعين التقرب منه مرة أخرى، وهذه المرة اطلبي منه أن يريك ابنتك."

تنهدت سمر تنهيدة صغيرة:

"حسناً."

صباح اليوم التالي، استيقظت حياة من نومها، ولكنْ أوجاع الدنيا كانت تتراقص في جسدها المرهق كأنها تتعمد أن تُذكرها بكل ألمٍ احتوته ليلاً. عقدت حاجبيها بألمٍ يُشبه قسوة تعابير الدنيا، ونهضت بصعوبة بالغة، تصارع النصف المنهك من جسدها. كانت تتذكر أحداث أمس، وأمام عينيها ترتسم ملامح الذكرى المؤلمة كشبحٍ يُعكر صفو وجودها.

هبطت دموعها حين رأت مشهد الضرب يمر أمامها كفيلمٍ مُظلم، لكن في عمق قلبها كانت تُدركُ أنّ الضرب أهون بكثير من أن تُفقد عذريتها، أو أن يُعتدى عليها بغير رحمة. شهدت بين الشهيق والزفير انكسارها، ولعنت حظها العاثر، لتعود بذاكرتها إلى الوراء، إلى لحظة كانت فيها الحياة تمطر عليها بالفرح.

منذ سنوات مضت، كانت حياة جالسة في غرفتها الصغيرة، تحيط بها الكتب والأوراق كأصدقاء مُخلصين. كانت تذاكر بكل جِدٍ واجتهاد، حيث يطرق والدها الباب بابتسامة واسعة، قفزت إليه كطفلةٍ عادت إلى أحضان والدها بعد غيابٍ طويل، وبدأ يقبلها بشغف، كأنه يُوزع الحب على وجهها، بينما ضحكاتها تملأ المكان.

جلسا معاً على الأريكة المُريحة في غرفة الجلوس، وكان جوّ الألفة ينمو بينهما. بدأ يتحدث معها، يطمئن على دراستها ويُعبر عن حبه. ثم قال وابتسامة تُضيء وجهه:

"عزيزتي حياة، أغمضي عينيكِ، لقد جلبت لكِ هدية."

حركت رأسها ببسمة طفولية، وخبأت عينيها بيديها، بينما أخرج من جيبه علبة صغيرة، وطلب منها أن تفتح عينيها. صرخت من سعادتها عندما رأت القلادة، فراشة صغيرة ملساء مرصعة بفصوصٍ ألماسية تتلألأ كنجوم في سماء صافية.

أدارها إلى الوراء، ليضعها حول عنقها، وبينما كانت تتفحصها، استدارت إليه بابتسامة دافئة:

"أبي، شكراً لك، إنها رائعة جداً!"

ابتسم والدها، وكانت نظراته مليئة بالحب:

"أعجبتكِ فعلاً؟"

حركت رأسها بإيجاب، فاجتذبها إليه في حضن دافئ، يُسكن قلبها بكلمات حنونة:

"أفعل المستحيل من أجلكِ، لا يهمني شيئ سوى سعادتكِ وراحتكِ، ولكن لا تخبرين والدتك عن الهدية."

أنهى جملته بهمش لتضحك حياة وتومأ بإيجاب، تلك الكلمات استقرت في قلبها كنسيمٍ في يومٍ صيفي، وكانت تُشعرها بالاطمئنان، بأنها محميةٌ بحب والدها.

لكن، أفاقت من شرودها بدموعٍ غزيرة تهطل على وجنتيها، تحترق في فراق الصورة الجميلة لذلك الأب. تمتمت بصوتٍ ضعيف:

"أحتاجك، أبي."

جفلت فجأة عند سماع حركة خلف الباب. مما دفع قلبها للانقباض، ليُفتح الباب ويدخل ذلك الذي قلب حياتها رأساً على عقب. نظر إليها ببرودٍ وجمود، بينما تبادلوا النظرات، فهي تمتلئ بالخوف والحزن، وهو يشعر بشعورٍ من الشفقة تجاهها، عندما رأى حالتها، وارتعدت أنفاسه وهو يشد على قبضته.

تقدم بخطواتٍ بطيئة، اتخذ وضعية القرفصاء أمامها، عينيه لا تفارقان عينيها، بينما هي تكورّت على نفسها، وجسدها يرتجف في خوف؛ لكنها لم تكن تتوقع ما سيحدث. مدّ يده، فظنّت أنّه سيفعل بها ما فعله بالأمس، فخبأت وجهها بين ذراعيها، لكن المفاجأة كانت مختلفة.

وبدلاً من الضرب، لمست يده شعرها برقة، وأخذ يهمس بكلماتٍ تُسكن ما في قلبها من ألم:

"أنا آسف."

كان صوتُه كالعاصفة الهادئة، يأتي ليزيل غبار المعاناة، لكنها كانت تعلم أنّ الاعتذار وحده قد لا يكفي، كأنّ الندم يأتي بعد الأوان. فبقيت مشاعرها متأرجحة بين الخوف من جديد، وبين رغبتها في تصديق تلك الكلمات.

13

ألجمت الصدمة قلبها، ونظرت إليه بعينيها الواسعتين وكأنهما تريدان الانفجار من شدة تلك المشاعر المتضاربة. انحبس لسانها، وغيّبت الدهشة كل قدرة على التعبير، فهذا هو الباشا، السيد إياد، الذي اعتاد على الجبروت والسلطة، يتراجع الآن ويعتذر! هل كانت هذه حقيقة أم حلم يقظة غريب يجول بخاطرها؟ تلاشت أفكارها، وتاهت في بحر من الأسئلة، بينما كان قلبها يخفق بقوة تستشعرها في كل ذرة من جسدها.

وقف هو أمامها، عواطفه تسير في مسارات متضاربة، إذ اختلط الألم بالندم، وظهر ذلك بشكل جلي في ملامحه. كانت هذه أول مرة يشعر فيها بتأنيب الضمير بسبب عنفه تجاه أنثى، بل إنها كانت الفتاة الوحيدة التي لم تكن تستحق أن تعاني من تصرفاته. يبتلع ريقه بصعوبة، وينظر إليها، فتلمع عيناها بالتساؤلات والدموع المكتومة، وكأنها نقشت على جدار قلبه رسماً لواقع مؤلم. لم يستطع استنزاف نفسه من تأثير سحر عينيها الدامعتين.

"ألا تودين الذهاب إلى غرفتكِ؟"

تساءل، لكن كلماته خرجت باهتة، تتراقص بين خيوط التوتر والخجل.

لم ترد، وإنما ظلت كما هي، كأن الزمن قد توقف. حاول أن يستجمع شجاعته فيقول بتلعثم:

"أجل، بالطبع، تريدين ذلك."

باستحياء، أطرق برأسه، ليبلل شفتيه ثم يعود إلى ما كان يعتزم قوله:

"حسناً، سأحملكِ، لأنك متعبة."

اقترب منها ببطء، قلبه يتسارع مع كل خطوة، وحين اقترب منها أكثر، اختلطت يديه بشعور من الرعاية والندم. تشبثت به، ورغم الارتباك الذي يملأ الجو، راحت تتفحص هيئته وملامحه الرجولية التي لا يمكن مقاومتها. تساءلت في نفسها: "أي جنون هذا؟"

وصل بها إلى غرفتها، حيث وضعها برفق على السرير كأنه يتعامل مع قطعة من الزجاج، وتراوحت مشاعره بين القسوة والحنان. اعتدل في وقفته، واحتاج للحظة ليعبر عن نواياه، فقال بصوت يخالطه جدية:

"سأبعث لك بالخادمة لتساعدكِ في تغيير ملابسك. وبالمناسبة، لا داعي للقلق بشأن الجامعة، لن تذهبين إليها بعد الآن. ستكملين دراستك هنا"

في تلك اللحظة، تجسد الغموض في كلماته، حيث كانت هناك إشارات خفية، لعالم جديد قد تضع قدميها فيه. كانت مزيجاً من الغموض والخوف، لكنها أدركت أن هذا الرجل، الذي سبق أن شهدت وجهه الحاد والمتجرد من العواطف، كان يحاول التواصل بطريقة لم تعهدها من قبل.

أنهى إياد جملته بهدوء، ثم خرج من الغرفة، تاركاً خلفه أصداء ذهول الفتاة التي كانت لا تزال تراودها مشاعر مختلطة. فيما كانت عينيها تشاهدان رحيله كأنهما شاهدا آخر لحظة من شريط الحياة. تحدث إلى الخادمة برفق أن تتولى العناية بالفتاة، وتُحضّر لها ما تحتاجه من فطور، قبل أن يغادر المنزل كأنه يجر معه عواطف متكررة من الشك والقلق.

توجه إياد سريعاً نحو شركته، حيث دخل إلى المكان بشموخٍ لا يتزعزع، وحضورٍ طاغٍ غمر الأرجاء. استقبله الموظفون بتحية احترام، لكنه لم يكن واهياً لهم، كأنهم مجرد ظل يختفي خلف مشاعره المشتتة. دخل إلى مكتبه ليجد صديقه ينال جالساً على الأريكة، ينتظر قدومه، لكن الصوت الوحشي للغضب والذنب كان يضيء في عيونهما.

لم يكن هناك حديث بينهما، بل كان صمتهما يعبّر عن كراهيتهما لأدوات الحياة التي أحاطت بهما. تنهد إياد باختصار وقرر كسر جمود اللحظة:

"ما بك؟ هل كل شيء على ما يرام؟"

ابتسامة ساخرة مرّت على شفتي ينال، وكأنها نذير شؤم:

"لا، لا يوجد شيء على ما يرام."

عقد إياد حاجبيه بحركة متوترة، وسأل:

"ما بك؟ تحدث."

تنهد ينال بعمق وكأنه يخرج كلمات من صدره المثقل بالندم:

"لقد أخطأت بحقها، وظلمتها يا إياد. أشعر بعمق من الأسف على ما فعلته بها."

صُدم إياد من حديثه وشعر بأنه يتحدث عن شخصية مختلفة، فسأله بلهفة:

"ما الأمر؟"

زفر ينال بزفرةٍ ثقيلة، وبدأ يسرد لصديقه كل ما دار في ذلك اليوم المشؤوم، مشاعره الممزقة أصبحت تنكشف من خلال كلماته. كان إياد يستمع بكامل انتباهه لكنه لم يصدق عينيه عن النذالة التي بلّغ بها ينال، وكأنه يتتبع خطواته في ظلمة غابة موحشة لا نهاية لها.

أنهى ينال حديثه، وتنفس بعمق، ثم سأل إياد بصوتٍ بارد:

"وما الذي ستفعله الآن؟"

حرك ينال رأسه بخفوت واهتزازات خفيفة، وهو يردد في ضعف:

"لا أعلم... صدقني، لا أعلم. حاولت الاتصال بها، والاعتذار، لكنها أبت الاستماع إلي."

تنهيدة إياد خرجت رقيقة، شديدة التأمل:

"حسناً، اتركها الآن حتى تصبح في حالة أفضل. بعد ذلك، تستطيع الحديث معها والاعتذار. لا تضغط عليها، كي لا تتأزم حالتها أكثر."

توجه ينال بنظره نحو الأرض، كأنه يتمنى لو تختفي الهموم بلمحة بصر، ثم قال:

"بالمناسبة، ستقام حفلة من قبل ذلك الرجل الذي يدعى حسان. وقد دعا معظم رجال الأعمال، ومن بينهم أنا وأنت. هل تود الذهاب؟"

عقد إياد حاجبيه مجدداً متسائلاً:

"وما المناسبة لها؟"

رد ينال ببرود:

"لا أعلم، لقد اتصل بي وأصر على دعوتي ودعوتك، وقليلٌ من الوقت يفصلنا عن الاحتفال، سيقام بعد ثلاثة أيام."

همهم إياد برضا مظهراً ابتسامةً ماكرة:

"حسناً، لا مانع عندي. لنرَ ماذا يخطط له هذه المرة."

ابتسم ينال بزاوية شفتيه، متسائلاً:

"كيف حالك مع تلك الفتاة؟ ماذا فعلت بها؟"

احتدت ملامح إياد، وهو يجيب بحدة:

"لا شأن لك في هذا."

ابتسم ينال ابتسامة جانبية وقال:

"أتغار عليها حتى من أن تحدثني عنها، أيها العاشق المتيم."

انتفخ خديه من الغضب، وهو يصرخ:

"اصمت، ينال. لا يوجد أي شيء مما يتحدث به خيالك، اللعنة عليك."

ضحك ينال ضحكة رنانة، وكأنه يستمتع بلعبة الكلام:

"كاذب يا إياد معين."

امتعض إياد وواجهه بنظرة نارية، وهو يقول:

"اغرب عن وجهي، ينال."

ابتسم ينال بإشراق، ملوّحاً بيده:

"حسناً، إلى اللقاء أيها العاشق."

ضحك ينال ضحكة صاخبة مستفزّة، كأنما أراد أن يهرب من كتلة الغضب المتجسدة أمامه. هرب من مكانه وكأن أنفاسه قد أصبحت ضيقة بفعل توتر اللحظة. بينما كان إياد يجلس بهدوء، محاولاً تهدئة نفسه، تنهد بعمق وأرخى رأسه إلى الوراء، مُغمضاً عينيه. سافر بخياله إلى ملامح تلك الفتاة الصغيرة، روحها الضعيفة الحائرة، التي تعكس براءة لم تستحق قطرات الغضب والعنف.

أخذ يتساءل، متأملاً: لماذا يعاملها بتلك القسوة؟ لقد كانت مجرد ضحية في صراعٍ لم يكن لها فيه يد، بينما هو الشبح الذي جلب الظلام إلى حياتها. لقد ظلمها، ولاحظ قلبه ينقبض بوجعٍ متصاعد. كيف له أن يسمح للقسوة أن تسيطر عليه إلى هذا الحد؟ وفي كل محاولة لاستعادة السيطرة على أفكاره، كان يجد نفسه يعد نفسه بأوامر لا تعكس نبض قلبه الموجع.

"كيف سأتصرف معها؟" فكر بها، وعينيه لا تزال مغمضة، بينما جزء من فكرة الأذى الذي قد يلحق بها. كان قلقه يجرفه نحو دوامة من الندم، والخوف من أن يتجلى له الجانب الآخر من شخصيته، الذي يغمره الغضب والوحشية. كان يتمنى أن يكون قادراً على السيطرة على انفعالاته، وعدم ارتكاب أي خطأ قد يؤذيها.

ولكن، مهلاً! ما هذا الكائن الذي يعيش في صدري؟ أليس هو من قرر أن يثأر وأن يعذبها، بلا هوادة، بلا رحمة؟ لماذا يستشعر الآن الخوف من الألم الذي قد يلحق بها؟ ما الذي يريده منها حقاً، وإلى أين سيوصلها؟ كان يشعر بأن تناقضات قلبه تتسلل إلى تفاصيله، وتستفزه للبحث عن إجابات لم يألفها من قبل.

يا له من رجل غريب الأطوار، يتصارع مع ذاته بين حبال الألم والرحمة؛ قاسٍ في لحظاتٍ يعجب بها، ورحيم في أخرى تمزق روحه. استسلم لأفكاره المحتدمة، وتذكر تلك الحكمة القائلة: "كل بداية مؤلمة لها نهاية جميلة." كيف له أن يصدق ذلك وهو يغرق في عتمة الذنوب؟ لكن ما باله؟ لماذا يرغب في التمسك بذلك الأمل الضئيل الذي يقاوم العواصف في قلبه؟

وفي هذه اللحظة، أدرك إياد شيئاً؛ ربما كانت هذه المشاعر المتناقضة هي الطريق الذي سيمهد لجسر الوصال بينه وبين تلك الفتاة. كل شيء يأتي في أوانه، حتى القسوة قد تستبدل بلطفٍ ينمو في ظل ظروف غريبة.

حاول أن يأخذ أنفاسه بهدوء ويعيد ترتيب أفكاره، عسى الأمل يسود من جديد.

في زوايا غرفتها المعتمة، كانت الفتاة تسكن غرفتها. تركت آثار الحادث عميقة في روحها، فما عادت تلك الفتاة المشرقة التي تحظى بابتسامة متلألئة. الآن، عزلت نفسها في صمت مخيمٍ، واجهت عواصف الذكريات المؤلمة، حيث ضاعت تلك اللحظات الجميلة تحت أطنان من الهموم.

تأتي جدتها من حين لآخر، تُناشدها بخفة وحب، تحاول أن تخرجها من زوايا عزلتها. لكن كل محاولاتها كانت تقابل بالرفض، والفتاة، وهي غارقة في أحزانها، لا تجرؤ على البوح بما يعتصر قلبها. جدتها، التي لا تعرف سر تلك العتمة التي حلت بها، كانت تشعر بالقلق يتضاعف في صدرها، تنتظر لحظة تشرق فيها شمس الأمل على حفيدتها.

مع انبلاج يوم جديد، كانت الفتاة تجلس في ركن بعيد من الغرفة، عيناها تراقبان الفراغ بجمود، والذكريات تتلاعب بها كأشباح تلاحقها باستمرار. كانت تفكر في كلماته الأخيرة، في ذلك اليوم المشؤوم عندما قال لها رائد:

"لماذا أرسلتي لي ذلك اللعين؟"، كلمات رنانة، لم تستطع أن تخرج من رأسها. فتحت عينيها على ذكريات ما حدث، لكن الإجابات كانت غائبة، كما لو كانت تحت ستارٍ سميكٍ من الضباب.

تدافعت الأفكار في عقلها، هل حقاً كان ينال قد علم بما جرى؟ لكن كيف له أن يفهم عمق المعاناة التي تختزنها؟ هي ليست فقط ضحية حادث، بل ضحية مشاعر مُعذبة واستغلال قاسٍ ترك جراحها تنزف في صمت. أصبحت كلمات مثل "الندوب" و"الخيانة" تتردَّد في ذهنها كأصداء لذكريات مؤلمة، مما جعَلها تبتعد أكثر عن عالم الرجال.

وفي خضم حالة من الشجن والملل، نظرت إلى الساعة، ووجدت عقاربها تقترب من الرابعة عصراً. تململت في مكانها، وتنفست بعمق كأنما كانت تتنفس الحرية المفقودة. قررت الخروج، طلبت من نفسها أن تعيد اكتشاف الفتيات الصغيرات في قلبها، تلك الفتيات اللواتي يتخيلن العالم كحلم جميل. ارتدت ثياباً بسيطة وخرجت، لتجد جدتها نائمة في صالة المنزل. اقتربت منها، ووضعت يدها برفق على رأسها، وقبّلت جبينها وكأنما تعدّها بالعودة قريباً.

خرجت إلى عالم خارج حدود جدران عزلتها، لا تعرف إلى أين تتجه، لكنها كانت بحاجة إلى الهواء النقي.
وبخطوات لها وقعها الخاص، بدأت تبحث عن راحة مؤقتة من الزمان الذي لا يرحم. تذكرت والديها، الذين فارقوها فجأة، وتراءت لها صورتهما كمرآة تعكس أحزانها. في كل شعور غريب يتسلل إلى قلبها، كانت تتمتم: "ليت لهما قبراً لأزورهما، لأشكو لهما همومي".

لكن الأقدار، كما لو أنها تلاعبت بخيوطها، لم تمهلها وقتاً طويلاً قبل أن تعود إلى الواقع. بينما كان خيالها ينسج قصصاً حزينة، فاجأتها سيارة تسير بسرعة. صوت التنبيه جاء كصوت جرس ينبهها إلى الخطر، لكنها كانت غارقة في أفكارها، مما جعلها تتجمد ولم تحرك ساكناً. بدت كعصفور محتجز بين قضبان الخوف، ولم يسعفها قلبها الهش. أغمضت عينيها على أمل أن لا يكون هذا هو الوداع الأخير.

لكن، وكم كانت الصدمة حين شعرت بيدين قويتين تحيط بها وتصرفها عن خطر الموت المحدق. اعتادت على رؤية ذلك الوجه الملعون، وجه رائد، الذي بوجوده كل مرة يعيد لها جروحها. فتحت عينيها وأفصحت كلمتها بغضب مكبوت:

"من أين أتيت وماذا تريد مني، أيها التافه؟"

ومع توترٍ قد سيطر على ملامح وجهه، رد عليها بصوت عميق:

"سلام! لا تتحدثي إلي بهذه الطريقة. لا تظني أنك الوحيدة التي تعاني. لو لم أنقذك، لكنتي ميتة الآن"

سخرية مريرة اشعلت عينيها، فردت بحدّة:

"آه، ماذا ستفعل؟ هل ستقوم بنشر ذلك الفيديو لتفضحني؟"

تجاذب الأمر بينهما، كما لو كانت مشاعرها تنفجر بشظايا الغضب، لكنه، بتوتر واضح، حاول تمالك أعصابه، قائلاً:

"ما بكِ؟ لماذا كنتِ شاردة الذهن؟ ألم تدركي أنك كنتِ مهددة بالموت لو لم أتمكن من إنقاذكِ في اللحظة المناسبة؟

زفرت بحنقٍ، وأطلقت كلماتها كسهام حادة تتجه نحو هدفها:

"لا شأن لك بي! ابتعد عني ولا تتدخل فيما لا يعنيك. أغرب عن وجهي اللعنة عليك!"

فاجأها تحوّل الأجواء عندما شعرت بيده تنقضّ عليها، ممسكةً بمعصمها وكأنما تحاول كبح جماح مشاعرها. أمسكها بنظرة مُحتدمة، بينما احتدت ملامحه، وخرجت الكلمات من بين أسنانه بإصرار:

"سلام، احترمي نفسكِ! هل تفهمين؟ أريد أن أعلم شيئاً واحداً فقط: لماذا بعثتِ بذلك الشاب إلي؟"

تجمدت للحظة، تعقد حاجبيها باستغراب، كعصفور في قلب عاصفة، ثم أجابت:

"من هو ذلك الشاب؟ وماذا تريد مني؟ أنا لا أفهمك!"

ارتفع صوت رائد بنبرة تمزج بين النفاذ والصبر المفقود، وكأنما يخرج ما بداخل صدره المتمزق:

"ذلك الشاب الذي بعثتيه إلي، وقد قام بضربي وأخذ مني كل أشرطة الفيديو، وحذرني من الاقتراب منكِ مرةً أخرى. لماذا فعلتِ ذلك، سلام؟ أقسم أنني كنت أريد إصلاح خطأي معك، وكنت أريدك أن تسامحيني لنستطيع إعادة بناء ما تكسّر بعد أن كنا نخطط للزواج."

انتابتها هزةٌ من الفزع والصدمة، وتذكرت ينال لتبتلع ريقها بصعوبة. لم تكن تعرف إن كانت تشعر بالفرح لأنه أنقذها منه وأخذ كل الأدلة، أم تحزن لأنه تصرف معها بهذه الطريقة وأهان كرامتها، ثم تدخل في مسألة لا تعنيه. عاد صوت رائد ليرتفع، رافضاً اسمها بضغوطٍ غير مريحة:

"أنا ما زلت أريدكِ، سلام! أريدك في حياتي، صدقيني أنا نادم على كل ما فعلته بك وأرغب في إصلاح كل شيء لنعود لبعضنا. أعلم أنكِ تحبينني كما أحبك وأعشقكِ، صدقيني!"

تأججت مشاعرها وابتلت عيناها بالدموع، ثم نترت يدها من يده بعنف، صارخة:

"الآن عرفت أنك تحبني، بعد ماذا؟ بعد أن غدرت بي! أجبرتني على ما لا أريده، استغلالاً لرغباتك أيها النذل الحقير! صدقني، لم يعد لديك أي مكان في قلبي، بل أكرهك من كل أعماق روحي ولا أريد سوى ابتعادك عن حياتي. لا أريد أن أرى وجهك اللعين بعد الآن!"

انفصلت عواطف الغضب عن رائد، وأضافت إلى ملامحه خطوطاً من اليأس، ليظهر التوتر في صوته وهو يقول:

"لن تمنعيني عنك، سلام! سآخذك، وإن لم يكن بالحسنى فسيكون بالغصب، هل تسمعين؟"

ضحكَت بسخرية، وأخرجت من صوتها إيقاعات الكراهية:

"أها، ستأخذني بالغصب كما غدرت بي، وجعلتني أفعل تلك الأفعال القذرة، أليس كذلك؟"

ارتفعت وتيرة أنفاسه، وعبر صرخةٍ مجروحةٍ، قال:

"سلام، لا تتحدثين إلي بهذه الطريقة! قلت لك أنني نادم، نادم، نادم! أيتها الغبية!"

لم تجبه. نظرت إليه بسخطٍ، وهمّت بالمغادرة، لكن قبضة يده أوقفتها مجدداً، ليقول بنفس الصوت، هذه المرة مع بريق من اليأس:

"إلى أين ستذهبين؟ ستذهبين إليه، أليس كذلك؟ أنت تحبينه، صحيح؟"

دفعتْه عن نفسها بكل ما أوتيت من قوة، وتراجعت هي خطوتين إلى الوراء. ملأت صرخاتها المكان:

"اللعنة عليك وعليه! اذهب إلى الجحيم، لا تعود لتريني وجهك! هل تفهم ذلك؟ وذلك اللعين سيكون لديه حساب عسير معي!"

تسارعت خطواتها بينما كانت شوارع المدينة تعج بالحركة، يلفها إحساسٌ متأجج بالقلق والغضب. استوقفت سيارة أجرة، وركبت فيها وهي تتوجه بثقة نحو الشركة التي يعمل بها "ينال". لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى وصلت، فهي تعرف مكان شركته جيداً، إذ سبق وأن زارتها مع والدة ينال لرؤيته وهو يتألق وسط زملائه. في ذلك الوقت، رسمت الابتسامة على وجهه، وكأن الدنيا برمتها قد امتلأت بالفرحة، لا سيما أنه يستقبل محبوبته، مما جعل قلبه يخفق بشغف لا حد له.

استعادت ذكريات تلك الزيارة، حيث ظلت ابتسامة ينال تطارد خيالاتها، معبرة عن سعادته الطاغية. لكن الآن، كان عبءٌ ثقيلٌ يتوجس في قلبها ويدفعها للمضي قدماً بسرعة نحو مصعد المبنى. مع كل طرفة تستقر في قلبها، زادت عزماً على الوصول إلى مكتب ينال.

عندما وصلت، لم تستنطق نفسها لتهدئة أعصابها. سارت مباشرة نحو السكرتيرة، التي جلست على مكتبها بعينيها المتعسرتين، وهبتها بنبرة جادة وحادة:

"أنتِ، يا فتاة، أخبري مديركِ أنني أريد رؤيته، هيا!"

نظرت السكرتيرة إليها ببرود واحتقار، وهي تضغط على علكتها، وكأن الكلمات كانت تتدحرج من فمها ببرودها المقرون باللؤم، فقالت:

"السيد ينال طلب مني ألا أدخل له أحداً. عودي فيما بعد، يا صغيرة."

أثارت تلك الكلمات بداخلهما ثورة بركانية. اقتربت منها، وقد غمرتها مشاعر هائجة، وصفعتها على وجهها صفعة قوية جعلتها تصرخ بذهول. لم تكن لتوجه إليها كلمة اعتذار، بل اندفعت نحو الباب بأقصى قوتها، لتفتحه بطريقة عنيفة حتى خبط بالحائط من فرط قوتها.

دخلت إلى المكتب، وعينيها تتقدان غضباً، وكأن الشرار يتطاير من ناظريها. أغلقت الباب بقوة خلفها، مما جعل ينال ينظر إليها بذهول، وحين رأى تعبير وجهها، قفز من مكانه وابتسم بابتسامة متوترة يكاد أن يخفي وراءها قلقه.

"أهلاً، سلام. تفضلي!"

قالها محاولاً استرجاع توازنه، لكن صوته كان يحمل بين نبراته توتراً واضحاً، كأنه يعلم أن شيئاً غير عادي يحدث.

مشت نحوه بخطوات بطيئة، تتأمل ملامح وجهه الذي كان يمزج بين التعجب والقلق، ووقفت مباشرة أمامه. ثم تحدثت، لكن صوتها لم يخلو من حدّة:

"ماذا فعلت لرائد؟"

14

لم ينطق بحرف، ومكتفٍ بالتحديق فيها بصدمة محيرة. تساؤلاتُها حلقت حول قلبه كطائرٍ جريح، لماذا تسأل عنه؟ وما شأنها به؟ هل يعقل أنها ما زالت تحمل له مشاعر؟ ألم تُخفِ بدقة تفاصيل قلبها الثائر؟ كان قلبه يعج بالأوجاع، شعورٌ مكبل، والفتاة التي يعشقها الآن تأتي بكل وقاحة لتسأله عن شابٍ آخر! كان على شفا مواجهةٍ غير محسوبة، حين أعادت سؤالها له، وهمهمت بصوت يكاد يختنق بغضبٍ متصاعد.

فجأة، استقرت أنفاسه، وبللَ شفتيه، فأجابها ببرودٍ غير مبرر:

"لقد فعلتُ ما يجب أن أفعله."

ابتسمت بسخريةٍ قاتلة، كأنها تلقي حجراً في سكون برودته:

"ماذا تقصد؟"

ابتلع ريقه مرةً أخرى، كمن يتحدث عن جرحٍ عميق، وجومه يخفى وراءه حرقة قلبه، فخرج صوته خاملاً:

"لقد قام باستغلالك وخدعكِ، لو لم أتحرك لكان سيفضحك. ألا تريدين مني أن أتصرف وأوقفه عند حده؟"

همهمت له، غاضبةً وكأن البركان قد انفجر بها:

"وهل طلبتُ منك المساعدة؟!"

تنهد بعمق، وكأن ثقل العالم على كاهله، ثم أجاب:

"لا، ولكن كان عليّ أن أفعل ما فعلته لأنني أعتبركِ..."

توقفت اللحظة، وقلبها ينبض بتوقعات متباينة:

"تعتبرني ماذا؟"

كاد صوته أن يختنق بينما بلل شفتيه، وجمع أفكاره في مشهدٍ حزين:

"أعتبركِ فتاة صغيرة، أحمل مسؤوليتها، لذلك تصرفتُ في الوقت المناسب. كنت أريد حمايتك، سلام، لم تهوني علي، لذا تصرفت."

ضحكت بسخريةٍ، بمشهدٌ يجسد صراعها الداخلي:

"أها، تريد حمايتي أم أنك تريد الاطمئنان على شكوكك المريضة؟ لطالما اتهمتني بالعهر، قلت إنني فتاة ساقطة. ألا تذكر كلامك؟ والآن تقول لي أنك تريد حمايتي؟ يجب عليك أن تحميني من نفسك، لا منه. لم تختلف عنه في شيء، كلاكما بنفس الحقارة والتفاهة. لم يكن هناك داعٍ لتصرفك الأحمق. كنت سأتدبر أمري بنفسي. اسمعني جيداً، لا أريد أن أرى وجهك بعد اليوم. إن كان هو أم أنت، فأنتما الاثنان أغبياء، ولا أحتاجكما، هل تفهم؟"

أدمعت عيناه من الألفاظ القاسية التي انطلقت من قلبها، شعورٌ جارح إذ استدعت سبابتها بحزم نحو وجهه، محذرةً إياه بصرخة قاسية:

"أقسم لك يا ينال، وأنا أحذرك، إن اقتربت مني أو تدخلت بشؤوني، سترى مني ما لا يعجبك! اللعنة عليك وعليه وعلى جنس آدم جميعهم!"

انتهت جملتها بصياحٍ وصراعٍ داخلي، ودموعها تبلل وجنتيها المتوردتين، لترسم مشهداً مأساوياً في أزقة قلبه. صُدم من مظهرها، هذه أول مرة يراها بهذا الشكل. لم يكن يدرك أن خلف تلك الفتاة البريئة هكذا قطة شرسة، متربصة. أرادت أن تبتعد، لكن يده التي تمسكها بشدة منعتها.

التفتت له، ونظراتها تملؤها نارٌ وغضب، في حين تحاول الانفلات من قبضته، تصرخ في وجهه:

"اتركني، أيها الغبي!"

لكن، يداه لم تشأ أن تخذله في هذه اللحظة الصعبة، ولم تطاوعه أن ينطق بحرف. كانت جموداً عاطفياً، يراقبها بعيونٍ تحمل في طياتها مشاعر غير مفهومة. حضرت في خياله تلك اللحظات التي تشابكت فيها أرواحهم، كالفصول الأسيرة.

حاول أن يهدأ، أن يسيطر على أنفاسه المتسارعة، الغضب يغلي في أعماقه، لكنه كان يدرك تماماً أن صب كل غضبه عليها لن يُجدي نفعاً. كان حذراً، علم أن الكلمات المؤلمة لن تُعالج جرحاً عميقاً، لذلك وقف يتحدث بنبرةٍ مهزوزة:

"سلام، أنتِ لا تعلمين كم أخاف عليكِ. لقد تصرفتُ هكذا لأنني لا أريد أن يحدث لكِ شيء. أنا أعلم أنني جرحتكِ وأهنتكِ، ولكن لم أفهم في وقتها، كنت غاضباً جداً. لم أكن أعرف ما مررتِ به. أرجوكِ... افهميني."

تناظره بنظرات حادة، وبدت تفاصيل وجهها تنبض بالاستفهام والاستنكار. قالت بصوت يُشبه صفير الرياح في ليلة عاصفة:

"وما شأنك بي حتى تخاف علي؟ ما الذي تعنيه لي وماذا تريد مني؟ أنت ليس أكثر من شاب تافه، مثل رائد. أخبرني فقط، ماذا تريد مني؟"

أنهت جملتها بصراخ لم يكن متوقعاً، كأنها تُطلق جرس إنذار:

"أريدكِ أنتِ."

جفلت من صوته، وكأن كلماتها تاهت في سكون روحيهما. صدمتها مشاعره، وإذ به يواصل بنبرة مفعمة بالقهر:

"أريدكِ لي وحدي، أحبكِ وأعشقكِ، سأفعل أي شيء لأجلكِ أنتِ. مذ كنتي صغيرة، وأنا متيمٌ بكِ. كنت أرى البرود والجفاء من جانبك ومع ذلك تحملت. أخاف عليكِ وأراقب مشاعركِ، أحزن لحزنكِ وأفرح لفرحكِ. ألا يكفيكِ هذا العذاب؟ أسمعيني، إلى متى ستبقين هكذا؟ لم أعشق فتاة سواكِ. لماذا تفعلين بي هذا؟ أرغب في العودة التي ما كنا عليه، لم أعد أحتمل."

تساقطت دموعه، والألم يتجلى في عينيه، بينما هي ما زالت مصدومة، تغوص في شتات أفكارها. لم تكن تعرف عن مشاعره الجياشة، فقد اعتقدت أنه يعتبرها كأخته، وليس كمحبوبته. هنا في خيالات طفولتها، كانت تتعلق به بشكلٍ أعمق، وكانت تُخبره دوماً بأنها ستتزوجه عندما تكبر غصباً عنه. لكن لم يمحُ شغفها، بل جلب معها خجلاً وحياءً يمنعانها من استعادة علاقتها القوية به.

ولقد حدث أن أحبت رائد، لكن ذلك الحب لم يكن طاهراً، وزُعزعته أهواء غير نبيلة. وكما بأنين عواطفها، كان هناك ينال، الذي رعاها في أحلك الأوقات ووقف بجانبها كظلٍ لا يُفارقها، وبدون أي جرح منذ أحد عشر عاماً، ما عدا ذلك اليوم المشؤوم، حين ظن أنها انصاعت برغبتها. كلمات ينال الصادمة أحدثت جرحاً عميقاً في روحها.

تأمل في عينيها، محاولاً استشفاف القليل من عواطفها، لكنه لم يجد سوى البرود. صدمته جملتها الجارحة وهي تقول:

"لا يهمني حبك ومشاعرك، ما يهمني هو أن تبتعد عني. لا تقترب مني أبداً."

شيء من كرامته تمزق تحت وطأة كلماتها. تحطمت آماله حين سمع صوتها يعلو مجدداً، متدفقاً من مرارة القلب:

"لو كنت صدقتني ووقفت بجانبي، لما حدث لي كل هذا. لو كنت تحبني فعلاً، لما شككت في تربيتي وأخلاقي، لو كنت تعشقني، لما نعتني بالعاهرة الساقطة. أنا لا أحبك ولا أحب أحداً، اللعنة على تلك الأيام، ليأخذني الله حتى أرتاح منكم!"

صراخها وكان بمثابة إعصار، تُلقي كلماته بجنون من قلبٍ اعتلته الأحاسيس. رأى فيها تلك الفتاة التي أحبها، ولكن في تلك اللحظة، كانت فاقدة التركيز، وقد عادت لنوبتها، تتخبط بين صراخٍ محموم وحركة غير متزنة.

وما إن مضت دقيقتان حتى تهاوت، وفقدت وعيها، وسقطت بين يدي ينال. تهاوى قلبه معها، خائفاً عليها، وزلزلت روحه تلك اللحظة، تحت وطأة مزيج من الحب والخوف. حملها بين ذراعيه، عازماً على إنقاذها، مستعرضاً كل نظرات الاستغراب والدهشة من حوله. لم يُبالي بحال أحد، كان همه الوحيدة تلك الطفلة التي ظاهرتها، في تلك اللحظة، كعصفورٍ مجروح.

كاد العرق يتصبب من جبينه، وقد تمنت روحه الراحة لصغيرته. واندفع بها إلى المستشفى، كأنما ترافقه أصداء دعواته المتوسلة. مضى الوقت سريعاً قبل أن يُدخلها غرفة العلاج، حيث حضر الطبيب، الذي اعتاد مشاهدتها من قبل. دموعه تسقط كالمطر الحزين، خائفاً من فقدانها، نادماً على تقصيره.

استجمع قواه ليقف أمام الطبيب، بعينين غارقتين في القلق:

"كيف حالها، أيها الطبيب؟"

تنهد الطبيب تنهيدة عميقة، وكأنّ في صدره هموم العالم أجمع، ليتحدث بيأسٍ ساكن وكلمات مختنقة:

"سيد ينال، لقد حذرتك في المرة السابقة من الضغط عليها، ومن واجبك الانتباه لها جيداً. الصدمة التي تعرضت لها كانت وحشية، لقد أصبح قلبها ضعيفاً، وكانت معرضة لجُلطة قاسية، لذا يتوجب عليك مراعاتها بحذر، ولأجلها، يجب أن تبقى هنا في المستشفى لمدة ثلاثة أيام تقريباً لمراقبة حالتها. أعتذر إن كان هذا عبئاً إضافياً، لكننا نفعل ما في وسعنا."

أنهى جملته بهدوء ورحل. وظلّ ينال جالساً، جامداً كتمثال رُ ُسِمَ بألوان الحزن، لا يعبّر عن شيء سوى الألم العميق الذي ينخر في نفسه. أغمض عينيه لبرهة، يسترجع من خلالها أوجاع الذكريات ويشعر بكائنٍ يُشبه الفقد يلوح في الأفق. ثم نهض، عازماً على الدخول إليها.

توجه إلى سريرها، حيث كانت ترقد كفراشة مُنهَكة على حافة الزهور، شاحبة الوجه، تتنفس بصعوبة، وكأنّ كل نفس يمزق حجاب صمتها الثلجي. انحنى إليها، مُمسكاً يدها الصغيرة، التي بدت وكأنها فقدت كل حرارتها، وبدأ يقبل أصابعها واحداً تلو الآخر، مُخلفاً قبلاته ثغور الشوق والألم، فتدحرجت الدموع على وجنتيه، خافتة كنسمات الريح.

راحت ذاكرته تأخذه إلى ذاك العالم البعيد، عالم الطفولة الضائعة، حيث يختلط فيه الضحك بالحنين.

تسع سنوات تماماً قد مضت منذ تلك اللحظة. كانت سلام في عمر الثانية عشر، تجسد براءة الطفولة وضحكاتها تُزين الأجواء. شعرها الطويل منسدلاً على كتفيها، مُربوطٌ بضفيرتين جميلتين، وثوبها القصير الأحمر القاني الذي يُشعّ بريقاً كأفراح الشمس في صباحات الربيع. كانت تملك سحراً يتجاوز أعمارها، ولكن عينيها كانت تعكس حزناً غامضاً.

انتظرت في المنزل، سائرة في أضلع الانتظار، عابسة الوجه، تراقب اللحظات كما تراقب الفراشات تطير بعيداً. وعدها بأنه سيأخذها إلى الحديقة، وسيُحقق لها كل ما تحلم به، ولكن قلبه حاصرته أعباء العمل، اتصل بجدتها اتصال سريع معتذراً عن القدوم. ترتدي ثوبها الذي أهداه لها بشغف، تشعر بالخيبة تتسلل إلى قلبها، وتغمر كيانها شعور بالفقد.

فجأة، دق الباب. قفزت من مكانها، أملها يتجدد وعيناها تتلألأن بأحلام صغيرة، اعتقدت أن القدر قد تغير. لكنها، كاد أن ينجرف الأمل منها حينما فتحت الباب، لتجد الفراغ يبتسم لها بسخرية.

تجوب بحيرة استغرابها، وعندما همت بـ أغلاق الباب، برز أمام عينيها صندوق متوسط الحجم، مُغلف بشريطٍ أزرق زائد النعومة، وكأنه يحوي عباءة من الأحلام.

مدّت يدها كطفلة متلهفة، إذ حملت ورقة زرقاء مطوية، قلبتها بفضولها. قرأت الكلمات كحكاية من حكايات العشاق:

"صغيرتي الجميلة والبريئة

لا تظني بأنني نسيت موعدنا، على العكس، إنني أنتظره بفارغ الصبر. أريدكِ أن ترتدي هذا الثوب الموجود في الصندوق، وأن تأتي إليّ، لأنني أنتظرك بالأسفل. لا تتأخري..

ينال.. كل الحب."

ابتسمت ببراءة، رغم أنها لم تكن تدرك تماماً عمق المشاعر التي اجتاحت قلبها، حينما فاجأها بتلك المفاجأة التي لم تنسَ طيفها. انحنت برشاقة، وأمسكت بالصندوق الذي كان يحوي في طياته سعادتها الصغيرة. دخلت إلى غرفتها كعصفور صغير، وكأنها تطير إلى عالم من الفرح. عندما فتحت الصندوق، تجلت أمام عينيها صورة حلمها، الثوب الأبيض الرائع، الناعم مثل رقة أنفاسها. تسارعت ضحكاتها كأنغام موسيقية تداعب آذان الحضور، وبدون تردد ارتدته على عجل، حيث كانت ملامحها تدل على سعادتها الغامرة.

لكنها، وكأنها تتعهد بأخذ خطوة نحو الحرية، قامت بفك ضفيرتها وأسدلت شعرها الطويل على ظهرها. في لحظة سريعة، اندفعت إلى أسفل السلم، شغوفة بلقائه. وعندما رأته واقفاً في الأسفل، كان الجاذبية تحيط به كالهالة الساحرة؛ انقضت عليه كنسمة هواء، محتضنة إياه بقوة، بينما قادها في دوامة من الضحك والفرح. دار بها حول نفسه وكأنهما في عرض سعادة لا نهاية له، ثم طبع قبلة رقيقة على جبينها، بشغف يقول:

"فتاتي الصغيرة، أحبك أكثر مما يمكن أن تعبّر عنه الكلمات."

"وأنا أيضاً أحبك،"

أجابت ببراءة، كزهرة تتفتح تحت أشعة الشمس.

تقدّم معها إلى حيث تريد، وبدأت تتفتح أمامهما بوابة اليوم المميّز. لم يبخل عليها بأي شيء؛ فقد وضع بين يديها كل ما تتمناه، لم تترك لها مساحة للحنين أو الانتظار. كانت سعادته تتلألأ في عينيه كلما رأى ابتسامتها، وهي تُعبر عن

فرحتها الصادقة ليلتمس دفء عالمي الذي منحته لها. في أحضان هؤلاء اللحظات، شعر بأنه عاشق، لا يُعبر عن عواطفه بل يعيشها في كل نظرة، كل همسة، وكل لمسة.

أمضى وقتاً لا يُنسى، بينما كانت هي تُفجر قهقهاتها في الفضاء. حين رآها تحلق بالأرجوحة، شعر كما لو أن قلبه يطفو معها. كانت خصلات شعرها تتطاير بجنباتها، مثل فراشات ملونة ترقص أمام عين الزمن. لحظات لا تُقاس بالزمن، بل تُقاس بعالم من الأحلام، حيث كل شيء يبدو ممكناً، وكل شيء يتجلى.

فجأة، أفاق من شروده، وكأنه استيقظ على جرح مؤلم. صوت الممرضة كسر سحر اللحظة:

"سيد ينال، يجب أن تدع المريضة ترتاح ولا تزعجها."

نظر إليها بحدة، وصراخه خرج كعاصفة:

"اخرجي من أمامي، واللعنة!"

ارتعش جسدها من صوته، وخرجت مسرعة دون أن تُحرك شفتيها بكلمة، تاركة وراءها صدى لصراخه الذي فعل ما لم يريده. كانت النيران تشتعل في صدره، فقد أدرك أنه كسر لحظة من السكينة، بينما قلبه ينزف شعور بالذنب.

اقترب منها، بينما همس في نفسه، مستكشفاً الجمال الذي يلتقي به في ملامحها البريئة. طبع قبلة واهنة على جبينها، حيث تمنى لو يستطيع أن يحميها من كل جراح العالم. ترددت في عقله كلماتها التي تلاشت مع الزمن، تحمل معه تلك الجملة التي تذكرها بوضوح، تتردد كأصداء بعيدة: (ينال، عندما أكبر سأدعك تتزوجني).

تسارعت أنفاسه، فبينما يتأمل ملامحها التي قد تخطي تحت ثقل الزمن، منع نفسه من الخروج إلى عالم آخر. اختار أن يبقى هنا، حيث تضيئ عينيها ظلال الأمل والسعادة.

دخل إياد إلى المنزل بخطوات خفيفة، كأنما يحمل قلباً مثقلاً بأعباء الأيام. توجه نحو الصالة وتمدد على الأريكة، مُتأملاً في الهدوء الذي يخيّم على الأرجاء. غصة في قلبه تذكرته بما حدث مع ينال، وكيف طوى الخوف والقلق قلبه كفراشة تحت وطأة العواصف. عاد إلى منزله بعد أن اطمأن على سلامة صديقه، لكن الهدوء الغريب في المنزل أثار حيرته. كانت تلك اللحظة، ومهما بدت عادية، تحمل في طياتها شجناً عميقاً يتطلب لقاءً راقياً.

شعر باندفاع داخلي، كأنه يناديه لرؤيتها، فأسرع إلى غرفتها، ودفع الباب برفق ليجدها ممددة على السرير، غارقة في سُبات مريح يشبه السحاب. اقترب منها بخطوات بطيئة، كأنه يخشى إيقاظ حلمٍ جميل. تجمد مكانه، وجلس بجانبها بحذر، كأنما يتعامل مع قطعة من الزهر.

مرر كفه برفق على وجنتها الناعمة، تلك الملامح التي تشبه الملاك، ملامح ضاعت في ظلال الحزن. لكن حين لامست عينيه الكدمة على خدها، سلبت منه تلك اللحظة صفاءها، فعبس وجهه كأنما قبضت يد الألم على قلبه.
اقترب أكثر، وقبل جبينها برقة، راجياً أن يشيع في عروقها طاقة الحنان الذي افتقدته.

انجرفت به الذكريات، فعاد به الزمن إلى تلك اللحظة العزيزة قبل عشر سنوات. كان في التاسعة عشرة من عمره، جالساً في صالة منزله، يقلب بين قنوات التلفاز بتشتت. فرحة عارمة تتملكه لحظة سماعه من والدته خبر سفر والده في عمل مهم، وكأنما أطلق سراحاً لروحٍ محبوسة. لم تسعه الدنيا من الفرح؛ احتفلت نفسه برحيل همومه، وارتسمت الابتسامة على وجهه كأبهى زهور الربيع.

جلست والدته بجانبه، تفيض عيونها بالحب، وألقى برأسه على قدميها، مستمتعاً بلمساتها الحنونة، وكأن العالم يتلاشى من حولهما. تنهدت الأم، والحنان يطفح من نبراتها:

"أعيش فقط من أجلك، ومن أجل أن أزوجك بفتاة تحبها وتحبك."

اتسعت ابتسامته، وكادت عينيه تنفجر في بحر من السعادة. قال بصوت مرح:

"لا أريد الزواج، أريد فقط أن أبقى معكِ."

ابتسمت بخفة، حاملة معها إشراقة الأمل، وقالت:

"حبيبي، ستتزوج، وسأرى أولادك أيضاً، وإذا لم يحدث ذلك، سأحزن كثيراً."

رفع حاجبيه حائراً، قائلًا ببراءة:

"لا، لا، حسناً، اتفقنا سأتزوج."

ضحك، كما لو كان يختبر حدود ذاك الحلم:

"ولكن، كيف ستكون أمي، أعطني رأيك في اختيار الفتاة المناسبة."

ضحكة صغيرة تفلت من شفتيها وقالت:

"تكون بيضاء البشرة، عيناها زرقاء، وشعرها أسود، وبجسدٍ رشيق، وأخلاقٍ ممتازة. ما رأيك في ذلك؟"

ابتسم بوسع، وكأنه يستشرف أمواج المستقبل، وأجاب:

"حسناً، وإن لم أجد بهذه المواصفات؟"

همست له برقة:

"تأكد، ستجدها. أنا متأكدة، لأنني أعلم أنك تعشق البشرة البيضاء، وعندما تقصد ستجد."

همهم إياد لنفسه قبل أن يتجرأ على قول كلماته:

"ومن أين لكِ أن تعرفي أنني أعشق البشرة البيضاء؟"

رفعت والدته حاجبها بتكبر، غامرةً إياه بنظرة تحمل في طياتها أمومةً لا تضاهي، لترد عليه بلهجة الواثق:

"أنا والدتك، وأعلم كل ما يحب ولدي وكل ما يكرهه."

ابتسم إياد، حتى اتسعت ابتسامته تماماً كفرحة طفل استقبل هديةً طال انتظارها. اقتربت والدته، فطبعَت قبلةً صغيرةً على جبينه، وظلت تملس شعره بيدها الحنون، تُغني له كمن يُرِيد أن يُعيد إلى ذاكرته بقايا الطفولة المفقودة. كانت تُدرك جيداً أنه غارقٌ في سباتٍ عميق، لكن الذكريات اللطيفة التي تربطهما كانت تُشعرها بالحياة رغم كل المآسي التي عاشاها معاً.

إياد، الصبي الذي فقد والدته بسبب قسوة الأب، كان يصرخ في أعماقه برغبةٍ عميقةٍ في الثأر، يوم أُغرقت تلك المرأة الطيبة في عذابٍ يومي لا يُحتمل. إلا أن ينال، صديقه الوفي، كان له بالمرصاد، يمنعه من الوقوع في فخٍ من الانتقام الذي لن يُعيد والدته، بينما كان إياد يحاول جاهداً أن ينسى، أن يترسخ في قلبه بقايا الأمل.

مرت الأيام وواجه إياد صعوبةً في بناء علاقة مع أبيه، تحولت إلى جفاءٍ غير مُبرر، حتى حين أرهقته الأمراض وحُوِّل إلى كائنٍ ضعيف، سارع إياد إلى الاعتناء به كما لو كان عليه أن يُعوض كل تلك السنوات الضائعة. تماماً كأنه يُدير دفة سفينة غارقة، فقد أعاد الحياة لشركة والده التي كاد الفقر أن يُلقي بها إلى الهاوية، على الرغم من أن عباراته كانت تحمل بُعداً من الهيمنة. لقد كان شديد الانتقاد، متطلّباً، لكنه في العمق كان يسعى للارتقاء بنفسه وبالشركة التي أقيمت على أنقاض قسوة الأقدار.

ومع جميع جهود إياد، خرج والده من تلك الحياة بعد أشهر من المرارة، تاركاً إياد محملاً بأثقال الأحزان والخسارات، ولكن مشاعره تجاهه لم تكن بنفس حدة الفراق الذي شعر به عند وفاة والدته. وهكذا، توالت الأيام بينما كان يجلس إلى جانب صديقه ينال، الذي كان له بمثابة المنارة في عمق البحر العاصف.

استفاق إياد من أفكاره حين لاحظ الفتاة النائمة بجانبه، عينيها نصف مغلقتين. نظر إليها لفترة طويلة، كما لو كان يحاول قراءة أفكارها المشتتة. أمسك بيدها الصغيرة قائلاً بصوت ملؤه الحلاوة والشفقة:

"ماذا قال الطبيب حين جاء؟"

همست بخفوت:

"اسأل رباب، لم يقل شيئاً لي."

شعر إياد بالقلق يتسلل إلى أعماقه، وسألها بحيرة:

"هل يؤلمكِ شيء؟"

حركت رأسها نافية بصمت، لكن ملامح وجهها كانت مثقلة بالتعب، ليُردف بإلحاح:

"حسناً، سأدعها تجلب لكِ الغداء إذاً."

تحدثت بصوت مبحوح، معبرة عن آلامها:

"لا أريد."

عقد حاجبيه باستغراب، محاولاً فهم موقفها:

"لماذا؟"

أجابته بلهجة ملتوية، معانقة الألم:

"معدتي تُؤلمني كثيراً."

تسارعت أنفاس إياد، وعينيه تتسعان بقلق حقيقي:

"هل أجلب لكِ الطبيب؟"

لكنها حركت رأسها نافية، وتجمع الألم على وجهها، مما جعله يتنهد بقوة. انتشى الخوف في قلبه، فتوجه مسرعاً نحو الحمام الملحق بغرفتها. ملأ حوض الاستحمام بالماء الدافئ وتناثر حوله العطور والشامبو برائحة الياسمين الحالمة، ليترك له مهمته في الاستراحة والمتعة.

عندما عاد، خطر بباله أن يحملها، لكن تذكر احمرار وجهه وتوتره في الصباح، فاستبعد تلك الفكرة. فقال بنبرة هادئة:

"حسناً، لقد أعددت لكِ حوض الاستحمام بالماء الدافئ، ليكون لطيفاً عليك. هيا، انهضي، ستجدين فيه الراحة."

كانت متعجبة بتقلب مزاجه، تتساءل داخلياً إن كان لديه انفصام في الشخصية. سرعان ما نهضت باتجاه الحمام، بينما سكن الفزع قلب إياد، مُرّكزاً نظره على خطواتها حتى تخايلت له، وكأنما العالم برمته قد توقف لحظة عند حدود عظمتها.

حين دخلت الحمام، رمق بصره أنحاء الغرفة، لكن نظراته صدمت من مشهد معين...

15

في منزلٍ يتلألأ بالفخامة والثراء، يجلس سمير، الرجل الذي قارب عمره على الخمسين. خصلات شعره قد غزاها الشيب، يستمتع بقراءة جريدة اليوم التي يحملها بين يديه، كما لو أنه يحاول في سطورها أن يجد سبيلاً لفهم العالم المتغير حوله. تحت ضوء الشمس الدافئ الذي يتسلل عبر النوافذ، تدخل منال، زوجته، التي تبدو في أوائل الأربعينات، بشعرها البني الذي يتلألأ كخيوط الذهب، وجسدها الذي يحتفظ بجاذبيته. جلست بجانبه، وابتسامة صغيرة تزين محياها، ليرد عليها بابتسامة تحاكيها، ويقبّل يدها بحنوٍ لا يخفي مشاعر الودّ.

"عزيزتي، أين الفتيات؟"

سألها بلهجةٍ ملؤها الحنان.

ردت منال بصوتٍ يحمل لمحات من القلق:

"مها لم تعد من جامعتها بعد، وريمة ما زالت نائمة."

ابتسم بزاوية فمه، مُظهراً استنكاراً خفيفاً تجاه ابنته الكسولة التي تعشق تدفق الأحلام في سباتٍ عميق:

"أليس لديها جامعة اليوم؟"

قالها وهو يثني رأسه قليلاً.

"بلى، لكنها ترفض الذهاب، تقول إن محاضرات اليوم مملة ولا تساوي عناء الخروج."

أجابت منال، وحركت رأسها في استسلام لكل ما يخص ابنتها.

ثم قال سمير:

"ألا يحدثك حسن؟"

تنهدت بحرقة مجيبة:

"قليلاً جداً""

تنهد سمير بعمق، وكأن قلبه يئن بعبء السنين، ثم تحدث بسخرية:

"يبدو أن حسن لا يزال يحملنا ذنبه في ابتعاده عن تلك الفتاة. يا إلهي، كم هو عنيد!"

تحدثت منال بصوتٍ أكثر تصبراً:

"أجل، لا أعتقد أنه قد نساها."

لم يدلي بكلمة أخرى، إذ جاء صوت إغلاق الباب ليعلن وصول ابنتهم مها، تلك الفتاة المرحة التي لا تفارق الابتسامة وجهها. كانت تجلب معها نسائم الأمل والحيوية، الأمر الذي يختلف تماماً عن شقيقتها ريمة، التي تعتاد النوم والكسل. مها في سنة دراستها الرابعة في مجال الطب، بينما ريمة، الأصغر منها بسنتين، لا تبرح حالتها هذه من استسلام للراحة واللعب.

بينما تقدمت مها نحوهم، كان كل شيء يدل على حماسها للحياة، في حين كانت مشاعر الكساد تتربع على قلب ريمة التي تهرب من أي شيء لا يتوافق مع مزاجها. وحب مها الكبير لفتاها مهند، الذي تجمعه علاقة بها منذ عام، كان كالحلم الذي يعانق السراب. تعرفت على حقيقته المريرة، فقد كان قلبه مع مها، لكنه لم يكن وفياً تماماً، حيث كان يتنقّل بين عشرات الفتيات، تاركاً وراءه حكايات مُنسوجة من الأكاذيب.

عندما دخلت مها إلى غرفة شقيقتها، وجدت ريمة ما زالت نائمة.

"يا إلهي، إنها كالباندا!"

صاحت بشغف، مشبعةً كلماتها بحيوية الطفولة، بينما كانت تُحدق في شقيقتها النائمة، التي كانت تجسد بساطة الوجود والبراءة الضائعة في أحلامها.

لتصرخ بها:

"ريمةةةة"

استفاقت ريمة فجأة مع صوت أختها، جفلت مقدمةً جسدها النحيل من أعماق سباتٍ عميق، لتنهض مرعوبةً، تجوب عينيها في أرجاء الغرفة المظلمة. كان صوتها ناعساً وغاضباً، كما لو كانت تحاول محاربة بقايا أحلامها:

"أيتها الحثالة، اخرجي من هنا!"

مها، التي تعلقت بالحياة كفراشة، ضحكت بلطف، وكأن دفء ضحكتها تجلى في الغرفة. تقدمت إلى سرير ريمة وجلست بجانبها، متحدثة بكلمات تحمل راحة الأشياء الصغيرة:

"ريمة حبيبتي، أنتِ أعظم أختٍ في التاريخ!"

نظرت ريمة إليها ببرود، ويبدو أن عينيها الناعستين خيبتا آمال أختها في صنع المحادثة.

"من الأخير ومن دون مقدمات، ماذا تريدين؟"

صفقت مها بمرح، وكأن صوت التصفيق كان بمثابة نغمة حياة. قرصت وجنة أختها بخفة، وكأنها أرادت أن تستفز الملامح المبتسمة في وجه ريمة:

"أختي الصغيرة، تفهمين علي دائماً. المهم، أريدكِ أن تذهبي معي اليوم إلى عيد ميلاد مهند. أرجوكِ، أرجوكِ!"

همهمت ريمة، لتفتح فمها بعبارات رقيقة في داخلها، ولكنها تمسكت بلا مبالاة:

"وكيف سأذهب، يا بلهاء؟ هذا عيد ميلاد حبيبكِ، وليس حبيبي، لذلك لن أذهب."

عقدت حاجبيها بحزن، ونظرتها كانت تحمل براءة مُضطربة، بينما ريمة استجابت للنظرة ببرودٍ حاد. رمشت مها برموشها عدة مرات، مُدركةً جيداً أنها تمتلك سلاحاً سرياً، وهو عذوبة براءتها التي لا تقاوم.

"حسناً، سأذهب!"

نفخت ريمة خديها، تشعر بأنها كانت مضطرة للامتثال للعبة أختها.

"حسناً، إذاً، ستختارين لي الفستان المناسب، وستضعين لي مساحيق التجميل، لأنكِ ممتازة جداً في هذا."

نظرت ريمة إليها بغيظ، كأن فكرة المساعدة قد أثارت فيها غصة:

"حسناً، ولكن ماذا سنقول لوالدكِ، يا حمقاء؟"

صمتت قليلاً، بينما راحت تنظر إلى السقف كأنها تحاول استجماع الأفكار، ثم تابعت:

"سنقول له أننا سنذهب لعيد ميلاد صديقتي. أؤكد أنه لن يعارض."

همهمت ريمة بامتعاض، ووضعت يديها على خصرها:

"صديقتكِ أم صديقكِ؟"

انفجر الضحك بين الفتاتين، كأنما كانت الضحكات تعكس روح المنافسة بينهما، ووقفتا معاً لتتزحزحا نحو الخارج، حيث الطعام في انتظارهما.

جَحَظَتْ عينا إياد من هول ما رآه على سرير حياة. رمش عدة رمشات، وكأنّه يُحاول استيعاب المشهد الذي يضرب بأعماق نفسيّته، حيث الدماء المتناثرة على شرشف السرير. علم أنها في عذرها، وازدادت حيرته: كيف سيتصرف؟ لم يرغب في أن يُحرجها، لكنه لم يكن ليُنتظر طويلاً، فترك الغرفة بهدوء، مُتجهاً إلى الأسفل.

أمر الخادمة بأن تتولى تنظيف كل شيء، وهو يترك نفسه على الأريكة، مُتمدداً في استرخاء محير، ينظر للسقف، كما لو كان يحاول أن يجد في الأشكال العشوائية عليه بعض الإجابات. كانت مشاعره تتداخل، فهو يدرك أمور الفتيات، لكنها كانت المرة الأولى التي يرى فيها هذه الصورة. كم كانت هذه التجربة غير اعتيادية، تتطلب دوافع داخلية لا يفهمها بعد. لقد سيطر الأمر عليه تماماً، مُفكراً في حياة، وأيضاً في والدتها: ما الذي تريده منه تلك المرأة؟ وما الغرض الحقيقي من حسان؟

كان يُريد أن يعرف كل شيء، فليس شيء مُعقداً بالنسبة له، وعقد ماضيه بالحقائق المتعددة التي قد يكشفها منتظراً.

أما من ناحية حياة، فكانت قد جحظت عيناها أيضاً، وقلبها يتراقص في شعور متضارب من الخوف والإحباط. عندما أدركت أنها في عذرها، تسارعت أنفاسها، ثم خرجت من الحمام، لتنصت إلى رباب التي كانت مشغولة بتغيير شراشف السرير. ومع ذلك، وقع قلبها من مكانه، وشعرت بأن الخجل يُكتِّم أنفاسها، يحمر وجهها بمزيج من القلق والحيرة.

ابتسمت رباب بلطف، وجاءت لتبادلها ابتسامة مليئة بالتعاطف والتفهم:

"لا داعي للخجل، آنستي. تحدث الكثير من هذه المواقف."

ابتلعت حياة ريقها بصعوبة، وبدأت تتحدث بتوتر، كأن الكلمات عالقة في حلقها:

"هل السيد إياد هو من بعثكِ إلى هنا؟"

ابتسمت رباب بعيون مُشرقة، كما لو كانت تُشاركها سراً:

"أجل، لقد رأى كل شيء."

جحظت عينا حياة، وصدرت منها همسات متعجبة:

"يا ويلي!"

ضحكت رباب ضحكة رنانة، وكأن ضحكتها تُحلِّق بالأجواء فوق الأنغام الحزينة: "هذا أمر عادي وطبيعي، آنسة حياة. لا داعي للخجل، لا تقلقي."

حركت حياة رأسها بإيجاب، وجلست على الأريكة بصمت، وبداخلها كان الألم الفظيع يزداد وضوحاً في بطنها. تجمدت ملامح وجهها، وكأن الهموم انتزعت منها سعادتها.

لاحظت رباب ذلك، فسألت بقلق:

"آنسة حياة، هل تريدينني أن أجلب لكِ حبوب مسكن؟ مؤكد بأن بطنكِ يؤلمكِ، أليس كذلك؟"

حركت حياة رأسها بالإيجاب، وكأنها تستجيب لنداء الراحة. سارعت رباب إلى المطبخ، لتعود بسرعة بحبوب المسكن، تسلمها لحياة التي توجهت إلى سريرها، تمدد جسدها وتحتضن الوسادة، وكأنها تبحث عن ملاذ مفقود. شعرت بالراحة تَتَسلّل رويداً رويداً إلى جسدها، لكن الألم ما زال يذكرها بما تمر به.

سمعت طرقات تصدح في باب غرفتها، لتدخل رباب الغرفة باعتدال، معربة عن عزمها وإصرارها:

"آنستي، السيد إياد يريدكِ أن تتناولي الغداء معه."

نفخت خديها بامتعاض، وردت بصوت متردد:

"قولي له بأنني مرهقة."

ابتسمت رباب بحيوية، وكأنها تطلق شرارة أمل في أجواء الغرفة المظلمة:

"لقد قلت له ذلك، آنستي، ولكنه أصر على مجيئكِ. غير ذلك، يريد أن يتحدث إليكِ في موضوعٍ هام، وقال إنه في حال لم تأتي، سيصعد إليكِ بنفسه."

احتقن وجه حياة بوميض من القلق، وتحركت مشاعرها كعاصفة في قلب البحر، بينما نهضت من سريرها لتتبع رباب، التي كانت تمشي بخفة وثقة. انطلقتا إلى غرفة الطعام، حيث كان إياد ينتظرهما. اقتربت حياة بحذر، تلقي عليه التحية مع خفض رأسها، خجلاً من كل ما شهدته عيناه. كان قلبها يدق بعنف، كأنّه ينبهها إلى الخطر الكامن.

نظر إليها إياد بنظرة ثاقبة، وشعرت بأنه يقرأ ما بداخلها، ثم ابتسم قائلاً:

"اجلسي."

جلست حياة، وصمتت عن الكلام، كما لو كانت عالقة في شبكة من الأفكار والأحاسيس. في تلك اللحظة، فقط سمعت صوته الرخيم يُشجعها:

"كلي."

نظرت له من طرف عينيها، وبدأت تأكل بخجل، بينما كان هو يراقب حركاتها بتأمل مُستمر؛ لم تكن مرتاحة لنظراته الحادة، ولا تلك الشاعرية التي تنبعث منه. حمحمت محاولة أن تستعيد بعض من صلابتها:

"لقد قالت لي رباب إنك تريد أن تحدثني في موضوع مهم. ما هو، سيدي؟"

ضحك إياد، وضحكته الرنانة كانت تُشبه ضوء الشمس الذي يُشرق على زهور الربيع، لكنه لم يكن ليُخفي ما يدور في نفسه:

"سيدي...؟"

همهم، ثم قال باهتمام:

"أريدكِ أن تأتي معي لحفلة ستقام غداً."

عقدت حاجبيها بقليل من الاستغراب، لتسأله:

"حفلة ماذا، سيدي؟"

ابتسم برفق، وكأنه يعرف ما يختلج في صدرها:

"حفلة لرجال الأعمال جميعهم، وأريدكِ أن تأتي معي."

ترددت قليلاً، ثم همست بخفَة:

"لا، شكراً. أنا لا أحب الحفلات."

تحدث ببرود، وعيناه لا تزالان تتبعان حركتها:

"أنا لا آخذ رأيكِ، وإنما آمُركِ، وستنفذين دون أن تنطقي بحرف."

نظرت له برغبة في الاعتراض، لكنها شعرت بحاجزٍ يربط لسانها. وقد احتقن وجهها بقليل من الغضب، تمتمت بصوتٍ خافت:

"بارد."

نظر له بغيظ وتلك الابتسامة المُنتصرة قد عاودته من جديد:

"فتاة حمقاء."

تملكتها مشاعر الغيظ، لكن نظرته الباردة جعلتها تُخفي انفعالاتها، والثواني كانت تسير كأنياب الزمن. ثم، ابتسم إياد مرة أخرى، مُشيراً إلى شيء ما، كأن شيئاً ما في داخله قد اكتشفه:

"لقد قالت لي رباب أنكِ متعبة وأعطتكِ حبوب مسكنة، لماذا ياترى؟"

صعدت الدماء إلى وجه حياة، وعقدت حاجبيها بتوترٍ، تلتقط أنفاسها بصعوبة. أرادت أن تجيب، لكن الكلمات تاهت في ذاكرتها، ليُتابع إياد مبتسماً بمكر:

"حسناً، ما كل تلك الدماء التي كانت على سريركِ؟"

شعرت حياة بأنها ستنفجر من الخجل، وارتعش قلبها بينما تتسابق أنفاسها. لم تُجب، وشعرت بأن الوعي ينتزع ما تبقى لها من شجاعة، ثم همس بحرفية:

"أنت معذورة، تلك المنعطفات الطبيعية التي ترافق الأنثى"

ماذا يحدث لحياة الآن، يا تُرى؟ هل هناك من يدرك ما تعانيه؟ إنها في موقف لا تحسد عليه، تكاد دموعها تنهمر من شدة الخجل والحرج. لا تُصدق أن إياد، بكل هذا الانحطاط، قد تجرأ على توجيه كلمات من هذا النوع. لقد كانت تجربتها مريرة، وهي ابتلعت ريقها بصعوبة، بينما ابتعد عنها ليعود إلى طعامه. كان على محياه ابتسامة ماكرة، مثل ظلال مظلمة تُخيم على مشاعرها.

نظرت إليه بغضب، وانفجر لسانها من حرارة مشاعرها:

"اللعنة عليك، سافل عديم الأخلاق! أكرهك!"

أنهت جملتها بسرعة ونهضت من مكانها، بينما هو انفجر ضاحكاً على غضبها وخجلها. كانت كلماته تُسجل في لحن متناقض من مشاعر الغضب والرغبة في الانفجار:

"حسناً، حياة المسكينة، هل تعلمين من يكون إياد الحقيقي؟"

نعم، أيها السادة، إنكم لا تعرفون الكم الهائل من السفالة وانعدام الحياء الذي يحمله هذا الرجل، الذي لا يعرف الخجل من أحد، وتفاصيل حياته مليئة بالغموض والتمرد. هو يفعل ما يشاء ومع من يشاء، دون أن يكون لعواطف النساء أي أهمية في موازينه؛ وكأنهم دمى راقصة في حياته.

لكن، في كل ذلك، كان يجلس بهدوء، ينهل من الطعام وكأن شيئاً لم يكن. وعندما قرر ترك الطاولة، توجه إلى صالة المنزل، مُمدداً جسده على الأريكة باريحية، كأنه يرقص على أنغام الراحة، كانت أفكاره تتأرجح بين التأمل في النعم والحشيش، وكل ما كان يفكر فيه كان تلك الصغيرة ذات العينين الساحرتين؛ حياة، التي أذابت جليد مشاعره وجعلته

يتعثر في شغفه. لم يمر عليه شخص يُظهر حياءً وخجلاً مثلها، بينما كانت جميع النساء اللاتي عرفهن مجرد فتيات تتجولن في تركيبة الحياة الليلية.

فجأة، قطع أفكاره دخول الخادمة، التي دخلت بخطوات متسارعة، قائلة: "سيدي، هناك فتاة تدعى ميس تريد رؤيتك."

عقد حاجبيه باستغراب، مضيفاً:

"من تكون؟ ألم تُخبركِ ماذا تريد؟"

تحدثت رباب بتوتر وحياء:

"لقد قالت إنها فتاتك، سيدي."

رفع حاجبه متعجباً من هذه الفتاة التي لم يتذكرها، ليقول:

"دعيها تدخل."

توجهت رباب لتُدلف ميس إلى الغرفة، بينما كانت الأخيرة تُخطو بخطوات متمايلة، تحمل في وجهها ابتسامة واسعة كالليل الذي يحمل النجوم. تأمل بها إياد بنظرة برودة متعمدة، وما لبث أن تذكرها كواحدة من نساؤه، وهي تتقدم نحوه وتجلس بقربه، وظلال تلك الابتسامة كانت تُعبر عن رغبة ملتهبة.

"ماذا تريدين؟"

سألها إياد بأسلوب بارد.

اقتربت ميس منه، حتى التصقت به بفجر الرغبة المحمومة. مدَّت يدها نحو وجهه بصوتٍ مغرٍ، كالنغمات المنعشة التي تُقبل بين الحقول:

"جئت إليك، حبيبي. اشتقت لك، ألم تشتق لي؟"

بينما كان إياد ينظر إليها ببرود وجمود، كتمثالٍ منحوت في صخر لا يلين. لم يكن ليفتقر إلى القوة التي تجعل عواطفه تتلاشى أمام هذا المشهد.

تجرأت ميس ووقفت، متوجهة نحو حضنه، وكأنها تسعى إلى استدراج قدره المظلم. نظر إليها بتركيز، وكأن عينيه كانتا كعتبات تتحكم بمصيرها. كان جسدها المغري يلمع تحت ضوء الغرفة، والثوب الأسود الذي ارتدته كان يريد أن يفضح ما يُخفي. لقد كان فاضحاً بشكلٍ يُجسد انحطاطاً فاحشاً، وكأنها فعلاً قد أثبتت أنها رخيصة.

تراقصت خصلات شعرها الأحمر الناري، وكأنها لهب يتقد في الظلام، بينما كانت مساحيق التجميل تُبغض ملامحها الطبيعية بطريقة مبالغ فيها. كان إياد يشعر برغبة جامحة في أن يتجاهلها، إلا أن شيئاً ما داخل عقله كان يدفعه لتخيلها حياة، الفتاة ذات العينين الساحرتين التي شغلت قلبه بلا هوادة.

لم يعد يستطيع التمالك، فاندفع نحويها، ليقابل شفتها بقبلة قوية تترك جروحاً على روحه. كانت القبلة تتسم بالعنف، كعاصفة أصبحت تهدّ حصون مشاعره. قبض على خصرها بقوة، مما جعله ينفصل قليلاً عن عالمه الواقعي، بينما انكمشت ملامحها تحت وطأة هذا العنف، لكنها كانت معتادة بعض الشيء على حرارته وجنونه، كأنها قد ارتوت من غياهب العواطف المتناقضة.

فصِلَت القبلة، واحتدت أنفاسه، بينما كانت هي تكاد لا تشعر بشفتيها من صيحات القبل التي اجتاحت عالمها. نظر إليها مطولاً، وكأنهما يمتزجان في لحظة زمنية مُدركة، تفيض بالشغف والاحتياج، لكن هذه اللحظة لم تطل.

فقد دفعها بعيداً عنه عندما أحس بأن شيئاً داخله قد انفجر، كأنه يحتاج إلى استعادة ذاته المفقودة. ولم يعي تلك الفتاة التي كانت واقفةً بذهول، تتابع المشهد بعيونٍ متسعة، في حالةٍ من عدم التصديق لما يجري أمامها.

لكن، في قلب ذلك الصراع، كان هناك شيءٌ ما يتزايد، شيء يتجاوز الانجرافات والجنون. كان هناك لحظة بدا فيها كل شيء ممكناً، وكل شيء مستحيل في آنٍ واحد.

نظرت إليه بصدمة، عيناها مملوءتان بالدموع التي تعكس براءة مخدوشة. كانت تعرف في أعماقها أنه سافل ولعين، لكن لم يكن من المظاهر أن يجلب فتاة إلى منزله، ليقبلها أمام ملأ من الذكريات الحزينة. مشاعر التقزز التي تشعر بها كالنار التي تلتهم قلبها، وتتجذر في عمق روحها. كيف له أن يقع في فخ الانحطاط بهذه السهولة؟ كيف له أن يتجاهل الألم الذي يتجول في عروق بعضها البعض وقد ألهب شغاف قلبها؟

أشاحت بوجهها بعيداً عنه، محاولةً الهرب من براثن تلك اللحظة. كرامتها كانت تتعرض لما لا يطاق في كل يوم يقضيه معها. كان إياد يتلاعب بخيوط مشاعرها، فيما كانت القسوة تُحيط به كخاتم من نار.

بينما هو، في تلك اللحظة، اكتشف أن حركته قد شلت. كان ينظر إليها بعينين يتقدمان بالنيران، غير قادر على تفسير ذلك الاشتباك العجيب من المشاعر. مرَّت دقيقة أو دقيقتان، ثم أصدر صوتاً عميقاً داخلياً، محاولاً استجماع شجاعته. وقفت ميس أمامه، تحاول أن تلتقط أنفاسها، وهي تسأله:

"من هي تلك الفتاة، ولماذا نظرت بهذه الطريقة؟"

لكن بروده جمد الهواء من حولهما. كان غموضه يغلف المشهد، ملامحه مشوهة بصرامة عنيدة، حتى أنه شعر بأن تلك الابتسامة على شفتيها لم تعد قادرة على إخفاء الألم. نظر إليها بارزاً توتره مع كل لفظ يرسم عنان الوضع، وقال بحدّة:

"اخرجي من أمامي حالاً."

ولكنها ظلّت واقفة، تحدق به بصدمة، ليصرخ على الحارس ويأتي على الفور. وعندما وصل، قال إياد:

"أخرج هذه من هنا حالاً."

تقدّم الحارس نحو ميس، ممسكاً بمعصمها. ورحل بها، بينما تنفس إياد بعمق، مغلّفاً مشاعره برذاذ من الشرارة المتقدة.

ومع أول رشفة من كأس النبيذ، عادت الذكريات تتراقص في خياله، عاجزاً عن هزيمة تأنيب ضميره. لكن تلك الضغوطات الزاحفة في قلبه لم تفارقه، متأملاً في عيونه التي ارتجفت تحت وطأة الاحتراق الداخلي، بينما اتسع الخواء في داخله كفجرٍ بلا شمس.

في مساءٍ دافئ، كانت الفتاتان تتجهزان للاحتفال. تنوعت تفاصيلهما وجذبت الأنظار، حيث تجلّت أنوثتهما بكل جلاء. كانت ريما، الفتاة المغرورة وقوية الشخصية، تتألق في ثوبها الأحمر القاني الذي يُبرز كل منحنى، كزهرة نادرة وسط حديقة شاسعة. في المقابل، كانت أختها مها تجسد الرقة، تُحدث صمتاً في الأجواء ببراءتها، ترتدي ثوباً زهرياً فاتحاً يجعل منها كفراشة تتهادى بين زهور الربيع.

لم تكن مساحيق التجميل تبرز جمالهما فقط، بل كانت تعكس أيضاً روحهما؛ دقة في الأداء، لا مبالغة ولا تكلف. خرجتا معاً بعد أن ودعتا والديهما، لتتوجهان نحو السيارة، مُحمّلتين بشغف الاحتفال وبينما قلوبهما تتراقص بين الهمسات والتمنيات.

بعد وقت قصير، وصلتا إلى المكان المُحدّد للحفلة، مشاعر الحماس والانتظار تملأ الأجواء. عند دخولهما، كانت الأنظار تتجه إليهما كأنهما نجوماً في سماء لحظة سحرية، الفتيات والشبان يتراقصون حولهما بأوركسترا من الضحكات والحركات الدائرية، غير مُبالين بأي شيء، عدا اللحظة التي يعيشونها.

بحثت مها بعينيها عن حبيبها في زحمة الحضور، وعندما وجدته، كانت الصدمة تحمل معها الفرح؛ كان يقف مأسوراً مع أصدقائه، عينيه مُتوجهتين نحوها، قلبه ينبض بشغف. تلاقت أعينهما، فاتعست الابتسامة على وجهه، ليقترب منها بسرعة، يقبل يدها بعد أن هنأته وتمنت له العمر الطويل، مُقدمة له هديتها المتواضعة.

"حبيبتي، إن وجودك معي هو أجمل هدية"

قال لها برقة

توردت وجنتاها، ولم يكن بالإمكان إلا أن تتجنب النظر في عينيه، في تلك اللحظة التي شعرت فيها بأن قلبها يرقص بين دقات الساعة. التفت مهند إلى ريما، التي كانت تراقب المشهد ببرود، كأنها جليد تتنقل بين الذكريات.

"ومن تكون هذه الفتاة، مها؟"

سألها، مُعبّراً عن فضوله الخفي.

ابتسمت بلطف، وأجابت:

"هذه أختي ريما، جلبتها معي لتتعرف عليك وتحتفل بعيد ميلادك."

همهم إليها، مُدلياً يده ليصافحها بأريحية، رحب بها بابتسامة عريضة:

"أهلاً بكِ في حفلة عيد ميلادي."

ابتسمت ريما، وعلت على شفتيها ابتسامة صغيرة تُعبر عن الفخر والشغف. "أهلاً بك، تفضل."

مدت يدها إليه بأدب، مُعطيةً إياه هديتها التي أحضرتها، كرسالة بسيطة تحمل روحها الطيبة. لم تشأ أن تأتي خالية اليدين، رغم أنها لا تعرفه جيداً، إلا أن تلك الهدية كانت بمثابة اعتراف بخالص تقديرها. رأت السعادة ترتسم على وجهه وهو يقول:

"هذه لي؟"

"أجل، لك، ومن غيرك اليوم يحمل تاريخ الميلاد؟"

قالتها ببرود.

ابتسم بإتساع، ينظر إليها بامتنان صادق:

"شكراً لكِ، جميلة. إنه لذوق رفيع منك."

أومأت بخفّة، وعندما دامت النظرات، أشاحت بوجهها بعيداً، كفراشة تبتعد عن الزهور، مستتراً ببعض التوتر. في تلك الأثناء، التفت مهند إلى مها، ينشد منها أن تقترب، كان الصوت يعبر ذلك السكون بفعل الموسيقى الصاخبة:

"هيا، تعالي لنجتمع على ساحة الرقص."

حركت رأسها برقة، كأنما أذعنت لدعوة سرية لا يمكن مقاومتها، واندفعت نحو ساحة الرقص حيث يتراقص العشاق في متاهة من الأضواء والموسيقى. بينما ظلت ريمة في مكانها، غير متأثرة بزخرفة الاحتفال، توجهت إلى إحدى

الأرائك المنجدة بلطف، وأمسكت بكوب عصير طبيعي قد ملأته بالألوان، تراقب المشهد بأعينٍ ملؤها البرود والتحفظ.

نظرت إلى عيني مهند اللامعتين، اللتين تبحران في بحر من الجاذبية، ولم تستطع إنكار أن شقيقتها قد أحسنت اختيار الشبان. لكن رغم ذلك، كانت ترفع حاجباً في تساؤل. ريمة، تلك الفتاة التي تسكنها القوة، غير قابلة للكسر أو الانكسار، واجهت حياتها بابتسامة متينة لا تعرف الاستسلام. حتى عندما تتعرض لمواقف يمكن أن يزري بكرامتها، يبقى شموخها يذوب في نظرة البرود واللامبالاة التي تتجلى في عينيها. تنهدت عميقاً وقد ارتسمت على شفتيها لفتة من استسلامٍ غير مشروط، وعندما اكتشفت أن نظره قد وقع عليها، بينما يرقص مع شقيقتها، شعرت بأنه عجز عن إخفاء مشاعره، فاستدارت، مستدعيةً هدوءها.

أقبل شاب يُدعى وليم، مسحوباً بابتسامة خفيفة سحرية، اقترب منها وجلس بجانبها. هتف مُخاطباً إياها بحلاوة:

"أهلاً بك، يا جميلة."

أجابت ريمة بجفافٍ يظهر برودتها:

"أهلاً."

توجّه وليم، بمزيج من الجرأة والأدب، قائلاً:

"هل ترقصين معي؟"

نظرت إليه، وتعملقت جديتها لحظة، قبل أن تهمهم برأسها موافقة، فتداعت للقيام برفقته إلى ساحة الرقص وقد تسللت الورود البهية في خفّة خطواتها. وبينما كانت ترقص، كانت هناك عيونٌ تتأملها، وعيونها لا تكترث، ولكن انشغالها لم يكن بمن يعتبرون الحفل متعة، بل بما يتجلى من أنفاس ريمة وقوتها المحفوظة.

عندما انتهت ساعة الرقص، اجتمع الحضور حول مهند المعروف بابتسامته الآسرة، يبارك له الأصدقاء بعيد ميلاده، يغنون له أغانٍ انسابت من قلوبهم كنسيم بحري لطيف. تركوا المشاركين يتمتعون بفرحة كعكته، بينما طفت الابتسامة على وجهه وهو يتناول قطعة من الكعكة بانجذاب.

توجه مهند برفقة مها وريمة للجلوس على أريكة محاطة بأجواء صاخبة، وبدأ يمضغ الكعكة بشغف. نظر إلى ريمة متسائلاً بحنو:

"إذاً، ريمة، ما تخصصكِ الدراسي؟"

لكنها، وقد أُحكم رباطها المتخفي، لم تجب، بل نظرت إليه ببرود، وكأن أسئلة العالم برمتها ليست جزءاً من اهتماماتها. شعر الدهشة تتسلل إلى ملامحه، فتوجه بنظره إلى مها، التي ضحكت من أعماق قلبها، فأجابت بوضوح:

"لا عليك، حبيبي. أختي ريمة، تعشق الطعام كثيراً، ومستغرقة تماماً فيه لدرجة أنها لا ترانا. لذلك لم تلتفت إلى سؤالك."

ابتسم مهند لترافقه ضحكة من قلبه، استحثت ريمة على النظر إليهما باستغراب. أراد منها أن تبتسم، لكن الجدية والمشاغل تركت آثارها.

استنكرت ريمة وهوى فؤادها لرؤيته، منزعجةً قليلاً، فردت بحرفية مُجردة:

"ما بك تضحك، يا حبيب قلب أمك، أهو سخرية أم احتقار؟"

انفجر الضحك من شفتي مهند، ممزوجة بضحكة مها العذبة، بينما أخذت ريمة تراقب هذه الأنفاس الممزوجة بالمرح. شعرت بأن أنفاسها تتسارع، واحتدمت غيرتها واشتعلت فتيلة غضبها. استقبلت كلماته التي كانت مزيجاً من المزاح والجد على نحو شديد الغضب، ليجيبها بضحكة:

"يا فتاة، أعلم أنكِ تحبين الطعام، لكن ليس لدرجة أن تلوثين شفتيكِ، تبدين كأنكِ طفلة صغيرة!"

قابلته بنظرة خالية من التعابير، ثم مسحت شفتيها برفق وبتحدٍ، كما لو أن شيئاً لم يكن. التفتت إليه، وقامت بالنظر في حده شديد:

"إياك أن تسخر مني، هل تفهم؟ أم أنك ترغب في أن أدلك على طريقتي في فهم الأمور؟"

رد بطابع درامي مبالغ فيه:

"أووه، وما هي طريقتك، أيتها الأميرة ريمة؟"

دارت عيناها بشكل ممل، ثم نظرت إلى شقيقتها مها التي نهضت للتوجه إلى الحمام. لازالت الأجواء مشحونة بين ريمة ومهند، بينما أمسكت ريمة بمزاج ثقيل، فقالت ببرود قاطع:

"سأحطم وجهك، وأقطع لسانك، وأضربك في مقتل حتى لا تنجب ذرية في المستقبل."

جحظت عيناه، وكأنه تلقي صدمة كهربائية، فقال بصدمة:

"واااه! كل هذا من أجل مزاحي معك؟ صدقيني، لم أكن أقصد السخرية!"

ابتسمت ريمة بسخرية، كالظلال التي تلقيها الغيوم على الأشجار، وقالت:

"لا يهمني ما إذا كنت تهزأ بي، المهم هو أن تبقى بعيداً عن طريقي، أو أنك ستندم على فعلتك."

همهم بتردد:

"حسناً، لكن إذا قطعتي نسلي فلا تظني أنك سترين أولادي يوماً ما، وبالتالي لن تصبحين خالة!"

نظرت إليه ببرود في ذات اللحظة، وأحست بمعاني كلماته تتعانق مع جوانب المعركة النفسية، فقالت في لا مبالاة:

"هذا أفضل لي، سأرتاح من رؤية إنتاجاتك المعطوبة، أنت وشقيقتي."

فجر ضحكته مجدداً، حتى استفاضت الدموع من عينيه، بينما ريمة تلقيت نظراتها بغضب مكتوم، وتوجهت بوجهها بعيداً عنه. كانت عينيه تشير إلى شيء غامض، فابتسم من عينيه اللامعتين بحماس، وهو يعض على شفته السفلى، يتمنى لو يظل هو وتلك الفتاة وحدهما في عالم بلا حدود، يتقاسمان أسراراً قد لا يفهمها سواهما.

فجأة، تدخلت مها بخفة، وسألت قائلة:

"هل تشاجرتما؟"

تحدثا بصوتٍ واحد، وكأنهما يتشاركان رابطاً سرياً:

"لا."

أطلقت مها ضحكة رنانة، ما إن وجد مهند ورقة الألفة في تلك اللحظات، حيث ضحك الاثنان من قلب واحد. انتهت الحفلة بسلام، وعاد الحضور إلى منازلهم، بينما انشغلت ريمة بأفكارها، مما لم يمنعها من الانغماس في ذكرياتهما.

أما مها، فقد عادت تحمل سعادتها، إذ استقبلتها كلمات الحب والغزل من شخصها الموقر، كالأمطار التي تنعش الزهور. بينما جلس مهند في منزله، عابراً في بحر أفكاره، تجذبه صورة ريمة التي ما برحت تتألق في خياله. بالرغم من مشاعره الصادقة تجاه مها، كانت ريمة قد أدخلت الاضطراب في قلبه، فتدحرج على سريره بعد أن خلع ثيابه، يواجه تلك الذكريات ويجد نفسه غارقاً في شخصية ريمة القوية وكلماتها الحادة.

وفي لحظة من الكدر، ابتسم وسرح بخياله، حيث تذكّر كيف منحته ريمة هدية. انفجر في صدمة، كما لو كان استيقظ من حلم جميل، فقفز نحو الهدية التي أعطته إياها، ممسكاً بها بين يديه وكأنه يعقد صفقة مع الزمن.

فتح العلبة بحماس، ليكتشف ساعة يد رجالية أثيرية بلون رمادي، كانت حقاً قطعة فنية تنبض بالأناقة. ارتداها على معصمه، بينما اتسعت ابتسامته حتى غمرت وجهه. تنفس بعمق منطلقاً نحو الفضاء، حيث استلقى متمدداً على بطنه، مغلقاً عينيه، واستسلم لأحلامه الوردية، حيث يدور الزمن في فلكه الخاص، وكأنما روحه تجوب في عالمٍ حيث تكون تلك الفتاة الغامضة ملكته.

جلس يَنال على إحدى المقاعد في رواق المستشفى، حيث انبعثت رائحة الكحول والمطهرات، مُخلفةً وراءها هالة من الوجع والأمل. لم تكن له رغبة في العودة إلى المنزل، حيث كل شيء يذكّره بسلام، تلك الفتاة التي تمثل له كل

شيء، والتي زاد مرضها الشديد من ألمه وعذابه. جاءت جدتها لتطمئن عليها، ولكن حزن الأسى وعبء الفراق كانت واضحة على وجهها، وهو ما زاد من همومه وأحزانه.

كثرت الساعات، وكثُرت الليالي التي أمضاها كطيفٍ خائف، يتجنب رؤية حبيبته، خشية أن تستيقظ من سباتها القسري فيرشق قلبها بالأسى حين تراه. كانت سلام تستيقظ كل يومٍ متسائلة عن جدتها ووالدة ينال، بينما كان ينال يتربص في الخارج، يتجلى فيه قلقٌ مضنٍ، يدور في دوائر من الأفكار السوداء. كان يحاول أن يضبط نفسه، أن يتماسك من أجلها، رغم أن الصمت كان يطبق حوله كالكابوس المُخيف.

أما في ليالي الحرمان، عندما تخرج إضاءة القمر من بين السحب، كان يدخل عليها بأناة فيعيد بناء الذكريات التي تجمعهما. يتملى ملامح وجهها النائم، ساكنة كالأفق، وقلوبهم مُعذبة بأوجاع الغياب. كان يقترب، ليلامس يدها برفق، يهمس بكلمات من صميم قلبه:

"أرجو أن تسامحيني، فأنا لم أكن في وعيي حين جرحت قلبك بكلماتي القاسية في ذلك اليوم. كم أُحبكِ، وأقسم أن حبي لكِ لا يزال يتأجج كاللهب المشتعل، منذ كُنتِ طفلة صغيرة تحملين الضفائر الجميلة، كنتِ تشبهين الملاك."

أخذ يتجول في ذكرياته، كالغريق الذي يُحاول التشبث بأي طوفٍ. انهمرت الدموع من عينيه، تندلق بحرارة على خديه، فيقبل يدها بعطف، وكأنها آخر ما يحتاجه في هذا العالم.

"سأكون لكِ الأمان، سأعقد العزم على تحسين نفسي، ولن أضايقكِ أبداً. وسأكون الحضن الحامي لكِ، فقلبكِ أغلى ما أملك. أُحبكِ بجنون، أُحبك بكل ما أُوتيت من مشاعر، عيوني لا ترى سواك، وقلبي يعلم فقط النبض من أجلك. كوني لي، وسنتخطى معاً كل عذاب، سنسطر معاً فصلاً جديداً من الحياة، نحيا فيه كما نشاء."

كان الصمت هو الرد، سلام تبقى نائمة، غارقة في عالمٍ آخر بعيد عن الألم. ضحك يَنال بسخرية مريرة وهو يخطو خطوتين إلى الوراء، قرر أنه لن يجبر قلبها على سماعه، لكنه لن يتخلى عن حبها، حتى لو كان ذلك كالسير في طريقٍ مسدود.

في قلبه كان هناك شعور غريب، مزيج من الأمل واليأس، يراوده على الدوام. آمن أن قوس قزح يُشاهَد بعد العاصفة، وأن كل ما يصيبه من آلام ما هو إلا تمهيد لطريقٍ مضيءٍ يقطع شوطاً نحو سلام. كان صامداً في حبه، مُصمماً على أن يبقي الأفق مفتوحاً، حتى لو كان ذلك يتطلب منه أن يحيا واقع هذا الحب البعيد.

في زاوية قاتمة من صالة منزله، جلس الشاب مستنداً إلى جدارٍ بارد، يحمل كأساً بين أصابعه المرتجفة. كانت عيناُه مملوءتين بالسواد، وتعلو وجهه شبه ابتسامة اقتران بالهذيان. منذ ذلك الحادث المأساوي، لم يبرح مكانه كالصخرة التي تقف ساكنة أمام موجٍ عاتي. عزلته أحزانه عن العالم الخارجي، بينما الفتاة، تلك الروح المكسورة، لم تغادر غرفتها أبداً، كأنها قد احتجزت نفسها داخل عالم من الظلام والذكريات المتعبة.

تلاشى الوعي منه لتغمره الثمالة، حيث بدأ يطلق العنان لكلماته المبعثرة، ممزوجةً بضحكات مكتومة وأفكار مشوّشة، في محاولات يائسة للهرب من واقع جارف. اتصل بــ "ينال" أكثر من مئة مرة، ولكن صدى الإشارات

المقطوعة كانت كل ما حصل عليه. كان يحتاجه ليشاركه همومه، ليستمع لمأساته، لكن العزلة كانت تأكله من الداخل.

وضعتُ قلبه الآثم هذا الشاب في دوامة من اليأس، حتى واجهته الرغبة في أن يكون قريباً من تلك الفتاة. شق طريقه نحو الطابق العلوي، خطواته تتنقل بين الترنح والتهالك، غير عابئ بعواقب ما يفعله. وعندما دفع باب غرفتها بلطف، تسلل ضوءٌ خافت من خلال الفتحات، ليكتشفها في عمق سباتها، متكورة كعصفورة صغيرة. كانت نائمة بسلام، ووجهها النضر يعكس براءة الطفولة.

هزته ملامحها، أنفها الذي احمر من البكاء، وعيونها المنتفخة كأنها زهور ذابلة تحتاج إلى الماء. ضحك بحالة من بلاهة، غارقاً في شعورٍ غريب جعله يهمس: "تبدو كالأطفال".

اقترب منها بخطوات متلعثمة، يمسح برفق على وجهها الطري، محاولاً إيقاظها برقة، وهو ينادي باسمها في همسات مشوشة. فتحت عينيها ببطء، اندهشت للمرآة الغريبة التي أمامها، حيث ظهر ككائنٍ غريب وهي تعاين حاله المترنح. بسرعة، شعرت برغبة في النهوض، لكن الواقع المزرِ الذي يواجهها جعلها تجحظ بعينيها وتتحدث بقلق:

"ماذا تفعل هنا؟"

وجوده في غرفتها لم يكن مرعباً بقدر ما كانت حالته تستدعي الخوف، كان كغيم معتم يهدد بزخات مطرٍ غزير. بلعت ريقها، جسدها يرتجف مع اقترابه منها، بينما بدأ يهذي بكلمات غير مفهومة، فتأكدت أنه في حالة سكرٍ تامة.

كانت تفكر في نفسها، لكن الأمر أصبح أصعب حين بدأ يقرب جسده منها وينهمك في كلمات مخمورة:

"حياة، أنا لا أحب تلك الفتاة، أنا أحبكِ أنتِ."

الكلمات التي انطلقت من شفتيه كانت كالرصاص، اخترقت صمت الغرفة، قاصدةً قلبها. تسارعت دقات قلبها، مزيج من الخوف والدهشة، كان كمن يفتح أبواب جحيم داخل قلب المعذبة

استفاقت حياة مفزعة، وقطرات العرق تتناثر على جبينها كنجوم تتساقط من سماء الليل. كان قلبها يخفق بشدة، تتنفس بقوة، بينما ذاكرتها تعود إلى أحداث ذلك المنام الغريب، حيث اعترف لها إياد بحبه، لكن في عالم الأحلام وحده. تساءلت بحيرة عن مغزى تلك الرؤية؛ أهو كل ما مرّ به في تفكيرها قبل أن تغفو، أم أنه كان يقيم في خاطرها مع تلك الفتاة التي تنافسها على قلبه؟

شغلتها تلك الذكريات، وعادت إلى لحظته الأخيرة في المنام، عندما اقترب منها ليقبلها. كيف حدث هذا؟ ومتى كان ذلك؟ ولماذا، بحق السماء، يفعل ذلك بها؟ تنهدت بعمق وكأنها تحاول طرد تلك الأفكار، ونهضت لتغسل وجهها، مشتتة الأفكار.

تعرّضت مشاعرها لتموجات متناقضة، فبينما كانت خائفة منه، إذ اعتقدت أنه ذئب يتربص، كانت في الوقت نفسه قد اعتادت على وجوده بجانبها. فتحت باب غرفتها بتؤدة، كأنها تترقب أوهامًا في الظلام، لكن مشاعر الفضول دفعتها إلى الخارج لترى ماذا يفعل. خطواتها كانت حذرة، كأنها تتسلل في جو من الخوف والترقب.

عندما رأت إياد جالساً في الصالة، كأس النبيذ في يده، كان يبدو كفارس لا يعبأ بعالمها. كانت هي كذلك تعيد صياغة صورة الحلم، فمظهره يماثل تماماً ما رأته، لكنه كان بعيداً عن الثمالة. وقفت هناك، مختبئة، تتأمل في صمت، حتى صعقتها كلماته:

"لماذا تقفين هناك وتختبئين؟ تقدمي."

ابتلعت ريقها بتوتر، واقتربت منه لتجلس مقابله، عينيها تتجنبان النظر إليه، تشعر بأنّ مشاعرها قد صُدمت مرة أخرى. نظر إليها بعينيه الحادتين كصقرٍ يراقب فريسته، بينما كان يرتشف من كأسه بحذر، ثم سأل:

"لماذا لم تنامين؟"

تلاعبت أناملها بتوتر، وجاء الصوت خافتاً:

"في الواقع، كنت نائمة لكنني استيقظتُ منذ قليل."

همهم ببرود، مُتسائلاً:

"حسناً، ولماذا أتيتي إلى هنا؟"

تعثرت حروفها، فلم تدري بماذا تجيبه، ففضلت أن تُبقي صمتها. لكن لم يطل الأمر، حيث قال بسخرية:

"هه، هل تريدين تبريراً لما حدث اليوم؟"

نظرت إليه بثقة، مرددة:

"لا شأن لي بك، فلتفعل ما تشاء، ولكن بعيداً عني."

تلك الكلمات دفعت ضحكة ساخرة تخرج منه:

"أنا أفعل ما أشاء، ومع من أشاء، ولا أستقبل الأوامر من أحد، يا فتاة."

نفخت خديها واحمرّت، وقد زادها غلياناً:

"لكن ما فعلته هو تصرف غير أخلاقي؛ كان ينبغي عليك أن تختلي بها في غرفتك الخاصة وليس في الصالة، يا سيد!"

نظر إليها بمكر، كأنما يفكّر في حيلته القادمة:

"حياة، هل تغارين عليّ؟"

ردت بسخرية لم تخفِ توترها:

"آخر ما سأفعله هو أن أغار عليك؛ أنت لا تستحق حتى أن أفكر بك لأغار عليك يا هذا."

تلك الكلمات رسمت خطوط استثارة على وجهه، ليقف فجأة بحركة سريعة، ويصبح ملتصقاً بها. شعرت أوصالها ترتجف، بينما كانت تتمنى أن لا تكون ضحية لأفعاله الشيطانية. همس في أذنها بنبرة حادة، وعيناه مشدودتان إلى عينيها:

"حياة، لا تختبري صبري، هذا أفضل لكِ، اتفقنا؟"

نظرت إليه بحذر، قليل من الخوف في عينيها، وابتلعت ريقها قبل أن تحرك رأسها موافقة، وليس لديها الكلمات. عادت همساته من جديد:

"هي من أتت إلي، وليس أنا من طلبتها. لذا، لا داعي لحديثكِ هذا."

ابتسمت بسخرية، قائلة:

"ولماذا تبرر لي أفعالكَ إذاً؟"

نظر إليها بعينيه القويتين، ولعن نفسه مئات المرات على سذاجته؛ فكيف يُعقل أن يُبرر لها؟ لم يكن من طبيعة إياد أن يفسر لنفسه أو للغير أفعاله، ولكن وجودها بجانبه، ونظرة عينيها التي أُبقيت في ذاكرته، جعلته مُشتت الذهن، غير قادر على الكشف عن مشاعره. تحدث ببرود، وكأن قلبه القاسي يخفي رهبة:

"لا شأن لكِ، أذهبي للنوم."

حركت رأسها بيأس، لكن سرعان ما تلاشت أفكار الندم، وقررت أن تلاعب أعصابه قليلاً، فقالت بابتسامة مفعمة بالثقة:

"في المرة القادمة حينما ترغب في إحضار فتاة، أعلمني قبل أن تصل أي واحدة منهن. بصراحة، لقد شعر قلبي بالتقزز من ذلك المشهد الذي شاهدته اليوم. أحلاماً سعيدة، يا زير النساء."

أنهت جملتها وركضت إلى غرفتها، بينما هو لم يُحرك ساكناً، وكأن صاعقة قد هبطت عليه من كلماتها. ابتلع ريقه بصعوبة، وبدأ قلبه ينبض بعنف وكأنما يتصارع مع نفسه. تسارعت أنفاسه، وشعر وكأن الأرض تزلزل تحت قدميه. لماذا لا يريد أن يشعر بتقزز من نظرتها تلك؟ كانت كلماتها إهانة له، وشيء ما في قلبه ضج بتساؤلات، بينما لم ينسى أيضاً نظرتها التي أحرقت قلبه، واعترافاته التي أرهقته.

شعر بالهزيمة، وكأن تلك الطفلة استطاعت أن تُوقظ ضميره، وتجعل من نفسه يشعر بالخجل منها كما لم تفعل امرأة قبلها. تلك الكلمات انسابت في عقله كالألم، أدرك أنه لم يعد قادراً على التحمل. مضى نحو غرفتها بسرعة، متوجهاً إليها كالمجنون، ليجدها جالسة على سريرها، مُشغولة بالدراسة.

وقفت في ذلك الحين، وابتلعت ريقها، تظن أن منامها سيتحقق، وأنه سيعترف بحبه لها. اقترب منها بخطوات بطيئة، ورغم هدوئه الظاهري، نظرة عينيه الحادة أثارت في قلبها الرعب. دوّى صوته بغضب وهو يقف أمامها:

"ما الذي تقصدينه بكلماتكِ تلك؟"

لم تبال بحضوره، وتمثلت الشجاعة في عينيها، لكن عندما أشاحت بوجهها عنه، أضاف:

"أجيبيني، وإلا لن ترين الخير."

ابتلعت غصتها وتكلمت بصوت خافت:

"لم أقصد شيئاً، فلتفعل ما يحلو لك، ولكن بغرفتك وليس في أرجاء المنزل، أيها المحترم."

بغتة اقترب منها، مُمسكاً معصمها بقوة، وجذبها إليه حتى التصق جسدها بصدره، وقال بنبرة قاسية:

"ومن تكونين لتتحدثي إلي بهذه الطريقة؟ أنتِ مجرد ابنة امرأة رخيصة، هل تدركين ذلك؟ ما زلت عند وعدي يا حياة، ولن تكوني سوى وسيلة لإشباع شهواتي. لكنني أنتظر... انتبهي جيداً، فصبري بدأ يتلاشى. استعدي في القريب العاجل. أعود فأؤكد، أنا من يحدد مصيري، وبمزاجي أتصرف، لذا فلا مكان لتدخلاتك المزعجة. لا تفرطي في تقدير نفسك، اتفقنا؟"

نظرت له بعيون دامعة، وابتلعت غصتها بصمت. هي فعلاً نسيت نفسها، واعتبرت غباءً ساذجاً أن تؤمن بأنه سيفصح عن مشاعره. أدركت الآن بأنها أخطأت في ظنها، وعثرت على خطأها عندما لمست عمق شخصيته الحقيقية. بينما أعماقها تتألم من هجومه، كان هو يراقبها بغضب، محاولاً إبقاء ردود فعلها تحت السيطرة.

انتبهت إلى أن نظراته كانت تشتعل بالغضب، وتأثير الشراب بدأ يتسلل إلى مزاجه. زفر بخفة وترك شظايا الغضب تتناثر حولهم، ثم قال بتجدد:

"جهزي نفسك للغد، سأبعث لك بكل لوازمك."

ابتلعت ريقها، لم تشأ أن تتحدث إليه أو تناقشه بخصوص ما حدث. ودعته ينفجر من غرفتها، مخلّفاً وراءه صدى الباب الذي صفع بشدة. حينها، هطلت دموعها بغزارة، تلعن والدتها التي أوصلتها إلى هذا الوضع البائس، بينما كان قلبها يتمزق.

استسلمت للدموع، واختارت النوم ملاذاً لها بعد تلك المعركة الشرسة، مغلفة في سبات عميق، تنسى فيه وجعها وآلامها، عسى أن تجد سبيلاً نحو حلم آخر.

في ذلك المنزل الصغير، الذي أصبح قفصاً يضيق على روحه، جلس رائد حزيناً كئيباً، يرتشف من كأس النبيذ وكأنما يبتلع قطرات من مرارة الفراق. منذ رحيلها عنه، وتلك الحادثة المشؤومة، لم يُفارق الشراب والدخان، وكأنما يبحث عن ملاذٍ من ذلك الألم الهائل الذي آلم قلبه. كان يرى نفسه كظلٍ وحيدٍ يهيم في عتمة ذلك المنزل، يبكي وينتحب على فراقها وكأنما يصارع روحه في ظلام الفراغ.

لم تكن هناك فرصة ليُصلح خطأه، بينما كان يتحسر عليها ويندم على فعلته معها، ولم يتخيل أبداً أن يصل به الأمر إلى هذا الحضيض. لم يخطر بباله قط أن يذوق عذاب الحب، تلك النار التي أحرقت قلبه وسحقته بألمٍ لا يطاق. كان يحادث النساء، يتسكع بينهن، ويجعلهن يغرمن به، ثم يتركهن في النهاية وكأنما يفرغ من لعبة لم تُشبعه.

كان يشعر بوجوده مُتفاخراً، يظن أنه يملك كل شيء، ولكنه الآن يدرك أنه لا شيء من دونها. كان يعتقد بأنه سلطان زمانه، يتحكم في مصائر كل من حوله، يفعل ما يشاء، ومع من يشاء، ينظر للنساء كأشياءٍ تحقّق له رغباته، تُشبع شهوته، ولا أكثر.

كان يظن أن تعدد العلاقات، وخداع الفتيات، هو دليل الرجولة والتميّز، لكنها كشفت له عن حقيقته، وكأنها أخرجته من غفلته، وضربت أظافره على جدار الحقيقة.

هي، من ناحية أخرى، أحبته حباً صادقاً، كل يوم يمرّ عليها كعذابٍ قبل أن تقع في شباك حبه، كانت تلك الطعنة الغادرة التي أصابت سعادتها وقلبها، واختطفها من عالمٍ عامرٍ بالرجال. كان يمتصها بكلامه المعسول، وكأنما يجعلها تشرب من كأس سحرٍ، حتى اختطفها من دنياها، وأصبح حديقتها الناضرة، تغرس فيها بذور الذكريات، كان الحياة والأمان لها، لكنّه في النهاية، غرس في قلبها سهماً مجنوناً ليقضي على كل آمالها، وضاقت الدنيا عنها، وانتهى كل شيء في لمح البصر.

زاد الطين بلةُ مرضها ومكوثها في المستشفى. حاول في الأمس أن يذهب إليها، لكنه عندما رأى ينال هناك، تراجع واعتقد أنّه كان هناك لسببٍ غامضٍ. اشتاق لها، أراد رؤيتها، لكنه لم يستطع فعل أي شيء. في كثير من الأحيان، تخطر على باله فكرة اختطافها، أو فعل شيءٍ ليستردها، لكنه يعود ويتردد مخافةَ أن يُلحق بها أذى.

وصل به الأمر إلى أن يبكي على ذكراها، يتألم ببعدها عنه، ويتملكه الشكّ حول علاقة ينال بها، ويكاد يجنّ عندما يتذكره. تُسيطر عليه نار الغيرة وتُزيد من وتيرة أنفاسه، ولكن ماذا عساه أن يفعل سوى الصبر والتحمل؟ يأمل أن تنسى محبوبته ما حدث، ويريد أن تعود إليه في أسرع وقت.

كان ينال يرقد بجانبها، رأسه ملقى على طرف السرير، غارقاً في نومٍ عميق وكأنما يتجنب مواجهة الواقع المرير. فتحت سلام عينيها ببطء، كأنما تنتظر أن تُزهر روحها من جديد، لتُدرك أنّ ذلك الشاب الذي لطالما اعتبرته صديقاً، أصبح بجانبها الآن، يغطّ في سباتٍ غامض.

لم تُحرك ساكناً، وكأنما تُحاول أن تستوعب ما حدث، لم تكن لديها القوة الكافية لتصرخ، أو أن تُعبر عن سخطها، تنهدت بعمق، وكأنّها تُطلِق سحابةً من الحزن، وانهالت دمعةٌ ساخنةٌ من عينها، كأنما تُحاول أن تُطفئ نار الألم التي اشتعلت في روحها.

ظلت تنظر إليه، وسرحت في ملامح وجهه، فاستذكرت أيام طفولتها معه، عندما كان يلعب معها، ويُدلّلها، ويحميها من كل شيءٍ يُسبب لها الأذى، بينما كان هو بمثابة الدرع الحامي لها.

بدأ ينال يستيقظ شيئاً فشيئاً، ليرى سلام مُستيقظة، تُحدق به، لم يستوعب ما حدث، وتعجب من هدوئها وسكونها، بينما نظر إليها بقوة، وكأنما يبحث عن ردّة فعلٍ تجعله يفهم ما يدور في أعماقها. صمتٌ عميقٌ ساد بينهما، كلٌّ منهم يحدق بالآخر، حتى أنّه ابتلع ريقه وصرّح بتوترٍ:

"أنا آسف، لكنني لم أشعر بنفسي عندما نمت."

لم تجيبه، بل واصلت النظر إليه وكأنها تُحاول أن تقرأ روحه.

"كيف حالك؟ هل تريدين شيئاً؟"

أضاف ينال بقلقٍ ملحوظ.

حركت رأسها نافيةً، وكأنما تُخبره أنها ليست في حالةٍ تجعلها تتكلم، فاستمرّ في التحديق بها، بينما بدأت هي تُكلمه بصوتٍ خافتٍ:

"لماذا لم تذهب إلى المنزل؟"

ابتسم مُحاولاً إخفاء توتره، ثم أجاب:

"أنا هنا منذ أن دخلتي إلى المستشفى، ولم أفارقكِ."

بلّلت شفتيها، وكأنها تُحاول أن تجمع شظايا حروفها:

"لماذا تفعل كلّ ذلك معي؟"

ابتسم بتوتر، وتنهد تنهيدةً حارةً لم تُخفِ قلقه، لكنّه لم يُجبها، بينما ظلت هي صامتةً، حائرةً في سؤالها.

صدح صوت هاتفه، فابتسم لها قبل أن يُجيب:

"هذا صديقي، سأحدثه وأعود إليكِ."

حركت رأسها بابتسامةٍ واهنةٍ، فنهض وخرج إلى رواق المستشفى، وأجاب:

"أهلاً إياد."

وصلتهُ نبرة السخرية في صوت إياد:

"حمداً على السلامة، أشكر الرب بأنك تكرمت عليّ، وحدثتني."

ضحك ضحكةً صغيرةً:

"أنت تعلم ما الذي يشغلني."

همهم إياد، مُدركاً ما يُقصده، وقال:

"حسنًا، هل ستأتي اليوم إلى الحفلة؟"

تنهد بعمق:

"لا أعلم يا إياد، لا أستطيع أن أترك سلام لوحدها."

امتعض إياد، وقال:

"أيها الأحمق، لن نتأخر، وغير ذلك، والدتك وجدّتها ستكونان بجانبها، لذا تجهز اليوم."

همهم ينال:

"حسناً، سأحاول."

"حسناً إذاً، سنلتقي، إلى اللقاء," أضاف إياد.

ودّع ينال صديقه، وأغلق الهاتف، وبداخله سعادةٌ غامرةٌ لأنّ سلام لم تصرخ بوجهه هذه المرة، ولم تُعارض وجوده بجانبها. ابتسم ابتسامة جانبيةٍ، ثم عاد إلى غرفتها، وقلبه يرقص فرحاً، بينما كان إياد، على الجانب الآخر، مُشتعلاً بالندم بسبب كلماته المسمومة التي بصقها بوجه حياة في الأمس. تنهد بعمق، وكأنما يحاول إطفاء نار تلك الذكريات،

وصرّح بخطواتٍ متثاقلةٍ إلى غرفتها، وفتح الباب عليها ليراها جالسةً على سريرها، تتصفح في كتابها، وكأنها تُحاول أن تُبعد نفسها عن واقعها المُر.

تملّكه الغيظ والغضب عندما رفضت أن تتناول الفطور معه، لكنه كتم غضبه، مُدركاً أنّ لها كامل الحق في ذلك، وضغط على فكّه بقوةٍ، ثمّ توجه إليها ليجلس بجانبها.

حينما رأته، شعرت وكأنّ قلبها بدأ يطرق بعنفٍ، وكأنّها تُدرك أنّها دخلت في لعبةٍ خطيرةٍ، نظر إليها مطولاً، وكأنما يحاول أن يُحلّل ردّة فعلها، ثم سأل:

"لماذا لم تهبطي لتتناولي فطوركِ؟"

لم ترفع نظرها إليه، بل قالت، وعيناها مسلّطتان على الكتاب:

"لستُ جائعة."

همهم لها، وكأنّها مجرد صوتٍ لا يُثير اهتمامه:

"حسناً، أريدكِ أن تشعرين بالجوع الآن، وتهبطي لتتناولي فطوركِ، ومن ثمّ ستأتي إليكِ خبيرةُ التجميلِ لكي تُجهّزكِ."

وللمرة الثانية، لم تُلقي له بالاً، بل ردّت:

"لن أذهب."

وصل غضبه إلى ذروته بسبب تجاهلها وبرودها:

"حياة، لا تُعانديني، وافعلي ما قلتهُ لكِ، وإلا لن يحدث خير."

نظرت له ببرودٍ، ثمّ أعادت نظرها للكتاب، وقالت:

"فلتفعل ما شئت، لن أذهب."

نفخ خديه بغضبٍ، ونظر إليها بنظرةٍ شرسةٍ، ثمّ ابتسم بمكر:

"والدتكِ ستكون في الحفل."

نظرت إليه بانتباه، وكأنما يُمكنه أن يُخضعها بذكائه، فقالت:

"حقاً؟"

حرك رأسه بإيجاب، مُحاولاً التأثير عليها:

"والآن هيا، انهضي، وافعلي ما قلتهُ لكِ."

حركت رأسها بإيجابٍ، ثمّ نهضت بسرعةٍ، متوجهةً للأسفل لتتناول فطورها، بينما هو ظلّ ساكناً في مكانه، يحدق بفراغِها، وهو يفكر بمدى مقتها له وكرهها. فكرةُ أنّه لا يُمكنه أن يسيطر عليها، وأنه قد لا يحصل على ما يُريده، جعلته يفقد صوابه، ويجنّ جنونه لا محالة. تنهد بقوةٍ وهو يأمل أن لا يحدث شيءٌ في هذا اليوم، وإلاّ لن يحصل خيرٌ أبداً.

في المساء

كانت خبيرة التجميل تُضع لمساتها الأخيرة على وجه حياة، وكانت تبدو بغاية أناقتها وأنوثتها، خصوصاً في ذلك الثوب الأحمر الذي أعطاها جاذبيةً خاصةً، وأنوثةً بديهيةً. نظرت حياة لنفسها في المرآة، ولم تصدق أنّها هي، تغيرت مئة وثمانين درجة، كانت تبدو فتاةً بريئةً، لكنها بعد أن رأت نفسها الآن بدت امرأةً كاملةً ومُثيرَة.

بينما كان إياد يقف في الأسفل، ينتظر قدومها، وكان كلهُ شوقاً ليرى كيف ستبدو، وسامته ورجوليته كانتا ظاهرتين بشكلٍ لا يُوصف، خصوصاً في تلك البذلة التي ارتداها باللون الكحلي، أعطته مظهراً جذاباً ورجولة طاغية لا تُوصف.

هبطت حياة بخطواتٍ متزنةٍ وبطيئةٍ على السلالم، وما إن رآها إياد حتى تسمرّ مكانه من كتلةِ الجمال والإثارةِ التي تهبط إليه، بينما هي كان نظرها مُوجّهاً للأرض، وقد خجلت كثيراً منه، ولم ترغب بالنظر إلى عينيه، وإلى وسامته الطاغية. ابتلع ريقه بقوةٍ، وبدأ تفكيره المنحرف يُقوده للجنون شيئاً فشيئاً، عضّ على شفته السفلى، والنار تأكل في صدره من مظهرها هذا، تسارعت أنفاسه بشكلٍ كبير.

لم تشأ حياة أن تتحدث أو أن تفعل شيء، لكنّ وقوفه بهذا الشكل، وإطالته بالنظر إليها جعلها ترفع ناظريها إليه، لتراه ينظر لها وتلك النظرة الداكنةُ ظاهرةٌ في عينيه. ابتلعت ريقها بتوتر، لتقول بصوتٍ ناعم:

"ألن نذهب؟"

جفل من صوتها، وشعر بنفسه، ليحمحم، ويقول:

"أجل، بالطبع، هيا."

توجَّه إياد وحياة معاً نحو السيارة، متوجهين إلى الحفل، بينما سطعت الأضواء في السماء وكأنها تدعو لهما لمغامرة تحت ليلٍ مُشرق. لم يمضِ وقت طويل حتى وصلوا إلى المكان المُنتظر، ونزلت حياة برفقته، وقد أمسك بيدها بتملكٍ واضحٍ، وهو داخل كَنَف الغيرة، يلعن حسان ويلعن الحفل، ويلعن كل شيء حوله. كانت حياة تبدو بمظهر مذهلٍ،

وهيئتها كفيلة بأن تركع جميع الرجال أمام جاذبيتها. أقسم في نفسه على قتل أي شخص يجرؤ على النظر إليها بنظرة لا تعجبه.

زفر بقوة قبل أن يدخل من الباب الكبير، وانفجر صوت غضبه:

"لماذا أنتِ هكذا؟"

احتقن وجه حياة، وعقدت حاجبيها باستغراب، لتقول:

"لم أفهم عليك، ما الذي تقصده؟"

اجتاحت موجة من الغضب ملامح وجهه، وصرخ:

"لماذا أنتِ جميلةً هكذا، اللعنة عليكِ يا حسان، اللعنة على الجميع، واللعنة عليّ عندما جلبت لكِ هذا الثوب! يا إلهي، كم أنا أحمق!"

جحظت عينا حياة، وفُتحت فاهها غير مُستوعبةً ما يقوله، بينما نظر إليها بانتباهٍ، مُركّزاً على ملامحها:

"لماذا تضعين أحمر شفاه؟"

حركت رأسها بيأس، لتقول بنفاد صبر:

"أنت من طلبت من خبيرة التجميل أن تضع لي مساحيق التجميل، وأنت من جلبت الثوب. ما شأني أنا؟"

همهم لها بغيظ:

"اللعنة عليّ! سأقتلكِ إن تجرأتي وتركتي يدي أو ذهبتي بعيداً عني، هل تفهمين؟"

حركت رأسها بإيجاب، وأمسك هو بيدها ليبدأ مشوارهما سوياً، ابتسامة صغيرة نمت على شفتيها عندما رأت فيه الغيرة والغيظ. دخلا معاً إلى الحفل، وتوجهت جميع الأنظار نحوهما كأنهما ألتقطا صورةً في سحرٍ خاص. كان إياد ينظر للجميع بجمُود، بينما كانت النساء في الحفل ينظرن إليه، والرجال يبدأون بتأمل ملامح حياة بهدوءٍ مقلق.

كان الحفل من النوع الفاخر، والناس من الطبقة الراقية، تلك الأضواء الجميلة والموسيقى الكلاسيكية جعلت الجميع يستمتع بالأجواء الرائعة، لكن في قلب إياد كان هناك قلقٌ مُستمر. استقبل حسان في تلك اللحظة، بابتسامة عريضة، صافح إياد وقد جاء ليصافح حياة، لكن إياد منعه بشدة.

بينما كانت تلك المرأة ترتدي ثوباً أسود مُغرياً، جعلها تبدو كحسناء بكل معنى الكلمة، لكنها خُدعت بالتصرفات السلبية في تجاربها السابقة. نظرت حياة إلى تلك المرأة، وكان قلبها ينقبض بينما تتصاعد الحيرة بداخلها.

اقتربت سمر، لتحتضن حياة، لكن الفتاة ابتعدت عنها، ونظرت لها بجمود، وكأنما تلطّخ الماضي بعارٍ لا يُمحى. قبضت على يد إياد بقوة مُتشبثةً به، بينما ابتسم لها بإغواء يُخفي شيئاً من الخبث، فهو في تلك اللحظة يُحاول أن يجعل حياة تُبعد عن والدتها ولا تشعر بشوقٍ أو حنينٍ تجاهها.

نظر إياد إلى سمر بنظرة ماكرة، ثم أضاف:

"يبدو أن ابنتكِ، لا ترغب في رؤيتك. لذا، أود أن أحقق ما تتمناه وأبعدها عن هنا، إذ أنها تفضل الابتعاد عن وجهك حتى. هيا، يا حبيبتي حياة."

أنهى إياد جملته، مُوجهاً حديثه لحياة، التي تفاجأت من كلمة "حبيبتي"، لكنها لم تتحدث، بل مشت معه إلى حيث يأخذها، بينما كانت كتلة الغضب سمر التي اشتعلت في صدرها كفيلةً بجعلها تفقد صوابها.

بينما كان حسان يتابع هذا الموقف بصمتٍ متفاجئاً من قدوم حياة مع إياد، إلا أنه لم يُنكر شعور الفرح الذي انتابه برؤيتها. شعر بحسدٍ كبيرٍ تجاه إياد، لكونه يمتلك هذه الجوهرة الفريدة، وتمنى لو أنه لم يكن هو من جعله يُفكّر في شراء حياة، ويضعها في رأسه كإحدى كماليات الحياة.

تنهّدت حياة بقوة، وتجمعت الدموع في عينيها تعبيراً عن المآسي التي تحملها في قلبها. نظر إليها إياد بعمق، مُخبراً إياها:

"لا تعطيها أهمية، دعكِ منها."

أومأت برأسها بإيجاب وصمتت، بينما كانت لا تزال متشبثة بيده، أو بالأحرى، هو من تمسّك بها. كان يتابع نظرات الجميع، عازماً على اقتلاع أعين كل من يجرؤ على النظر إليها، وكان يعي جيداً أن هذا الكنز يحتاج إلى حمايةٍ، وأن حياة باتت تعني حياته.

دخل ينال إلى الحفل، بقامته الممشوقة وهيئته المحببة، ووسامته الصاخبة التي جعلت جميع الأنظار تتوجه نحوه. لم يُبال بنظرات النساء المبهورة، بل كان يبحث عن صديقه. اقترب منه حسان واستقبله بحميمية، ومن ثم اتجه نحو إياد، الذي كان شارد الذهن، ينظر نحو حياة بجمود وهو يرتشف من كأس النبيذ.

اقترب ينال بابتسامة واسعة، ونادى عليه، مُرحباً به بينما احتضنه بخفة. لكن أشاح بوجهه، مُتجهاً نحو حياة، التي كانت تتفحص المكان بعينيها الواسعتين. نظر إليها ينال ببلاهة، وابتسامة عريضة، لتنتبه له أخيراً، فتبتسم له ابتسامة متوترة. مد يده ليصافحها، لتضع يدها في يده، تحت نظرات إياد الحارقة والمُشتعلة.

ألقى ينال التحية عليها، مُبدياً إعجابه بجمالها وأنوثتها، ليُرجع نظره إلى إياد الذي كان يراقبه بنظرات حارقة. كتم ضحكته، مُستفزاً إياد:

"لماذا لم تقُل لي بأن هذا الجمال كله لديك؟ لم أكن أعلم أنها جميلة إلى هذا الحد."

نظر إليه إياد بحدة وغضب، فردّ عليه ينال مُستفزاً مرة أخرى:

"وأيضاً، لم أكن أعلم أنك تغار عليها، يا رجل."

تحدث إياد من بين أسنانه، وهو يمسك أعصابه:

"اصمت، عليك اللعنة!"

ضحك ينال ضحكةً رنانةً، ثم صمت، مُوجهاً نظره إلى حياة التي كانت تنظر للحضور بشكلٍ طبيعي، زفر إياد بقوة، ونظر إلى الفراغ بلؤم. أحب ينال أن يلعب بأعصاب صديقه قليلاً، فوجه نظره إلى حياة واستمرّ في الحديث معها، متجاهلاً نظرات إياد التي كانت تكاد تقتله.

بدأت حياة تفتح قلبها له شيئاً فشيئاً، واستمتعت بحديثه ولطافته، واندفعت في الحديث معه، ناسية تماماً وجود البركان الثائر في قلب إياد، الذي كان يشعر بنار الغيرة تتسارع في عروقه.

فجأة، وتحت وطأة غضبه المكتوم، تحدث بصوت عالٍ نوعاً ما:

"ما رأيكما أن أخصص لكما غرفة لتجدان فيها بعض الراحة وتمنحان نفسيكما فرصة للاسترخاء؟"

جفلت حياة من صوته، وصُدمت من كلماته، إذ ارتعشت أركان قلبها وهي تلتقي بنظراته المحتقنة بالغضب والحدة. ابتلعت ريقها بصعوبة، وتورد وجهها خجلاً عندما انتبهت لنظرات الجميع التي تتجه نحوها، وكأنهم شهدوا مكاشفةً محرجة. انخفض رأسها في حزنٍ وصمت، غير قادرة على مواجهة هذا الهجوم المفاجئ، بينما كان ينال يتابع الموقف بصمت، ابتسامة جانبية ترسم تفاصيل مشاعره. همس في نفسه:

"والآن تأكدت من شكوكي."

أما إياد، فقد نظر إلى صديقه بغضب متزايد، ليجده يبتسم له باستفزازٍ يُشعل نار الغيرة في قلبه. شعر ينال بأن الوضع قد يُغضبه في أي لحظة، لذلك اختار الهروب من أمامه، على الأقل حتى يهدأ قليلاً.

توجهت مجموعة من رجال الأعمال إلى إياد ليلقوا التحية عليه، مُتحدثين في أمور عدة تتعلق بالعمل؛ طلبات لصفقات جديدة، ومقترحات للتعاون في مشاريع جديدة. بينما تملك الغضب قلب إياد، لأن حياة تقف بجانبه، وهؤلاء الرجال يتحادثون معه، فتسربت مشاعر الضيق في أعماقه.

بدأ يسترسل بالحديث معهم، متحدثاً حول مختلف الأمور، بينما شعرت حياة بالملل يتسلل إلى قلبها. خطر ببالها أن تتوجه إلى الحمام، لتعدل من هيئتها قليلاً، فتتركهم متوجهةً نحو الحمامات، لكنه لم يشعر بغيابها، بل غفل عنها وسط زحام الأحاديث.

مشَت حياة بين أرجاء المكان، لكنها لم تجد الحمامات، ولم يعترض طريقها أي شخص. نظرت إلى الباب الخارجي في الجهة الأخرى، وسرعان ما أُغلفت برغبةٍ دفينةٍ بالخروج إلى الخارج. أحبت الهدوء الساكن، والأضواء المتلألئة المشرقة في الفضاء الخارجي. خرجت وهي تسير بخطوات ملؤها الشغف والفضول، لم تستشعر الخوف من عتمة الليل، فهي في منطقةٍ مُخصصةٍ لأصحاب النفوذ والأموال، حيث يتناغم الصمت مع الفخامة.

ظلت تمشي لبعض الوقت، حتى أحست بأنّها قد ابتعدت عن المكان، فقررت العودة. لكن سرعان ما غلبت عليها مشاعر القلق، إذ أدركت أنها قد أضاعت الطريق. كانت الاتجاهات ضبابية في ذهنها، ولا تدري عن كيفية العودة، فما زالت تتخبط في خطواتها المشتتة.

جلست على حافة الرصيف، وقد غمرتها الدموع. انتفضت عاطفتها وهي تعبر عن ألمها في بكاءٍ حار، تردد في قلبها النابض بالكرب:

"يا إلهي، سيقتلني."

في الجهة الأخرى، وقف ينال بعيداً عن إياد، بين مجموعة من رجال الأعمال، وهم يتبادلون الأحاديث. فجأة، رن هاتفه، وبترددٍ، استأذن من المجموعة ليجيب:

"أهلاً أمي."

جاءه صوتها، مُشحوناً بالحزن، وهو يُحاول أن يُخفف قلقه، حتى وصل إليه ما لم يكن يتوقعه:

"ينال، لقد ماتت..."

18

لم يستطع أن ينطق بكلمة، فقد شل لسانه تماماً، وتوقف عن التفكير، مسمراً في مكانه أمام ما سمع، ضائعاً في دهشة لم تشهد لها نفسه مثيلاً. بدا وكأن الصدمة قد ألجمت مشاعره وأفقدته القدرة على الحركة. لكنه جفل فجأة لدى سماعه صوت الضجيج المتصاعد من الداخل، صوت ذلك الإعصار الغاضب، الذي يعكس فوضى عارمة تنذر بما هو قادم. تفقدها بنظرة متوترة، لكن أنظاره لم تعثر عليها، فازدادت مخاوفه وتحوّل غضبه إلى بركان كاد ينفجر.

لكنه لم يعيره اهتمام حيث أن ينال انطلق كالسهم نحو سيارته، متجهاً إلى المستشفى، عازماً على تحقيق ما عجزت عنه الكلمات.

جاء لإياد شعور عارم بالخوف والقلق، كأنه يترنح بين ظلال القلق. هل اختطفها أحد؟ أو حدث ما لا يُحمد عقباه؟ أقسم داخله بشدة وعزيمة، على استعادتها. كان غضبه يتنامى مثل لعنة تصاحبه، وأقسم بأنه سيلقنها درساً قاسياً عندما يلتقي بها مجدداً.

أما في الشارع، فقد كانت تلك الفتاة حياة، تعاني في صمت مكلل بالذعر. كانت تجتر أسئلة بلا إجابات، مُخيّرة بين خوفها من ذلك المجنون الذي لن يتركها في حالها، أو من عتمة الليل التي تحاصرها، حيث سقطت كالغيمة في مكان موحش لا يسكنه سوى قلة من الناس. نهضت لتخطو بخطوات متثاقلة، لا تعرف إلى أين تتجه، لكنها كانت عازمة على المضي قدماً، تجرّ نفسها بعيداً عن كل ما يثير رعبها.

سمر والدتها، وقفت شبه مجمدة، تتأمل جنون الغضب الذي استولى على ذلك الشاب. قلبها كان يأكله الحقد والغيرة، وقد تأكدت الآن من شكوكها بخصوص الرابطة العاطفية التي تجمع بينه وبين ابنتها. بينما ذلك المجنون كاد يفقد صوابه من القلق على حياة، تشاجر مع العديد من الحراس، وبعد رؤية غضبه

الهروب كان مصير الجميع في الحفل، إلا حسان، وسمر.

لم يتمكن من البقاء أكثر، فهرع نحو سيارته، منشداً العثور على معذبته، تلك التي أسرت قلبه وعذبت فؤاده. بينما حياة، مع كل خطوة تتخذها، كانت تتوق إلى النهاية، عاجزة عن مواصلة السير بسبب كعبها العاليين. فخلعت حذاءها، لكنها شعرت بالشحوب يُغشي عينيها، وبثقل رهيب يجثم على صدرها، حتى أن بحوراً من التعب كانت تناديها للراحة.

مع أصغر حركة من حولها، كانت تعود لتلتفت، خائفة، وبذهنها تتلاعب آلاف السيناريوهات المرعبة. انفجرت منها أنفاس متقطعة، حتى جلست على حافة الرصيف، ترقب الطرقات بعيون ذابلة، لا تنتظر شيئاً. وفجأة، شعرت بحضور قوي أمامها، لكن عواطفها كانت متجمدة في زمن من الخوف، حتى جاء صوت يتحرك في فضاء هذا الروع:

"انهضي."

رفعت نظرها إليه، لتجد من يقف أمامها بشموخ، عيناه تتألقان بلون الدم، تحملان جموح الصقر، بينما كانت ملامحه تحمل آثار الصراع والمجهود الجسدي. حكايات قلبه كانت تنبض بشدة، كأنها صدى ضجيج معركة نازفة. تحدثت بلهفة:

"لقد جئت، كنت أظن أن... "

قاطعها بنبرة قاسية وكلمات أشبه بالنزع، قائلاً:

"انهضي، وإلا سأجذبكِ من شعرك وأجركِ."

ابتلعت ريقها بصعوبة، ونهضت بجهد، وكأنها تحمل أثقال العالم على كاهلها. لكن وجوده كان طوق نجاة لها، فأجابت بارتياح:

"حمداً لله أني وجدتك، كنت خائفة جداً، إذ أنني... "

لم يدع لها الفرصة، أمسك بفكها بقوة، ملامح وجهه تتقد بالغيظ والخوف، وصوته صارماً:

"لقد استنفدتِ طاقتي صبراً يا حياة. تخطيتي حدودك مراتٍ عديدة، فلا تصدقين أنني لا أستطيع التحكم بنفسي. في كل لحظةٍ أشعر فيها بالخوف عليك، يتوقف نبض قلبي، وكأنه يصيح في داخلي، يستحثني لتحطيم ذلك الوجه الجميل الذي أراه حتى لا أتعذب أكثر."

ابتلعت ريقها بصعوبة، وبدت عيناها مضطربتين، كأنها تخوض معركة داخلية لا حصر لها. فقدت قدرتها على المقاومة، فأغمضت جفنيها في استسلام تام، وكأن عالمها حولها قد بدأ يتلاشى. بسرعة خاطفة، أمسك بها بين ذراعيه، ليضعها برفق بالسيارة محاولاً التحكم بقلبه الذي نبض بعنف من خوفه عليها.

في تلك الأثناء، كان ينال يتوجه مسرعاً إلى المستشفى كالمجنون، قلبه يخفق بتسارع غير عادي، يحمل في صدره قلقاً ينهشه، وكلمة واحدة فقط تسكن ذهنه: "ماتت." لم يكن لديه أدنى فكرة عن من كانت تلك التي أُعلن عن وفاتها، فقد قُدّر له أن يسمع تلك الكلمة المفزعة من والدته. ركض نحو الدرج، صعد الخطوات كأنها جدران عالمه المظلم، وعقله يدور بفكرة واحدة: الوصول إلى سلام.

فتح باب الغرفة بسرعة، ليجد نفسه محاطاً بفراغ واسع، نظراته تبحث بيأس عن أي أثر لمحبوبته، لكن الرعب تسلل إلى أوصاله عندما لم يجد أحداً. أدرك أن الخطر أكبر مما تصوّر، فأخرج هاتفه وبدأ يلهث في محاولاته اليائسة للاتصال بوالدته، لكن كل محاولة كانت تلاقي الخيبة. صرخ بأعلى صوته، وجن جنونه في مشهد من الألم والذعر العميق. تجمع حوله كل من تمكن من سماع صراخه، كأنه كان في خضم عاصفة من الغضب.

اقترب منه الطبيب المختص بحالة سلام، ساعياً لتهدئته في وسط هذه الفوضى، وتحدث بلهجة رقيقة. لكن ينال، الذي كان في ذروة غضبه، انتفض في وجه الطبيب، وعيناه مشتعلة بالشوق والحرقة.

"أين هيَ أيها الطبيب؟ أرجوك، قل لي، أين هيَ؟"

نظر الطبيب إليه بتوتر، فقد كان على دراية بعواقب الإجابة.

"مَن هيَ، سيد ينال، التي تبحث عنها؟"

اقترب ينال منه يكلمات الغضب تنفجر كالأبخرة تحت الضغط:

"سلام! أرجوك، أين سلام؟"

ابتلع الطبيب ريقه بصعوبة، ثم قال بصوت منخفض:

"هيَ بخير، سيد ينال، لكن... جدتها توفيت، وقد تم نقل الانسة سلام إلى مستشفى آخر، حفاظاً على حالتها النفسية. أما بالنسبة لجدتها، فهي الآن في الثلاجة، ووالدتكَ ترافق سلام."

عند سماعه ذلك الخبر القاسي، كان كمن تلقى ضربة موجعة، تراجع للخلف كأن الأرض قد تزلزلت من تحت قدميه. أفلته الطبيب من يده، وأمسك برأسه بكلتا يديه، يتأمل في الفراغ، عقله غير قادر على استيعاب الواقع المؤلم.

"في أي مستشفى هيَ الآن؟"

طلب بكل يأس.

أبلغه الطبيب بعنوان المستشفى، لكن هنالك شيء من الأسى كره أن ينطق به:

"يجب أن تُدفن الجدة غداً، رحمها الله. أعلم أن الأمر صعب، لكن الأعمار بيد الله. إذا كنت تريد أن تحدث الآنسة سلام، فالأفضل أن لا تراها وهي تُودع جدتها، وأرجوك، تعامل معها برفق."

حرك رأسه بحزن، وتوجه سريعاً نحو المستشفى الجديدة، دقات قلبه تضرب كنبضات طبل الحرب، تمزقه مخاوفه القاسية.

وصل ينال أخيراً إلى المستشفى، واستفسر من موظف الاستعلامات عن غرفة سلام، لينتقل إليها بخفة توحي بشعوره المشتعل في صدره. فتح الباب، ليجد سلام ممددة على سريرها، يبدو أنها غارقة في أفكار لا تنتهي، بينما كانت والدته تجلس بجانبها، تبكي بصمت كأنها تودع جزءاً من حياتها.

عندما لمحته سلام، نهضت بنصف جسدها قائلة بسرعة:

"ينال! أين كنت؟ لماذا تم نقلي إلى هنا؟ لماذا أمرتهم بنقلي؟ أريد العودة للمنزل، لا أريد أن أكون هنا!"

نظر لها بحزن يعكس عمق مشاعره، ثم اقترب منها بخطوات هادئة، واحتضنها بحنان ليشعرها بالأمان الذي فقدته منذ زمن بعيد. لم تعارض هذا العناق الدافئ، بل التصقت به كأنها تبحث عن ملاذ من برودة العالم حولها، ماضية برأسها إلى صدره لتغمر نفسها في شعور راحة قليل. رغم أنها لا تزال فقدت الثقة في قلبها تجاهه، إلا أنها كانت بحاجة ماسة له بجوارها، لتدغدغ حنانَها وعنايته.

قبلها ينال من جبهتها برفق، وقد وجدت سلام نفسها ساكنة بين ذراعيه، تجري الأحداث من حولهما، بينما والدته كانت تتابع المشهد بعينين مملوءتين بالدموع، تتدفق بلا توقف. تنفس ينال بعمق، محاولاً كبح مشاعر الأسى التي كانت تتلاعب بأعصابه، ثم قال بصوت هادئ عازم، كأنه يزرع الأمل في قلبها:

"حبيبتي سلام، يجب أن تكوني قوية كما اعتدت أن أراك دائماً. سأسمح لك بالخروج غداً، ولكن عديني بأن تتقبلي كل ما سيحدث."

نظرت إليه بعينيها الحزينتين، وكأن براءة الطفولة ما زالت تسكن روحها رغم كل المعاناة التي مرت بها. قابلها ينال بنظرة حب وشفقة، وأطلق ابتسامة حزينة جعلتها تبتسم بدورها، لكن الابتسامة لم تكن تصل إلى عينيها المليئتين بالخوف والقلق.

أخذت تتنهد بعمق، وأعادت رأسها إلى صدره، بينما يده تفرك شعرها برقة وعناية. ثم أزاحت نظرها عنه لتسأله:

"ماذا تقصد بكلامك، ينال؟"

ابتلع ريقه، واحتار في كيفية الرد، لذا كانت هي التي دفعت الحديث إلى الأمام:

"صحيح، أين جدتي؟"

تجمدت الأجواء، وتوتر كل من ينال ووالدته، حتى تجرأت والدته على كسر الصمت:

"حبيبتي، جدتكِ تعبت قليلاً، وذهبت لترتاح في البيت."

حركت رأسها بتفهم، ثم عادت للتمدد على سريرها، مغمضة عينيها وكأنها تستعد لدخول عالم الأحلام هرباً من واقعها المرير.

وقف ينال في صمت، يتأمل حال محبوبته بحرقة، وكأن وداع الحياة يجثم عليه. وبسرعة، انسدت الأنفاس في صدره، فغادر الغرفة مع والدته إلى رواق المستشفى.

تنهدت والدته بعمق، وكلماتها تخرج بحزن:

"ماذا نفعل الآن؟ مسكينة هذه الفتاة، لم يتبقَّ لها أحد من عائلتها."

رد ينال ببسالة:

"أمي، لن أتركها وحدها، ولن تفعلين أنتِ أيضاً. نحن سنقف بجانبها."

حركت والدته رأسها بالإيجاب، لكن آثار الحزن كانت واضحة على وجهها. وأضافت بصوت متقطع:

"بالطبع يا بني، سنكون بجانبها، لكن كيف سنخبرها عن وفاة جدتها؟"

مسح ينال وجهه بيده وكأنما كان يحاول مسح تلك الأفكار الثقيلة، ثم قال بصراحة:

"لا أعلم، أمي، لكن يجب أن تعرف كل شيء حالما تذهب إلى البيت."

اكتست ملامح والدته بقلق، وسألت بجدية:

"لكن كيف سنتركها تنام بمفردها في المنزل، خاصة وهي مريضة؟"

نظر ينال إليها بضياع، وكأن الكلمات قد هربت من عقله المثقل، لكنه تنفس بعمق، مؤكداً:

"لن أتركها أبداً، سأقف بجانبها. ثقي بي."

جاءت الإيماءة من والدته بحزن تأكيداً، لكن صمتها كان ثقيلاً، بينما ظل ينال مغموراً في أفكاره المشتتة. كيف ستتحمل سلام خبر خسارة جدتها، هذا الأمر سيؤلم قلبها بطريقة لا يجرؤ على تخيلها. لكنه في أعماق قلبه، كان يعرف أنها قوية، وأنها ستتجاوَز كل شيء، وسيظل بجانبها يدفعها إلى الضوء مهما كان الثمن.

صباح اليوم التالي، استيقظت ريمة باكراً على غير عادتها، كأن سجادة النوم الوردية التي تحتها قد تخلت عن احتضانها العميق. نهضت من فراشها بتصميم، مُتجاوزة رغبة العودة إلى أحلامها الهادئة، وشرعت في تنفيذ روتينها اليومي بحماس غير مُعتاد، ففي جعبتها يوم جديد يتوجه نحو الجامعة ينتظرها.

خرجت إلى غرفة المعيشة، حيث كان والداها وأختها مها يتناولون فطورهم. شعرت بفرق شاسع في الأجواء، فبدت نظراتهم قلقة ومفاجأة، إذ أن ريمة، هذه الفتاة التي لطالما اضطرتهم لإيقاظها من عجزها عن الخروج من سُباتها، قد استيقظت اليوم بمفردها وبدون أي مساعدة. إلى جانب ذلك، لم تتجاهل لمعة الفخر التي ارتسمت على وجه أهَلها.

"سأسجلها بالتاريخ، يا فتاة!"

قالت مها بمرح، وقد ملأت الابتسامة وجهها.

نظرت لها ريمة بتعجب، أسنانها مضغوطة على ما في فمها:

"ما الذي ستسجلينه بالتاريخ؟"

ضحكت مها بسخرية، وكأنها تكتشف نظرية جديدة في الفيزياء:

"أقصد أنكِ استيقظتِ باكراً دون أن تخوضي الحرب العالمية في نومكِ."

وجهت ريمة نظرة باردة إلى شقيقتها، وهمست بتململ:

"حمقاء."

كان الضحك يتردد في أجواء المنزل، حتى انخرط والداها في الضحك أيضاً، مما جعل ريمة تشعر ببعض الدفء في قلبها. لكن سرعان ما حاولت إنهاء طعامها، مُتسلّحة بالعزيمة، ثم ودعتهم متجهزة للخروج إلى عالمها الدارسي.

بينما كانت خطواتها سريعة نوعاً ما نحو الجامعة، تفاجأت بوقوف سيارة أمامها فجأة. عقدت حاجبيها باستغراب حين أطاحت ببصرها إلى الداخل، حيث مهند ينظر إليها مبتسماً. عاكسها نظرة مُفاجئة، قبل أن تُقلب عينيها بغضب غير مُدرك:

"مها ليس لديها دوام اليوم، أفضل لك أن تذهب."

أظهر مهند حالة من الغباء المُصطنع، وكأنه لم يفهم ما قالته:

"حقاً؟ حسناً، صباح الخير إذاً!"

نفخت خديها وكأنها تحاول طرد أفكارها:

"صباح النور."

ابتسم ابتسامة جانبية، فهمت أنها قد أثارت فضوله:

"حسناً، لقد نسيت أن مها ليست بالجامعة اليوم، لكن لا مانع لدي من توصيلك، هيا، اصعدي."

نظرت له ببرود وكأنها تزرع حواجز في قلبها، لكن ملامح عينيها الجميلتين ما لبثت أن غرفت في الهالة النظيفة لإنسانيته. وخرج من السيارة، واقفاً أمامها، يتطلع إليها بشغف مُحتمل. بينما كان صمته كفيلاً بإقناعها بالمزيد من التفكير.

ترددت ريمة في البداية، تفكر في مشاعر شقيقتها ووالديها. كيف سيكون موقفهم إذا رأوها في السيارة معه؟ لكن رغبتها في الاستجابة لرغبات قلبها كانت تتخذ القرار شيئاً فشيئاً. تنهدت بعمق، وعقدت العزم لتتوجه نحو السيارة. أكسبها الأمر الشعور بنشوة مختلطة.

عندما صعدت إلى السيارة، اتسعت ابتسامة مهند. وانطلق نحو الجامعة، بينما كانت مشاعر القلق والارتباك يختلطا في قلبها. أما هو، فابتسم مراراً، قائلًا:

"ما بكِ، لما أنتِ صامتة؟ تحدثي."

ابتسمت بسخرية مفعمة بالتحدي، لترد عليه:

"وبماذا سأتحدث؟"

همهم لها باهتمام:

"أنا فعلاً أشكركِ على الذوق الرفيع الذي تملكينه، لقد أعجبتني هديتكِ جداً. حقاً، شكراً لكِ، أنتِ رائعة."

كانت كلمات مهند كالموسيقى التي تُنعش خسوفاً داخلياً، واكتشفت ريمة أنها تود أن تتركه يُغني بحديثه النابض. لكنها تكتفي بابتسامة خافتة، كأنها تستمع إلى أنغام أغنية لا تود أن تنتهي.

ليقول بعد برهة:

"ابتسامتكِ رائعة جداً، ريمة."

اتسعت ابتسامتها، وكأن قلبها بدأ يطرق بشغف على نغمة اسمها الذي تردد بين شفتيه كأجمل لحن. كيف أحبّت اسمها الآن، لأن أحدهم ناداها به بتلك النبرة التي تحمل كل معاني الإعجاب، ولأول مرة، شعرت بأنها تجاري الحديث بطبيعتها معه بعيداً عن الأقنعة التي كانت تُجبر على ارتدائها أمام الآخرين.

دخلت ريمة في غمار أفكارها، لكن مهند انتشلها من شرودها بعدما قال:

"سآتي لأعيدكِ إلى المنزل اليوم، الجو بارد جداً والمواصلات قليلة. اتفقنا؟"

همهمت برأسها موافقة، رغم أنها لم تكن واعية تماماً لما تفعل. الملاحة في أعماق عواطفها كانت مشوشة، وأحست بمزيج من السعادة والقلق.

وصل بها إلى الجامعة، وعندما نزلت من السيارة، كانت مشاعر مختلطة تفور في داخلها، لكنها ودعته بابتسامة خجولة، بينما كان هو يتابعها بعينيه حتى اختفت بين جموع الطلاب. ابتسم ابتسامة جانبية، وهمس في نفسه:

"حقاً رائعة."

ومع دخول ريمة إلى أروقة الجامعة، انفرجت شفتاها عن ابتسامة واسعة، ولكن سرعان ما تلاشت تلك الفرحه عندما تذكرت أختها. حين استحضر تفكيرها عن مها، وجدت نفسها أمام دوامة من المشاعر المتعارضة، فبدأت تأنيب نفسها على ما اعتبرته خطأ لا يمكن المغفرة له.

لم تستطع فهم ما يحدث لها عندما تتواجد بجوار مهند. منذ أول لقاء بينهما، وجدت نفسها تائهة في عينيه، وحيرة قلبها كانت تعض على أنفاسها. كيف ستتعامل معه، ومع مشاعرها المعقدة من الآن فصاعداً؟ كيف يمكنها الجمع بين الرغبة في الانطلاق بجوار شخص يعجبها وبين اهتمامها بأختها ومشاعرها حيال هذه العلاقة؟

تنهدت بقوة، شعوراً بالحيرة يعصف بأفكارها، وعقدت حاجبيها بقوة، متوجهةً إلى المحاضرة التي تأخرت عليها، والتي حتماً بدأت دونها. كان كل شيء من حولها يبدو ضبابياً، مع صدى صوت مهند يطن في آذانها، ويدعها تعود إلى واقعها وسط تلك المشاعر المتداخلة، حتى إنها خافت أن تكون قد أضاعت فرصة ثمينة، أو أن تنجرف بعيداً عن واجباتها في عالم مليء بالشغف والمغامرة.

استفاقت حياة على أشعة الشمس التي بدأت تتسلل عبر الستائر، تنشر دفءً خفيفاً في الغرفة، لكنها لم تكن لتشعر بهذا الدفء بعد اللحظات العصيبة التي مرت بها. عقدت حاجبيها بانزعاج ودُهشَت من ضوء النهار، وفتحت عينيها بتردد. جالت بنظرها في أرجاء المكان حتى وقعت عيناها عليه، جالساً على الكرسي، منتشياً بدخان سيجارته، يتأمل ملامحها الطفولية ببرودٍ كمن يراقب لوحة فنية. كان يبدو غير مبالٍ بعالم الصباح الذي بدأ يتفتح، كأنه الأسير الذي لا يعبأ بالحرية.

ابتلعت ريقها عندما شعرت بنظراته المُتوغلة تخترق جدران قلبها، فتقاعست عن النهوض من السرير، لكنها أدركت أنها لن تستطيع الفرار من مواجهة واقعها. نهضت وتمكنت من توجيه خطواتها نحوه، وكان رعبها من عقابها مكافحاً لها في كل خطوة. لم تكن قد شهدت نوبة جنونه وصراخه في الليلة الماضية، ولكنها رأت هيئته المخيفة ونظراته الحادة التي لا تحمل في طياتها سوى وعود بالمزيد من الألم.

اقتربت منه بحذر، حائرة بين الخوف والرغبة في الاعتذار. نظر إليها بعينيه الجليديتين، لم تجرؤ على نطق كلمتين حينما وضعت يدها المرتجفة على يده، لكنها شعرت بأن هذه الحركة لم تُغير شيئاً من قسوته. تحدثت حياة بصوت خافت، كان كمن يتوسل في ليلة شتائية:

"أنا آسفة."

ظل ينظر إليها بجمود، وكأن قلبه قد تحجر. لم ينطق بحرف، وهذا ما زاد من قلقها. نهض بقوامه الصلب، مما جعلها تجفل وتأسف لحظة انزلاقها في هذا المستنقع. بدأ يقترب منها شيئاً فشيئاً، وهي تتراجع إلى أن وجدت نفسها محاصرة في زاوية الحائط. نظرت له بخوف وأعينها المبللة بالدموع، بينما هو استمر في النظر إليها بصلابة، ثم تحدث ببرود بارد كالثلوج:

"اذهبي واستحمي، ومن بعدها تعالي لكي نتناول الفطور. لا أريدُ تأخير."

أنهى جملته دون أن يُعطي مجالاً لأي اعتذار أو اعتراض، وسار إلى الباب. تنفست حياة الصعداء، عازمة على التفكير في أنه قد هدأ ولم يعاقبها، لكن صوتاً حاداً وبارداً قطع حبل أفكارها:

"لم ننتهِ من حسابنا بعد، لا تطمئني كثيراً. هيا، لا تتأخري."

خرج من الغرفة كعاصفة، صافعاً الباب خلفه، مما جعل قلبها يرتجف خوفاً. ابتلعت ريقها وجفاه الخوف، وفكرت في حالها، ماذا يعني صمته وهدوءه الآن؟ هذا لا يعني إطلاقاً أنه لن يعاقبها، خلف ذلك الهدوء المؤقت يُخفي الكثير من الغضب والكراهية.

هي تتعجب من بروده وسكوت الهداوة الظاهر، فبتلك النظرات في الأمس كاد يحرقها غضباً وخوفاً عليها. لم تدرك حينها أن هذا هو هدوء ما قبل العاصفة، تلك العاصفة التي قد تعصف بكل ما تبقى من قواها.

تنهدت بعمق، وشعرت بثقل الأمور يجثم على صدرها، فتوجهت إلى الحمام. فتحت صنبور المياه الساخنة، وسمحت لجزيئات البخار أن تحيط بها، دون أن تدرك أنها تدعو في سرها بأن ينجيها الله من براثن هذا اللعين. غسلت وجهها وجسدها، متمنية أن يغسل الماء زيف تلك العذوبة السطحية.

في ركن من أركان الغرفة، كانت تجلس سلام كأنها تمثال صامد في صحراء قاحلة، حيث لا حركة تذكر ولا صوت يُسمع. طوال ثلاثة أيام متتالية، عاش قلبها تحت ثقل الحزن الذي تشبث بها بعد تلقيها خبر وفاة جدتها. لم تُبدِ أي ردة فعل، بل كانت دموعها تبلل وجنتيها بصمت، وكأن الأشباح تجول في خاطرها. تلقت الخبر كمن يتلقى صفعة من القدر، لكن قواها سرعان ما تماسكت وصممت على مواجهة الواقع المؤلم.

ظلت على هذه الحال، لم تتبادل الحديث مع أحدٍ. حاول ينال ووالدته سناء، الاقتراب منها والتحدث إليها، لكن كل محاولاتهما باءت بالفشل. كان انغلاقها كفيلاً بإشعار قلبه بالخوف، كأن ظلال اليأس تتسلل إلى عظامه، فقد كان يشغل باله سؤال واحد: ماذا لو استمر صمتها إلى الأبد؟

أصبحت سلام أشبه بزهرة ذابلة، تمشي وحدها في حديقة غاب عنها ضوء الشمس، وهي تدرك أنها باتت وحيدة في عالم لا يرحم. جدتها كانت بالنسبة لها الحياة، تلك المرأة التي منحَتْها الدفء والحضن الحنون، واليوم، إذ بها ترحل، قبل أن تُدخل والدة ينال الطعام إلى غرفتها، كانت تتمنى أن تتجاوب معها تلك الفتاة، لكنها لم ترَ إلا شبحها الشاحب الذي يتأمل في الفراغ بلا روح.

دخلت سناء إلى الغرفة تحمل بين يديها وعاءً من الطعام، أملة في استعادة تلك الفرحة المفقودة. عندما لمحت سلام، تنهدت بصوت خفيض وابتسمت ابتسامة منكسرة، لكنها لم تلاحظ سلام التي كانت تائهة في أفكارها. جلست بجانبها، وضعت الطعام أمامها، وظلت تحدق بها بحزن عميق. لقد كانت تمكث معها بوفاء منذ خروجها من المستشفى، وقد عاشت معها كل فصول ألمها.

"سلام، حبيبتي، لقد جلبت لكِ الطعام، هيا، ابدئي."

قالتها برفق، لكن سلام لم ترد، وكأنها لم تسمعها.

تملكها الألم على حال تلك الطفلة، وتنهدت تنهدة حارة تعبر عن جميع مشاعرها المتدافعة:

"سلام، بنيتي، لا تفعلي ذلك بنفسكِ. جدتك ستحزن جداً إن لم تهتمي بنفسكِ وتأكلي."

سطعت الدموع في عيني سلام، ولكنها كانت عاجزة عن النطق. احتدم بكاؤها شيئاً فشيئاً حتى اقتربت سناء منها وعانقتها بقوة، مطبطبةً على ظهرها، مهدئةً من روعها. كان ينال يتابع تلك اللحظة الحزينة، وكان قلبه ينفطر وجعاً لرؤية محبوبته في هذه الحالة من الضعف.

تنهد بحسرة، داعياً في سرّه أن تتحسن حالة سلام، وأن تستعيد عافيتها. اقترب منها لينظر بعمق في عينيها، لكن نظراتها كان تعكس خوفاً ووجعاً لا ينقضي. تبادل مع والدته نظراتٍ تعبر عن فقدان الأمل، فقررت سناء أن تتركهما وحدهما قليلاً لعله يستطيع أن يستجلب منها كلمة واحدة.

"سلام، عزيزتي، يجب عليكِ أن تكوني قوية. هذا قضاء الله وقدره، ولا يجب عليكِ أن تُؤذي نفسكِ هكذا."

بدأ ينال حديثه بصوتٍ رقيق، محاولاً تفكيك تلك الكتل العالقة في صدرها.

وجهت عيناها إليه، إذ لم يسمع سوى صمتاً عميقاً:

"لم أعهدكِ ضعيفة هكذا، طوال الوقت كنتِ تضيئين حياتنا بقوتكِ وفرحكِ. جلوسك في غرفة حزينة هكذا ما هو إلا تعذيب لنفسكِ."

لم يكن ثمّة أي حركة تُذكر، نفوسهم حينها كانت محاصرة بأثقال الحزن التي أعاقت كل أمل في التغيير.تابع برفق:

"حسناً، فقط دعيني اطمئن بأنكِ بخير. انطقي بكلمة واحدة فقط، أرجوكِ."

نظرت إليه بعينيها الغارقتين في الدموع، وحركت رأسها بترددٍ، رافضة أي محاولة لفهم ما يدور في خلدها. تنهد بعمق، وكأن كل آلام العالم تجمعت في صدره، ثم تحدث بصوت يملؤه القلق:

"إلى متى ستبقين هكذا، سلام؟ امتحاناتكِ على الأبواب، ويجب أن تعودي لحياتكِ الطبيعية. لا تفعلي هذا بنفسكِ، كوني قوية ولا تستسلمي!"

أحست ببرودة كلماتِه تتسلل إلى قلبها، بينما تساقطت دموعها كالشلال، تتدفق بغزارة على وجنتيها، فالعجز عن النطق كبل صوتها وأغلق على أفكارها. كانت الكلمات تتردد في أعماقها، لكنها عجزت عن الرد، وكأن العالم من حولها قد جمد في لحظة من الزمن، تاركاً إياها في دوامة حزن لا تُدرك نهايتها.

لم تعجبه حالة صمتها الساكنة، وقد أراد بشغفٍ أن يُخرجها من غياهب حزنها، لكنه شعر كأنه يواجه نذراً من المجهول. كان قلقه يتصاعد مع كل لحظة تمر، فهو خائف عليها من أبسط الأمور، من وهج الشمس الذي قد يؤذي عينيها، ومن همسات الرياح التي قد تحمل لها ذكريات مؤلمة.

تأمل ملامحها وكأنها لوحة تعكس أعمق معاناتها، فقرر في قرارة نفسه أن يبحث عن مخرج لما تعانيه. تراودت إلى ذهنه فكرة جلب الطبيب، لعل وعسى الكلمة الطيبة أو العلاج النفسي ينقذها من هذا الصمت المرعب.

تنفس بعمق، وكأن الحقيقة تخنق أنفاسه، ثم نهض ببطء، عازماً على مغادرة الغرفة تاركاً ورائه ذلك القلب المشتعل من الألم، والذي كان قد سكن فيه. عند خروجه، شعر بأن جزءاً منه قد ترك خلفه، مشي نحو باب الغرفة الذي أغلق خلفه كأنما أغلق معه عالماً مليئاً بالأحلام التي كانت تعيشها سلام.

كان رائد جالساً في صالة المنزل، شارد الذهن وعقله يتجول بعيداً في عوالم حزينة. كان لديه يقين بحدوث ما يثقل على صدره، فقد علم بوفاة جدته، وتدهور حالة سلام بعد هذا الفقد. كان يشغله التفكير بها، يتخيلها جالسة في غرفتها، منعزلةً كما هي، مشغولةً بأفكارها الخاصة، بينما قلبه وعقله مشغولان بها.

أراد أن يراها، أن يتحدث إليها، لكن هذا الأمر كان مستحيلاً. حاول أن يتصل بها مراراً، ولكن هاتفها كان مغلقاً في وجهه كخزانةٍ محكمة الأمان. اعتصره الحنين لرؤيتها، ولصوتها الذي كان يأسره، وللابتسامة التي لطالما أضأت وجهها. تمنى لو لم يسلك الطريق الذي سلكه معها، لكان الآن بجوارها، يمسح دموعها ويعانق تفاصيل الألم التي نال منها الفقد.

احتقن وجهه غضباً، نفخ خديه، وسحب أنفاسه بيأس. اتصل بها مجدداً، طالباً أن تُفتح الأبواب المغلقة، إلا أن رنين الهاتف كان يحمل معها طعنةً في القلب. عندما رن الهاتف، بدأ قلبه يقرع كطبول المعركة المتأججة حيث ترقب إجابة منها.

"سلام، كيف حالكِ؟"

تحدث وأمامه خزائن من الأمل الذي تتلاشى، لكن لم تجبه. ازدادت خيارات الكلمات أمامه رغم أنها اقتصرَت في النهاية على سؤال واحدٍ.

"سلام، أجيبيني، كيف حالكِ؟"

ما زال الصمت هو الجواب، ورغم ذلك أصر على المحاولة:

"سلام، لماذا لا تتحدثين؟ أريد فقط الاطمئنان عليكِ. لقد علمتُ بوفاة جدتكِ، رحمها الله."

جاء الصوت غريباً، يتلاشى كالنسمات، واستمر الصمت القاتل ليعصر الصدر حتى تنهد بحسرة:

"لم تسامحيني بعد، أليسَ كذلك؟"

تساقطت دموعها في خفاء بين حروف صمته، لكن مقاومة الكلمات كانت أكبر من أن تُقهر:

"أنا آسف على كل شيء، ياسلام. صدقيني، أريدُ أن أصلح كل شيء بيننا. أريدُ أن أتزوجكِ. فقط أعطني فرصة أخيرة لأثبت لكِ صحة كلماتي."

أغلق الهاتف من دون أن يأخذ إجابة، ودمعتان تهربان على وجنتيه كأنهما ترويان قصة ألم لا تنتهي. بقي على حاله يحدق في الشاشة، وقد غمره الصمت والخيبة، وكأنه في غياهب الصحراء بلا أنيس.

فجأةً، جاءه صوت الهاتف لينذر بوصول رسالة. أمسكه بعجلة قلبه، وفتح الرسالة ليجد كلماتها:

"لا أستطيعُ التحدث، لإنني فقدتُ نِطقي. أرجوك، لا تحدثني مرةً أخرى. لا تعاود الاتصال بي مجدداً، لإنني لم أعد أريدكَ أبداً... وداعاً."

احتدمت مشاعره تحت وطأة الأسى، فتح قلبه على مصراعيه للندم، وكأن الزمان قد توقف عند تلك اللحظة المؤلمة.

وسط تلك الأجواء المحملة بالوخز، اقترب قاسم، أخوه، وجلس بجانبه دون أن يُشعره بوجوده. كانت عيون رائد تفيض بالأحزان، فبادر قاسم بالحديث، محاولاً لفهم ما جرى:

"ما قصتكَ مع هذهِ الفتاة يا رائد؟"

لم يُجب، وبدت عينيه تُخبر بشيء غير قابل للتفسير:

"لماذا لا تجيب ولماذا تبكي؟! طوال عمركَ كنت تجعل الفتيات يبكين، والآن تُبكي من أجل فتاة! يا للعجب."

رفع رائد رأسه، نظر إليه بنظرة حادة، وكأن تلك الكلمات كانت سيفاً من نار:

"لا شأن لكَ بي. ابتعد عني!"

لكن قاسم لم يتراجع، بل أصرَّ:

"لقد أخبرتكَ مراراً وتكراراً أن تعود عن ذلك الطريق، ولكنكَ لم تستمع لي. لا ألومكَ، بل ألوم والديك لعدم تربيتك على الأخلاق، على الحرص على أعراض الناس. أتعلم؟ أنا سعيد لأنكَ تبكي من أجل هذه الفتاة، التي أضنت قلبك، والتي تعلقّت بها حتى غدوت مأسوراً بأحلامها. سأكون أكثر سعادة عندما تبتعد عنك ولا تمنحك فرصة ثانية لتظهر لها صحة ما توجهه من كلمات."

أضاف قاسم بينما كان صوت السخرية يسكن كلماته، كحد السيف البارد.

كان رائد ينصت، والنيران تشتعل في صدره، تتلظى كألسنة لهب تعتصر روحه. لم يكن باستطاعته أن يشرح لذلك الشقيق القاسي كم كان الألم الذي يعتصر قلبه بسبب اجتياح حالتها حواسه.

نظر إلى قاسم برجاء، لكن نظراته التي غلبها الغضب تعكس مدى فقدانه للأمل، واستسلمت دموعه للانسياب على وجنتيه كأنها قيد خارج عن إرادته. وأتى صوت رائد حاسماً، مفعماًبمعاني الوحدة والعزيمة:

"سترى كيف سأُعيدها إليّ، يا قاسم. سلام ستكون لي وحدي، وستكتشف قريباً كم أن الكلمات بلا معنى عندما تنسى أوجاعها."

أنهى جملته بنبرة متقدة، ونهض بغضب بالغ، وكأن العالم من حوله قد فقد توازنه، متوجهاً إلى غرفته حيث الأفكار السوداء تدور برأسه، تضرب ضفاف قلبه. كل صورة لها، وكل لحظةٍ تعاوره، كانت تلتحم بسلاسل من الذكريات تشده إلى الماضي، فتحول الأرض تحت أقدامه إلى رماد.

تنهد قاسم بعمق، محاولاً استعادة السيطرة على مشاعره، مُستنداً برأسه للوراء وكأنما كان يحاول إيقاف تدفق الأفكار العاجزة عن الهروب من ذهنه. أغمض عينيه مغموراً في ظلام تلك اللحظة، آملاً أن لا يتهور أخيه ويفعل شيئاً قد يندم عليه في وقت لاحق.

"لا تدع الغضب يقودك، يا رائد"

تمتم لنفسه، وقد خشي من تصرفات قد تندم عائلته عليها. كان يعرف أن الألم الذي يعتصر قلب رائد لا يمكن أن يُحتمل، لكنه كان يود لو يعلم أنه لا توجد خيوط سحرية يمكن أن تعيد الأمور إلى ما كانت عليه.

وفي أعماق نفسه، أعرب قاسم عن أمله الخافت في استعادة الإخاء بينهما، وأن يتمكن رائد يوماً ما من رؤية أن القلوب ليست مما يمكن استعادته، بل هي لغة تستحق أن تعاش بكامل أبعادها، أبعاد مُسيطرة على الحاضر والمستقبل.

في ذلك المنزل الواسع، جلست مها مع والديها، تتأمل في هاتفها بقلق، كأن كل دقيقة تمر تعكس فصولاً من القلق المتراكم. كانت محاولاتها المتكررة للاتصال به تبوء بالفشل، إذ كان هاتفه مغلقاً، مما جعل نبضات قلبها تتسارع وخلت من الطمأنينة. تدور حول أفكارها قافلة من الخوف تجوب في أعماقها، والقلق يتزايد حول حالته. شعرت بهالة من التوتر تحيط بها، وحركت قدميها بتوتر، منتظرة بشغف الاتصال الذي قد يبعث الأمل في صدرها.

فجأةً، انفجر صوت رنين هاتفها، كأنه كوبٌ يتناثر في صمت الليل، مما جعلها تنتفض من مكانها وتنطلق إلى غرفتها على عجل. أغلقت الباب خلفها، وبخفقان قلبٍ عالٍ، أجابت الهاتف بلهفة:

"حبيبي، كيف حالك؟"

أتى صوت مهند الرجولي كالسحر، يحمل نبرة مريحة:

"بخير، كيف حالكِ أنتِ؟"

"أنا بخير"، ردت برخاء صوتها، بيد أن القلق لم يفارق نبرتها.

"لماذا أغلقت هاتفك؟ لقد قلقت عليك."

تردد صوته، كأنه يبحث عن الكلمات المناسبة، قبل أن يهمهم:

"لم يكن هناك تغطية، عزيزتي."

"حسناً، أين أنت الآن؟"

سألت مها بحذر، وهي تتخيل مكان وجوده.

"أنا عند صديقي."

كان صوته يحمل نوعاً من الغموض.

فرحت بحديثه، فبادرت بقولها:

"لقد اشتقت إليك، أريد أن أراك."

"سنلتقي في مكاننا المعتاد بعد ساعة، اتفقنا؟"

جاء رده كأنما يحمل وعوداً جديدة.

ابتسمت بفرح عارم، قائلة:

"اتفقنا، حبيبي."

ثم أضاف بتردد ملحوظ:

"بالمناسبة، ما رأيكِ أن تجلبي ريمة معكِ؟ أريد أن أحدثها، فقد شعرت منذ يوم عيد الميلاد بأنها لا تطيق الحديث معي."

تعجّبت مها من طلبه، فعقدت حاجبيها بتعجب، وتساءلت:

"حسناً، لكن ريمة لم تتحدث عنك أبداً، ولم تعلق عليك بأي كلمة، فما الذي جعلك تشعر بهذا؟"

رد باقتضاب:

"لا شيء، لقد شعرت بذلك، فقط اجلبِيها معك. نلتقي بعد ساعة، حسناً؟ إلى اللقاء، عزيزتي."

قُطع الخط بسرعة، تاركاً إياها في حالة من الدهشة. انتابها شعور غريب من الاستغراب حول سببه في إنهاء المكالمة بشكلٍ مفاجئ. أطلقت تنهداً عميقاً، وعزمت على التوجه إلى غرفة أختها.

عندما دخلت الغرفة، وجدت ريمة تقلب بهاتفها باستهزاء، ترقب أي إشعار يشتت لحظات الملل. اقتربت مها منها وجلست بجوارها، تقول:

"هل تذهبين معي؟"

نظرت ريمة إليها، نفخت خديها واستفسرت بحذر:

"إلى أين هذه المرة؟"

"أريد أن أرى مهند، وقد طلب مني أن تأتي معي. هل تريدين الذهاب؟"

استجابت ريمة بحماس مفاجئ، قائلة:

"حقاً؟ حسناً، سآتي!"

عقدت مها حاجبيها في دهشة من تلك السعادة المفرطة على وجه أختها، فضغط قلبها بشيء من القلق:

"ما بكِ سعيدةً جداً هكذا؟ ألست في المرة السابقة كنت لا ترغبين في الذهاب؟"

شعرت ريمة بتوتر مفاجئ، لكنها اجتهدت لتخفيه، تبتسم ببعض التردد:

"أجل، لكن أجواء عيد الميلاد كانت ممتعة، أحببت الموسيقى، لذلك أريد الذهاب."

"لكننا سنذهب هذه المرة إلى المقهى، وليس إلى حفلة عيد الميلاد."

أجابت مها برفع حاجبها.

حاولت ريمة استعادة توازنها، ففركت أصابعها بتوتر:

"مم، حسناً، إذا لم يكن هناك حفلة، فلا داعي للذهاب، ظننت أنك تعزمين على شيء ممتع. اذهبي بمفردك."

تأملتها مها بقلق، لكن تلك الأفكار السلبية تلاشت سريعاً من ذهنها:

"لا، لا، هيا، انهضي وبدّلي ملابسك، يجب أن نذهب معاً! لا تتأخري، سأذهب لأبدل ملابسي الآن"

أطلقت الأخت كلماتها بحماس، فاستجابت لها ريمة بشكلٍ آلي، معلنةً بداية يوم غير عادي.

بينما كانت مها تتوجه إلى غرفتها، تنفست الصعداء برهة، مشاعر مفعمة بالارتياح انبعثت في قلبها. لم تشك أختها في أمرها، وهذا منحها لحظة من الأمان، لكنها كانت تُعاتب نفسها في صمت، تلعن أفكارها غير الموجهة التي تقودها إلى تلك الهاوية. لم تفهم السبب وراء هذا الشغف المحرق لرؤية شخص قد يغير كل جوانب حياتها.

"لماذا أتعامل مع كل هذا الجنون؟"

تساءلت في عتمة أفكارها. لكن بمجرد أن تخيلت عينيه، تأججت بداخلها مشاعر مختلطة بين التوق والحنين. لقد كانت تلك العيون تعكس عالماً لم تُسبر أغواره بعد، وأرادت بشغف أن تكون جزءاً منه.

تنهدت بعمق، فشعرت بشيء يشبه التحول في روحها. ابتسمت ابتسامة دافئة، مثل بزوغ الفجر بعد ليلٍ طويل. قفزت من مكانها، وبدّلت ملابسها بسرعة وشغف، وكأن كل قطعة قماش كانت ترسم رمزاً للانتظارات المحمومة والتجارب الجديدة.

كل تفصيلة كانت تخبرها بأنها تقترب من لحظةٍ مضيئة، لحظة ستحمل معها كل الأحلام التي تمنت أن تحققها، كانت مشاعرها تتراقص بفرح داخلها، عازمةً على مواجهة ذلك الشغف بكل عفويتها.

انتهت من تغيير ملابسها، ونظرت إلى المرآة. كانت ملامحها تعكس حماس ملتهب، وقلبها النابض ينسجم مع نغمة الحياة المحتملة. أدركت أنها ليست فقط تتهيأ لمقابلة شخص؛ بل كانت تستعد لبدء فصل جديد من رواية مشاعر غامضة.

في تلك الغرفة الواسعة التي تكتنفها ظلال الهموم، كانت حياة تجلس على طاولة الدراسة، تتنقل بين صفحات الكتب، غير قادرة على التركيز. رغم محاولاتها المستمرة لمذاكرة الدروس استعداداً لامتحانات السنة، كان البرد الذي يحيط بها من الداخل، يتسلل إلى عظامها ويدفعها إلى التفكير في معنى العقاب. لقد مر أربعة أيام منذ ذلك الحفل، والقلق قد تملكها، خاصة بعد أن توعد بعقابها، لكنه لم يحدثها منذ ذلك الحين، ولا حتى بإشارة.

كانت تشعر بقلبها يرتجف، إذ أدركت أن وجودها في تلك العلاقة جعلها حساسة تجاه كل تصرف منه. فجأة، سمعت صوت خطوات قادمة من الخارج، وبهذا علمت أنه قد عاد من عمله. انتفضت في مكانها، وبعزمٍ لا مثيل له، قررت أنها سترتكب الخطوة التي كانت تتجنبها. كان لديها رغبة ملحة في مواجهة ما تخاف منه، ورغبة في إنهاء هذا الهم الذي يثقل كاهلها.

أخذت نفساً عميقاً، ثم طرقت باب غرفته عدة طرقات، بينما قلبها يقرع كطبلٍ. جاء صوتُه من الداخل، مرخياً لها بالدخول، فخطت خطواتها نحو الداخل، رأسها مطرق. لكن ما إن دخلت، انقلب شعورها إلى ذهول. كانت عينيه الحادتين تراقبانها باهتمام، ابتسم بسخرية عند رؤية توترها، مستديراً بجذعه نحوها، وهو عارٍ من الاعلى. ارتسم الخجل على وجهها، وأشعلها شعور من الانتكاس، وكأنها وضعت نفسها في موقفٍ محرج.

أحست بوجهها يحترق، ولعنت نفسها لتجرؤها على زيارة غرفته. اقترب منها بخطوات هادئة وكأن الموقف هو لعبة، ولحظت أن قلبها يشتعل خوفاً. حاولت الهروب، لكن يده منعتها، لتجد نفسها بين ذراعيه، ارتطمت بصدره العاري، مما جعلها تتمنى أن تنشق الأرض تحتها.

ابتسم ممازحاً:

"ماذا تريدين؟"

ابتلعت ريقها بتوتر، وشعرت بأن الكلمات الثقيلة عالقة في حلقها:

"لا أريد شيئاً، سأخرج حالاً. أعتذر."

نظر لها بعينيه العميقتين، وصوته هادئ كهدير البحر:

"لماذا أتيتِ إلى هنا؟"

"لقد نسيت لماذا أتيت، سأخرج. أرجوك اتركني."

كان صوتها خافتاً.

ظل على برودته قائلاً:

"للمرة الأخيرة أسألك، ماذا تريدين؟"

تحدثت بارتباك:

"صدقني، لقد نسيت."

ابتسم بنوع من السخرية:

"تريدين أن تعرفي ماذا سيكون عقابك، أليس كذلك؟"

نظرت إليه بتوتر، لم تجرؤ على الرد، لكنها حركت رأسها بتأكيد. أزاح يده عنها، تقدم خطوات عدة داخل الغرفة قبل أن يتحدث بصوت مميز:

"حسناً، حياة. أعلم أنني انشغلت عنك في الأيام القليلة الماضية حتى أنني نسيت أمر العقاب... لكنني الآن تذكرت."

صمت للحظة، عينيه تتعقبان مشاعرها، ليردف قائلاً:

"هل تريدين فعلاً أن تعرفين ماهو عقابكِ؟"

حركت رأسها موافقة، رافعةً نظرها إليه، بل تجرأت وواجهته بالنظر.

"أنتِ جريئة، تأتين إلي بنفسكِ كي تتلقين عقابكِ، ولكن هل تعرفين ما الذي تضعين نفسك في مواجهته؟"

كان لديه تلك النبرة التي تمزج بين المرح والخطورة.

"ليست جراءة، بل أردت أن أتجاوز هذا الهم"

رددت بتوتر.

"لأن بالكِ مشغول وترغبين في الانتهاء من هذا العقاب، أليس كذلك؟"

حركت رأسها بتأكيد، تكاد تقسم أنه يشعر بخفقان قلبها، ليظل هو مبتسماً بسخرية وارتياح، متسائلاً:

"حسناً، سأخبرك بما سيكون عقابك، وعليكِ أن تنفذي ما سأطلبه."

حركت رأسها بإيماءة مترددة، وقلبها يقرع كالطبول في صدرها، ثم تجمدت مكانها عندما باغتها بطلبه الذي انتزع أنفاسها:

"تَزوجيني."

أُلجمت الصدمة، وكأن كلماتِه كانت سهماً اخترق أعماقها. لسانها انعقد عن الكلام، وصرخات أفكارها تضرب جدران عقلها، بينما أقسمت في سرّها أن هذا هو أسوأ عقاب يمكن أن تُكافَأ به. لم تتوقع على الإطلاق، أن يُفاجئها بهذا الطلب الجريء، فجاءت مشاعرها كعاصفة متمردة؛ هل تفرح أم تحزن؟ تتخبط في بحار من الارتباك، ولا تعرف أي الدروب تسلك.

ابتلعت ريقها بصعوبة، ثم خرجت من شفتيها الكلمات المليئة بالدهشة:

"ماذا؟"

أجابها ببرودٍ مستفز، مُشدِّداً على كل حرف وكأنما يرسّخ قضيته:

"تَزوجيني الآن وحالاً."

انفجرت تلك العواطف المكظومة بداخلها، لتتحدث بصراخ مُشتعل:

"أجننت أنت؟"

في تلك اللحظة، هبطت صفعة مدوية على وجنتها، فلا مشاعر ولا أفكار يمكن أن تُعبر عما شعرت به. هوت على الأرض باهتة، بينما نظراته ترمقها بشراسة، وعيناها تفيض بالدموع التي تهبط كالمطر. ظلّت ملقاة هناك، عاجزة عن الحركة، حتى اقترب منها، مُمسكاً بمعصمها، وأوقفها أمامه ليحدثها بنبرة تتصف بالحزم:

"هل تعلمين ما الذي مررت به، يا لعينة؟ يوم ظننت أنني سأفقدك، شعرت وكأن لعنة ثقيلة تلاشت حولي، وكأن الجحيم قد اجتاح قلبي. تخيلتُكِ تائهةً أو أن أحدًا تجرأ على إيذائك، وكان الأمر يعتصرني من الداخل."

اقترب منها أكثر، صوته ينساب همساً مفعماً بالشجن:

"أعتقد أنكِ لا تدركين."

هطلت دموعها، وكأنها تعكس حزن قلبها، ليعود ويعبر لها بحدة مشحونة بالغضب:

"لقد عشتُ جحيماً حقيقياً، يا غبية. أسود عالمي بالكامل حينها، وتوقف الدم في عروقي كما لو أن الحياة قد غادرتني."

صمت قليلاً يراقب حالتها ثم أردف:

"أعتقدُ بأنني تساهلت معكِ كثيراً، يا حياة."

تجمدت في مكانها، لم تُعقب بكلمة واحدة، بل بقيت صامتة، تراقبه بصدمة، ودموعها تتراقص على وجنتيها. اقترب منها، وتحولت الفضاءات إلى قيد يجمع بينهما، وتحدث بشيء من التهديد:

"سيكون عقابكِ كالتالي."

دفعها بخفة نحو الحائط، مُحاصراً إياها بزاويته، ونظرة الرغبة تغلي في عينيه كاللهب. نظرت له بخوف وهي تهمس:

"أرجوك..."

اقترب منها، وبدأت المسافات تتلاشى، ولم يبقَ بينهما سوى بضعة إنشات. لم يُلقِ بالاً لتوسلاتها، بل اقترب أكثر ليطبع قبلة على رقبتها وهو يهمس باسمها كالمجنون. كان يلتصق بها، وهي تكاد تموت من الخوف، عاجزة عن الهروب من قبله الدافئة التي تلامس عناقيد مشاعرها المنكسرة.

تقرب منها أكثر، ليبدأ بحفلة من قبلاته التي تتسلل بحذر إلى جميع أنحاء وجهها، ينزل مجدداً إلى عنقها، يستمر بإرسال قبلات متتالية. كان همس بإسمها، في عالمه الخاص، وكأنه قد وجد ملاذه المفقود.

ابتعد قليلًا ليعانق عينيها، وهنا همس بكلماتٍ شبه هامسة:

"هل سبق أن أخبرتكِ بأنكِ تختصرين جميع النساء في عيني؟"

ظلّت صامتة، مغلقة عينيها وكأنها تبحث عن مخرج من هذا الكابوس، بينما هو يُكمل همسات المرض والكلمات المسمومة:

"أنتِ تفوقين خيالي."

مدت يده لتُمزق جزءاً من ثوبها، وتطلّ على بشرتها البيضاء، ابتسم بمكر ثم أكدها بسؤال:

"أيعجبكِ هذا العقاب؟"

تجرأت على الرد بنبرة حادة:

"سأموت، ولن أكون لك."

لكن العقاب جاء على شكل صفعة أخرى هبطت على وجنتها، لتُجهش بالبكاء، كأنها انتقلت من حالة الصدمة إلى حالة الانتفاضة. نظر إليها مخاطباً بشراسة:

"ستكونين لي، يا حياة."

أبعد يده عنها واستدار، فتحررت من قبضة أفكارها العاجزة. سمع صداها الخافت، الضعيف، يتسلل إلى مسامعه:

"أرجوك، لاتجبرني على ذلك."

استدار لينظر إليها بسخرية، وتلك الابتسامة كانت تحمل الكثير من القسوة:

"ستصبحين زوجتي."

احتدت عواطف بكائها، وانحنت برأسها إلى الأرض في استسلام. نظر إليها، وإلى جسدها المنهك، ولم يستطع إلا أن يبتلع ريقه، مُحاولاً جاهداً

احتد بكاءها، وأدارت رأسها بتلك الخفة التي تعكس الضعف والاستسلام، كأنما خارت قواها تحت وطأة الأحداث المذهلة التي تمر بها. نظر إليها إياد بعينين مليئتين بالعواطف المتضاربة، متأملاً جسدها الصغير الذي يبدو وكأنه قد تآكل بفعل المصاعب. كان عليه أن يقاوم الرغبة في احتضانها وحمايتها، فحاول جاهداً أن يتمسك بروح السيطرة على مشاعره، عازماً على عدم فعل شيء قد يندم عليه لاحقاً أو يجعلها تشعر بالضعف.

زفر بقوة، وكلمات الغضب تتطاير من شفتيه كشررٍ من النار، حين أطلق بها صوته الحاد:

"ستبقين في هذه الغرفة حتى أعود، هل فهمتِ؟"

ردت همساً مع دموعها التي تلامس صوتها:

"أرجوك..."

لكن حاجز الحزن الذي غلف قلبها لم يكن ليحرك مشاعره، فقد استدارت عينيه نحو قميصه. أمسكه بيديه وارتداه بسرعة، مغلقاً أزراره بتسلسلٍ مدروس. كانت تلك الحركات تعبر عن قرارات ثقيلة تعتمل في صدره.

ثم، بصمتٍ مشحون بالغضب والإصرار، خرج من الغرفة وأغلق الباب خلفه بحدة زلزلت جدران المكان. شعرت حياة وكأن القبضات تضغط على قلبها، جعلت كل ذلك الخوف يتصاعد داخلها، ويرتفع مع كل ثانية.

هوت إلى الأرض، تنزل بجسدها كأنما تسقط في عتمة بلا قرار. منحت دموعها العنان لتنساب بحرقةٍ ومرارة، وكأن كل طرف من جوانحها كان ينزف. أدركت في تلك اللحظة المرعبة أنها، منذ الآن، ستتحول حياتها إلى جحيمٍ لا يرحم، ولتستبدل الأمل بشعور قاتم لم يكن سهلاً كما كانت تعتقد.

امتلأت الغرفة بصدى أنينها، وأصبحت الوحشة رفيقة دربها. كانت تلك اللحظة رمزية، ترسم في خيالها واقعاً جديداً، عالماً من الظلال والألم، يستحيل فيه الفكاك. في ذلك الحيز الضيق، حيث الصخور تتكسر تحت ثقل اليوم، كانت تتساءل: كيف يمكن للروح أن تتحمل كل هذا؟

في أروقة مقهى صغير، حيث كانت أشعة الشمس تغمر المكان بلطف، يجلس مهند برفقة مها وريمة، تتداخل أصوات الضحكات وكلمات الأحاديث في مشهدٍ مفعم بالحياة. أمّا عينا مهند، فلم تفارقا ريمة، فقد كان يتأملها بتلك البسمة النابعة من القلب، وكأنها سرّ الكون الذي رافقه في جميع تفاصيل يومه.

كانت ريمة تشعر بشعور غريب ينازعها؛ فكلما نظر إليها، انتابها خليط من الخجل والسعادة. بينما كانت مها، تجلس كالمراقب، تراقب كل لمحة ولَفتة بين شقيقته وصديقها، بدأ الشك يتسلل إلى قلبها، وتتمنى في سرّها ألا تكون تخيلات ذهنها صحيحة، فهذه الفتاة ليست كأي فتاة.

أرادت أن تلهي نفسها، فتنهدت بقوة، ووجهت نظرها إلى كوب القهوة البخاري الذي أمامها. أخذت ترشف منه ببطء، تراقب حديث مهند، الذي جاء واضحاً وصريحاً في طلبه:

"ريمة، ما بكِ في ذلك اليوم؟ شعرت بأنك لم تتقبليني، هل هذا صحيح؟"

ابتسمت ريمة بوضوح، وردّت بنبرة مريحة:

"لا، على العكس! لقد أعجبني أسلوبك وطريقة كلامك، ولم أفهم لما شعرت بذلك."

بادلها مهند الابتسامة، وبدت نظراته تتسم بالود:

"لا أعلم، لكنني شعرت بذلك. لهذا طلبت من مها أن تجلبكِ لأتأكد."

همهمت برأسها، باقيةً بحذر في مكانها دون أن تنطق بشيء؛ بينما مها كانت تتابع ما يجري بينهما في صمتٍ عاصف، غير قادرة على إخفاء عدم ارتياحها. استمر الحوار بنسقٍ جميل، وأصبحا في غفلة من الزمن يتجاذبان الحديث، حتى تبادلا أرقام هواتفهما أمام عيني مها التي حاولت أن تظنّ أنها غير مهتمة بما يحدث.

لكنها لم تحتمل أكثر من ذلك. وبحركة مرتجلة، ضغطت على هاتفها ودستّه في وضع الرنين المعتاد، لتوهمهما بأن هاتفها قد رنّ. تخلل صوت الرنين المكان الذي غلفه السكون، ثم تبعته كلماتها:

"أهلاً أمي."

صمتت قليلاً، وكأنها تستحضر كلمات مناسبة، ثم تابعت:

"أجل، أمي. نحن في المقهى... حسناً، لن نتأخر... حسناً، سنأتي حالاً... وداعاً."

ضغطت على زر إغلاق الهاتف، وقررت أن تُظهر القليل من الخشونة في وجهها فيما قالت بجمود:

"هيا، ريمة، والدتكِ تريد أن نعود الآن إلى المنزل."

عبست ريمة في وجهها، مُنفجرةً بالغضب:

"اللعنة، ما بالها؟"

لكن مها نظرت إليها ببرود، ثم نهضت وصرحت:

"هيا."

لم تنتظر ردّها، ولم تعر أي انتباه لمهند، بل خرجت بخطوات سريعة من المقهى، وكأن عباءة الغضب قد غلفتها.

نظر مهند إلى الباب الذي أغلق خلفها، صوت قلقه يخرج من بين شفتيه:

"ألن أراكِ مرة أخرى؟"

ابتسمت ريمة، لكن التوتر خطّ على ملامحها بعيداً عن عينيه، همست بصوت خافت:

"لا أعلم."

لوّح لها مهند بابتسامة مشرقة:

"هيا، سأوصلكما."

حركت ريمة رأسها بإيماءة مَعَبرة، وخرجت برفقته إلى الهواء الخارجي، لتجد مها تنتظرها بشغف مألوف. تحدث مهند برفق:

"هيا، مها، سأوصلكما."

وبحنكةٍ بارعة، أجابت مها بجمود:

"لا داعي، شكراً لك، سنأخذ سيارة أجرة."

لكن مهند، عازماً على تصحيح الأمر، أصرّ:

"لا، لا، هيا، سأوصلكما أنا."

وهناك، تحت عيون الزمن المتربعة فوق الرؤوس، تكثف التوتر في الهواء، كأنما كان يتمتم بين اللحظات، كلٌ يحمل ألغاز قلبه وكلماته.

تمسكت ريمة بالصمت، إذ لم تكن تريد الدخول في جدلٍ عابر. نفخت خديها بقوة، منبعثة من كل ما يعصف بقلبها من مشاعر متضاربة، وتوجهت نحو سيارته لتجلس بجانبه كعادتها في الأيام القليلة الماضية، بينما صعدت مها ببطء إلى مقعدها في الخلف. لم يكد يمر وقتٌ طويل قبل أن تُركن السيارة أمام منزلهما، حيث قادهم ذلك المشهد الاعتيادي إلى ذكرياتٍ مختلطة. شكرته مها ببرودٍ لم يكن له مثيل، ونزلت من السيارة وكأنها تتهرب من نظراته، تاركةً إياه في حالةٍ من الفجوة الحادة بينهما.

ريمة التي لازالت تجلس في الخلف، حاولت التخفيف من وطأة الموقف، وتحدثت معه بصوتٍ منخفض عن موعدٍ جديدٍ بناءً على طلبه، كأنهما يناقشان إجراءً إدارياً روتينياً، في حين كانت يعتصر قلب مها الغيظ. ودعت ريمة مهند دون أن تسترق نظرة إلى عينيه، وعادت إلى منزلها وكأنها تغلف روحها بحجابٍ من الكبرياء.

دخلت ريمة منزلها، مُحاطةً بدفء أجواء العائلة، وجدت والدتها جالسة في صالة المنزل، ترسم على وجهها ملامح الدهشة والفزع لدى رؤية ابنتها.

"أمي، ما بالكِ طلبتي مني أنا وأختي بأن نأتي؟ لقد كنا جالسين مع أصدقائنا في الخارج!"

همست عبارات الغضب بوضوح في صوت ريمة، وكأنها تشكو من قيدٍ ظالم.

ردت الأم ببسمتها المعهودة، ولكن بتعجب:

"ولكنني لم أطلب منكما المجيء، بأي شكل من الأشكال."

حدقت ريمة في عيني والدتها، مندهشةً، لتقول:

"أمي... تعنين أنك لم تهاتفين مها أبداً؟"

رفعت الأم حاجبيها، وجلس الشك يتسلل إلى قلبها:

"لا، لم أحدثها أبداً."

همست ريمة لنفسها بعباراتٍ من الإحباط، توجهت سريعاً إلى غرفتها تاركةً والدتها في حالة من التوتر.

في غرفتها المظلمة، تغوص أفكار ريمة في بحرٍ عميق من القلق، قلق من أن أختها قد سمعت شيئاً لا يجب أن تسمعه. لكن صوت رنين الهاتف أتى كعيدٍ مبهج، شاشته تتلألأ برقمٍ مألوف. أجابته بسرعة، وكأنها تحتضن شيئاً مبهجاً في روحها:

"أهلاً."

من الطرف الآخر، جاء صوت مهند بلمسةٍ من السحر:

"كيف حالكِ أيتها الجميلة؟"

ابتسمت ريمة، وتدفق اللون إلى خديها، كأشعة شمسٍ تتسلل عبر نوافذ الطفولة البعيدة:

"بخير."

انطلق الحديث بينهما، وتحولت الكلمات إلى أجنحة تحلق بهما في سماء الرغبات، وزرعا زهوراً من الضحكات في طرقات قلوبهم. كان كلاهما ينسجان خيوطاً من الحب والأمل، بينما كانت مها في غرفتها، كغيمة تخفت في عاصفةٍ عاتية.

وعندما أُغلِق الهاتف، تهاوت ريمة على السرير، تتنهد عميقاً، تأمل اللحظة الفارغة التي ازدادت بها حرقة الفراق. لكن سرعان ما دخلت مها الغرفة، بمظهرٍ يحمل غضباً مملوءاً بالأسئلة.

"هل يوجد شيء بينكِ وبين مهند؟"

نطقت مها ببرودٍ غريب، كأنها مُحاطة بسحبٍ من الشك.

ابتلعت ريمة ريقها، شعور جلي بالتوتر يلف كيانها:

"ما الذي تقولينه، مها؟ أنا ل..."

لكن، قاطعتها مها، موجهةً إليها نظرةً محملة بالدلالة:

"لا تكذبين عليّ، كل شيء واضح... وصدقيني، لن أحزن فقط قولي لي الصدق."

انتشر صمتٌ ثقيل في الغرفة، كهالة من الجليد، وتجمدت الدقائق في انتظار الجواب الذي قد يحسم مصير علاقتهما الأخوية، والتي باتت الآن على شفا الانهيار.

جفلت ريمة لحظة استشعرت توتراً غير مبرر يتسلل إلى أعماقها، ثم تنفست بعمق، فجمعت شجاعتها لتقول:

"صدقيني، لا يوجد شيء بيننا."

كأن كلماتها كانت درعاً يحميها من عاصفة الشك التي كانت تتأرجح حولها، لكن قلبها لم يكن مطمئناً تماماً.

عندما انطلقت جملتها، لم تكن تعلم لماذا شعرت بارتياحٍ غامض يتسلل إلى قلبها، وكأن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهلها بمجرد نطق تلك الكلمات. اقتربت مها منها وبصوتٍ مبحوح همست:

"حسناً."

كان لهذا الصوت دويّ خاص، إذ جاءت كأنها تصارع لتقبل الحقيقة التي لم تُقال.

مع انتهاء كلمتها، انزلقت مها إلى الفضاء الخارجي وغابت عن الأنظار بعد أن أغلقت الباب خلفها بصوتٍ خافت، كهمسة شبح تعبر في ممرات الغرفة. زفرت ريمة زفرة ارتياح، وكأنها قد وضعت كل الأثقال على عاتقها، لكن سرعان ما اجتاحت مشاعر الذنب روحها كأنها عاصفة تجتاح شاطئاً هادئاً. تجولت أفكارها في مضمار الذكريات، ولامت نفسها على كتمانهما أسرار قلبها، في حين تذكرت نظراته – تلك العينين العميقتين اللتين تحملان سراراً قد يتفجر في أي لحظة.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على ثغرها، كأنها تزرع بذور السعادة في حديقة روحها، تنفست الصعداء وكأنها قد فرغت من مواجهة حماقات الدنيا. تراجعت إلى سريرها، حيث سقطت بجسدها المنهك عليه، تأمل السقف بيأسٍ بالي واهتمام عابر، تتنقل بين أفكارها كما يتنقل الطائر في أرجاء السماء.

ثلاثتهم، مها وريما ومهند، كان لكل منهم عالمه الخاص، يغني أغنيته في عزلةٍ فريدة من نوعها. رأته سلوى وأماناً، بينما كانت أختها تجوب في زويا الشك والضيق. أما مهند، فكان كفارسٍ ضائع يبحث عن كنوز الحب والصداقة، عابراً في بحرٍ من الأسئلة التي تتلبد في ذهنه.

تأمل ريمة تلك الدائرة المُعقدة التي تجمعهم جميعاً، حيث يلتقي الشغف بالخوف، وتتشابك الأقدار في رقصة رشيقة فوق السطح، حيث لكلٍ منهم أغنية تحكي قصة خاصة بها، تتدفق مع المعاني والمشاعر. وبدأت تندمج في خيوط الحلم، عازفة لحناً من الأمل، ترسم خريطة جديدة لمستقبل قد يتشكل في انتظارهم.

كانت سلام جالسة في ركن غرفتها البارد، كعصفورٍ أسير لا يجرؤ على رفع جناحيه، صامتةً كتمثالٍ من الشمع، لا تُبدي أي حركة أو رد فعل، حتى جاء صوت الباب الذي انفتح بمشاعر مختلطة. نظرت إلى الداخل لتكتشف ينال، ذاك الرفيق الذي لم يفارقها منذ بدء محنتها، ومعه رجلٌ في أوائل الأربعينات، يحمل الأمل في عينيه، ويضم في جعبته حكمةَ طبيب.

أخذت عيناها تتفحصان ملامح الرجل الذي اقترب منها، بينما وقف ينال بجانبه. ابتسم الطبيب لها ابتسامةٍ خفيفة، لكنها كانت تمتلئ باللطف:

"كيف حالكِ يا سلام؟"

تجمدت ملامحها وأحسّت بوطأة الغصة في حلقها، وحركة رأسها التي كانت قد اجتازت معها حدود الموافقة كانت أشبه بغمزةٍ في عتمةٍ حالكة. نظر الطبيب إلى صمتها بقلق، وسألها:

"لماذا لا تجيبين؟"

حركت رأسها رافضةً كأنما تحاول أن تثبت له أنه لا مجال للكلمات في تلك اللحظات المظلمة. تنهد الطبيب بقوة، فاستقبله صوت الجدران بنبرةٍ عميقة، ثم التفت إلى ينال:

"سيد ينال، أرجوك اتركنا قليلاً، كي أتمكن من معرفة حالتها."

حرك ينال رأسه بحزنٍ عميق، معلناً خيبة أمله، وغادر الغرفة. تنفس الطبيب من جديد، ليقترب منها ويتخذ مكانه بجوارها. لكن سلام ظلت متجمدة كما كانت، لم تبادله الابتسامة التي ينشدها، مما دفعه للحديث برقة:

"لماذا لا تتحدثين، يا سلام؟"

الصمت سيطر على المكان، متكللاً بأشجار الشوق والحزن، واستمر الطبيب:

"أنا أعلم بحالتكِ جيداً، وأعلم لماذا تبتعدين عن الحديث. لكن لماذا أوصلتِ نفسكِ إلى هذه الحالة؟"

نظرت له بعينين تملأهما برك من الأسئلة، ثم نطق الطبيب بجدية:

"اسمعيني، يا سلام. أنتِ الآن في حالة صدمةٍ عصبية، ويتوجب علينا معاً أن نتخطى هذه المرحلة الصعبة. لقد انعقد لسانك، لكن اطمئني، سيعود إليكِ نطقك حين تتحسن نفسيتك، وحين تخرجين نفسك من أجواء الاكتئاب."

بدت إشارات الإيجاب تتخذ مظهراً في حركة رأسها. جاهد الطبيب للخروج من بحر المحادثة المحفوف بالقلق:

"يجب أن تساعديني، يا سلام. هذا المكان ليس لكِ. لا ينبغي أن تتعودي على الاستسلام. كوني قوية وواجهي تحدياتك."

تكور الحزن في عينيها مرة أخرى، فهي كانت تعاني في صمتها العميق، تحمل أثقال الفقد والشوق. أكمل الطبيب بوضوح:

"أعلم أنكِ حزينة على فراق جدتكِ، لكن هذا هو قضاء الله وقدره. هل ستعارضين مشيئة الله، يا سلام؟"

هزت رأسها برفق وتدحرجت دمعاتٌ بريئة على وجهها، فهي لم تكن تفهم تماماً لماذا تتخبط في تلك الشكوك. أكمل الطبيب برقة رافقها حزنٌ عميق:

"لذلك، ينبغي عليكِ أن تتغيري، وأن تستعيدي طاقتكِ وتعودي لحياتكِ الطبيعية. أنتِ الآن في حاجةٍ إلى الاعتماد على نفسكِ، والسيد ينال، خائفٌ جداً عليكِ، لن يتركك."

ارتفعت عينيها إلى عينيه، وكأنها تحاكي الأمل المغمور في أعماقها. وعدها الطبيب بصوتٍ ملؤه الدفء:

"أنا متأكد أنه سيكون بجانبكِ، لكن عليكِ أن تساعديني للعودة إلى نطقكِ. هل اتفقنا؟"

حركت رأسها برقة، وكأنها تعاهد قلبها على الشجاعة. ابتسم الطبيب ابتسامة دافئة، محاولاً إضاءة بقعة من الأمل في عتمة روحها:

"وأمرٌ آخر، يجب عليكِ طاعة أوامر السيد ينال، فهو يريد مصلحتكِ. يمكنكِ الخروج من مشكلتك هذه لتكون جدتكِ راضية، مرتاحةً في مكانها. هل تودين أن تحزن جدتكِ، يا ترى؟"

حركت سلام رأسها برفض واضح، وعلامات الحيرة وعقد الحاجبين ارتسمت على وجهها، مما دفع الطبيب إلى الابتسام بلطف، فبدا له وكأن هذا التعنت هو بمثابة جزء من رحلتها الطويلة نحو التعافي. قال بلهجة ودودة:

"حسناً، إذاً. من الآن فصاعداً، سنتعاون سوياً لكي تكوني في حالة ممتازة وتعودي إلى طبيعتكِ. اتفقنا؟"

ابتسمت له بحذر، وكأنها تشعر بوهج الأمل يتسلل إلى قلبها، وحرّكت رأسها بإيجاب، علامةً على الالتزام بالتحدي. همّ الطبيب بالنهوض، بينما نطق بكلمات الوداع:

"والآن، اسمحي لي، يجب أن أذهب. إلى اللقاء، أراكي لاحقاً."

خرج من الغرفة، لتبقى سلام في مكانها، في ذاك الخلاء الصامت، رسالةً مشجعة تُلقي ضوءاً على عتمة روحها. أدركت في تلك اللحظة أنه على حق، فهي قوية، وستصمد في مواجهة كل ما يأتي، وستتحمل المسؤولية عن خياراتها. كانت تشعر بأنها ستصبح فتاة واعية، تبحث بعناية عن الأشخاص المناسبين في حياتها، لتتجنب الأخطاء التي آلمتها في الماضي.

لكن تلك الثقة التي تجمعت في قلبها تلاشت فجأة عندما جفلت لرؤية ينال واقفاً أمامها، عاقداً ذراعيه بقوة، وكأنما يحاول حماية ما تبقى من تلك الفتاة الضعيفة. نظرت له ببراءة، وقد غمر وجهها ضوءٌ خفيف، فما لبث أن ابتسم لها بدفء مُشع، وردّت عليه بابتسامة خجولة تجعل قلبه يرفرف.

اقترَب ينال منها ليجلس بجوارها، وكأنما كانت تلك الجلسة هي السد المنيع ضد كل ما يعكر صفو يومهم. قال وهو يمزح، بنبرة مرحة:

"لو كنتُ أعلم بأن الطبيب سيجعلكِ تبتسمين لي، لكنتُ جلبته منذ زمن، يا فتاة."

شرّبت ضحكاتها النابعة من أعماق روحها، فغمرت الغرفة بدفء الألفة، ولسرعان ما انطلق ذهنه بعيداً، مأسوراً بتلك الابتسامة الساحرة، التي تجعل قلبه يغني طرباً كلما رآها. كانت ضحكتها لحناً معلقاً في الهواء، يعد بتحطيم جدران الحزن التي لفّت حياتها لفترةٍ طويلة.

قرّب يده إلى يدها، بدفءٍ يشعر به كل من حولهما، وقبلها برفق وبتأني، مُعبراً عن كل المشاعر التي احتواها قلبه. شعرت سلام بنوعٍ من التوتر من تلك اللمسة، لكن قلبها كان يعرف، كأنه يتحدث بصوتٍ خافت، بأن ينال هو الشاب الوحيد الذي لا يمكنه أن يؤذيها أو يجرحها مهما حدث. كان بوسعه أن يكون رمز الأمان في عالمها المتلاطم بالأمواج.

في تلك اللحظة، غمرتها قناعة أخرى بأنها تؤمن بحمايته، وأنها تستطيع أن ترتاح بين ذراعيه في أي وقت. كان يمنحها شعوراً بالفخر والراحة، ويبعد عنها شبح المخاوف التي كانت تتربص بها.

ظل كلاهما جالسين في الغرفة، حيث لم يتبق سوى نور الشمس الخافت، ليعكس صورة من الفرح والحنان. كانت تلك اللحظة بمثابة خيوط تتشابك، تجمع بين قلوبهم كأصدقاء، وكعائلة تحمي بعضها البعض. ومع كل ضحكة ومودة تبادلاها، كانت سلام تستعيد نفسها، مدفوعةً بالأمل، مستعدة لتواجه كل ما يأتي.

كانت حياة جالسةً في غرفتها، على سريره، تضم ركبتيها إلى صدرها، ودموعها تنساب بصمت كالنهر المتدفق في ظلام الليل. كان البكاء يشعرها برغبة عميقة في الانزواء بعيداً عن العالم، غير أن صوت فتح الباب فجأة جعلها تجفل كعصفورٍ خائف.

دخل عليها إياد، ورسمت على ملامح وجهه سمات من الجفاف والصلابة، كأنما كان قد خزن عواطفه في خزائن زمنٍ بعيد. رأى وضعيتها الهشة لكن صوتها لم ينفجر من حنجرتها المكتومة. تحدث ببرود قائل:

"تعالي إليّ."

نهضت على الفور، مفضلةً عدم الاعتراض، فهي لا ترغب في أن سصب عليه سخط مشاعره، وتكفيها مشاهدته المتجلي في غضبه الذي أزهق روح الأمان داخلها منذ بضع ساعات. اقتربت منه، وأخفضت رأسها إلى الأسفل لتسمع أوامره التالية تدوي في سماء الغرفة:

"اذهبي إلى غرفتكِ، غيري ملابسكِ فوراً، وبعد ذلك إلحقي بي إلى الأسفل. ولا أريد أي تعليق. هيا."

حرّكت رأسها بإيجاب، مهرولة نحو القدر المجهول، وخرجت من الغرفة، تاركةً إياد يتأمل الفراغ حوله، عازماً على تنفيذ ما يختلج في صدره من قراراتٍ صارمة. اصطفى نفسه وخرج متوجهاً إلى الطابق السفلي حيث تنتظرهم الأحداث التي ستكون مختلفة لحياتهم إلى الأبد.

في تلك الأثناء، تمكنت حياة بصعوبة من انتزاع نفسها من دوامة الأفكار المثقلة، وهي تتجه بخطوات بطيئة وواهنة نحو خزانتها. تنفست بعمق، وكأنها تجرّ خلفها عبئاً ثقيلاً لا يُحتمل. غيرت ثيابها بسرعة، تائهةً في أفكارها وبالها مشغول بالقادم.

عندما نزلت إلى الأسفل، كانت خطواتها تتجه نحو الصالة، مفعمة بالدهشة إزاء اكتشاف وجود الرجال الذين تجمعوا هناك. تجمدت في مكانها، تتجسس على المشهد، غير قادرةٍ على التعليق، حتى جاء صوت إياد يخترق صمتها ويقول: "اقتربي حياة."

استجابت، لكن برغبةٍ مُختلطة من الخوف وعدم الفهم، اقتربت منه وجلست بجانبه، كأنما كانت تحتضر في عالمٍ مجهول. ابتسم إياد ابتسامة جانبية، تلك الابتسامة التي لم تعد تُحدث في قلبها أي تأثير. نظر إليها وقد أضمر في قلبه شيئاً من الإصرار، وأردف:

"هذا المأزون، وهذان الشهود."

عندما جحظت عيناها في صدمة تعكس حالة من السريالية، لم تدرك ما سيكون عليه النتيجة. كيف سارت الأمور بهذه السرعة؟ كأنها ما زلت أعيش في حلمٍ أو كابوسٍ من صنع يد القدر. ابتلعت ريقها بتوتر، ونظرت له بضعف لا ينفصم، نظراتها تترجى، كأنها تأمل أن تسقط الكلمات من شفتيه، وتعيد الأمور إلى نصابها.

لكنه نهض بها برفقة الحيرة القاتلة، ليجلسا جنباً إلى جنب مع المأزون، كأنهما دُفعا نحو مصير لا يرحم. وحدها الكلمات الطافية من صوت إياد، الذي تحدث موجهاً حديثه للمأزون بدقةٍ ووضوح:

"هيا، ابدأ."

زمن تلك اللحظة يختزن قوة الدراما، كل جملة تأخذ طابعها من الارتباك والتوتر الذي يرسم ملامح الصالة المتوترة. كانت القدرية في صمتهم، والاختيارات تتجلى أمامهم، كأنما تتوجب على حياة أن تتخطى واقعها بشجاعة، وتخوض تجربة أكثر تعقيداً من مجرد زواج، بل مشواراً قد يغير مجرى حياتها.

تنهد المأزون بعمق، كأنه يستجمع القوة لتدشين لحظة مصيرية في حياة الفتاة التي تتأرجح بين السكينة والفوضى. بدأ بعقد قرانهما، صوته يرتفع بالعزف على نغمة قانونية كانت بالنسبة لحياة صوتاً جليدياً يتسلل إلى أعماقها، ليترك أثراً على قلبها المرتجف. لم تمضِ لحظات حتى أطلق المأزون عقبه، قائلاً:

"والآن، أعلنكما زوجاً وزوجة، مبارك لكما."

انزلقت دمعة بريئة على وجنتها، وكأنها لم تدرك سبب تلك العواطف التي جذبت قلبها بين الرغبة في الفرار والخوف من المجهول. لم يكن قلبها ينبض بسرعة فحسب، بل كان مقبوضاً في حين كانت تتخيل مآلات هذا الارتباط. هنا، بجانب إياد، أصبحت ملكاً له، وقدرت أن هذه الخطوة ستقيد حريتها. تمنت لو كانت قادرة على مقاومة الموقف الذي تبدى جلياً؛ لكنها كانت عاجزة عن الفعل.

أما إياد، فعندما سمع تلك العبارة، ارتفع قلبه متهللاً، يمزق قيود الشك والقلق. "أصبحت لي، ولا شيء يستطيع فصلنا الآن."

أقسم في أعماقه أنه سيبذل قصارى جهده ليتحكم بأعصابه، وأن يكون هادئاً ولطيفاً قدر المستطاع، ليعفي حياة من خوفها المتنامي تحت وطأة تلك اللحظة.

لكن سرعان ما تلاشت السعادة من وجوه الحضور الذين غادروا بعد تبادل المباركات. عادت الحياة إلى هدوئها المطبق، ليعود إياد ويجلس بجانب حياة، يشدُّه إليها كخيطٍ من ضوءٍ يتألق بين الظلام. لكن ما إن جلست بجواره حتى تشبثت بفكرة الهروب، نهضت بسرعة فأمسكها من رسغها بحنان وجدية، ونظر إليها بابتسامة جانبها حزن خفي، ثم مرر يده برفق على وجنتها، كأنما يُرشف بسماءه كل مشاعر الأمان التي يستطيع تقديمها لها:

"أصبحتي لي، يا حياة."

كانت تلك الكلمات كالسحر الذي يتغلغل في شغاف قلبها. أذهلها فخامة هذا الارتباط، ومع ذلك، غمرت في مشاعر متضاربة. لم يكن بمقدورها أن تتحرر من هالة الخوف التي تتقد برأسها، لكن كلمات إياد، رغم بساطتها، حملت وعوداً بالثقة والأمان.

تململت الأحاسيس في داخلها، وأخذت تلك الهالة تخفف من وطأتها، كأنما شمساً بدأت تشرق على ظلامها. استدارت لتواجهه، لتجد في عينيه نظرة مختلفة، مفعمة بتحدٍ خجول، كأنها لم تنتمي لعالم الغضب الذي قابلته به من قبل.

كانت حياة تتأمل إياد بعينيها المملوءتين بالخوف والضعف، أحسّت أنها في مأزقٍ خانق، كأنها قد وضعت في زنزانةٍ لا مفر منها. كلما فكرت في قراره وعقابه اللعين، كان قلبها يختلج كأنه يوشك على الموت، فقد أصبحت الآن زوجته، وهذا يعني أنها ستظل مقيدة به إلى الأبد.

تأملها إياد بابتسامة جانبية مرسومة على ثغره، وكان يحاول تجسيد الحب الذي يكنه لها، رغم أنه كان يدرك عمق خوفها وضعفها. أراد أن يثبت لها أنه سيكون درعاً واقياً، لا يتيح لها الندم على خيارها. في أعماقه، كانت لديه نوايا طيبة بأن يجعل منها أجمل أسعد على وجه الأرض.

"أعطني فرصة واحدة فقط، وسأثبت لك أنني أستطيع أن أجعل حياتنا ملونة بالحب والسعادة."

سمع صوتها الخافت الذي يشبه همسات الرياح، جاءته كدعوة للحزن:

"أريد أن أذهب إلى غرفتي."

ابتسم لها ابتسامة عريضة أشبه بشعاع نورٍ يتسلل عبر الظلمات، ليقول:

"لا، عزيزتي، من الآن فصاعداً، ستصبح غرفتنا واحدة. اتفقنا؟"

تسمرت عيناها في ذهول، واختل توازنها. ابتلعت ريقها بصعوبة، وكادت أن تتحدث، لكن صوته استبق لحظتها:

"حبيبتي حياة، ستكون حياتنا جميلة جداً. فقط امنحيني فرصة لأعبر لك عن حبي. سنكون معاً حتى النهاية، ولن نفترق أبداً. صدقيني، أريد أن أسعدكِ مدى الحياة."

تطلعت إليه بحزم، واستشعرت بعض الصدق بين كلماته. في أعماقها، كانت تعارض الفكرة برمتها؛ لا تريده، ولا تريد الحياة معه، لكن حبل الطاعة كان مشدوداً حول عنقها، يجبرها على الاستسلام. تنهدت عميقاً وخرجت الكلمات من بين شفتيها بجمودٍ يأمل التحدي:

"لقد تزوجتني رغماً عني، لكن هذا لا يعني أن تقنع نفسك بأنني سأكون زوجتك. اعتبر هذا الزواج صفقة عمل أو عقاب كما تشاء، فالأمر لا يعنيني. سأفعل كل ما في وسعي للتخلص منك."

صُدم إياد من قسوة كلماتها، التي بدت كالرصاصات التي تنغرس في قلبه. لأول مرة، شهد لؤمها وحدتها في خط التحدي. نظر إليها ببرود وجمود، وفجأة ارتسمت على وجهه سخرية مُرّة وهو يُجيب:

"هل تظنين أنكِ ستتخلصين مني حقاً؟"

ابتسمت بسخرية، مدعومة بإرادتها الصلبة:

"لا أظن، أنا متأكدة."

حرك رأسه بإيجابية، والثبات لا يزال يكسو عينيه، ثم بلل شفتيه قبل أن يأخذ نفساً عميقاً. نظر إليها مجدداً، وانطلقت كلماته كأنها صخرة تسقط في فم ظلام: "ابتعادكِ عني يعني نهاية حياتك. لن تخرجي من هنا إلا على قبرك، هل تفهمين؟"

أجابته بتحدٍ جلي، مع قليلٍ من الحزن الذي حاولت إخفاءه:

"لقد تزوجنا، ولكن لا يعني هذا أن تعتبرني زوجتك فعلاً و..."

قاطعها قبل أن تنهي جملتها:

"ونكون كأي زوجين حقيقين صحيح؟"

توجهت نظراتها نحو الأرض، خجلاً من الاندماج في تلك الفكرة، وتأججت وجنتاها. ترددت قليلاً لكن حركة رأسها جاءت موافقة. أردف إياد متفهماً: "حسناً، لن أقترب منكِ حتى تكوني مستعدة، ولن أجبركِ على شيء، اطمئني."

أضاف بعد تنهدة عميقة:

"اسمعيني جيداً، حياة. في السابق، كنت أريد جسدك فقط، لكن الأمور تغيرت الآن. لقد أصبحت أريد قلبك وعقلك قبل جسدك. لذا، لن أجبرك على أي شيء الآن."

ابتلعت ريقها، وكأن العالم من حولها قد أدار دفته بلا رحمة. شعرت بالجاذبية تسحبها نحو هالة من الغموض والألم، قبل أن يقطع إياد هذا السكون بكلماته:

"والآن، علي الذهاب. لدي عملٌ مهم. أريد أن أراكِ في غرفتي عندما أعود، إلى اللقاء."

أنهى جملته في فراغ عميق، تاركاً إياها وحيدةً، تتخبط وسط عاصفة من مشاعرها القاتمة. تنهدت بقوة، جلست على الأريكة، وفي أعماق ذهنها كان شريط الذكريات يعيد لها تفاصيل الحال الذي وصلت إليه، حالٍ لم تختاره، وإنما جلبه لها هو.

في تلك الأثناء، خرج إياد من المنزل ومنح نفسه دقائق لينسى ما غاب عنه، لكن صوت رنين هاتفه سرعان ما قطع عليه تفكيره. نظر إلى شاشة الهاتف، فرأى اسم "ينال" يتلألأ. أدار محرك السيارة وقادها بالهدوء المطلوب، ثم أجاب:

"ماذا تريد، أيها الغبي؟"

جاءه صوت ينال ضاحكاً من الجهة الأخرى:

"أين أنت، أيها اللعين؟"

تنهد إياد بعمق، محاولاً تخفيف وطأة المشاعر التي تطارده:

"أنا في طريقي إلى الشركة."

همهم ينال بفضول:

"حسناً، لكنني لن أذهب إلى الشركة اليوم."

ابتسم إياد بسخرية، وهو يردد:

"ليس جديداً عليَّ ألا تأتي إلى الشركة، أيها الأحمق. بالمناسبة، ألن تبارك لي؟"

عقد ينال حاجبيه في استغراب:

"مبارك لك، لكن على ماذا؟"

ضحك إياد بتجل، وهو يسرد للصدمة:

"لقد تزوجت."

جحظت عينا ينال، وبصوت مرتفع ألقى بتعجبه:

"كاذب!"

بابتسامة ماكرة، تحدث إياد مجدداً:

"صدقني، لقد تزوجت حياة."

رمش ينال في ذهول، قبل أن يتساءل:

"حياة تلك الفتاة ال..."

قاطعه إياد، مؤكداً:

"أجل، أجل، حياة."

رد ينال بصدمة، وكأن الدنيا قد انقلبت رأساً على عقب:

"ولماذا لم تخبرني؟ اللعنة عليك، أنا آخر من يعلم، أليس كذلك؟"

ابتسم إياد، في ثقةٍ لا تخلو من دلالات السيادة:

"لقد حدث كل شيء بسرعة."

ثم شعر ينال بسعادة وكأنه احتفل مع صديقه:

"مبارك لك، يارجل! ولكن والدتك سناء ستعلق مشنقتك اليوم، لأنك تزوجت دون علمها."

ضحك إياد، وهو يعي تماماً حدة الموقف:

"أجل، أعلم. لذا، لا تفتح فمك اللعين وتتحدث. سآتي لك في المساء وسأخبرها أنا."

تحدث ينال بنبرة مطمئنة:

"حسناً، إذاً نلتقي."

أنهى إياد المكالمة بشكل مفاجئ، مغلقاً الهاتف في وجه صديقه، ولم ينتظر رده. تنهد بعدها بعمق، وترك نظره يتراقص على الطريق أمامه، بينما كانت أفكاره مشغولة فقط بمن أحب، بعد أن تلونت حياته بلون جديد.

غمرته هالة من الحماس والقلق معاً، فكلما تقربت المسافة بينه وبينها، زادت دقات قلبه، كما لو أن القلب يدق لحناً جديداً، لحناً مؤلفاً فقط لهما، هو وحياة. في تلك اللحظة، أصبح كل شيء في العالم تافهاً أمام هذا الحب المكشوف، وكأن الجمال وحده هو من سيسود في هذا المكان المظلم.

مر شهرٌ كامل على الأحداث، شهرٌ اختلطت فيه الأقدار، وتجذرت فيه الأواصر بين إياد وحياة في إطار من العواطف المتلاطمة. كان إياد يسعى بجهدٍ حثيث للاقتراب منها، لكن حياة كانت دوماً تضع حواجز من البرود والحذر، تصده وتمنعه من الاختراق إلى أعماق قلبها. ورغم أن بينهما جدران الشك والرهبة، إلا أنهما كانا يتشاركان نفس الغرفة، وهو ما لم تكن حياة ترضى به، لكنها لم تجد مهرباً من الامتثال لضغوط الأمور.

ظل إياد عند وعده، مُحافظاً على كل ما قاله وكتبته الأقدار عليه. لم يقترب منها جسدياً، عازماً على الانتظار حتى يأتي اليوم الذي تؤمن فيه به، حتى تصدقه فعلاً. كان قد اختار ذلك المسار بدافع حذرٍ شديد؛ فهو لا يريد أن يضيعها من يده، فقد أصبحت حياته مرهونة بمشاعرها. ولكن ما زاد الطين بلة، كان يثقل عليه برود حياتها، وتصرفاتها التي تحمل طابع الاستفزاز؛ كانت تثير جنونه، لكنه كان يحاول جاهداً أن يتمالك أعصابه، كي لا يقع في شَرَكٍ يدمّر كل ما تمناه.

على الجانب الآخر، شهدت سلام تحولاً جذرياً في حياتها. عادت لنطقها، وتحسنت نفسيّتها بشكل لافت، بمساعدة ينال ووالدته. عادت إلى حياتها الطبيعية، إلى الجامعة، وكأنها توقفت لوهلة لتستجمع قواها، ومن ثم عادت عنوة نحو كل ما أحبته. لم تعد تعرف شيئاً عن رائد، ذاك المدعو الذي اختار أن يغيب بحجة رغبته في الابتعاد. بعيداً عن تلك الذكريات المؤلمة، بدأت سلام تتعافى، فقد تعرفت على الحياة من جديد.

لم تنسَ جدتها، ولا أحزانها التي مرت بها، ولكنها احتفظت ببرودة المشاعر وقررت أن تسير مع مشيئة الله، فما قُدِّرَ لها سيكون. حمدت الله على كل ما حدث، وجعلت تجاربها الأليمة تؤسس لتجارب جديدة، وتجارب سعيدة، خاصة بحضور ينال الذي تمنى لها السعادة بكل صدق. كانت ترى حبه لها يُترجم في أفعاله، فكل يوم يعود من عمله ليصحبها من الجامعة، ويقضي معها أوقاتاً مشرقة، يحاول بشتى الطرق أن يدخل البهجة إلى قلبها، كما كان يحرص على إسعادها بدعواته واهتماماته.

وفي خضم تلك الأجواء الإيجابية، ازدهرت صداقة سلام مع حياة. كطفلتين كبرتا على أمل وعزيمة، شعرتا برابطٍ قوي يجمع بينهما يجعلهما صديقتين حميمتين. حياة، التي استقبلت سلام بفرح، عملت على دعمها وتعزيز قوتها، بينما سلام شغفت بحياة ورأت فيها نموذجاً يُحتذى به.

على النقيض من تلك الأجواء، كان رائد يتربص من بعيد، مستشعراً الخسارة تأكل قلبه ببطء. زادت غيرةُ قلبه عندما رآها مع ينال، ذلك الشاب الذي أصبح يمسك بيد سلام بشكل يجعلها تشعر بالأمان. لم يستطع تخيّل مواجهتها، ولم يجرؤ على أن يغامر باقتحام حياتها من جديد. كان عقله مشوشاً بالأفكار، ما بين الرغبة في الاعتذار وبين الخوف من ردة فعلها. عذاب الشك داهمه في كل مرة رآها تضحك مع ينال أو تمشي بجانبه مبتسمة.

كانت ضبابية أفكاره تتضاءل، يتأرجح بين الاستسلام والتخطيط لاستعادة ما فقده. غلت حسرته في قلبه، ولم يستطع أن يتحمل فكرة أن تكون سلام بعيدة عنه، خاصة وأنه كان يشعر بها وكأنها نجمٌ في سماء قلبه، لا يمكن له أن

يغيب. مع ذلك، كلما تذكر قرب ينال منها، كان يتحول إلى ثور هائج، مشاعره تتفجر، لكن ما كان ينقصه هو الخطة التي تعيده من دائرته المظلمة إلى نور سلام.

ريمة ومهند يستمران في علاقةٍ خفية، كأنهما يتحركان في عتمةٍ يكاد الضوء أن يتلاشى فيها. تعلم ريم أنها ترتكب خطأً فادحاً، لكنها وجدت نفسها عالقة في حبٍ عميقٍ لا تستطيع التخلص منه. كلما فكرت في أختها، كان ضميرها يؤنبها بألمٍ مرير، لكنها لم تعد قادرة على ترويض قلبها من قيد هذا الحب. تلك الفتاة القوية، المغرورة المتكبرة، وقعت في شباك حبيب أختها، وكأن مصيرها قد كُتب له وحده.

أما مهند، فإن مشاعره تجاه ريمة كانت بمثابة عاصفةٍ تفوق مائة مرة أحاسيسها. لم يشعر يوماً بالراحة مع مها، التي كانت دائماً فتاة عاقلة وأكثر جدية. بينما ريمة، بشخصيتها النابضة بالحياة، كانت تُقدم له احلاماً لم يكن يعرفها من قبل. تعلّق بها بما لا يوصف، ووجد نفسه في دوامةٍ من الحب لا يستطيع الخروج منها. هو أيضاً أراد الابتعاد عن مها، لكن الكلمات التي تفوته تعجز عن صياغة ما في صدره.

بينما في الجهة الأخرى، كانت مها تشعر بالضياع، لم تعد تريد مهند. لقد اكتشفت كل شيء، لم ترَ بعينيها كل التفاصيل، لكن تصرفاتهما أوضحت لها خيط الحب الذي يربط بينهما. لم تؤلمها قسوة قلبه بقدر ما آلمها أن أختها، التي كانت تثق بها، هي من أغدقت عليها الحنان وأخذتها لتعرفه. رغم أن قلبها ما زال يحمل جزءاً من حبها له، إلا أنها وجدت في نفسها كرامةً أكبر. أسّسَت قراراتها على مبدأ ألا تواصل المسير مع شخصٍ خذلها، وحينما اختار أختها، عاهدت نفسها أن تكون قوية وأن تصمد أمام الألم الذي حل بها.

كانت العلاقة بين مها وريمة متوترة، لكن مها كانت تدير وجهها عنها، تتجاهل أي احتكاك، خائفة من أن تنفجر مشاعرها في وجه أختها.

أما حسان، فكان يُمارس حياته بصورةٍ طبيعية كأنما لا شيء يحدث حوله، مستمراً في علاقته مع سمر. كان يضع خططاً لكيفية إفشال عمل إياد، ولكنه كان دائماً يقع في الفشل، مما جعل الغضب يتراكم في قلبه. وعندما علم بزواج إياد، تسلل شعورٌ من الحقد إلى قلبه، وعادت إليه مشاعر الغيرة المضنية.

سمر، تلك المرأة التي كانت تغار حتى من ظل الفرحة في عيون الآخرين، بدأت تشعر بأن حقدها قد خنقها. لم تعرف لماذا كانت تشعر بهذه السلبية تجاه ابنتها مع إياد، لكن كلما رأت الأمور تتجه نحو الخير، كانت تفقد الأمل. لا تعلم أن إياد، وهو يحمل قلباً مليئاً بالحب، ولا يرغب إلا بحياة، وأن كل مظهر من مظاهر الجمال، لا يعني شيئاً في عينيه.

في خضم كل تلك الأحداث، كان حسن الشاب اللطيف يعيش في عزلته الخاصة. علاقته مع أسرته متبادلة، لكن لم يكن يسأل عنهم سوى نادراً، كأنه يجمع ما تبقى لديه من مشاعر. وفي ضوء الشمس، كان يفكر في محبوبته، التي سلبت عقله وقلبه. وفي خضم تلك الأفكار، تراقصت حوله شظايا من قرار العودة إلى وطنه، لكنه لم يكن متأكداً من كيفية اتخاذ هذا القرار، وآثاره المختلفة. كلما أخذته أفكاره بعيداً، كانت الأزمة تضغط عليه، مختلطة بين حبه القديم ورغبة الاستقرار.

وهكذا، في خضم هذه الشبكة المعقدة من العلاقات والمشاعر المتداخلة، يجتمع الألم والحب، الخيانة والثقة، في مزيجٍ يعكس تناقضات الحياة، تاركةً كل شخصية تتنقل بين السعادة والحزن، وبين الأمل والخيبة.

بينما كانت حياة غارقة في متاهات مذاكرتها، دخل إياد عليها، كما اعتاد أن يفعل. وعندما لمحت وجهه، رمت بكل ما بين يديها على السرير كطفلة صغيرة، ووضعت حاجزاً من الوسادات بينهما، ثم تمددت على بطنها ودفنت وجهها في الوسادة، متمسكة برغبتها في الهروب من الواقع.

ابتسم إياد بتعاطف وهو يراقبها لحظة شغف مفعمة بالأحاسيس، ثم تنفس بعمق وتوجه لتغيير ثيابه. بعد قليل، عاد إليها، يحمل في يده كيساً مليئاً بالمفاجآت، قائلاً بحماس:

"حياة، انظري، لقد جلبت لك شوكولا!"

نظرت إليه بعينين مليئتين بالفضول، ونهضت لتلتقط الكيس لتفتحه وتكتشف ما بداخله، وظهرت قطع الشوكولا التي لطالما أحبتها. عرضت القطع أمام عينيها، وأخذت تحصيها في حماس، ثم نظرت إليه قائلة بثقة:

"في المرة القادمة، اجلب أكثر."

رد إياد، مستنكراً بعض الشيء:

"فقط هذا؟ ألا يوجد كلمة شكر؟"

أجابته ببرودٍ وهي تجمع قطع الشوكولا:

"شكراً."

وضعت الشوكولاتة في الجرار القريب منها، وعادت لتستقر في وضعيتها السابقة. تنهد إياد بقوة، ومن ثم تمدد بجانبها، مخلياً مكان الوسادات، ليقترب منها برفق ويحتضنها بشغف. وعلى الرغم من محاولتها الابتعاد، لم تستطع التخلص من دفء ذراعيه حولها.

تذمرت قائلة:

"لقد اتفقنا على أن لا تقترب مني بهذه الطريقة."

دفن رأسه قرب رقبتها، وهمس في أذنها بصوت هادئ، مشبع بالحنان:

"لا أفعل شيء، فقط احتضنك. دعيني أهنأ بالنوم ولو لليلة واحدة."

صمتت حياة في تلك اللحظة، وشعرت بتلك الألفة التي تقاوم بها كل ما جهدت عليه. اختلطت المشاعر في صدرها، متنازعة بين الخوف والرغبة، وبين الحذر والانجراف نحو الدفء الذي يحيط بها. ظل الصمت ينهي عن كلماته، بينما أيقنت أن تلك الليلة قد تكون مختلفة.

استمرت لحظات الغفوة تتسلل إليهما، أغشتهما بحلمٍ سريٍ من الاطمئنان والألفة. وهكذا، في ذاك المساء الهادي، وكأن الزمن انكسر ليستوعب هذه اللحظة، استوطنت قلبيهما، وكلما غاصت الحياة في صمتها، كانت النار التي تلهب أعماقهم تدفئ محيطاً من الحكايات والأسرار، التي تنتظر أن تُروى في يومٍ آخر.

في اليوم التالي

في منزل سمر، كانت تلك المرأة العائدة من عواصف الحياة تجلس بمفردها، تنفث دخان السجائر بشراهة وكأنها تحاول التهوية عن أفكارها المتوترة. كانت الكأس المملوءة بالمشروب تضيء تحت الأضواء الخافتة، تُرتشف منها بين الحين والآخر، كمحاولة لتخدير ذكرياتها وأحلامها المكسورة. كان ذهنها مشوشاً، عالقاً في أعماق دوامةٍ من المشاعر غير المريحة.

دارت في خلدها فكرة زواج ابنتها، التي بدت لها وكأنها حادثٌ طارئٌ لا يمكن تصديقه. كيف لشيء كهذا أن يحدث؟ وهي لا تزال في حالة من الفوضى، وغارقة في زخم من الحزن والحرمان. كانت تنفخ خديها بغضبٍ وكأنما العالم يُصغّر أمام عينيها، تفكر في ذلك الوسيم، ذاك الذي لم يكن يلتفت إليها، ولم يقدم لها أي اهتمام.

"كيف يجرؤ على الزواج من ابنتي؟"

دارت الفكرة في عقلها كدائرة معقدة من الكراهية. كانت مستعدة للتضحية بكل شيء من أجل أن يكون لها، لكن ما حدث كان كسراً جديداً لقلبها، إذ تزوج ذلك الوسيم من ابنتها وكأنها لم تكن موجودة. كان هذا الوضع أليماً، فتحت بؤرة الغضب، وانفصلت عنها كل مبادئ الرضا.

وبينما كانت في قمة غضبها، صاحت موجهة صراخها إلى جدران المنزل، فشلت في كبح مشاعرها المتفجرة. رمت بالكأس بكل قوتها، فتطايرت قطع الزجاج في الهواء كنجومٍ تسقط في سماء حالكة، لتحاكي أشجانها المنكسرة.

"يجب أن أتخذ قراراً!"

عزم قلبها على تنفيذ ما يجول في خاطرها، وكأنما سطّر كلماته بضوء خفي.

تنفست بعمق، ثم نهضت متوجهة نحو غرفتها. كانت خطواتها تتردد في أرجاء المنزل، تحمل في طياتها ثقل تلك الذكريات وكأنها تتوجه إلى معركة مصير. وقفت أمام المرآة، وتأملت انعكاس نفسها، تلك الصورة التي حاولت جاهدة أن تتجاهلها. غيّرت ثيابها، خلعَت عن نفسها رداء الانهزام، لترتدي زياً يعكس قوتها وطموحها المفقود. كانت كل ضغطةً على الزر تكشف عن طبقات متراكمة من الألم والرغبة في الانتقام.

كان إياد جالساً في مكتب منزله، يتأمل أوراق العمل بتركيزٍ عميق، وكأن العوالم التي بين يديه تروي له قصصاً تحتاج للفهم. أذنه انتبهت فجأة لصوت طرقات خفيفة على الباب، فأذن للطارق بالدخول. دخلت حياة، وجهها جامد كالصخر، وكأنها تحمل هموم الدنيا في عينيها. ابتسم إياد لها بابتسامة جانبية، محاولاً كسر جليد الواقع:

"ما الأمر؟"

سألها بصوتٍ يحمل بعض المرح.

أجابت بصوت خافت ووجهها المصهور في الأرض:

"أشعر بالملل."

همهم لها، محاولاً طمأنتها:

"حسناً، انتظري ريثما أنتهي من أعمالي، وسآتي لأسليكي."

عقدت حاجبيها في تذمرٍ واضح:

"وكيف ستسليني؟"

نهض إياد من مكانه، وقام بوقفةٍ تعكس ثقةً زائدة، وابتسم بأسلوب ماكر. نظرت له ، وقد علمت أن تلك الابتسامة تخفي خلفها الوعود والمشاكل. مرر يده على وجنتها، مقاطعاً تفكيرها:

"سأسليكي بغرفة النوم، ما رأيكِ؟"

جحظت عيناها بقوة، وقالت بغضب متفجر:

"أتعلم أنا الغبية التي أتيتُ إليك؟ لا أريد أي شيءٍ منك!"

أنهت جملتها بعنفٍ، وخرجت طبقاً لطبيعتها الإندفاعية، فصفعت الباب خلفها بقوة تعكس ما يدور في صدرها من مشاعر ملتهبة. ضحك إياد بصخب، مستمتعاً بتلك الطفولية وكلماتها الصريحة، ثم تنهد بقوة ليعود لاستكمال عمله. كان يفكر في أخذها لزيارة إلى سلام، للترفيه عن نفسها قليلاً وتهدئة روعها.

بينما كانت حياة تخرج من المكتب، كانت مشاعر الغضب تلوح في أفقها وكأن الشياطين تراقصت حولها، مستعدةً للانفجار.

"هو هكذا دائماً!" تمتمت في نفسها

"يستفزني بأفعاله البذيئة وكلماته."

تنفست بعمق، ومع ذلك لم تقدر على كبح مشاعرها. صدح صوت رنين جرس الباب فجأة، فتوجهت بتثاقل لفتح الباب، لتجد أمامها من كانت تتمنى رؤيتها ربما. نظرت بصدمة للرائية أمامها، وبصوتٍ متجمد من الدهشة، نطقت:

"أمي..."

22

نظرت سمر إلى حياة بنظرة مشبعة باللوم، كأنها تحاول إبعادها عن دربها لتدخل المنزل. عبَرت حياة بمشاعر مختلطة، حيث تملّكتها الدهشة من ظهور والدتها المفاجئ، وكان في أعماقها شعورٌ بأن قدومها يعني قدوم مصيبة. تبعت والدتها بمزيد من القلق، وعقدت يديها ضاغطةً عليهما، وكأنما تسعى لاحتواء ما تبقى من رابط بينهما. صرحت في نفسها: لقد نسيتك، لم أعد أريدك.

"أين زوجكِ؟"

سألت سمر، وكانت كلماتها كالسهم الذي ينغرس في قلب حياة، يؤدي إلى نخز مشاعرها.

أجابت حياة بهدوء حاولت أن تخفي وراءه انزعاجها:

"ماذا تريدين منه؟"

ابتسمت سمر بسخرية، شعور الفخر يخالط كلمتها:

"مبارك لكِ، لقد تزوجتِ يا بنيتي العزيزة! ولكن ليس لديكِ الحق في أن لا تخبريني، كنتُ قدمت واجبي على الأقل."

تنهدت حياة، واقتربت لتجلس بجانب والدتها، وكأنها تسعى لوضع حواجز بين مشاعرها المتناقضة:

"لقد عقدنا القِران فقط، لم نقم بأي حفل زفاف."

همهمت سمر، ثم أخرجت علبة سجائر من حقيبتها، أشعلت سيجارة، ونفثت الدخان في وجه حياة، كأنها تحدت كل ما يمكن أن تشعر به ابنتها. سعلت حياة بشدة، فهي تكره رائحة الدخان التي تثير فيها حفيظة غير منتهية. ابتسمت سمر لها، مكمّلةً:

"حدثيني، هل أمورك جيدة مع زوجك"

نظرت حياة إليها نظرة حادة، موجهةً كلماتها بصرامة:

"أمي، ما الذي تريدينه بالتحديد؟"

أكملت سمر، شارحةً تفاصيل الجرح الذي تمزق منه قلب ابنتها:

"أنا لا أصدق أنكِ تزوجتِ، يافتاة! ومِن مَن؟ من رجل الأعمال المشهور إياد معين، زير النساء وأرذل خلق الله. يا لكِ من غبية! كيف تجرؤين على فعل ذلك؟ أراهنكِ أنه يخونكِ، ولديه كل يوم فتاة مختلفة معه."

تسللت مشاعر الغضب إلى حياة، لم تدري لماذا تحترق أعماقها بسبب كلمات والدتها. غيرةٌ، ألقت بظلالها على قلبها، نظرت إلى سمر بعينين مشتعلة:

"أمي، لا شأن لكِ بي. اهتمي بنفسكِ وبأموركِ اللعينة، واتركيني وشأني!"

ضحكت سمر بسخرية، مرسومةً ابتسامة استهزاء:

"سترين كيف سيرميكِ في الشارع عما قريب، أيتها الحمقاء. زوجكِ المصون كان مع فتاة البارحة، صدقيني."

قفزت حياة من مكانها، قائلة بتحدٍ:

"كاذبة!"

أجابتها سمر بابتسامة استفزازية:

"صدقيني، لا أكذب عليكِ."

بجذور مشاعرها المختلطة، سألت حياة بحدة:

"منذ متى تريدين مصلحتي وتحدثيني بأمور لصالحي؟"

تنهدت سمر بقوة، ووضعت يديها على كتفها:

"مهما كان، تظلين ابنتي. أنا لا أريد لكِ هذه الحياة، اسمعيني. سأعيد الأموال كلها لزوجكِ، سأعيدكِ معي إلى المنزل بشرط أن تتطلقين منه، وسينتهي كل شيء. ما رأيكِ؟"

نظرت حياة لها بشدة، قلبها يرتعد بين الفرحة والحزن. لكنها كانت واثقة أن إياد لن يتركها وشأنها. لتحاور تلك المشاعر المشتتة:

"ستعودين لحياتكِ الطبيعية، وأعدكِ أنني سأقطع علاقاتي بكل الرجال. لن أُدخِل أي رجلٍ إلى المنزل. ماذا قلتي؟"

نظرت حياة إليها، وعبرت ملامح وجهها عن حيرة عميقة، لترفع شفتيها وتقول: "لا، لا أريد."

همست سمر بين أسنانها:

"أيتها الغبية، إنه يخونكِ، هو لا يحبكِ، صدقيني."

نظرت حياة إلى سمر بغضب، وأشاحت بوجهها بعيداً عنها كأنها تحاول أن تتخلص من ثقل الكلمات التي كانت على وشك أن تنفجر من صدرها. كانت مشاعر الإحباط تتراقص في عينيها كألسنة لهب تصل إلى حدود الانفجار، لكن مشاعر التوتر والانزعاج التي أثيرت في قلبها كانت كفيلة بلسانها. كان صبرها قد نفد، وتجهزت لتلقي بكلماتها كسهام سامة، لكن دخول إياد المفاجئ، الذي كان يعبق بالبرود والجمود، جعل الكلمات تتلاشى في فمها كأنها طيور فزعَت من قفصها.

نظر إليها إياد، والجمود يكسو ملامحه، وكأن قلبه قد أُغلق بباب حديدي. كان الصوت الذي صدر عنه كالمطر الخفيف وسط عاصفة، لكن له نبرة تحمل سبق انحسار العواطف:

"ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟"

تحدثت سمر بسخرية، ملؤها التحدي:

"جئتُ لكي أرى ابنتي."

انفجر إياد ضاحكاً، ضحكة عميقة تحمل في طياتها سحراً وجاذبية، وأخذ الدفء يتسلل إليهم في تلك اللحظة:

"أوووه يا إلهي، الآن تذكرتِ أنكِ تملكين ابنة! اخرجي من هنا، هيا!"

نظرت له سمر بعينين مشتعلة بالغضب، ثم ردت بحزم:

"سأعيد لك جميع أموالك، وتعيد لي ابنتي."

تنهد إياد بعمق، متوجهاً نحو حياة، حيث أحاط خصرها بذراعين يملؤهما التملك، متحدثاً بابتسامة استفزازية:

"تقصدين زوجتي، وليست ابنتكِ."

سخرية سمر كانت تتسلل إلى كلماتها:

"ولكنها لا تريدك، هي تريد العودة معي، أليس كذلك يا حياة؟"

تلك الأصوات تداخلت في عقل حياة، غارقة في حيرة عميقة، حائرة بين ولائها لوالدتها وواجبها نحو زوجها. صمتها الطويل كان كفيلاً بخلق جدار من التوتر، بينما ظل إياد جامداً، عاقداً العزم على جعل الأمور تسير كما يشاء.

ببرود، ناقش إياد، وصوته يتجلى تماماً:

"ستخرجين من هنا قبل أن أخرجكِ على نقالة. هيا، أيتها اللعينة! هذه زوجتي، وستظل زوجتي مدى الحياة. فقط فارقينا!"

أحسَّت سمر بالإهانة من كلمات إياد، وكأن سهماً قد اخترق كبريائها وأنوثتها. مشاعر الانفعال اجتاحت أعماقها، لتتحدث بانفعال مفرط:

"كيف تتزوجها يا هذا؟ هذه ليست عذراء، لقد فقدت عذريتها منذ زمن. صدقني، لا يجب عليك أن تبقيها هنا!"

فجأة، بلغ إياد ذروة غضبه من تلك الكلمات السامة. حياة نظرت إلى والدتها بصدمة، بينما تجمدت مشاعرها في مكانها، كأن عقارب الساعة توقفت.

بغضبٍ متفجر وصراخ يقضي على حواجز السكون، تحدث إياد قائلاً:

"كاذبة! لقد أخذتها وهي عذراء، وصدقيني، لو لم تكوني والدتها، لكنت تصرفت معكِ تصرفاً غير لائق فقط من أجل كلماتكِ هذه. يا لكِ من لعينة، اغربي عن وجهي!"

ركّزت حياتها بين سمر وإياد؛ كل واحد منهما يمثل جانباً مختلفاً من الحياة، تمزق بين الدفء والبرودة، وبين الحب والكراهية. كانت تلك اللحظة من القوة والصراع، وانفجرت فيها مشاعرهم مثل عاصفةٍ تُهدد كل شيء حولهم، مشاعر تتدفق بلا حدود، مزيج من الظلام والنور، وكأنها تدور في فلكٍ لا ينتهي.

تسللت دموع حياة الدافئة على خديها، تبتلعهما بحسرة وصمت، بينما كانت سمر تحدق في إياد بنظرة مشحونة بالغضب، قبل أن تمسك بحقيبتها وتغادر المنزل بكامل عصبيتها. كان إياد يوجه نظره إلى حياة المتعبة، التي كانت تضغط على شفتيها بقبضتيها كأنها تسعى لتكتم بكائها. تنهد بعمق، متقدمًا نحوها، مُحاولًا احتضانها بلطف، لكنّها ابتعدت عنه بوضوح، مما الجأ قلبه إلى الألم.

ارتفعت شهقات حياة شيئاً فشيئاً، حتى انفجرت بكلمات مغلفة بالحنق والبكاء: "كله بسببك! لقد حطمت حياتي ومستقبلي. لو لم تكن في حياتي، لكنت الآن أعيش بمفردي، بلا أحد يجبرني على شيء، حتى أمي ذاتها. لكنك أنت لست سوى حقير يهوى تعذيب النساء. هل تظن أنني لا أعلم لماذا تزوجتني؟ أعلم تماماً أنك تزوجتني لتشبع شهواتك فحسب. أنت لا تحبني كما تقول، تريد فقط أن ترفه عن نفسك، وأن يكون لديك كل يوم فتاة مختلفة. اللعنة عليك وعلى من أوقعني في طريقك. أكرهكم جميعاً، فلتذهبوا جميعكم إلى الجحيم!"

كانت كلماتها تُمزق قلبه إلى أشلاء، وتنعكس في عينيه دموع حارة لم يعد قادراً على احتوائها. كان محبطاً، عاجزاً عن التصرف، وهو يرى محبوبته تبكي وتشعر بالعذاب بسببه. لم يعد يعرف كيف يمكنه إراؤها، رغم كل محاولاته التي باءت بالفشل. أغمض عينيه بعمق، وأطلق صرخة رجاء:

"حياة، أرجوكِ اسمعيني. والدتكِ لا تريد مصلحتكِ، هي تسعى فقط لافتعال المشاكل بيننا..."

قاطعته بصوتها المرير، رتبت كلماتها بعناية:

"أعلم أن والدتي لا تحبني ولا تريد مصلحتي، كما أنني أعلم جيداً أنكَ أسوأ منها بمئة مرة. أنا لا أحبك، حاول أن تقنع نفسك بذلك، ولن أكون لك أبداً."

بصقت هذه الكلمات الغاضبة عليه كما لو كانت سهاماً، واعتلت السلم متوجهة إلى غرفتها، تاركة إياد واقفاً في مكانه، مفكراً في كلماتها. ذاكراً كيف انهمرت دموعها بخاطره بسبب تصرفاته. لعن نفسه، ولعن قلبه، ولعن الدنيا بما فيها. لم يكن له خير من أحد؛ الجميع تآمر ضده ووقف ضده.

أخذ نفساً عميقاً ورفع بصره للأعلى، مُحاولاً كبح دموعه الوشيكة، ثم همَّ بالاتجاه خارجاً من المنزل، لا يدري إلى أين سيكون مصيره. كل ما كان يريده في تلك اللحظة هو الابتعاد عنها، حتى تهدأ من نيران غضبها، على الأقل قطعة من الهدوء تُسمح له بالتفكير، بينما قلبيهما ينفجران من الألم، وتعرق العواطف المجروحة.

▪▪

جلست ريمة في غرفتها، تهمس بأسرار قلبها لمن أحبته بصدق، تضحك وتبتسم بين الحين والآخر على حديثه ومغازلاته الحالمة. كانت تلك اللحظات تُغمرها بالسعادة، وكأن العالم من حولها قد تلاشى. فجأةً، دخلت مها بشكل مفاجئ، مما جعل قلبها يتقافز بصدمة.

نظرت إليها مها بملامح متجمدة، ثم ابتسمت بسخرية:

"أكملي حديثكِ معه، يا ريمة. ما بكِ؟"

ابتلعت ريمة ريقها بتوتر، محاولةً التماسك:

"كنت أتحدث مع صديقتي."

نظرت لها مها ببرود، وكأنها لا تنخدع بتلك الكلمات:

"تقصدين كنتِ تتحدثين مع مهند."

تملكت ريمة حالة من الخوف والتوتر، وجالت بنظرها في أرجاء الغرفة وكأنها تبحث عن مخرج. حركت مها رأسها بإيجاب، ثم أطلقت تنهيدة صغيرة:

"مبارك لكما."

أنهت كلمتها وابتسمت ابتسامة ألم، تاركة مكانها، بينما ظلت ريمة مستغرقة في تأنيب الضمير وحزنها على أختها. شعرت بمدى سخطها ووقاحتها من تصرفها، بينما تقلبت المشاعر في صدرها بحزن وثقل.

خرجت مها إلى غرفتها على عجل، وقررت أن تأخذ الأمور بيدها. أمسكت هاتفها، وبحثت عن رقم مهند، الذي أجاب بعد فترة قصيرة:

"أهلاً، مها."

تحدثت بجمود. لا مجال للمراوغة:

"أريد أن أراك."

ابتلع مهند ريقه بتوتر ومن الواضح أن القلق بدأ يسيطر عليه:

"الآن لا أستطيع، لأن لدي..."

قاطعته مها بحدة:

"فقط نصف ساعة، وسيكون لقاؤنا الأخير. لن أعطلك أبداً، ولا داعي للتهرب مني."

أطلق تنهداً عميقاً، مبحراً في مشاعره المتضاربة، وأجاب برغبة:

"حسناً سنتقابل في مكاننا المعتاد."

فصلت الخط دون أن تودعه، متوجهة بفكرها إلى ما ستقوله. هل عليها أن تسأله عن ريمة؟ أم عليها أن تفصح له عن مشاعرها؟ أنهت الاتصال وبددت القلق بالتغيير إلى ملابس تبرز قوتها، ثم خرجت من المنزل قاصدة اللقاء.

لم تمضِ لحظات حتى وصلت إلى المكان المعتاد، حيث رأت مهند جالساً في ركن من أركان المقهى، منزوياً كأن هموم العالم قد أطبقت عليه. ابتلعت ريقها، وأخذت نفساً عميقاً لتستجمع قواها، ثم خرجت بهدوء نحوه، ونظرة الجمود تغلفها.

جلست دون أن تُلقي عليه التحية. كانت مفاجأته واضحة، لكنه تحاشى متطلباتها، مفضلاً أن تنفجر الكلمات لتخرج كل ما في قلبها. بعد صمتٍ مُطبق، تحدثت مها بجمود:

"يوجد بينك وبين ريمة علاقة حب، أليس كذلك؟"

ابتلع مهند ريقه، وعينيه تبتغيان الهرب، بينما اندمجت مشاعره في صراع. عندما أضافت بحذر:

"أجبني، أرجوك، ليس لدي الكثير من الوقت."

حرك رأسه بإيجاب، فما كان لمها أن تتجاهل قلبها المُتصدع:

"هل تريدني؟"

تقاطعت نظراتهما في تلك اللحظة، وكأن الكلمات تاهت في زحمة المشاعر. شعرت مها بأن كل شيء قد انقلب ضدها، وكأن الطاولة أُدرجت لتتحول إلى ساحة معركة، بينما قلبها يعتصر من الغصة. كانت اللحظة توحي بأن الحقيقة ستعلو على كل أكاذيب العالم، لكنها لم تكن لتدرك بعد أن كل كلمة قد تنطلق من لسانه ستكون محور حياتها بأكملها.

صمت مهند، ولم يجبها، فعاودت مها سؤالها بوضوح:

"هل تريدني؟"

انفصلت كلماته الهمسة كخفقات قلبه، وهو يجيب بصوت خافت يكاد يختفي: "أنا أحب ريمة."

تجمدت ملامح مها للحظة، ثم نظرت إليه بقوة متجهة في أعماقه، ومن ثم ابتسمت بسخرية. كأنما كانت الشمس قد غابت في عينيها:

"حسناً، مبارك لكما."

أنهت جملتها، ثم نهت من مقعدها بصمت، عائدة إلى منزلها كما جاءت، وكأن عباءة من الحزن قد انحطت فوق كتفيها. أما مهند، فقد أوجعه قلبه عليها، شعر بالندم يغمره. كان هناك شيئاً في تحركاتها، في طرقات قدميها التي اختفت في الأفق، جعل قلبه يتألم بعمق. هو آلم نفسه ليرتبط بها، لكنه لم يكن قادراً على تغيير مشاعره، فالأمر لم يكن بيده.

وكأن الكآبة التي حاول أن يكتمها قد انطلقت في الهواء، صدح صوت رنين هاتفه ليفجر حالة السكون. أجاب بسرعة:

"أهلاً ريمة."

تحدثت ريمة بلهفة، هاربة من مشاعر الخوف والقلق:

"ماذا حدث؟"

أجاب بتلقائية، كأن الأحمال تتزاحم على صدره:

"لا شيء. علمت بكل شيء بيننا، ولم تتحدث بشيء، ورحلت من بعدها."

ابتلعت ريمة ريقها بتوتر، ولم تكن تعرف بماذا تتحدث. ملامح وجهها تجسد مشاعر مختلطة من القلق والحزن. بحركة تلقائية، وبدون وعي، فصلت الخط في وجهه وأغلقت هاتفها، وكأنها تحاول قطع كل رابط بحالتها.

تدور الأفكار في ذهنها باضطراب. كانت حزينة على أختها، وعندها همست كلمات مشاعرها: كيف تحولت القلوب إلى أعداء، وكيف يمكن للحب أن يزرع الألم؟ وشعرت بحزنها يُثقل روحها؛ فهي التي أوصلت نفسها إلى هذا المأزق.

لكن صدق من قال: عندما تهوى القلوب، لا يكون في العقل منطق. كانت تحاول أن تفهم، أن تُعقل الأمور، لكنها أدركت أنه ليس فيها حلاً للمسألة. كان قلبها مضطرباً كما كان، أمام سلاسل من المشاعر التي تصارعت مع بعضها. لحظات من الفرحة قد زالت، واستبدلت بأخرى من الألم والندم.

دخلت مها الغرفة باندفاع كعاصفة، مما جعل ريمة تنتفض في مكانها وتنظر إليها بقلقٍ شديد. تقدمت مها نحوها بخطوات واثقة، وعندما واجهتها، لم تلبث ريمة أن استقبلت صفعة مدوية لطمت وجهها بكل قوة، وكأنها صدى لجروح لم تندمل.

بصوتٍ بارد وجامد، نطقت مها بعبارات كالسهام:

"هذه الصفعة لك أنت بالتحديد، وليس لأجل مهند، بل لأنك خائنة وحقيرة. لم يؤلمني البعيد بقدر ألم القريب."

ثم اختفت مها من الغرفة كغيمة عابرة، مُغلقة الباب خلفها بكل ضجيج، كأنه يترك أثراً في الأجواء. جلست ريمة على سريرها، وكأن الأوراق قد تناثرت حولها، لتنفجر بعدها في بكاءٍ حار، تطلق آهات الندم التي كانت تأكل صدرها كالنار في الهشيم.

كان قلبها يتدحرج في دوامة من الأسى، وكأن كل دمعة سقطت كانت تعبر عن أسئلة بلا إجابات، وأحلام محطمة تحتاج إلى إعادة بناء.

جلس إياد في عتمة الليل، بعمق من الصمت والهدوء، حيث كانت الكلمات القاسية التي ألقتها حياة تتردد في عقله كأصداء من عاصفة. شعر بالحزن يعصر قلبه، ليس فقط على نفسه، بل على حالها وما وصلت إليه. كم كان يتمنى لو كانت تدرك ما عاناه، لو كانت تحس بحرقة طفولته التي كانت تمطر على أيامه بسياط الألم. لم تكن وحدها المعذبة، فهو أيضاً عرف المعاناة وذاق مرارة العذاب بألوانه المختلفة، لكن لم يكن هناك من يفهم معاناته، أو يستوعب تلك الظلال التي تُخيم على ظله.

تنهد بقوة، معبراً عن خيبة أمله، ثم رمى بقارورة المشروب الفارغة بعيداً، كأنه يحاول التخلص من همومه مع كل رمية. توجه نحو سيارته، محرّكاً إياها، عائداً إلى من أرهقت قلبه وأقلقت نومه. على الرغم من أن الطريق لم يكن بعيداً، إلا أن كل لحظة مرت، كانت كالعمر في حد ذاتها، تأخذه بعيداً عن سلامه الداخلي.

حطت قدمه أخيراً أمام منزله، ونزل من السيارة بهدوء مضمخ بالاستغراق في التفكير. نظر حوله، ورأى البيت ساكناً، تكاد تُسمع أنفاسه داخل أركانه. توجّه بخطوات خفيفة نحو غرفته، وعندما دخلها، لمح حياة جالسة على السرير بجسد متوتر، وعينيها تعكسان خفقات الانتظار. ومع أن إيقاع قلبه كان يرتفع، خاطب نفسه أن يحافظ على هدوءه.

وبدون أن يحييها، توجه إلى خزانته باحثاً عن ملابسه، مغلقاً قلبه كما أغلق فمه. كانت حياة ترمقه بنظرات مشحونة، فماذا لو كانت الكلمات قاسية، هل يُعذر العتاب عندما يكون الحب يُغلّف الجراح؟ شعرت بتأنيب ضمير يجرحها، حقاً أنتبهت كم كانت حادة الكلمات التي أطلقتها اليوم.

عندما انتهى من تبديل ملابسه، نهضت حياة، وتوجهت نحوه بجرأة، متمسكة بأمل التصالح. كان قد أعطاها ظهره، لكن ضجيج لفتة يدها دفنت كل تطبيقات الانزعاج التي تُدور في عقله. وطوّقت قوامه من الخلف، مُعانقة إياه برفق، وقلبها يدق حناناً ورجاءً:

"أنا آسفة."

عند سماعه تلك الكلمات، كان قلبه يتخطى حاجز الغضب، إذ انفرجت أساريره كزهرة فتحت على شمس الربيع. أما هي، فكانت تدرك خطأها، فحاولت أن تخفف من وطأة الموقف، لكنها منصتة لارتجاف صوتها:

"صدقني، لم أكن في وعيي. سامحني، إياد."

ابتسم ابتسامة جانبية، فقد ارتسم اسمه بأجمل لحظة في حياته، لكنها ظلت تنشد منه عطفه. لم يكن قد حسم أمره بعد، فما زال الإحساس بالانزعاج يتراقص في عروقه، فاختار أن يلعب بأعصابها، مُحافظاً على وقفته، مما جعلها تشعر بالقلق أخذ ينمو بداخلها.

عقدت حاجبيها، عازمة على عدم التخلي عن محاولتها:

"إياد، صدقني. لم أقصد ما قلته. أنا آسفة بصدق."

مع ازدياد إحساسها بالذنب، بدأت دموعها تنهمر. صدم هو، وملأ قلبه الندم. لعن نفسه مئة مرة، إذ افترض أن يحافظ على كبريائه. استدار لها، وحاول إخفاء عواطفه المعقدة تحت عتبات جبهته:

"صدقيني، لقد سامحتكِ. لا تبكي."

كانت دموعها كفيلة بجعل قلبه يتلاشَى، لتنقلب كل مشاعر الغضب والخيبة. حينها، مدّ يده ليلامس يديها، مُحاولاً انتزاع آلامهما، مجسداً الأمل من بين أنقاض الكآبة. أدرك أن الحب الحقيقي يستوجب الصفح، وأن الكلمات قد تكون جسراً مكسوراً يحتاج إلى عناية وإصلاح.

احتضنها بقةة وكأنما أراد أن يمحو كل همومها في تلك اللحظة. استجابت له فوراً وعانقته بشغف، وأطلقت شهقاتها لتأخذ بالبكاء:

"أمي تكرهني يا إياد، لا تريدني أن أعيش سعيدة، هي تريدك لذلك كانت تتحدث عنك، وتقول لي إنك تخونني."

مسح إياد برفق على شعرها، وقبل رأسها برقة، في محاولة لتخفيف ألمها. "أعلم، لقد سمعت حديثها كله. لا تبالي لها ولا تعطيها أي أهمية، فقط ابقي معي، ولن أدعها تقترب من حياتنا أبداً"

قال بهدوء محاولاً تهدئتها.

لكن بكاءها احتد، وكأن كلمات والدتها كالمطر الغزير تجرح في روحها:

"هي تشكك بأخلاقي، وتتحدث عني بالسوء."

شد على احتضانها، كأنه يحاول أن يجعلها تشعر بالأمان وسط العواصف الخارجية:

"لا تهتمي لها، أنا أعرفكِ جيداً يا حياة،"

أبعدها عنه قليلاً، ليمسك وجهها بين كفيه، ونظر إلى عينيها بودّ، وتوهج الحب في عينيه يبثّ الطمأنينة في قلبها:

"كما أنني أعلم أن زوجتي وحبيبتي لديها أخلاق عالية، ولا ترضى بالخطأ أبداً، أليس كذلك؟"

حركت رأسها بتردد، فابتسم لها ابتسامة صغيرة، كأنها ضوء في ظلام. اقترب وقبّل جبينها مطولاً، ثم ابتعد وهو يبتسم لها بابتسامة أكبر زخرت بالحب والأمل. بادلته حياة الابتسامة بحياء، خافضة رأسها خجلاً وسط هذا التوتر العاطفي.

وفي لحظة تجرأ فيها، رفع ذقنها برفق، ليتقرب منها أكثر ويقبل شفتاها في قبلة عميقة. شعرت بالصدمة لفعلته، لكن مشاعرها قد انطلقت بسرعة، وبادلت تلك القبلية ببذخ، وكأن كل ما أخفته من حب قد انطلق فجأة في تلك اللحظة الساحرة.

استمر الزمان في التمدد حولهما، وكأن كل شيء محيط بهما قد اختفى. يتلاشى العالم ويتركهما في جزيرتهما الخاصة، حيث تتحدث القلوب بلغة لا تحتاج إلى كلمات، حيث تغمرهما مشاعر الحب في كل نبضة. كانت تلك القبلة مزيجاً من الشغف والترقب، كانت تعويذة تطرد الخوف والشكوك بعيداً.

23

أطبق جبينه على جبينها، كانا يلتقيان بلطف، راسماً لوحة من خجل ورغبة. هي كانت مغمضة عينيها، محاطة بهالة من الخجل، وكأن قلبها قد انغمس في بحر من المشاعر. الابتسامة ارتسمت على شفتيه، ما لبث أن قرر كسر حاجز الصمت بصوت متهدج، مفعم بالحب:

"أُحبكِ حياة."

تاهت الكلمات في قلبها، فلم تجرؤ على فتح عينيها أو الرد. ظلت ساكنة، كأن الوقت قد توقف لحظة. ابتعد هو عنها قليلاً، محاولاً فك شيفرة صمتها القاتل. وسألها باهتمام:

"ما بكِ؟"

ابتلعت ريقها، وشعرت بخفقان قلبها يعلو في صدرها، ثم أجابت بخجل:

"لا شيء." كانت تبحث عن كلمات تعبر عن المشاعر التي تعصف بها.

همهم لها باهتزاز عاطفي، وكأنه ينقل لها رسالة دون كلمات، لكنها انصاعت لدعوة نظراته. نظرت إليه ببراءة، وعادت تسأل بتردد:

"هل سامحتني؟"

ابتسم بخفة، عاكساً لحن الراحة في قلبه، قائلاً:

"أنا لم أنزعج منكِ بالأساس، لقد تفهمت ردة فعلكِ وأعطيتكِ العذر، أنسي الأمر حبيبتي."

ابتسامتُها اتسعت كأفقٍ مشمس، تبادل النظرات بينهما كان بمثابة وعدٍ على الارتباط القوي. تنهد بعمق، وكأنما يلقي بثقل أفكاره في الهواء، ثم تحدث بتوتر:

"مم حياة، ألا ترغبين في أن تكتمل علاقتنا؟"

توقف برهة، وكأن كل الكلمات تتزاحم في ذهنه، ثم أضاف بسرعة وهو يرفع حاجبيه:

"أنا لن أجبركِ على شيء، لكني فقط أريد أن تعطيني أملاً بأنكِ ستسلميني نفسكِ في يومٍ من الأيام ولا يكون في بالكِ أن تبتعدين عني."

خجلت، وأخفضت رأسها، لم تكن تعرف بماذا ستجيبه، لكن أجابت بصوت خافت بعد لحظة من التفكير:

"أجل"

توسعت ابتسامته، وكأنه كان ينتظر هذا الجواب طويلاً. اقترب منها وقبل جبينها بحنان، قائلاً:

"سأظلُ أنتظرُ هذا اليوم بفارغِ الصبر."

ابتسمت بتوتر، كأنما شعرت بحرارة مشاعره تغمرها. سألها بلطف:

"ألا ترغبين في النوم؟"

حركت رأسها موافقة، فمال قليلاً، وحملها بين ذراعيه برفق. دوى قلبها بالدهشة، وتوترت، لكن ذلك الشعور الذي اجتاحها كان جميلاً جداً، فابتسمت له وأحمر وجهها خجلاً. نقلها برفق إلى السرير، ووضعها بخفة، ثم اقترب منها ليكتمل اللقاء.

استلقى بجانبها، ثم مدّ ذراعه كدعوة لطيفة:

"اقتربي."

ترددت، إذ كانا قد اعتادا على النوم متباعدين، ولكن هذه المرة كانت مختلفة.

بتوتر، اقتربت واحتضنته، أغمضت عينيها مستمعتةً برائحة عطره الرجولي، وهو ما كان يشبه نسيم الربيع. تداخَّلت مشاعر السعادة والفرح في قلبه، وهو يشعر بقربها، وبأنها أجمل ملاذ.

عينيه أغمضتا بقوة، وكان عقله يمتلئ بأفكار سلبية وإيجابية. رسم في مخيلته أحلام المستقبل واحتمالات العلاقات، إذ على الرغم من عناده وقسوته، فإنه كان يأمل في أن لا يغدو نادماً على أي قرار يتخذه مستقبلاً.

سكن الليل حولهما، حتى بدا وكأن الزمن قد توقف، بينما راحت أرواحهما تتعانق في ظلمة غرفتهما، تخفي آلامهما السابقة، وتمهد لتكوين مستقبلٍ مشترك مليءٍ بالحب والأمل، ومهما كانت التحديات، كان إياد على استعداد لمواجهتها.

في اليوم التالي، كان الشاب جالساً في غرفته، محاطاً بأفكارٍ متشابكة كأشواك الورد، وقد انغمس في خيالاته يحاول جاهداً إيجاد وسيلة لإعادتها إليه. كان عذابه يزداد مع كل لحظة يراها فيها مع شخص آخر، تتمايل بحبورٍ لا يحتمل، وكأن كل نظرة إليها كانت خنجراً يطعن في قلبه، يغرس الألم في شغافه.

منذ الصباح، وهو يُحاول الاتصال بها، مخترقاً صمتها الذي كان كفيلاً بجعله يشعر بالعزلة. كان يتنهد بحنق وغضب، ممسكاً بهاتفه متطلعاً إلى الشاشة، عاود الاتصال من جديد بقلب متحمسٍ على أمل أن ترد عليه. لكن، خابت آماله مرة تلو الأخرى، وكانت كل محاولة منه تزداد رسوخاً في جبهات اليأس.

وهنالك، بين آلام الانتظار، نفخ خديه بغضب، بينما دوّن رسالةً قصيرة كانت تحمل في طياتها ألمه وحاجته، قائلاً:

"سلام، أجيبي على هاتفكِ أرجوكِ، أريدُ أن أقول لكِ شيئاً مهماً."

ظلّ ينتظر كالطفل الذي ينتظر عودة والدته، لكن لم تكن تنجح في استجداء ردها. تنهد واليأس يجتاحه، ليعاود الاتصال من جديد، وفجأة، تردد صدى صوتها في أذنه، ذاك الصوت الذي أسّر روحه.

"ماذا تريد؟"

ما إن سمع صوتها حتى بدأ قلبه يطرق بعنف، وأسرار الفرح والحنين تنعكس في عينيه. ابتسمت شفتاه وكأنهما أزهرتا بعد قحطٍ طويل، ورد بحنان:

"اشتقتُ لكِ."

تحدثت بسخرية، وكأنها تجرح حياته:

"هذا هو الموضوع المهم الذي تريد أن تحدثني به؟"

ابتلع ريقه بصعوبة، بينما كان الألم يعتصر قلبه، وقال:

"سلام حبيبتي، اسمعيني، صدقيني أنا أحبكِ. أريدُ أن أتزوجكِ، دعينا نعود كما كنا، لما أصبحتِ هكذا؟"

تنهدت بعمق، وكأنما كانت تحمل هماً ثقيلاً. ثم أضافت بلؤمٍ يقصم الظهر:

"كل هذا من صنع يدكَ، وأنا نسيتكَ منذ زمن. لم أعد أحبك."

تحدث بصوتٍ مرتجف، مزيج من الحزن والأمل:

"صدقيني، أنا نادم على كل ما فعلته لكِ، أريد أن أصلح الأمور، فقط أريد فرصة واحدة منكِ."

ابتسمت بسخرية، وكأنها تضحك على حلمه:

"لقد مللت من هذا الحديث المتكرر."

احتقن وجهه بغضبٍ شديد، وصرخ مثل عاصفةٍ تقتلع الأشجار:

"ما الذي تريدينه؟ واللعنة، ماذا أفعل لكي تصدقين بأنني نادم؟ هل أركع تحت قدميكِ مثلاً؟"

ضحكت بصخبٍ على جملته، وكأنما كانت تقبل بخسارته:

"أخاف أن تتسخ قدماي، استمع إلي، أنا لن أقبل بشابٍ مثلك، حاول أن تقنع نفسك بأنني نسيتك منذ زمن، هل فهمت؟"

تحدث بحدة تنذر بقدوم عاصفة جديدة:

"هكذا إذاً، ياسلام! حسناً، سترين ما الذي سأفعله."

تدافع الغضب في نفسه، بينما طرقات قلبه تعزف لحناً من الألم والمشاعر المتضاربة. لقد انتزع السكون من صدره، مهدداً بأفعال قد تكون قاسية، فقلبه القاسي الأبدي يرفض أن ينسى، وهو مُصمم على استعادة ما كان له، مهما كلفه ذلك.

امتعضت ملامحها، وكأنها تحمل في عينيها ناراً مشتعلة. أفصحت بغضب عارم:

"صدقني، إذا حاولت أن تفعل شيئاً سأخبر لينال ليلقنك درساً قاسياً، هل فهمت؟"

ابتسم بسخرية، حافزاً نيران الغضب في صدرها:

"أها! إذاً، تغيرك هذا من أجل السيد ينال، أليس كذلك؟"

لم تجبه، بل بقيت صامتة كأنها تستحضر قوة جديدة لتصمد أمامه. فدفعه فضوله للتمادي في السؤال:

"ماذا يوجد بينكِ وبينه، سلام؟"

تحدثت بجمود، وكأن الكلمات تتحول إلى جليد:

"لا شأن لك."

فوجئ بردها، وغضبه بدأ يعكر صفو سكون الجلسة. جمدت مشاعره:

"حسناً، يا سلام، كما تريدين. لكن صدقيني، أنكِ لن تفلتين من قبضتي، وسترين ما سأفعله. انتبهي إلى نفسكِ جيداً."

أنهى عباراته، وأغلق الهاتف في وجهها وكأنما أغلق قلبه على كل ما كان يحمل من مشاعر، عازماً على تنفيذ ما يجول في خاطره. لن يسمح بأن تكون لـ ينال، مهما كلفه الأمر، فقد كانت بالنسبة له أغلى مما يُمكن تصورُه.

بينما سلام، وبمجرد أن سمعت تهديداته التي كانت كالأشباح تتردد في أركان ذهنها، بدأ الخوف يتسلل إلى قلبها. كانت تعرفه جيداً، وتعلم أن جديته ليست مفاجئة، لكنه في أعماق قلبها كانت لديها ثقة لا تتزعزع بأنّه لن يستطيع إيذاءها.

استحوذ على تفكيرها دخول ينال، الذي دخل إلى الغرفة بابتسامة محبة، كأنه فجرٌ يضيء عتمة أفكارها. اقترب منها، وجلس بجانبها، قائلاً بحنانٍ جارف:

"كيف حال جميلتي؟"

ابتسمت بخجل، سعدت بلقائه، وأجابت:

"بخير، وأنت؟"

بتأثّر درامي، تحدث قائلاً:

"مشتاقٌ وفي قلبي لوعة."

ضحكت على جملته، إذ كانت كفيلة بأن تنثر الفرح في أجواء الغرفة، وأجابت بمرح:

"جيد."

نظر إليها بعمق، شغف الحب يضيء في عينيه، ومدّ يده ليأخذ يدها برقة، قائلاً بنبرة هائمة تحمل وعداً:

"صدقيني، لقد اشتقتُ لكِ كثيراً."

أحمرّت وجنتاها خجلاً، مما ترك أثره في قلبه، حين اقترب منها دون سابق إنذار، وقبلها على وجنتها الطرية كنسيم ربيعي. شهقت بخفة، وعضت على شفتها السفلى من شدة خجلها، بينما هو ابتسم لها ابتسامة جانبية، جمعت بين الحنان والمرح.

أرادت أن تخفي خجلها، وتحولت أعضاء جسدها إلى تمثالٍ حيّ، ثم قالت بتوتر: "كيف حال خالتي سناء؟"

ابتسم بفخر، وقد فهم نواياها وخجلها الذي حاولت إخفاءه، وقال:

"بخير، لكن لماذا لم تذهبي إليها اليوم؟"

تحدثت بتردد، كأن كلماتها تمثل بمخاطرها:

"مم، لا شيء، لقد استيقظتُ متأخرة."

همهم ينال بصوت رقيق، كأنه يتحدث إلى زهرة تتفتح للتو:

"حسناً، هيا، تعالي لكي نذهب إلى منزلنا ونتناول الغداء سوياً."

حركت رأسها بإيجاب، بدا عليها الحماس، لكنها قالت برقة:

"حسناً، اذهب أنت، سأبدل ثيابي وألحق بك."

نفى برأسه، عاقداً العزم بوضوح، ورد بلهجة حازمة:

"لا، سأنتظركِ في الخارج لكي نذهب سوياً."

ابتسمت بخفة كأنها أشعة شمس بعد عاصفة، وأجابت:

"حسناً."

خرج ينال من الغرفة، وعلى محياه ابتسامة صغيرة، لكن ما إن غادر حتى صدح رنين هاتفه بكسر سكون الجو، وتلقت عيناه اسم المتصل. كان إياد، فتح محادثة جديدة مع لغة متوترة. أجاب بصوتٍ عالٍ نوعاً ما، مستنفذاً كل مشاعره:

"ماذا تريد، أيها اللعين؟"

جاءه صوت إياد الرجولي، وكأنما يحمل وزر العالم:

"اللعنة عليك وعلى من يتصل بك. ابقَ معها، هيا انْقلِع."

أنهى جملته وأغلق الهاتف في وجهه، ضاحكاً بصخب على ردة فعل صديقه. لم يعاود الاتصال، إذ لم يكن لديه وقت لمزيد من المناقشات؛ بل كان كل ما يريده أن يمنح كل وقته ومحبته لمحبوبته الصغيرة.

لم يمضِ سوى خمس دقائق حتى خرجت سلام، مرتدية ذلك الثوب الذي يصل إلى كاحلها، فتألق جمالها في ذلك الفستان الأسود الذي زادها نعومة ورقة. كانت كألوان الليل الهادئة، وأحمر شفاهها البسيط قد جعل ينال يتوق لتمزيق تلك الشفاه بقبلاته. ظل سارحاً بها، غارقاً في خيالاته، حتى شعرت به تنظر إليه باستغراب.

"مابكَ، ينال؟"

سألته.

تحدث ببلاهة، محاطاً بحالة من السحر الذي يكتنفه:

"هل تقبلين الزواج بي؟"

شهقت بخفة، وارتفع ضوء المفاجأة في عينيها. نظرت له بعيون جاحظة، وكان قلبها يتسارع مع كل نبضة، متسائلة عن الجواب الذي ستقدمه. إن كانت مشاعر الحب التي تحملها له حقيقية، لكن هل تستطيع أن تتحمل مسؤولية الزواج في هذا العمر؟

ابتلعت ريقها، وأخفضت رأسها، راقبت ردة فعله في صمت. لم يصدق أنه نطق بتلك الكلمة، وتخلى عن برودته المعتادة. لكن صمتها أزعجه، وكأنه فقد السيطرة على أعصابه:

"حسناً، لا تضايقي نفسكِ. أنا آسف، أنسي الأمر."

نظرت له بحزن، وكأن عواصف قلبها كانت تعصف بكل شيء. لماذا لم يقنعها؟ لماذا استسلم بهذه السرعة؟ لم تكن تريد أن تخسره. وبينما كان يتجه نحو الخروج، أمسكت بيده، وقطعت الخيوط المرصعة بصمتها:

"أنا أحبكَ، ينال."

تجمدت تعابيره للحظة، وبدت عليه صدمة حقيقية:

"أعيدي ما قلتيه، سلام."

ابتسمت بخجل، وكأن الخجل كان يدور حولها:

"أنا أحبكَ جداً، وأريدك أن تتزوجني أيضاً."

كان يكاد لا يصدق نفسه، فقد ملأت عينيه الدموع. أمسكها بين ذراعيه، ودار بها في دوامة من الفرح. عندما أنزلها، أتت يديه لتمسك وجهها برفق، وهمس: "أعشقكِ."

ثم قبل جبينها بشغف قائلاً:

"صدقيني، أنا الآن أسعد رجلٍ في الدنيا!"

احمرت وجنتاها بشدة، لكن ابتسامتها لم تفارقها، وأخفضت نظرها نحو الأرض. فرح ينال، وهو يجرها من يدها خلفه:

"هيا، تعالي لنخبر والدتي، ستشعر بفرحة كبيرة، وسنخبر إياد وحياة أيضاً!"

رافقته، وداخلها تتراقص سعادة العالم بأسره، فهي تشعر ولأول مرة بأنها اتخذت قراراً صائباً في حياتها، وهو قبولها للزواج من ينال.

كانت ريمة جالسة في غرفتها، تحدق في الفراغ بصمتٍ قاتم، وكأن الجدران تتنفس حزنها. كان ضميرها يأنبها بفعل أكثر مما يحتمل، بسبب ما فعلته بشقيقتها. خيانة عابرة كادت تعصف بعلاقاتها العائلية وتترك خلفها أصداءً مؤلمة. وكأن قلبها قد قادها إلى طريقٍ مسدود، حيث لم تفكّر بعقلها، بل تفجّرت عواطفها عند اللقاء، لتجد نفسها في عمق الخيانة، وهي تشعر بأنها قد فقدت كل شيء.

منذ أن أغلقت هاتفها في وجهه، كانت قد قرّرت عدم الحديث إليه مجدداً. أغلقت على نفسها أبواب العذر والاعتذار، ومنذ ذلك اليوم، لم تذهب إلى جامعتها؛ لأنها كانت متأكدة أنه سيكون ينتظرها خارجاً، ينظر إليها بعينين متسائلتين، تريدان تبرير ابتعادها المفاجئ.

تنهدت بقوة، واعتلتها الرغبة في الهروب من أفكارها، فنهضت بتكاسل متوجهة إلى غرفة أختها. دخلت بهدوء، واستقبلتها صورتها النائمة بعمق، وكان صوت أنفاسها يعكس ما أصابها من ألم. اقتربت ريمة منها، ورأت آثار البكاء قد تجمعت حول عيني أختها، فتألم قلبها أكثر. نظرت إليها بندم، وهمست في نفسها:

"أنتِ مجرمة، يا ريمة. يجب أن تصلحي خطأكِ ليعود كل شيء إلى مكانه."

توجهت بنظرةٍ حزينة إلى أختها النائمة، وعادت إلى غرفتها، عازمةً على تدوين ما يجول في خاطرها. أمسكت هاتفها وفتحته، وكأنها كانت تنتظر شيئاً مفقوداً. ما إن اقتحم عينيها الكثير من المكالمات والرسائل من مهند، حتى ضغطت لطلب رقمه دون تردد. لم تمضِ سوى ثوانٍ حتى جاء صوته، مختلطاً بالقلق واللهفة:

"ريمة، حبيبتي، أين أنتِ؟ لماذا فعلتِ هكذا بي؟ لما أغلقتِ هاتفكِ؟ لقد قلقت عليكِ كثيراً. ماذا حدث لكِ؟"

أغمضت عينيها بألم، وفتحت شفتها بصعوبة مغلفة بشيء من البرود:

"أريدُ أن أراك."

تنفس مهند الصعداء، وتحدث بحماس كبير:

"حسناً، في أي وقت؟ أنا متشوق جداً لرؤيتك."

استجمعت شجاعتها وهمهمت:

"نصف ساعة. سأقابلك أمام منزلي."

بدا مهند أكثر سعادة من أي وقت مضى، ورد برغبة واضحة:

"حسناً، سأكون هناك في غضون دقائق. إلى اللقاء."

أنهى المكالمة بسرعة، مغلقاً الهاتف وهو يختار ملابسه بحماس. تنقل بسرعة البرق، ممتلئاً بشوقٍ لا يوصف، غير مدرك للقرار الذي تنتظره منها بعد قليل.

في وقتٍ متأخّر، كان مهند مستنداً على سيارته، عازفاً لحن انتظارٍ مفعم بالسعادة وهو ينتظر قدوم محبوبته. الكل يشهد شوقه الصادق، فقط لأنه سيُعيد رؤيتها. اعتدل في وقفته، ورقص قلبه فرحاً عندما رآها تقترب منه، بينما كانت خطواتها ثابتة ووجهها يحبس مشاعر متناقضة.

اقتربت ريمة منه، وفور رؤيته احتضنها بقوة، اعتصر جسدها النحيل بعناقه، كأن العالم الخارجي لم يعد موجوداً. لكن ما أثار تعجّبه كان عدم مبادلتها لعناقه. ظلت في مكانها، حزينة جداً على ما ستفعله به، لكنها كانت تدرك كذلك أنه لا ينبغي عليها أن تعذب أختها من أجل مشاعر خاصة. لذا، كانت تشعر بثقل الأنانية يئن في قلبها.

فصل مهند عناقه ببطء، مشدوداً إلى تلك الأجواء المشحونة، مستفسراً بحيرة:

"ما بكِ، ريمة؟ ماذا يحدث معكِ؟ تحدثي، حبيبتي."

تنهدت بقوة، وأجابت بنبرة باردة وكأنها تخفي عواطف متناقضة:

"لنذهب من هنا."

أنهت ريمة كلمتها بصوت ضعيف، ثم سارعت لتصعد إلى السيارة. نظر مهند إليها بإستغرابٍ عميق، ثم زفر تنهيدة شديدة قبل أن يتوجه إلى المقعد الأمامي، محركاً السيارة نحو وجهة غير محددة. كانت الأجواء مشحونة بالصمت، مثقلة بالأفكار والهموم، وكأن كل منهما يحمل في قلبه معركة داخلية لا تنتهي. كان مهند يحاول فهم ما يحدث، بينما ريمة جلست بجانبه بلا حراك، تتلاشى في صمتٍ مؤلم.

وصل إلى مكانٍ معزولٍ بعض الشيء، ركن السيارة بجانب الطريق ثم التفت نحوها بنظرة مُقلقة.

"لقد ابتعدنا، ما الأمر ريمة؟ تحدثي."

أخذت نفساً عميقاً، وزفرت انفاساً ثقيلة، أغمضت عينيها كأنها تحاول إغلاق جميع أوجاعها خلف جفونها قبل أن تقول بصوتٍ مهزوز:

"مهند، يجب أن تنتهي علاقتنا."

نظر إليها بصدمة، وكأن كلماتها أسقطته في قاع الهاوية. بدأ قلبه يخفق بعنف من هول ما سمعه، ابتسم بسخرية مفرطة، بينما كانت عينيه تلمعان بالدموع:

"تمزحين، صحيح؟"

ابتلعت ريمة ريقها بصعوبة، وأجابت بوضوح:

"لا، أنا لا أمزح. أريد أن تنتهي هذه العلاقة."

تضعضع مهند، غير مستوعبٍ لرد فعلها المفاجئ:

"لا، لا، ريمة. أنتِ تمزحين. مؤكد أنكِ تمزحين، لن أصدقكِ."

التفت إليه بنظرة مفعمة بالألم، ثم زفرت من أعماقها:

"أنا لا أمزح! أريد أن أنهى هذه العلاقة، والآن!"

ليقول بصراخ مشحوناً بالقلق:

"لماذا؟ ما الذي فعلته لكِ؟ لماذا تريدين تركي؟ تحدثي!"

كان صراخه يطرق جدران الصمت، لكن ريمة لم تستطع النظر إليه. جمدت عينيها للأمام، وهي تواصل النطق بجمود:

"كلانا فعلنا، ولست وحدك. أنا لم أعد أطيق نفسي بسبب هذه العلاقة."

طار قلبه من الصدمة، ونطق باستنكار:

"هل كنتِ تكذبين علي، ريمة؟"

حركت رأسها رافضة، وكلماتها تتراقص في الهواء:

"لا، لكن... شهقت بقوة بسبب دموعها المتساقطة، وبكت بحرقةٍ في عينيها، ثم همست بصوتٍ مهزوز:

"لكنني ندمت على فعلتي هذه. أنت كنت حبيب أختي، وأنا أخذتك منها. لم أكن أفكر بعقل. لقد لحقت أنانيتي، ولحقت أحاسيسي، ولم أفكر سوى بقلبي وبك أنت. لم أفكر بأختي وبجرحها الكبير الذي سببتُه لها بفعلتي، لذلك يجب علينا أن ننهي علاقتنا. أنا لم أعد أحتمل هذه الغلطة."

استمع مهند بسكونٍ قاتم، والألم يعتصر قلبه مع كل كلمة تخرج من شفتيها. كان يعلم أنه قد تسبب بجرحٍ كبيرٍ لها، ولكنه أحب ريمة بصدق ولم يكن له ذنب في تلك اللحظات المعقدة. تحدث بصوتٍ مكسور:

"أصبحتُ الآن غلطة؟"

حاولت ريمة بكل قوتها أن لا تنهار أمامه، فشاركت بكلماتها بلغة جافة، وكأنها تحاول كبح جماح مشاعرها المتفجرة:

"لست أنت الغلطة، وإنما الذي فعلناه هو الغلطة بحقك، وبحقي، وبحق أختي. لذا أرجوك، لننهي هذه العلاقة. مارس حياتك بشكلٍ طبيعي، وانسَ أمري تماماً. اعتبرني كأني لم أكن موجودة في حياتك. أرجوك، إذا كنت تريد أن تصلح غلطتك مع أختي، فسأكون أول الداعمين لك."

ابتسم بسخرية، ونظر إليها بعدم تصديق، كأنه كان يدرك أن كلماته تطلّب مزيداً من الأحلام:

"كيف لي أن أنساكي وأنت روحي؟ كيف لي أن أعيش من دون روحي؟ أعلم بأننا جرحنا مها كثيراً، لكنني أحببتك أنت، ولم أحبها. ماذا أفعل؟ حباً بالله، لا تفعلي هكذا بي ريمة، أنا أريدكِ زوجةً لي، أرجوكِ."

نفت برأسها بحزم، بينما تبتلع الآلام المتراكمة:

"لن ينفع، صدقني، لن ينفع. نحنُ أخطأنا كثيراً، لذا يجب أن يعود كل شيء إلى مكانه."

نظرت إليه بعينيها الملتهبتين، فأكملت حديثها بنبرةٍ مهزوزة، تحمل حمولة مدمرة من الألم:

"صدقني، لقد أحببتك من كل قلبي، لكنني أتعذب كثيراً من أجل أختي. انتبه إلى نفسك جيداً، وداعاً."

أنهت جملتها، وضعت نظرة مطولة على ملامحه، وكأنها كانت تحفظ تفاصيله الحزينة لتبقى خالدة في ذاكرتها، قبل أن تفتح باب السيارة وتغادرها، متوجهة نحو منزلها وقلبها يكاد ينفجر من الحزن. بينما كان مهند يشعر بأن قلبه قد رحل معها، وكأن كياناً كاملاً ينزع منه. كان يرغب بشدة في إبقائها، في الحفاظ على هذه العلاقة، لكنه لم يكن يملك إلا أن يعترف برحيلها..

في عمق مشاعره، كان يدرك أنه لا يريد خسارتها، وأيضاً كان لن يسمح بأن تُفلت منه بسهولة. هو لن يستسلم، ولن يدعها ترى بأنه قد ثبت على الفشل. كان لديه عزمٌ في قلبه، فهو سيحارب من أجل حبها بكل ما أوتي من قوة، ولن يشعر باليأس مهما كانت العواصف التي ستواجهه في الطريق.

رضوخُها لم يكن خياراً في ذهنه، بل كان التحدي كل ما يراه أمامه. على الرغم من كل ما حدث، لم يكن بوسعه أن يتخلى عن الأمل. فقد كانت ريمة في عينيه أكثر من مجرد أن تكون حبيبة؛ كانت روحاً، توأماً تلبس قلبه، ولن يخلعها بسهوله.

كانت حياة تقبع في غرفتها، تدور في دوامة من الانتظار الحالم والشغف المتزايد، وكلما دقّ قلبها في صدور الأحلام، كانت تتمنى أن يكون إياد هو الفارس الذي ينقذها من ملل الحياة. لقد ولدت نقطة حبّ صغيرة لديها تجاهه، وانتشرت عواطفها كزهرة تتفتح مع كل لحظة تقضيها في التفكير فيه. وعندما رأت الجانب الجيد من شخصيته، أدركت أنها قد تعلقت به بشكل عميق.

سمعت صوت طرقات خفيفة على الباب. دخلت الخادمة رباب بابتسامة لطيفة، برفقة امرأة في منتصف الثلاثينيات، وأخذت حياة تعبس بحاجبيها باستغراب، وسألت:

"ما الأمر، رباب؟"

اتسعت ابتسامة رباب أكثر، وكأنها تحمل خبراً ساراً:

"سيدتي، السيد إياد هو من طلب أن تأتي خبيرة التجميل من أجلكِ. لأنه سيدعوكِ اليوم لعشاء خاص. لقد انتقى لكِ الثوب الذي سترتديه، وقال إنه يريد أن يراكِ جاهزة عندما يصل."

نظرت لها حياة بتعجب:

"ولكنه لم يخبرني."

اقتربت رباب منها وأمسكت يدها لتنهض بها، وجذبتهما نحو الحمام:

"أجل، سيدتي، لكنه اتصل وأمرني بذلك الآن. لذا يجب عليكِ أخذ حمامٍ سريع، لتستعدي لاستقبال خبيرة التجميل. هيا، من فضلكِ."

أنهت جملتها وهي تدفع حياة إلى الداخل، وكأنها تتعامل مع ملكة تحتاج إلى تجهيز في حفل آسٍ. نظرت حياة لها باستغراب، لكن رباب أغلقت الباب عليها بلطف، مما جعل القلب يتدفق في صدر حياة، تنهدت بقوة ثم أخذت حماماً سريعاً، تمنياتها ترافقها خلال لحظات الانتعاش.

بعد مرور بعض الوقت كانت خبيرة التجميل تضع لمستها الأخيرة على وجهها، بمجرد أن رأت نفسها في المرآة، تفاجأت. بدت وكأنها تجسد كل معاني الأنوثة والبراءة، ارتدت الثوب الذي زادها روعةً، بينما تميزت بمساحيق التجميل الخفيفة التي أضفت لمسةً حالمة على ملامحها.

في تلك الأثناء، كان إياد في مكتبه، مشغولاً بأشغاله، وعقله غارقٌ في التفكير. تنهد بقوة، وعندما سرحت أفكاره، ارتسمت ابتسامة ماكرة على محياه. كان يتوق إلى اليوم الذي كان قد خطط له، رغم علمه بأنها بريئة، إلا أنه التزم بمخططاته.

مضى بعض الوقت، وعاد إياد برجاءه إلى الخلف، متنفّساً بعمق بعد يومٍ شاق. نفخ خديه، ثم نهض بتكاسل، متوجهاً إلى منزله، مشدوداً بشوقٍ حارق لرؤية كتلة الجمال التي كانت تنتظره.

عندما اكتملت حياة من التجهيز، عمدت بخطوات واثقة نحو المكان الذي نشر فيه شغفها، حيث كان الوسيم ينتظرها بفارغ الصبر. بدا كالأمير في بذلته السوداء الفاخرة وقميصه الأبيض اللامع. أضفت تسريحته الأنيقة على مظهره سحراً بلا حدود.

عندما هبطت إليه، ارتسمت على محياها ابتسامة صغيرة، وعند اللحظة التي رآها فيها، ابتلع ريقه بتوتر، وأغمض عيناه متمنياً تهدئة نفسه كي لا يرتكب زلة تخيفها، ويقضي على خططه تماماً. نظر إليها بانبهار، ثم مد يده ليأخذ يدها ويقبلها برفق، ليجعل قلبها ينبض بخفقان جديد.

ابتسمت له خجلاً، وتحركت جانباً، مما جعله يحرك رأسه بمعنى:

"هيا، لنذهب." تشابكت أصابعه بأصابعها، وتوجه بها إلى مكان سيُذهل حواسها، حيث أدركت أنها ستفقد عقلها من روعته. في قلبها، كانت تستشعر أن تلك الليلة ستكون بداية فصل جديد في حياتها، حيث ستحقق أحلامها بانتشاء بين اللا محدود.

بعد فترة وصل إياد إلى المكان الذي كان متأكداً أنه سيبهج حياة. ركن سيارته بجانب الطريق، ثم نظر إليها بابتسامة محبة، تلك الابتسامة التي كانت تعبر عن كل ما يجول في قلبه من مشاعر. بادلته حياة تلك النظرة، مستفسرة بفضول:

"أين نحن؟"

مد يده وأمسك بيدها برقة، وقبلها قائلاً:

"نحن في مكان منعزل عن العالم، مكان خاص بنا. أنا متأكد بأنه سيعجبكِ جداً."

أنهى جملته بعيونٍ تلمع بالأمل، ثم سرعان ما هبط من السيارة وتوجه نحو مقعدها ليفتح باب السيارة لنا. نظرت إليه بابتسامة خجولة، وبحماس طفولي، نزلت من السيارة، ملتفة حوله لتصاحبه إلى وجهة لم تكن تعرفها.

سار معها بخطوات واثقة، وطلب منها أن تغمض عينيها. طاوعته بقلق نوعاً ما، ولكن الجاذبية التي كان يحيطها بها جعلتها تشعر بالأمان. بدأت خطواتها تتسارع في السكون مع كل نبضة قلب تشدها إلى ما هو قادم.

بعد دقيقة تقريباً، توقف إياد عن السير، وقال بصوت هادئ:

"افتحي عينيكِ الآن."

عندما فتحت عينيها، اتسعت عيناها بقوة، لتسجل في ذاكرتها مشهداً ساحراً. لقد كانت أمام شاطئ البحر، حيث كانت الأمواج تتراقص برفقة نسيم البحر، وزين المكان بأبهى الزينة والورود المتناثرة التي كانت تتلألأ تحت ضوء الشمس الغاربة. انتفضت مشاعرها بين العجب والدهشة عندما رأت عظمة المكان، وشهقت بفرح:

"يا إلهي، ما أجمله! حقاً، المكان جميل جداً، إياد!"

اتسعت ابتسامته عندما رأى السعادة تشع من وجهها، فمد يديه باحتضانها من خصرها، كأنه يؤمن لها كل سعادة العالم، وقال:

"سأفعل أي شيء لأراكِ سعيدة، حبيبتي."

شعرت حياة بالحب يطغى عليها، وعندما نظرت في عينيه، ردد هو:

"ألا تريدين العشاء؟"

أومأت برأسها بابتسامة، وهو يقودها نحو الطاولة التي كانت ممتلئة بما لذ وطاب من الأطباق الشهية. جلسا معاً، وكلما بدأوا في تناول الطعام، كانت عيون إياد لا تنزاح عن حياة. كانت هي تتأمل جمال المكان الذي أحاط بهم، حيث نسمات الهواء كانت تنشر العطر بين ضحكاتهم.

استمتعوا بالأجواء الحالمة، حتى قرر إياد فجأة أن يطلب منها شيئاً مختلفاً. نظر إليها بعناية، وقال:

"هل تودين الرقص؟"

لم تمانع حياة، فكان قلبها يدق بشغف. خطت نحو إياد، وتعانق جسديهما على أنغام الأغنية الرومانسية التي تغمر المكان. في تلك اللحظة، تمايلت خطواتهم برقة، بينما كانت الابتسامة تعلو وجه حياة. شعرت بالسعادة في قلبها، وكأن كل شيء حولها قد اختفى، ليصبحا هما الوحيدان في هذا العالم الساحر.

دورانهم كان مفعماً بالحياة، وجعلها تشعر بأنها في حلم لا ينتهي، حيث كانت تدور حول نفسها وكأنها تشارك الكواكب برقصتها الرقيقة، وهي تحتضن لحظات السعادة الخالصة برفقة من أحبّت. كانت التجربة مذهلة، تغرقهما في عالم من الحب الحقيقي، حيث تعددت الألوان والأصوات، تاركة في نفس حياة لمسة من السحر لن تُنسى أبداً.

ومع عودتهما إلى المنزل، زينت الابتسامات وجهيهما، ودخلا إلى غرفتهما في حالة من الفرح والبهجة. كانت حياة تتوق إلى خلع كعبها العالي الذي آلم قدميها، لكن قبل أن تتمكن من القيام بذلك، أمسك إياد بيدها برفق، واحتضنها كما لو كانت أعز كنز لديه، مما جعل ابتسامتها تتوسع.

أطلق إياد كلمات في همساتٍ حانية، صوته خافت ولكنه مليء بالعاطفة: "أعشقكِ، حياة."

ابتسمت بخجل، وكانت عيناها تتلألأان، وردت برقة:

"وأنا أيضاً."

وكأن ما سمعه كان أبهى من أي لحن، فسأل بعدم تصديق:

"ماذا قلتي حياة؟"

نظرت له بعينين مليئتين بالحب، وقلبها ينبض بسرعة، ثم أجابت بشجاعة:

"أنا أيضاً أُحبكَ."

تسارعت نبضات قلبه، وابتسم ابتسامة مشرقة، اقترب منها وامتلك شفتيها بقبلته العميقة. استجابت له بحماس، وكأن العالم توقف من حولهم، حتى ابتعد عنها بعد فترة قصيرة، وصوته يلهث من شدة المشاعر:

"أنا لم أعد أحتمل."

نظرت له ببراءة، ولم تنطق بكلمة واحدة، لكن عيناها كانتا تتحدثان. حملها بين ذراعيه بخفة، كأنها نسمة هواء، ليضعها برفق على السرير ويسقط عليها ضوء القمر الذي تسلل عبر النافذة.

كان قلبها قد بدأ ينبض بقوة عندما وقعت عيناها على نظرة الرغبة التي كانت تشع من عينيه. أدركت حينها أن ليلتها لن تمر على خير أبداً. جلس بجانبها، اقترب مرة أخرى والتقط شفتيها، فتبادلوا القبلات بلطف، وكل منهما يشعر بأنهما في عالمٍ آخر.

لكن، حينما بدأت تداهمها نواقيس الخطر، شعرت بيده تفك سحاب فستانها برقة، فتراجعت بسرعة وسقطت كلماتها كرجفة خافتة:

"إياد، أرجوك."

ليقول بشغف:

"أرجوك، دعي نفسكِ لي فقط هذه الليلة."

كان قلبها يدق كطبول الحرب، بين رغبتها في الاقتراب منه وخوفها من المجهول. نظرت له بخجل، فأخرجت أنفاسها وهمست:

"حسناً."

نظر إليها بحب عميق، وابتسم بحماس، ليضع جبينه على جبينها، ويهمس في أذنها كأن كل كلمة هي سرٌ يشاركانه:

"سلميني نفسكِ."

تغلغلت أصوات الشغف إلى روحيهما، ومع كل همسة كانت تتمزق الستائر بين الخوف والرغبة، حيث كان كل منهما يدرك أن هذه اللحظة كانت تحمل في ثناياها الكثير من المشاعر المعقدة، بين الحذر والإثارة، في انتظار الكشف عن أنفسهم الحقيقية في أحضان بعضهما. أصبحت الغرفة شاهدةً على سحر تلك اللحظة، حيث تجسدت الرغبة بكلمات، والأحلام أصبحت قاب قوسين أو أدنى من التحقيق.

مرت ثلاثة أشهر على قصة حبّ حياة وإياد، أشهرٌ شهدت تلك الأوقات السعيدة، حيث كانا يعيشان أجمل اللحظات، ويرسمان معاً أحلامهما في باحات الأمل. كانت العيون تتحدث بلغة لا يفهما إلا هما، وقلوبهم تتراقص على لحن الانتماء، لكن خلف تلك السعادة الوردية، كانت هناك غيوم قاتمة تخيم على سماء العلاقة.

لم يستطع إياد أن يتراجع عن قرارٍ كاد يعصف بمستقبلهما، فهو يتأرجح بين مشاعر الحب والسيطرة، بين رغبته الحقيقية في حياة هادئة مع حياة وبين مخاوفه المصطنعة التي تجذبه إلى هوةٍ عميقة. في الصباح الباكر، وفي غمرة العمل وضغوط الحياة، يُقنع نفسه بأنه لا يحبها، وأنها مجرد تسلية تمر بها اللحظات، لكنه سرعان ما يعود إلى منزله، ليجدها بانتظاره، تلك الابتسامة الرائعة كفيلة بإذابته من الداخل، ليقف أمام مرآة مشاعره، ويعترف لنفسه بأنه متعلقٌ بها حتى النخاع، وأن حبها قد اجتاحت كل زوايا قلبه.

أما حياة، فقد أصبحت بالنسبة له النور الذي ينير دربه، لكنها أيضاً كانت تواجه عواصف غير مُتوقعة. كانت تشعر بغيرة إياد كعاصفة تُعكر صفو البحيرة الهادئة، فهو لا يدعها تخرج إلى أي مكان دون إصرارٍ على مرافقته، ولا يسمح لها بالتحدث مع أحدٍ بحجة حمايتها، عائداً إلى إيمانٍ مضلل بأنه يهتم بها، بينما في الحقيقة، كانت نظراته تشي بأنه لا يثق بها كما ينبغي.

تأقلمت حياة مع طباعه المتقلّبة، وكأنها تُتعلم في مدرسة الحب القاسية، فكل ساعة تأتي بمزاجٍ مختلف، بين الغضب والهدوء، بين ابتسامةٍ عابثة ووجهٍ عابس. لم تعد تتذمر، بل رأت في ذلك حكاية مضطربة تُحاكي قصص الأساطير القديمة. كانت تسير على خيوط من العاطفة، تتدرب على ضبط انفعالاتها، مُحاطةً بحبه في أكثر أوقاته عنفاً، مُستقبلَةً كل أشكال العنف في فراش الحب برحابة صدر، وكأن الأوجاع التي يسببها لها لم تكن سوى جزءٍ من رقصتهم المحمومة.

في زوايا عقلها، كان يتردد تساؤلٌ مُتعب: هل هو يستخدم جسدها لتفريغ شحناته السلبية، أم أنه هكذا من الأساس مثقلٌ بأعباءه وروحه المنكوبة؟ لكن كلما رأته أمامها، كانت تنسى كل ماهو مؤلم، تركض نحوه وكأنها تبحث عن مأوى، متشبثةً به كغريق ينجو من بحرٍ عالٍ. لم يكن إياد يدرك تماماً عمق خيوط هذه العلاقة، فهو يغوص في دوامة من المشاعر المتقلبة، يشعر بالخزي من أفعاله تجاهها، وعجزه عن السيطرة على عنفه المتفجر.

لكن رغم كل ذلك، كانت ثقته بها تمنحه أماناً غريباً، كأنه يظن في داخل نفسه أنها ستظل تتحمله، بكافة تقلباته وأحواله. بقلقٍ يرفرف في قلبه، بدأ يتساءل: هل سيظل أسير أفكاره السوداء، أم سيجد الطريق إلى الفهم، إلى الإقرار بقيمتها؟ أم أن الوقت قد حان لتلك الفتاة الرائعة أن تكون في عالمٍ أفضل، بعيداً عن صراعه الداخلي؟

هكذا، استمرت القصة، تحيا بين ظلال العواطف المتناقضة، بين لحظات السعادة وبين جنون التساؤلات التي قد تقودهما نحو غموضٍ لا يُدرى إلى أين سيوصلهما. ففي كل لحظة، كانت حياة وإياد على حافة الاختيار، بين الحب والألم، بين الشغف والخوف، ينتظران لحظة القرار التي ستُعيد ترتيب أيامهما وتُغير مجرى حياتهما إلى الأبد.

كانت حياة ريمة ومها تسير بهدوءٍ كما تسير الأنهار في صباح يوم مشمس؛ روتين يومي يُبنى من تفاصيل صغيرة وأحاديثٍ عرضية، لكن خلف ذلك السكون، كانت هناك عواصف تختمر في قلوب الأختين. لم تتداخل حياتهما كثيراً، فكل واحدة منهما كانت تنسج عالمها الخاص، لكن ظل الغموض يلوح في الأفق، فكلتاهما تُفكران في الشخص ذاته: مهند.

ريما التي تمشي في أطراف الحزن، قلبها يشعر بثقل الأنين الذي لا يُطاق، بعد أن غادرت مهند. لم تستطع أن تنساه، بل على العكس، كان كل يوم يمر يُجدد تعلقها به كزهرة تحاول التمسك بحياةٍ عبر أشعة الشمس، لا تتراجع بل تحارب الندم الذي ينهش روحها. تبكي ليلاً، تبتلع القهر والندم، وكأن الدموع هي الهواء الذي يتنفسه قلبها المثقل.

في كل صرخة يا ليتها لم تكن هناك، تُخشى الشوق المتلاطم على الجذور. كانت تتذكر ضحكاته، والكلمات التي تحوّلت إلى خنجر في قلبها، ودائماً ما كانت تشعر بالذنب تجاه أختها، كأنها سرقت منها شيئاً عزيزاً.

أما مها، فقد كانت تعيش في منطقة محصورة بين الحب والألم، تعاني في صمتٍ، لكنها كانت مُوقنة بعمق العلاقة التي تربطها بأختها. ورغم الألم الذي شعرت به بسبب الخيانة، كانت تُدرك تماماً أن ريمة لن تخسرها من أجل شابٍ لم يعرف قيمتها، فهي الأخت، والشقيقة، والصديقة. استطاعت أن تعيد ترتيب أولوياتها، فقد كانت مقتنعة أن الحب يمكن أن يعوض، لكن الأخت لا يمكن تعويضها. لذا، لم تتردد في احترام مشاعر ريمة، حتى أنها لم تخبرها بشعورها المتضارب حين علمت بانفصالهما. لم تكن تبدي شماتة، بل كانت تواجه فراغاً عاطفياً بارداً يسكنها.

ومع انغماسها في عواطفها السلبية، كانت تتقطع من الداخل عند سماع صوت بكاء ريمة، لكن بطريقةٍ ما، كانت تأمل أن تُحدث تلك الدموع تغييرات في قلب أختها، لعله يوقظ ضميرها الغارق في الظلمات. كانت تشعر بأنها بحاجة لمن يرسم حدوداً خلال هذه الفوضى، فهي لا تسعى لإساءة، بل تريد من ريمة أن تتعلم درساً قاسياً. وفي تلك الأوقات العصيبة، لم تعد ترى مهند كحبٍ خالص، بل تحول في نظرها إلى رمزٍ للخيانة. لم تكرهه، بل كرهت ما فعله. كان حكمها أن تحتفظ بمسافة، وأن تتخلى عن كافة المشاعر المرتبطة به، كأنها تُعالج جروح قلبها برسم حدودٍ صارمة.

بينما كان مهند، ذلك الشاب الذي ذاق مرارة الحب، يدور في دوامة من الإحباط والرغبة، حاول مراراً وتكراراً طرق أبواب قلب ريمة، لكن كل محاولاته كانت تصطدم بجدار من التمنع؛ فهي تُوقفه عند حده، مُحكمةً على قلبها أفكاره وذكرياته. ورغم تكرار المحاولات، لم يشعر باليأس، بل كان يأمل أن يعودا كما كانا، كان يُبادل قلبه الشغف لروحٍ تنفر منه، دون أي إدراك لو أنه يتكرر كالألم.

وفي ذلك الظل الكئيب، جاء حسن، شقيق ريمة ومها، الذي كان بعيداً عن الوطن، يتواصل بشكلٍ نادر ولا يكاد يعرف عن حياتهم شيئاً. قرر العودة إلى البلاد، آملاً أن يجد التوازن بين عائلته ومعاناتهم. ولكنه أيضاً كان يشعر بالقلق على شقيقتيه، خاصة مع الصراعات الداخلية التي كانت تشعل نار الخلاف بينهما.

لقد كان كل شيء كعاصفةٍ متجددة، تُلقي الظلال على كل ركن في حياتهم، مما يجعلهم يتساءلون: هل سيجدون طريقة للشفاء والعودة إلى الحياة التي كانوا يعرفونها، أم ستظل دوامة الألم تُلاحقهم كظلٍ لا يفارقهم؟ هناك شيء وحيد مؤكد، أن الحب والمودة، مهما كانت مؤلمة، سيبقيان في صميم قلوبهم، ففي النهاية، هم عائلة.

تسير حياة سمر، بحرارة متلونة بين خيبات الأمل وطموحها الخفي. طاغية الغيرة تحرق جوانب روحها، فقد علمت بأخبار ابنتها، تلك الأخبار التي تجلّت في سعادة حياة وزوجها. تجلّت تلك السعادة كفجرٍ مشرق يناقض ليلها الدامس، مما أثار في قلب سمر مشاعر الحسد والحقد تجاه زوج ابنتها.

تتراءى أمام سمر صورة عائلية مكتملة، ولكنها تعتبرها دار الحزن في معبد مظلم. كالعاصفة المدمرة، تتخيل كيف يمكن أن تشقّ صفاء حياته وتزرع فتنة بينهما. وعندما تنوي الاقتراب من ابنتها، يُصطدَم خططها بجدار صلب، ألا وهو إياد، الذي وقف أمامها كالحجر، ينافح عنها بغيرة. كلما اقتربت منه، كان ينظر إليها بعينين زاجرتين، وكأنما يتلو عليها حكم الإبعاد.

لم يكن حسان أقل انشغالاً، فقد انزوى بعيداً عن سمر، إذ أصبح استياءه من طريقتها السلبية في رؤية الأمور صاعقاً له. في زوايا قلبه، خفقت الرغبة في الابتعاد عن تلك المرأة التي انهمرت دموع الغيرة من عينيها كلما تذكرته. تلك الفكرة، كيف كانت تسيطر على أحلامها وكوابيسها، دفعته إلى صراخ مدوٍ في وجهها، حيث أطلق كلماتٍ جارحةً:

"أنتِ مجنونة! لا يمكنك استعداء ابنتك بهذه الطريقة!" انتهت تلك الجلسة بالاحتدام، واختفت ملامح الانسجام بينهما، فقد أمضى شهراً كاملاً يتجنب حديثها، كأنه يقطع شرايين العذاب عن قلبه، وقد أغلق هو كل الأبواب أمام عودته إليها، رغم محاولاتها المتكررة.

في هذه الأثناء، كان رائد قد قطع عهداً لنفسه بأن يحقّق مخططاً انغرس في عقله كجرحٍ عميق. في أعماق قلبه، كانت فكرة استعادة سلام تُشعل في صدره لهيباً من الأمل المتمرد. لكنه لم يكن يدري أن حياتها ستكون قريبة من عتبة زواجٍ سعيد، زواج لم يكن في حسبانه.

أما ينال وسلام، فقد غدوا يرقصان في سعادة مطلقة تحت سماء الأحلام، كلما نظرا إلى عيونهما، كان إشعاع الحب ينعكس بينهما. كانا يقومان بتجهيز لحفل زفافهما المرتقب بفارغ الصبر الأسبوع المقبل، وكأنما الزمن بأسره توقف ليشهد تلك اللحظة. كان إياد وحياة يشاركانهما تلك الفرحة، يتمنيان لهما سعادة أبدية، ملؤها الأحلام والأماني والضوء.

ها هو اليوم الموعود الذي أشرقت فيه الشمس مبشّرة بحفل زفاف سلام وينال، حيث اجتمع الأهل والأصدقاء في أجواء من الفرح والسرور. كانت القلوب ترقص على أنغام السعادة، تضطرب بالحب والتوتر في خفقان سريع كنبضات الطبول. وينال، ذلك الشاب الوسيم الذي أسر القلوب بجماله وطيبته، كان هو الأكثر توتراً بين الحضور، كأنه يعيش لحظات قبض الروح. كيف لا، وهو يتهيأ للاقتراب من سلام، تلك الطفلة التي ملكت قلبه وعقله، ونسجت بينهما خيوط الفرح والأمل.

كانت سلام مشغولة بسعادة زفافها. هي فتاة جريئة، تتسم بالثقة والإيجابية، حيث كانت تجلس بتألق، وكأنما الشمس قد اختارت أن تشرق لإضاءة جمالها. لم يكن في قلبها أي مكان للخوف أو القلق، فقد كانت مطمئنة تماماً بمشاعر الحب التي تجمعها مع ينال، ومتلهفة لتبدأ رحلتها الجديدة معه. كل التفاصيل المتعلقة بالزفاف كانت قد اكتملت، ونسيم الفرح يرفرف حول القاعة وكأنما يحتفل معهما.

وفي تلك اللحظة، بينما كان إياد يقود سيارته بسلاسة، رافقته حياة، التي اعتادت أن تكون بجانبه. اختلطت أصوات الضحكات بأصوات المحركات، لكن شيئاً من الهدوء ساد بينهما، إلى أن قطعت حياة الصمت قائلة:

"إياد، لماذا أصريتَ على أن أرتدي ثوباً أبيض؟ هل أنا العروس اليوم أم سلام هي العروس؟"

تجلى الضحك في عينيه كمصباح يسرد قصص السعادة، وهو يجيب بنبرة مليئة بالعاطفة:

"أجل، حبيبتي، لأنني أريدكِ أن تكوني عروساً أيضاً اليوم."

ثم أطلقت ضحكة رقيقة كنسيم الربيع، وتابعت بتساؤل واضح:

"ولماذا تريد ذلك يا حبيبي؟"

أمسك يدها بحنان، وقبلها بلطف، ونطق بصوت هائم عميق:

"لأنني أريد هذا يا مدام إياد معين. احضنيني بحبك، احتفل بي وبك."

انتابتها سعادة غامرة، فردت عليه بدرامية ملوءة بالحب:

"أووه، هذا كثير، أليس كذلك؟"

ضحكا معاً بصوت عالٍ، كأنهما يحاولان تحويل كل قلق وفكر إلى فرح صاخب

بينما تتراقص جدائل الفرح في الهواء، كان الجميع في انتظار دخول العروسين، وكانت قلوبهم تتلهف لرؤية الحلم يتحقق، ما هي إلا دقائق، ويمتد السحر ليطوق المكان بأكمله، معلناً عن بداية فصل جديد من الحياة.

كان ينال يقف في زاوية الصالة، شخصية محبوبة ورجولة صاخبة تتجلى في ملامحه الواثقة، لكن التوتر كان ظاهراً في عينيه مثل سحاب داكن يهدد بالانفجار. قلبه كان يقرع كجرس معزوفات الشوق والقلق، ينتظر لحظة دخول سلام بفارغ الصبر، كأنما تلك اللحظة ستحدد مصيره.

وفي تلك الأثناء، دخل إياد برفقة حياة، مما سرى كتيار كهربائي في الصالة. توجهت الأنظار إليهما جميعاً، وكأنما هما نجمان يتلألأن في سماء احتفالية. كان إياد يتألق بجاذبيته ووسامته، بينما حياة بدت كفراشة ملونة، تجسد الجمال والروح. نظرات الفتيات اتجهت نحو إياد، بينما الشبان لم يستطيعوا إبعاد نظرهم عن حياة. شعورٌ من الغيرة يحتدم بينهما، حيث كان كل واحدٍ منهما ممسكاً بيد الآخر، وكأنهما يعلن العالَم عن تمسكهم ببعض.

توجه إياد وحياة إلى ينال الذي وقف جنب والدته ورجلين لم يعرفهما. ألقت والدة سلام التعليقات حول جمال حياة وحيائها، مما جعل الغرور يشع في قلب إياد، الذي تباهى باختيار زوجته التي تستحق أن تضيء حياته.

وعندما انفصل إياد عن حياة لتأتي اللحظة المضحكة، وقف ينال إلى جانب إياد، ووجه إليه نظرة مشوبة بالتوتر والقلق:

"لماذا تأخرت أيها اللعين؟ لقد أخبرتك أن تكون أول الناس في هذا الزفاف كي لا تتركني وحدي."

ابتسم إياد بابتسامة استفزازية، قائلاً بلا مبالاة:

"كنت مشغولاً مع زوجتي."

تمتم ينال بشيء من الغضب:

"اللعنة عليك! كان يجب أن أراك هنا!"

نظر إليه إياد ببرود، ثم قال:

"سمعتك، ولا تنسى أنني هنا لمساعدتك."

احمرَّ وجه ينال، وتوسل بحاجته الماسة:

"إياد، أرجوك، ساعدني. ماذا أفعل؟ أشعر بالتوتر. ماذا أفعل؟"

كتم إياد ضحكته بصعوبة، ثم قال:

"اهدأ، لا تخف، ستأتي الآن زوجتك، وستزيل توترك نهائياً."

نظر ينال إليه بغضب وحنق، ليقول إياد وهو يضحك:

"ينال، لا تفسد اليوم بمظهرك القاتم. يجب أن تكون رجلاً، كما اتفقنا."

برزت عروق جبهته من الغضب وهو يرد:

"اغرب عن وجهي، أنت غبي وتافه!"

لكزه ينال بلطف، محاولاً طمس التوتر بعناصر الدعابة، وفجأة تصدرت حياة المشهد بابتسامة صغيرة، متسائلة عن الحوار بينهما. غمزها إياد بحركة عفوية، مما جعلها تبتسم بخجل وتبعد نظرها عنه، بينما ظل ينال بينهما كالأبله، متسربلاً بسلسلة مشاعره المتضاربة.

ثم، فجأة، تنامت الأصوات بين الحضور، وبدأت الأضواء تتجه نحو كتلة الجمال التي كانت تسير كالحلم في وسط الحضور. سلام، بفستانها الأنيق، كانت تجسد الأنوثة والجمال بكل الأبعاد، وقلبها كان يدق بشغف ليس من الخوف، بل من السعادة والاستقرار. استقبلها ينال بابتسامة واسعة، اقترب منها ليقبل جبينها، كأنه يحتفل بها وبسحرها، وتوجها إلى منصتهما ليتعاهدا بحبٍ أبدي.

بأسلوب رقيق، كانت عينا إياد تتابع فرحة صديقه، وهو يغمره شعور السعادة الأبدية الذي تمنى له كل الخير. وبعد وقفة قصيرة، ابتدأ حفل الرقص، حيث اقترب إياد من حياة، التي انشغلت بالتحدث مع أفراد عائلة ينال، وأمسك بذراعها ليأخذها برفق إلى حلبة الرقص، منتهزاً تلك اللحظة الثمينة تحت نظرات الفتيات الحاسدة.

"يا إلهي، كم أنه وسيم!"

انطلقت إحدى الفتيات بالحديث، موجهة نظرها إلى إياد، بينما لبست ملامح الغيرة أوجه كل الحاضرات، تلك الغيرة التي تشكلت في عباءة السعادة في الداخل، وكأنها تُغذّي شغف الحفل بأسره.

ضحكت الفتاة الأخرى، قائلة:

"أجل معك حق، لكن لن ينظر إليكِ؛ فالحب الذي يحمله لزوجته يضيء كالشمس في كبد السماء."

امتعضت الفتيات من تلك العبارة، ثم تقدّمت واحدة منهن، وقد بدا عليها غرور لم تخفِه، لتضيف:

"هه، أصلاً ينال أجمل وهو أجمل من زوجته، أعني إنها ليست قبيحة، لكن ينال يتفوّق عليها بوسامته بشكل يُذهل. حقيقة واضحة للجميع."

أومأت سائر الفتيات في تأييدٍ مستتر، بينما انطلقت أخرى، تُظهر ابتسامة براءة، لتؤكد:

"كلاهما جميلان، ولا يمكن إنكار ذلك! وبطرائق متعددة، يمثلان ثنائياً رائعاً"

تهجمت بعض الفتيات في صمت، ثم استدارت منار، الفتاة المغرمة بينال، والتي طالما شعرت بأن عواطفها تُقابل بالصد، كأنها كانت تحاول عبور جسر غير مرئي بين قلبين. تحاملت على نفسها لتقول بغلٍّ ظاهر:

"يا إلهي! لا تذكريني بذلك الساذج! لقد اختار تلك الحمقاء، بينما لا يعطي نظره إليّ، وأنا أجمل منها، أليس كذلك يافتيات؟"

توالت الأصوات، بين مُوافقٍ ومُتصنع، فقط لتجنب إحراجها. وبدت منار وكأنها تُعد العدة في خفاء، بينما أضافت بحماسة متصاعدة:

"لكني لن أتركهم في سعادةٍ أبداً! سأريهم من أنا، وسأعيد ينال لي، هو لي فقط."

ما لبثت براءة أن انتزعت ضحكة من بين كلماتها، قائلة بنبرة طيبة:

"لكن، عزيزتي، لم يكن له نصيبٌ منكِ ليعيدكِ إليه، الكلام يتراقص في الأذهان، لكنه بعيدٌ عن الواقع."

فجأةً، زاد ظلام عيون منار، وتوجهت لتلقي التحية على العروسين، اقتربت وتحدثت بنبرة خافتة، تتلو على أذن سلام همسات الغيرة:

"لا تظني أنكِ قد استحوذتي عليه، فهو لي وسيبقى لي. ستجدي ذلك قريباً، انتظري فقط."

سالت الضحكات من عذوبة سلام، وهي مشدودة الأنوثة، إذ قالت بتلك النغمة العذبة والحاقدة في آن:

"منذ كنت في الثانية عشرة، كان لقائي معه مقدراً ياصغيرة، انظري كيف يزهر السعادة بوجهه، يغمرني بفرحه أدامه الله، لم يكن بوسعي إلا أن أظفر به، أخذته منكِ، بحضوركِ وغيابك."

جاءت جملتها كفعل مُتحدثٍ بوضوح، لتلمح بعينيها نحو منار، متصنعةً عاطفة السخرية التي أثلجت قلبها، بينما لم تتجرأ منار على الانهيار، رغم أن جميع مؤشرات الانكسار كانت واضحة في عينيها. وأمام الفتيات ووقفن كمشاهدين مسمرين، انطلقت سلام لتُمسك بيد ينال، بحركة تنم عن دلالٍ فطري، ثم تواصلت، قائلة:

"حبيبي، دعنا نغادر، لقد أرهقني الزفاف والمباركات، أريد العودة إلى بيتنا."

نظر ينال إلى سلام، فعضّ على شفته السفلى، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة تحمل في طياتها شغفاً وحيرةً:

"فوراً، ياقلبي، سنذهب!" قالها بحماس، وكأنما يحاول تخفيف ضغوط اللحظة.

لم يكن ينال ذلك الرجل الذي تستطيع أي امرأة بدلالها جذب قلبه بسهولة، فقد كان عارفاً بدقائق الأمور ومفاهيم الحب، وكان يدرك ما تعنيه سلام بكلماتها. كان يستمتع بمزاحها، فقد أراد أن يرد على تحديها ويغيظ بنات أعمامه، وهو ما استطاعت سلام إدراكه، فابتسمت له بابتسامة ماكرة، تلك الابتسامة التي تُشعل القلب.

تجمدت مشاعر منار أمام هذا المشهد، فاجتاحت عيناها في غضب وحرقة حين انتسبت لتلك الصورة السعيدة. توقفت عن مداعبة الأفكار وقررت ملاقاة والدتها، فباتت تبحث عن ملاذٍ بعيد عن استفزاز سلام. بينما لم يكن بوسع الفتيات سوى كتم ضحكاتهن المتخفية، كالشمس بين الغيوم، تبتعد عن الأعين ولكن تظل ماثلة.

تقدم إياد وحياة نحو ينال وسلام ليباركا لهما، وفي تلك اللحظة، تعانقت سلام بحميمية مع حياة، وما لبثت عيناها تدمعان، فتلك المعانقة كانت كعناق أختٍ من أخت، تحمل بين طياتها صدق العواطف، تحت ما يُعرف بالعلاقات الحميمة. ضحك إياد سراً، محاولاً احتواء ضحكته وهو يرى براءة ينال وهو يتلوى بين الحيرة والتوتر، ليجس النبض ويتحدث:

"إياد، ماذا ينبغي لي أن أفعل الآن؟"

"يا رجل، عار عليك،"

قال إياد وهو يضحك: "زوجتك تعبر لك عن رغبتها في الذهاب إلى البيت، بينما أنت تعود إليّ بأسئلتك! عذراً، لكنني لا أريد أن أتحمل همومك!"

احتقن وجه ينال من الغضب، متجاهلاً الدعابات:

"اللعنة عليك"

وما إن انتهت حفلة الزواج، عاود الجميع إلى منازلهم، وفي مقدمتهم ينال وسلام.

بالوصول إلى منزله، دخل ينال برفقة سلام، التي بدت في قمة سعادتها، لكنه كان غارقاً في توتر خامر قلبه. بينما استقرا في أجواء مساحتهم الخاصة، توجه كل منهما لتغيير ثيابهما والتوجه نحو العشاء، وهنا تشاركا في تجربة إطعام بعضهما، وبينهما كان الانسجام يسري كما لو كان ولادة نغمة جديدة.

بعد العشاء، انتقلا إلى غرفتهما ليحلما في عالم خاص بهما. اقتربت سلام، لتضع يد ينال برقة على كتفها، وهي تحتضنه بدفء ملحوظ. كانت نظراته تُشع بالحنان والحب، فأجابت سلام بصوتٍ ناعم:

"حبيبي، هل كانت منار تحبك من قبل؟"

ابتسم ينال بتلك الابتسامة التي تعكس عمق المشاعر، ليقول:

"نعم، وما زالت تشعر بذلك."

تجمدت تعابير وجهها، واحتقن وجهها بحنق:

"وأنت؟"

فلاحت منه لمسة من غباءٍ متعمد حين أدعى البراءة بجوابه:

"أنا ماذا؟"

تنهدت بحدة، فكانت تُحاول الضغط على أعصابها بأدق الأشكال:

"هل تحبها؟"

فضحك ينال على تصرفاتها الغاضبة، ليجيبها بكل حب:

"أنا أحب فتاة واحدة فقط، وهي صغيرتي وحبيبتي، وكل ما أملك في هذه الدنيا."

تسارع قلبها بالنبض وامتلأ وجهها بابتسامة واسعة لم تُكن قادرة على إخفائها، ولم تُرد أن تعلق على كلامه، لكن ذهبت الأفكار بعيداً في دروب هذيان الحب. ثم أردف بابتسامة ماكرة:

"كم هو مثير كيف كنتُ أسمعكِ تستفزينها بكلماتكِ."

ابتسمت بحيوية متزايدة، قائلة:

"هه، تستحق ذلك، تلك الحمقاء! سأقطعها إذا حاولت الاقتراب منك، سأكون حائط الصد."

ضحك ينال، وكأنه يتحرر من ضغوط اللحظة، ثم اقترب حتى صار هواءه يلامس أذنيها، وهمس بصوت خافت يملك قشعريرة الإثارة:

"لا أحد يأخذ مكانك، ولا أحد يُملأ عيني غيرك، ولن تكون في قلبي امرأة سواك."

تهيجت مشاعرها ووجنتاها تعلقا بالنار، وعشقت كل ذرة من تلك القبلة الساخنة التي غمرتها برقة، أحست بجسدها يرتعش ليتوهج بلمساته، وابتلعت ريقها. كانت تتجرأ لتقترب نحوه، لتجمع شفتيهما في قبلة عميقة .

قابلتها بجرأة لم تُعهد، حيث رقصت قلوبهما في ذلك الفضاء الضيق، وبدأ مزيج من الاندماج ينسج بينهما. وبينما كانت تكتشف خبايا يديه المحيطة بها، شعرت بأنه خطفها من كل ما يجري في هذا العالم، ليكونا معاً، حيث لا حاجة لضغوط الغرباء ولا لصوت الفرح المحيط، بل كان هناك شيئاً أهم، وهو حضن ينال، وقبلاته، ولمساته التي تكتب فصول الحب في قلبها.

25

جلس رائد في غرفته المظلمة، حيث كان الظلام يخيم عليه كغلاف ثقيل، ويتصاعد دخان سجائره في الهواء كأرواحٍ تستنجد. كان يشرب الكحول بإفراط، كمن يحاول أن يغمر آلامه في زجاجات مكسوة بالألم والخسارة، منذ أن أبلغه أحدهم خبر زفافها. لقد كان عزاءه الوحيد هو في الابتعاد عن كل ما يذكره بها، ولكن كيف له أن يبتعد عن ذهنه وقلبه؟ آلمه قلبه منها، من تجاهلها له، ومن عدم مسامحتها. كان زواجها من غيره بمثابة سهم غُرِز في قلبه، يحترق من داخله، من ولع عشقٍ قاده إلى المأساة.

كان قد اعتذر لها مراراً وتكراراً، توسّل بحبها، وعدها بأن يصبح شخصاً أفضل لأجلها، لكن كل تلك المحاولات ذهبت أدراج الرياح. لم يكن يعلم أنها ستتركه نهائياً، وستخطو خارج حيازة قلبه إلى عالمٍ ينزّهها عن آلام السنين طوال فترة ارتباطهما. لقد كانت تحبه بجنون، بينما كان هو يستغل حبها وسذاجتها، غافلاً عن العواقب، ومتعجرفاً أمام انكساراته. وفي هذه اللحظة، فقط أدرك قيمة ما خسره، وأصبح يعيش في كابوسٍ مستمر.

تجلّى جنونه شيئاً فشيئاً، فبدأ يهلوس بها، يتخيلها أمامه، يصبح مدمناً على المخدرات التي زادته هوساً. تغيرت هيئته تماماً، حيث البؤس قد خط ملامحه، وعينيه غارقتين في سوادٍ، وكان مراتٍ يلتقي أهله ويتحدث إليهم حول أشياء لا يفهمونها، كأنما يقع تحت تأثير سحرٍ غامض.

تنهد برغبة في مسح دموعه بعنف، مليئاً بنظرة الشر والإصرار، وقد اجتمعت كل طاقاته في لحظة واحدة، وهو يعد نفسه بأن تلك كانت النهاية الحزينة. بات من المؤكد أنه لن يعرف الاستسلام بعد الآن. البكاء والعذاب لن يكون لهما مكان، بل ارادة قوية ستعيدها، حتى وإن كانت متزوجة، وحتى وإن كانت لا تحبه.

توجه إلى الجرار ليخرج منه كيساً صغيراً مملوءاً بالبودرة، وبعد استنشاقه قليلاً، انتابته سعادة مضطربة، مبتسماً بوهن وخمول يكاد يجعل خطواته تتعثر. أمسك بهاتفه، وطلب رقماً بدافع من ضياعه ونفاذ صبره، دنست الضغوط على تلك اللحظات.

رنّ الهاتف مرتين، قبل أن يجيب الصوت المرح من الجهة الأخرى:

"أهلاً يا صاح، كيف تذكرتني الآن؟"

تحدث إليه رائد بهدوء حذر:

"أريدك في أمرٍ هام جداً."

رد زاهر، صديقه العزيز، بلهجة تحمل بين سطورها الاستعداد:

"حسناً، أنا جاهز لكل شيء. أين سأراك؟"

أجابه رائد ببرود مقصود:

"تعال إلى شقتي، أنا هناك."

ترك رائد الهاتف، واسترخى على الأريكة، عينيه مسلطة نحو السقف بحالة من الشرود. تفاصيلها بدأت تعود إلى ذهنه، ملامحها، ضحكتها، وتلك الكلمات التي كانت تتردد في أذنه، "سلام لي." تتكرر في عقله كتعويذة مهمة، تعده بالنجاح الذي فقده ذات مرة، فيوقظ الشرارة الخفية في قلبه. وفي عبثها، كانت الحياة تأبى ازدهاراً، رغم الكثير من الجراحات.

مر أسبوعان منذ أن منح القدر أبطالنا فرصة للحب والمرح، حيث وجدوا في أحضان بعضهم ملاذاً من هموم الحياة. كان ينال كالشمس التي تشرق في صباح جديد، غير مكترث بتأزم الحياة اليومية، فقد تعلق قلبه بحبيبته

وزوجته سلام. هواء المنزل كان معبأً بتعابير الضحكات ولحظات الود، بينما سلام كانت مشغولة في المطبخ، تُحضّر بعض الأطعمة برفقة والدته، حيث كانت تتعلم منها فنون الطهي وكأنها تدون في دفتر حياتها صفات الحب.

بالطبع لم يكن ينال لينشغل بقضايا العمل، فقد اتخذ من قربه من سلام حياةً جديدة تفي شغفه، ولم يكن يتطرق إلى مرافقته لأمه كثيراً. كان يجد جمالاً في الجلوس بجوارها في غرفة النوم، حيث يكتفيا بأحاديث الحب والرومانسية. أدركت والدته طبيعة الأمور ورحبت بذلك، فقد سكنت الفرحة قلبها لرؤية ابنها وزوجته معاً، فتتجه إلى زيارة صديقاتها أو منازل أعمام ينال، تاركةً لهما مجالات للراحة والانطلاق.

عندما تجولت عيناه في أرجاء المطبخ، تبَسَم ينال ابتسامة عريضة، كتبت على وجهه لوحة من السعادة، حينما وقعت نظرته على سلام وهي تُساعد والدته. شعرت بتلك النظرات الدافئة، وتبادلت معه ابتسامة عابرة، لكن سرعان ما اخفضت رأسها خجلاً، فاحمرّت وجنتاها بلون الورد.

لم يستطع مقاومة التوجه نحوها، فبعث لها قبلةً في الهواء، متمنياً أن يزيد من شعاع خجلها.

لدهشة سلام، جذبت المفاجأة أنظارها، فعضت على شفتها السفلى بخجل، بينما كانت والدته تراقب هذا المشهد بعينٍ تتأمل في حب ابنها، ابتسمت بخفة، لكن ما إن اندلعت ضحكات ينال حتى ترددت عباراتها.

حركت والدته رأسها، وقالت بحزم:

"ينال، أخرج من هنا فوراً!"

انتفض ينال من صوت والدته، وتبعه انتشاء خفي:

"أجل، سأخرج، لكن عندي حديثٌ مهم مع سلام، أرجوكِ يا أمي."

تنهدت غير مقتنعة، وقالت بانفعال:

"لا، لا، اخرج، أنا أعلمها الآن. اترك تفكيرك المنحرف جانباً."

جحظت عينا سلام عندما صدمتها تلك العبارة، بينما كتم ينال ضحكته ومضى يقول بتودد:

"أمي، صدقيني، الأمر مهم، سأعيدها إليكِ حالاً."

"قلت لك، اخرج، ودع الفتاة وشأنها!"

ردت سناء، وقد اشتعلت المشاعر في عينيها.

تنهد ينال بفقدان الأمل قليلاً، لكن سرعان ما استعاد لهجته المرحة:

"حسناً، حسناً. لكن اغضي أنظاركِ قليلاً بينما أقبّلها."

صرخت كل من سلام وسناء معاً حينما لاحظتا نواياه. هبّ ينال نحو سلام، ليطبع قبلةً خفيفة على وجنتها، ثم نظر إلى والدته بمكر وقال:

"أرأيتِ، لقد كنت أعني حقاً أن أقبلها هنا، على وجنتها. وأين هو تفكير المنحرف هنا، أليس كذلك؟"

سقطت والدته في حيرة، حيث جحظت عينيها وهي تحدق به، ثم انفجرت بعنف:

"سأريك، أيها الأحمق!"

أمسكت بالملعقة الكبيرة التي كانت تستخدمها للطهي، واندفعت خلفه في مغامرة عابثة، بينما كان ينال قد فرّ كالسهم، ضاحكاً على حظه السعيد، وتبعتهم ضحكات سلام التي كانت تشاهد هذا التراشق العلني للحب والألفة.

مرت فترة قليلة مفعمة بالمرح والسعادة بين ينال وزوجته سلام، تخللتها ضحكاتهم المجلجلة، وازدادت فيها خفقات القلوب المحبوبة التي تنبض بالحياة. أسدل الستار على وجبة الغداء، وكانت سناء تراقب بحذر ودراية حركات ينال وكادره السعيد، إذ كانا كفراشة لامست شغاف الورد، يشاركهما عالمهما الخاص. ما إن وقر نظره على سلام حتى انغمر قلبها بخجل، فتأملتها سناء بأسارير بشوشة، وكاد أن ينسجم خفقان قلبها مع ضحكات ابنها.

وبتلقائية مبرمجة، حمحمت سناء بوضوح، فتنبهت وأشعلت الصوت في نبرتها للحظة السعيدة:

"هيا، انهض وخذ زوجتك إلى غرفتكما. يكفيك من المشاجرات هنا."

تبادل ينال معها نظرة مرحة، مستفسراً بنبرة خفيفة تعكس مهارته في التجاوب:

"يا إلهي، كم أنكِ دقيقة الملاحظة! وأخيراً، سمحتي لي."

عادت عيناها تدوران في ملل، لترد بنبرة تحمل شيءً من الحنق:

"لا أعلم كيف ستتحملك هذه الفتاة."

ابتسمت سلام، لترى كيف كان ينال يعبس بوجهه كالأطفال، فنهض ينال مرتبطاً بحب زوجته، مشدوداً نحوها، ويسرق نظرة غير خافية من التحدي إلى والدته، "أي أحد يسأل عني، فأنا لست موجوداً."

ضمّت سناء شفتيها بلطف، متبعةً ضحكةً ناعمة، ثم حركت رأسها بحنان وهي تشعر بالاطمئنان لفرح ابنها الغامر. بينما انطلق ينال إلى الغرفة برفقة محبوبته، بابتسامة جانبية تعكس عمق حبهم، لمحت سلام الابتسامة أيضاً، فبادلتها قائلة: "ينال، أريد أن أذهب غداً إلى جامعتي، ومن ثم إلى حياة، بما أنك ستذهب إلى العمل."

قبل يدها برقة، وقد عكست نظراته سعادة لا تُخفى:

"حسناً، حبيبتي، سأوصلك في طريقي إلى الجامعة، ولكن كيف ستذهبين إلى حياة من بعدها؟"

تألق عينيها بالسرور وهي تجيبه:

"لا تقلق، لقد هاتفتها، وقالت إنها ستبعث لي بالسائق ليأخذني إليها."

حرك رأسه بإيجابية، مبتسماً بوجهها بمكر، بينما بدت هي وكأنها تثاءبت: "حبيبي، أنا أريد أن أنام. تصبح على خير."

جحظت عينا ينال، ليتحدث باستنكار:

"سلام، أنتِ تمزحين أليس كذلك؟"

حركت رأسها نافية، بينما ردّ برغبة خفية في الإلحاح:

"اللعنة! انتهيت من أمي ومنعها لي من الاقتراب منكِ، والآن جئتي أنتِ، يا إلهي، ما هذا الحظ!"

ضحكت سلام خشية أن يتكشف مكنون تذمره، فاجتذبها استغراب مفعم بالاستفزاز. اقتربت منه، وقبضت على وجنته بخفة قبل أن تستدير نحو السرير، تتمدد عليه بارتياح كفراشة تعانق بتلات الورد.

وجد ينال نفسه يكاد يبكي، لكن غريزته هاجت وغضبه تسلط عليها. انطلق نحوها، ممسكاً بمعصمها، وأجلسها على السرير، غاضباً:

"لن تنامي، ستجلسين معي. هل فهمتي؟"

ابتسمت موجهة له نظرة محبة، وضحكت على مظهره الملهوف:

"حبيبي المُشاكس، حسناً سأجلس معك، والآن ماذا سنفعل؟"

توسعت ابتسامته، واندفعت في فكرة مفاجئة:

"سنجلب طفلاً صغيراً من أجل والدتي لتصبح جدة، فهي تحب الأطفال كثيراً"

حركت رأسها بحماس:

"حسناً، موافقة، ولكن كيف؟"

نظر إليها ببرود، وأجاب بخفوت:

"سلام، لا تدعي الغباء."

ابتسمت بخجل، اقتربت، وطبعّت قبلةً رقيقة على شفتيه. كانت اللمسة كفاحٍ للطبيعة، شعورٌ قوي غمره حتى بدا وكأنه يُشعل عواطفه. وفي لحظة من اللهفة، دفعها برفق إلى السرير، ليعتليها مستهلاً جولتهما التي لا تنتهي من المشاغبة والمحبة.

تفاعلت قلوبهم في تلك اللحظات كالأشجار في رياح الربيع، لتكتب كل تفاصيلهما الصفحة الجديدة من رواية حب استثنائية، أشرقت بالألوان والمشاعر الجياشة، تُعيد رسم أفق السعادة بأسلوب فريد.

في حديقة المنزل، جلس إياد تحت ظلال الأشجار، حيث كانت أفكاره تتلاطم في ذهنه كأمواج بحر هائج. كان يسعى لابعاد تلك التخيلات المظلمة التي تملأ عقله، لكن رغبة الانتقام كانت تشتعل في قلبه كالنار المستعرة، رغم خشية اتخاذ هذه الخطوة. كان يتأرجح بين الشك واليقين، لا يعلم إن كان سيفعل الصواب في تصرفاته أم أنه سيخطئ تقديراته، فيخسر حياة التي تحمل في قلبها الكثير من الحب.

إياد، ذاك الشاب المغرور والمتسلط، يعلم أنه لا ينبغي أن تقف امرأة في طريقه. لكنه، كيف لطفلٍ في حديقة أن يكسر قلب صغيرته البريئة؟ أراد أن يسترد حقه منها، وأن ينتقم من عذابه الذي أسدلت ستائره عليه بسببها، وفي الوقت نفسه، أرادها أن تبقى بجانبه للأبد. ومع كل مرة يحاول فيها تنفيذ خطته، كان يضعف أمام ابتسامتها الحانية، وكأن تلك الابتسامة تنزع عنه القوة، فتجذبه إليها كطفل صغير يبحث عن أمان في حضن والدته.

لكن لم يعد هذا حاله بعد الآن. كان شريط الذكريات يسير أمام عينيه كفيلمٍ تراجيدي، يذكره باللحظات التي عانت فيها بسبب تصرفاته، تلك الصفعة التي تلقاها، كلمات الشتائم التي أطلقتها، ونظرات الاشمئزاز التي تلقاها عندما كان بجانب إحدى نسائه. يذكر تلك اللحظات التي أثبتت فيها نفسها، كيف كانت تكره وجوده، وكيف استباحت مساحاته الخاصة، كالساحرة التي تقذف لعنتها على خصمها.

تتراقص الشياطين حوله في تلك اللحظات، يحل الغضب محل العقلانية، ويغمره شعور بجبروته. أحس أنه ليس له كبير، لم يعد يخاف من أحد، ولا يرحم أحد.

حرك رأسه ببطء متوعداً، نظرة الشر واضحة في عينيه، ثم تنهد ليقف ويتوجه نحوها بخطوات متسارعة. فتح باب الغرفة، مبتسماً ابتسامة مصطنعة، ليجدها جالسة أمام المرآة، تسريح شعرها الناعم الذي يزيد من جمالها.

نظرت له ببراءة، وبادلته الابتسامة، ثم ركضت نحوه محتضنة إياه بقوة، كأنها تستشعر شيئاً خفياً وراء تلك البسمة.
كان يحمل بيده ورقة، وابتسم لها برغبة خفية ليقبل وجنتها برقة، ثم توجه بها إلى السرير وجلسا معاً.

أمسك القلم ليقدمه لها، مبتسماً:

"هيا، خذي ووقعي على هذه الورقة."

عقدت حاجبيها بتعجب:

"ما هذه الورقة؟"

ابتسم بخفة، رد عليها:

"وقعي ولا تسألي، حبيبتي. لقد أحضرت لكِ هدية جميلة وكبيرة جداً، وغداً ستفهمين كل شيء."

شعرت بفضولها يتصاعد، فقالت:

"أرجوك، قل لي ما هي الهدية ولماذا سأوقع على هذه الورقة؟"

ضحك من قلبه على براءتها، قائلاً:

"لا تكوني على عجلةٍ من أمركِ، الصبر جميل، وكل شيء في أوانه حبيبتي. هيا، وقعي هنا."

أمسكت بالقلم ووقعت دون أن تتأمل محتوى الورقة، لكن سذاجتها لم تكن قد كفلت لها الحذر. لم تدرك أنها وقعت على الوثيقة التي ستقلب حياتها رأساً على عقب، وتجعلها تتألم وتكسر قلبها في خضم الموجة العاتية التي سيهددها بها.

تنهد إياد بعمق عندما رأى توقيعها، فطوى الورقة ووضعها في جيبه. أمسك وجهها بكلتا يديه، ونظر في عينيها:

"عديني، حياة."

نظرت له بتعجب، وسألت:

"أعدك، ولكن على ماذا؟"

ابتسم ابتسامة جانبية، ورد:

"بأنك ستسامحينني مهما بدر مني."

تعجبت أكثر، وسألته بقلق:

"أنا لا أفهمك، إياد، ماذا يحدث معك؟"

استشعر إياد الحيرة في عينيها، فاقترب منها أكثر، وضع جبينه على جبينها في لمسةٍ تحمل كل معاني الحنان والاحتواء. أغلق عينيه للحظة، وكأنه يستجمع أفكاره وفرحته، ثم همس بصوتٍ خافت ومليء بالـغمغمة:

"ستعلمين كل شيء، ولكن في الوقت المناسب."

لم تجرؤ على الرد، فقد كانت الكلمات تتراقص في صدرها كأسرار بحرية تحتاج إلى خوض غمارها. اختارت الصمت، مفضلةً أن تبقى ساكنة بين ذراعيه، حيث كانت الحياة برمتها تتلخص في تلك اللحظة. لم تفكر في شيء آخر، وكانت تدرك تماماً أن هناك شيئاً عميقاً ومخفياً خلف تلك العبارة.

اقترب أكثر، وطبع قبلة هادئة وعميقة على شفتيها. كانت تلك القبلة، التي تنم عن الشغف الخفي، كفيلةً بجعلها تذوب بين ذراعيه، حيث استسلمت له بكل مشاعرها، وكأنها كانت تتقطر شغفاً وحباً.

تدريجياً، انزلقا إلى عالم آخر، عالم مليء بألوان الحب الجارف والأحلام المشتركة. تمددت أجسادهم على السرير، وكأنما استسلما في تلك اللحظة للأبد، في حلقة زمنية لا تتوقف عن الدوران. كانت أعينهما تتلاقيان في فجر جديد، حيث بدأ كل منهما في اكتشاف متاهات الآخر، تقودهم مشاعرهم إلى عوالم ساحرة غير متناهية.

في صباح اليوم التالي، استيقظت سلام على قطرات من القبلات الرومانسية التي تسقط برفق على وجنتيها، تلك القبلات التي لا تتوقف عن إكرام وجهها سوى من زوجها وحبيبها، الذي لم يكل ولم يمل من إظهار حبه لها.
ابتسمت له بلطف، ورغم نعاس صباحها الباكر، بادلت زوجها تحية الصباح بقُبلة خفيفة على شفتيه، لتكتمل لحظة السعادة بينهما.

نهضا معاً، يبدآن روتينهما اليومي، والذي لا يخلو من مشاكسات ينال اللطيفة التي لا تنتهي. توجها معاً إلى مائدة الفطور، حيث استقبلتهم سناء بعيون مفعمة بالحنان، فسألتها بدهشة:

"حبيبتي سلام، إلى أين تذهبين اليوم؟"

ابتسمت سلام بحب، وردت:

"أمي، سأذهب إلى جامعتي اليوم، ومن ثم سأتوجه لزيارة حياة."

همست لها سناء بعبارات تشجيع:

"بالتوفيق، عزيزتي."

بادلتها سلام الابتسامة، ومن ثم أكملوا فطورهم في صمت، لكن الصمت كان يعبر عن حبهم الأعمق. بعد الفطور، خرج ينال برفقة سلام، ولم يمض وقت طويل حتى وصل بها إلى الجامعة. ودعت سلام زوجها بقبلة رقيقة على وجنته، ثم نزلت من السيارة وتوجهت بسرعة إلى داخل الحرم الجامعي. بينما توجه ينال إلى الشركة.

عندما استقرت سلام في الجامعة، أجرت اتصالاً لحياة لتخبرها عن الوقت الذي ستنتهي فيه من محاضراتها، لتتمكن من إرسال السائق لأخذها. مرت ثلاث ساعات وها هي تنهي يومها الدراسي؛ كانت عازمةً على الخروج، ملهمةً بفرحة اللقاء مع صديقتها. لكن، شاء القدر أن تصعد إلى سيارة الشخص الخطأ، دون أي علم منها بمأساة تنتظرها.

في الجهة الأخرى، كانت حياة تنتظر سلام بفارغ الصبر، إذ لم تتمكن من رؤيتها منذ يوم زفافها. مرت ساعة ونصف، لكنها لم تظهر بعد رغم تأكيدها على مغادرتها للجامعة. أخذت تتنهد بقلق، وقلبها يدق كطبول الحرب، وهي تخشي أن يحدث لها مكروه. حاولت الاتصال بالسائق، لكن هاتفه ظل مغلقاً، مما زاد من مخاوفها.

مع تصاعد وتيرة القلق، قررت الاتصال بإياد، وأخبرته بما حدث. كان تعجب إياد كبيراً من تأخر سلام، فنهض مسرعاً متوجهاً إلى مكتب ينال. رآه جالساً وراء مكتبه، بملامح تعبر عن القلق، فأخبره بكل التفاصيل التي أدت إلى غياب سلام.

انتفض قلب ينال وكأنما أصابته صاعقة، وتعرق جبينه خائفاً. بدأ قلبه يطرق بعنف من دون أن يتحمل هذا العذاب؛ أمسك هاتفه بأصابع مرتعشة، ليجد أن الرقم مغلق. كرر المحاولة تلو الأخرى، لكن دون جدوى. تسلل إليه الخوف كوحشٍ يعني بمخالبه، فضاقت نفسه. أرسل إياد أحد رجال الشركة للبحث عنها، بينما كان ينال يذوب من الألم.

مرّت ساعاتٍ طويلة على اختفاء سلام، ولم يكن هناك أي خبر عنها. لم يتوقف إياد عن البحث، ولا عن استقصاء الأماكن المحتملة، حتى أن السائق اختفى دون أثر. قاد فريقه إلى المخافر والمستشفيات، إلى الطرقات والشوارع، إلى كل مكان من الممكن أن يوجد فيه شيء يدل على سلام، لكنهم رجعوا خاليي اليدين. بينما كانت ساعات الانتظار تمر بمثابة الدهر على ينال، الذي أصبح حاله كالمجنون، فاقد السيطرة على نفسه بالألم.

فأمام تلك الفاجعة، تعددت همسات الوجع، وهو يتمزق بانتظار خبر يعود به إليها. دخل إياد عليه ليجد ينال في وضعٍ ينذر بالخطر، حين انهار أمامه سائلاً:

"ماذا، إياد؟ أين هي؟ هل وجدتها؟ أجبني!"

يتنهد إياد بحزن، قائلاً:

"لم نترك مكاناً إلا وبحثنا فيه، لكننا لم نجدها. لقد أبلغت الشرطة وهم يتعاونون في البحث، لا تقلق."

تملكته الصدمة كقضبان حديدية تمنعه من الحركة، فجلس على حافة الكرسي، يديه تتداخل فوق شعره الفوضوي، مغمضاً عينيه بقوة. كان كمن يحاول أن يتجاهل واقعٍ مُر، لكن قلبه لم يكن قادراً على الفكاك من قبضة القهر والوجع الذي يعصره. شعورٌ يشبه النيران، غليانٌ يعتمل في صدره، كأن شبح القلق قد استقر فيه ورفض الرحيل.

أحس كأن العالم حوله قد تجمد، بينما كان هو في دوامة من الأفكار المظلمة. تلاعبت في ذهنه مشاهد مؤلمة، فرّت من أعماق ذاكرته كأنها أشباحٌ خبيثة. كلما حاول طرد تلك الأفكار، كانت تعاود الظهور، أكثر إلحاحاً، كالأمواج التي تضرب شاطئاً. كأنما كل آهة كانت تخرج من قلبه تعصف بمزيدٍ من الألم، وتقذف به إلى أنقاض أيامه.

في أحضان الغابة، يومض الصمت في أرجاء المكان، والأشجار النحيلة تمتد كحراس شامخين. عتمة الليل تظلل الأفق، والساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل. في هذا الكوخ القديم، الذي يكاد ينزوي تحت وطأة الزمن، تتدثر الفتاة بمشاعر الغفوة على أريكة متهالكة، بينما يعدو خيالها بعيداً في عوالم من الأحلام. خصلات شعرها الطويلة تتخللها أشعة القمر الناعمة، راقصةً وكأنها تخشى بصمت أن تستفيق من سباتها.

لكن في زاوية أخرى من الكوخ، هناك شاب يجلس، يتأملها بنظرات تتأرجح بين الشغف والمكر. كان الدخان يتصاعد من سيجارته، تنبعث منه رائحة فريدة تطغى على الهواء العليل. ابتسامة عريضة منحت وجهه سمة من الوهن، بينما كانت عينيه تعكس لظى الانتقام والتشفّي. لقد أتى بها إلى هنا، محققاً غايته، لكن بمرارة فشلٍ غير معترف بها، ينتظر لحظة استيقاظها، تلك اللحظة التي تحمل الأمل والقلق في آن واحد.

في خضم هذه الأحداث، انحسر الفضاء حوله، ليعيده إلى تلك اللحظة الفارقة التي اختطف فيها سلام، صورة محفورة في ذاكرته وكأنها مشهد من فيلم محرم يعيش فيه بطل مكسور.

عودة في الذاكرة:

عندما صعدت سلام إلى السيارة، لم تكن تدرك أن القدر يعبث بخيوط حياتها بحرفية متمكنة. كانت في حالة من الشرود، تنظر إلى الطريق المندمج في حالة من البرودة الفاترة. صديق رائد كان يقود السيارة، وكانت نظراتها تسقط عاجزة أمام شرور العالم الذي كان ينتظرها بحافة الانتظار.

"عذراً، يا آنسة، ولكن الهاتف ممنوع هنا"

قال زاهر بصوت هادئ لكن يحمل في طياته تهديداً خفياً.

استدارت سلام برأسها، يحاوطها الشعور بالاستنكار والامتعاض:

"وما شأنك أنت، أريد أن أستدعي زوجي!"

ردت بنبرة تحمل الغضب.

ابتسم زاهر ابتسامة مشوبة بالكيد:

"بعد قليلٍ ستفهمين، لن تعودي بحاجةٍ إليه بعد الآن"

كلماته كانت كالسهم، تخترق حدود الأمان في قلبها.

وعلى الرغم من انفعالها، علمت أن ردة فعله كانت محض خديعة وتهويل. قلبها كان يدق بعنف، كأنما ينذر بقدوم الكارثة. كان يتمتع بخواء اللحظة، وهي تعاني من فقدان السيطرة.

"أنت.. إلى أين تأخذني؟ هذا ليس الطريق إلى بيت حياة، أتحسب أنك جننت؟"

تساءلت سلام بصوت يشوب شغف الخوف الذي يدغدغ حواسها.

ابتسم بشكل فاتر:

"لا، يا سيدتي، لم أجن، ولكننا في الطريق الصحيح. انتظري قليلاً، وستظهر لك الحقيقة بوضوح."

لم تستطع سلام كتم مشاعر الامتعاض، بينما الكوابيس تبسط أجنحتها حول عقلها المصدوم:

"أنت أحمق، سأخبر زوجي وأشكيك لصديقه وللشرطة!"

تمتمت دون وعي، تتحرك كقطعة شطرنج على رقعة شطرنج مظلمة.

تزايد قلقها مع كل دقيقة تمر، فارتجف قلبها. هي خارج المدينة، محاطة بأشجار شيطانية تبدو كأنها تنسج مصيراً جديداً، تنبض بالخيبة. أدركت فجأة أنها أصبحت فريسةً في عالمٍ قاسٍ تُحركه الأقدار.

بدت الرحلة كأنها تأبيد للمعاناة، بينما زاهر يحاول كبت ضيقه، مستشعراً أن كل لحظة تمر تُقربه من عقاب أُمْرَت به الأحداث. تمتم بقلبه العد التنازلي الأليم بينما كان يشاهد لمحات الخوف في عيني سلام.

كان رائد يتابع كل خطوة تسيرها سلام، كظلٍ يراقب كل حركتها ويتنصت على همسات أنفاسها. كانت معلوماته دقيقة، وقد وصلت إليه عبر حديثٍ عابر مع صديقه زاهر، الذي كان يتتبع مكالمات سلام على هاتفها، وكأنه يجمع شظايا الألغاز المبعثرة حولها.

أما بالنسبة للسائق، فكانت الأمور قد أوشكت على التوتر. فقاما بقطع الطريق على السائق بطريقة همجية. فلم يكن السائق إلا رجلاً كبيراً في السن، تحمل ملامح وجهه قصص السنين والتجاعيد، ولم تترك له القدرة على مقاومتهما. وقعا عليه كعاصفة لا ترحم، وتركاه في غياهب النسيان، بعيداً عن دروب المدينة التي اعتاد السير فيها.

وقفت سلام على حافة اليأس، جسدها يتصبب عرقاً، أدركت عجزها، ومدت يدها لتتصل بزوجها، ولكن كانت هناك يد تصفعها بعنف، تسحب الهاتف منها بوحشية.

أدركت أنها لم تعد تمتلك أية خيارات. صرخاتُها ارتفعت كأهازيج الموت، لكنها قوبلت بصمتٍ قاتم. كل تلك الأماني انقضت كبرقٍ في السماء، حين فتح زاهر باب السيارة وظهرت هي في المعركة الفاصلة بين الحياة والموت.

عندما اقترب منها، استنشق رائحة الخوف بعمق، وأشعل فتيل الهمجية في داخله. مد يده بصورة غاشمة، وكم من مرة صرخ بها، ومن ثم وضع قطعة قماش على فمها ط، بينما رويداً رويداً، انطفأت الأنفاس، وسقطت في ظلام لا يُرى.

استفاق رائد من شروده على همهمات همسٍ خافتة، كانت سلام بقلبها الضعيف الذي يخفق كعصفور محاصر، فاجتاحت روحها موجةُ مشاعر متباينة عندما رفعت جفنيها لترى أكثر شخص تسبب لها بالأذى، وكان وجهه المدنس بالسمة الماكرة بمثابة طعنة في قلبها. عادت ذكرياتها تتراءى أمام عينها كصور مشوشة، تتداخل فيها مشاعر القلق والألم.

نهضت بسرعة، فهاجمها صداع عنيف كالخنجر المسموم. وضعت يدها برفق على رأسها المتألم، بينما اقترب منها هو، يجلس بجانبها وكأنما يختبر مدى قوتها. حين أدركت حقيقة وضعها، نظرت إليه بعينين متوهجتين بالحقد، متحدثة بنبرة تبحر في عمق الألم:

"ما الذي جاء بي إلى هنا؟ أين أنا، ولماذا تفعل هذا بي؟"

ابتسم بمكر، تلك الابتسامة التي تثير القلق في نفوس من يراها، ثم قال بهدوء متعمد:

"على رسلك، يا حبيبتي. ألسنا سعداء الآن؟ ها نحن عدنا كما كنا. ألم تشعري بالفرح لرؤيتي مجدداً؟"

ازداد غضبها، فانتفضت من مكانها وكأنها نيران تشتعل:

"أيها اللعين! ما الذي تريده مني؟ أنا امرأة متزوجة. لماذا فعلت هذا؟"

عندما سمع كلمة "متزوجة"، انتفضت روح الشر في داخله. بنبرة صارمة، أفصح عن انفعاله:

"نعم، متزوجة. ولكنك ستتطلقين منه، وستكونين لي، وإلا... صدقيني، سأقتلك ولن أتردد في ذلك."

حيثما كانت قسوة كلماته، كانت ردود فعلها أكثر قسوة، فابتسمت بابتسامة استفزازية:

"أُفضل أن أموت على أن أكون بجوار شخص قذر مثلك!"

كانت جملتها هذه كسهم يطعن قلبه، إذ تملكه الغضب من جديد، وضربات قلبه تتسارع كعاصفة.

احتدت أنفاسه، وقبضته تشتد كما لو كان يحاول الإمساك بشيء غير ملموس. فجأة، ارتفعت يده لتصفعها بكل ما أوتي من قوة، فسقطت على الأرض. ومع موجة بكائها التي انطلقت كطوفان، هوى وجهها للقاع لكن سرعان ما اشتعلت عيناها بالحقد، وقد نهضت لتهجم عليه بحركة غاضبة، لتوجه ضربة قاسية إلى منطقته.

أطلق تأوهاً مضنياً، لكنه لم يتوقف. انطلق نحوها كوحش كاسر، وهي تندفع نحو الباب، لكنها لم تستطع الهروب من قبضة الشرّ المتربص بها. بدأ ينهال عليها بالضرب المبرح، وأصداء صراخاتها وبكائها تتردّد في أروقة الكوخ المهجور، لكن لا أحد يسمع، ولا أحد يجيب على استغاثاتها.

أُخرج منها كل شعور بالأمان، وسرعان ما انكمش جسدها على نفسه، والألم يسحقها بينما هو يكاد يُلهث من الشدّة. لحظة من الصمت تخللت الموقف، إذ ابتعد عنها وهو يلتقط أنفاسه العميقة، بينما هي تكورت على ذاتها، تذرف دموعها. ألم خفي يتغلغل إلى عقله، فاقترب منها واستقام بلطف، يمرر يده بخفة على شعرها المتناثر وكأنه يحاول تهدئة عاصفة داخلها.

لم يكن بمقدورها أن ترفع يدها، بل بقيت ساكنة، تحاول كبح دموعها وأحزانها. همس في أذنها بكلامٍ محمّل بالشجن:

"ستبقين معي إلى الأبد، سلام. لن تتركيني، فأنا زوجك، وليس ذلك اللعين. أنا فقط، حبيبتي."

أدركت بحزن عميق أنه قد فقد صواب عقله بحضورها، فأفكار الجنون تتراقص في خاطره، فكيف يُقدم على كل هذه الفظائع ويدّعي الحب؟ ينبغي أن يرتفع الصوت ليعبر عن حقيقته، لكنها كانت تحت وطأة الألم والخوف، ولا تتمنى إلا أن تخرج من عالمه المظلم.

وما لبثت أن استسلمت لدموعها، بعدما ارتفعت نسائم الانكسار في داخلها. أسقطت جفنيها وهي تتخيل زوجها، ذلك البلسم الذي تهرب إليه من هذه العتمة، وكأنها غارقة في أحلام راودتها أثناء نومها، حيث كان يشعرها بالحب والأمان.

انطوت روحها في فضاء من الأحلام الورديّة، وكانت تلك اللحظة الحرجة تُظهر لها أن قلبها لا يزال ينبض بالأمل، رغم أن الواقع يحيط بها كالأسوار. آثرت أن تحلم، حتى تمحو آثار الألم من روحها الممزقة، متمنية في غفوتها الهروب من مصير لم يكن في الحسبان.

مر يومان ثقيلان كالعمر بأسره، دون أي خبرٍ يطمئن قلب ينال عن سلام. كان إياد، برفقة رجاله، قد تمكن من تتبع آثار السائق الذي يقود القصة المأساوية. وقد ساق السائق اعترافاته بكل مُفصلٍ، قائلاً كيف أن حياتهم قد تقاطعت على تلك الطريق المشؤومة التي تسربت فيها آمالهم كدخانٍ إلى الفضاء.

أما بالنسبة لينال، فكان يومان كقرنٍ من الزمان؛ كانت آلامه تتجلى في بكاءٍ ينتزع أنفاسه، فتتجاوب معه الأضواء الباهتة وتأبى أن تسلم عليه.

غاص إياد وينال في بحرٍ من الأحاديث المتشعبة حول ما دار مع السائق، لكن حديث السائق أثار في ينال شيئاً من الذاكرة؛ تلك الذاكرة التي احتفظت بصورة رائد، الشاب الغادر.

"إياد،"

انقطعت أنفاسه كعصفورٍ يحتاج إلى جناحين:

"تذكر الشاب الذي تحدثتُ إليك عنه؟ رائد، الذي خذل سلام وصوّرها في لحظة ضعف!"

تجلى الارتباك في عيني إياد، وكأن كلماته فتحت أبواباً عتيقة في ذاكرته، فقال محاولاً تذكر التفاصيل:

"أجل، رائد، كان ذلك اسمه، أليس كذلك؟"

"نعم، أشك في أمره"

قال ينال بلهفةٍ تغطي على ألمه:

"سأذهب إلى شقته، لعلي أجد لديه جواباً عن هذا الغموض الذي يحيط بسلام."

تدخل إياد بسرعة، عاقداً حاجبيه:

"انتظر، فأنت بحاجة للراحة، سأذهب بدلاً عنك، فقط أخبرني أين يسكن."

هزّ ينال رأسه في تردد، مستشعراً ثقل الموقف:

"لا، لا، هذا شأنٌ يخصني. أرجوك، سأذهب أنا."

أفلتت تنهيدة عميقة من صدر إياد، وكأنه يشكو عبء الصداقة:

"حسناً، سأرافقك إذاً، سوياً نبذل جهداً أكبر في البحث. هيا بنا."

انطلقا نحو وجهتهما، وكلٌّ واحدٍ منهما يسير بثقل الأيام خلفه، ولكن بين خيبات الأمل تلك، كان الأمل يرفرف كفراشةٍ تتجاوز المتاهات. كل ما كان ينشده ينال هو الحصول على أي خيطٍ قد يقوده نحو الحقيقة، ومهما كانت العواقب، فقد بدا عازماً على تحقيق ذلك في قلبه المصاب.

....

في زاوية من ذلك المكان الغريب، حيث تتعانق الجدران الساكنة بأصوات الآلام، جلست سلام وحيدة، وكأنها أسيرة في قصر موحش. لم تجف دموعها منذ اليوم الذي اختطفها فيه ذلك اللعين، لم تُعطي له فرصة للتحدث أو حتى لعذره المنكسر. كان وجهه، الذي أظلّ روحها بنور الكراهية، يُذكّرها بكل ما عاشته من أهوال.

كلما سنحت لها الفرصة للهروب، كانت محاولاتها تبوء بالفشل، فكان يُغلق الأبواب بإحكام، كمن يفرض أسواراً من الحديد حول قلب أسيرته. وفي لحظة من اللحظات، اقتحم الغرفة وفي يده طعامٌ رديء، كأنه يقدم لها طعماً لجرحها. مدَّ يده نحوها، ولكنها أبعدته بتحدٍ غير متردد، ووجدت نفسها تهرب من طعامٍ ساكن كما هربت من كلمة مودة أو عطف.

"سلام، انظري إلي، اقتربي لتأكلي، لقد مرّ يومان دون أن تتناولي شيئاً!"

ترددت كلماتها بجمودٍ يثقلها، وقد زحفت الدموع على وجنتيها:

"لا أريد شيئاً منك."

كان ذلك التحدي يثير نيران غضبه، فتنهد بحنق وكأنما ينفث سموم إحباطه:

"لا تعاندي، وإلا ستجدين نفسك في عذابٍ لا ينتهي. لن تسلمي مني، أعلمي ذلك."

صرخت بقلبٍ محطّم، تكاد تتلاشى كلماتها وسط ضباب الأحزان:

"لا أريد شيئاً أيها اللعين، لا أريدك، أريد ينال... فقط أريد ينال!"

فجر هذا التصريح قسوةً في قلبه، فعبس بفمه وخرجت الكلمات غاضبة من بين أسنانه:

"اللعنة عليكِ وعلى ذلك التافه، أيتها الحقيرة!"

ثم لم يتمالك نفسه، فإعادة مشهد العنف كان طبيعياً بالنسبة له. قامت يده بتسديد ضربات قاسية كفاحشة، وهي تتلوى تحت وطأة الألم، تصرخ في وجهه بأعلى صوت، لكن صرخاتها كانت كصدى بعيد، يفقد وقعَهُ في غياهبه.

صوت الأنين اختلط بدموعها، ورائحة الدماء التي سالت من أنفها أضافت وضوحاً إلى مشهد العنف؛ كان جلّ تركيزه على صبّ غضبه في كل ضربة، ظنّاً منه أنه يُسلخها من جروحها ما دامت تذكر من ذلك الشاب الذي يكون زوجها.

استسلمت أمام وحشية الظلم، وظلت تبكي وتصرخ حتى أغشي عليها، وراحت في غياهب الوعي المظلم. في تلك اللحظة، كانت سلام تشتاق للإفلات من هذه القيود، لتحرير نفسها من ألم لا يُطاق، أملاً في أن يعود لها فرسان أحلامها. لكن ما من شيءٍ حولها غير الصمت المريب والجدران التي شهدت على أوجاعها المتكررة في ذلك الكابوس المريع.

"ما معنى أنك لم تراه منذ أربعة أيام؟"

صرخ ينال، بوجه شقيق رائد، بصوت لا يخلو من القلق والغضب. كان لمعاناته صدى في قلب إياد، الذي لم يتوانَ عن محاولة تهدئته، فنظر له بنظرة تحذيرية، كمن يدرك فداحة الأمور. تنهد ينال بحنق، ورغم انزعاجه، خيم الصمت على المكان.

وقف قاسك، الذي كان كالنمر العاجز أمام موجات تساؤلاتهما، لا يفهم شيئاً مما يحدث. همهم بنبرة ضبابية:

"أنا لا أعلم من أنتما، وما الذي تريدانه من رائد."

تحدث إياد بهدوء لكنه كان كالجمر تحت الرماد:

"نحن نريده لأمرٍ خطير. زُرنا شقته لكنه لم يكن هناك. المسألة لا تحتمل التأجيل، لذا، إذا كنت تعلم أين يمكن أن يكون، نرجو منك إخبارنا."

فاجأه حديثه، فعقد حاجبيه في حالة من الاستغراب:

"صدقني، لا أعلم عنه شيئاً. حاولت أكثر من مرة الاتصال به، ولكن هاتفه مغلق."

فهمس إياد تدريجياً، وكأن قوة توتره تتصاعد:

"اسمعني جيداً، يا سيد قاسم، المسألة خطيرة، ونحتاج مساعدتك لنكترث بمكان رائد. هل لديه أصدقاء مقربون قد يتواجد عندهم؟"

تنهيدة عميقة من صدر قاسم، ونظرة سريعة إلى ينال، الذي كان يتململ بعصبية، يُقضم أظافره في حالة من القلق المستحيل. أخيراً، قال قاسم:

"في الحقيقة، لديه العديد من الأصدقاء، لكن المقربين هم زاهر وفايز."

همهم له إياد، متسائلاً في نفسه عن مصيرهم:

"حسناً، أعطني أرقام هواتفهم، وعناوينهم، ورقم هاتف رائد."

ابتسم قاسم ابتسامة ظاهرة، لكنه كان يختزن في قلبه شعوراً بالريبة:

"أريد أن أفهم ما القصة أولاً ولماذا تريدون أخي. أشعر كأنكما تحققان معي، وكأنكما لا تسعيان فقط لمعرفة مكان رائد."

انتفض ينال من مقعده، وبين عينيه لهيب الغضب، أمسك بقاسم من ياقة قميصه، قائلاً بصراخ يكسر سكون المكان:

"أيها اللعين، أخاك اختطف زوجتي، وأنا أبحث عنها!"

ابتلع قاسك ريقه بشدة، وبدت على وجهه ملامح الخوف والصدمة:

"ما الذي تقوله؟ ومن أين يعرف رائد زوجتك؟"

تنهد ينال بحدة، وكأنما يراها تخرج من أعماق قلبه ليقول إياد:

"أرجوك، سيد قاسم، أعطنا العناوين ودع الباقي علينا. وإذا اتصل بك رائد، بلّغنا ولا تخبره بأننا نبحث عنه. صدقني، المسألة بها حياة أو موت."

حرك قاسم رأسه بإيجابية، لكنه كان يئن تحت ضغط المشاعر المتوترة. منها جاء بشيء من الزفير، وأخرج قلماً وورقة، ليبدأ بتدوين ترددات قتالهم ضد الزمن. كتب عناوين الشباب وأرقامهم، ورقم هاتف رائد ورقمه الشخصي، ومد يده ليُعطي إياد الورقة بحرص:

"لقد كتبت رقم هاتفي أيضاً، وأرجوكما، أخبراني إذا ما التقيتما به، وسأفعل المثل."

حرك إياد رأسه ببطء، مستأذناً ليتجه برفقة ينال نحو الشارع، بينما قاسم ظل ساكناً، غارقاً في تفكير مُعكر لمستقبل غامض. كانت صورته لرائد تتجلى في ذهنه، يتذكر حالة الأخ عندما كان يبكي وينتحب لأجل سلام. أدرك الآن أنه لا يتعلق الأمر بالمصادفة، بل بتلك الفتاة التي اختطفها.

شد على شعره بقوة، والغضب يتصاعد من دواخله كعاصفة، حيث دعا لأخيه الأحمق أن يخرج من أعماق الدوامة دون أن يسبب المزيد من المصائب. تمنى أن يعود رائد إلى رشده، وبأن تكون الأمور أقل ضراوة، لكن في أعماقه، كان يعلم أن الماء قد يصل إلى الرأس، وأن الأيام القادمة قد تحمل لهم كوارث لا تُحمد عقباها.

مر يومان آخران، تصاعدت فيهما حالة ينال سوءاً، كأنما الأيام تتربص به بالانتقام. كان قلبه يتلوى بألم غياب صغيرته، واشتياقه لها يحرقه كالنار. يتوق لسماع صوتها الحنون، الصوت الذي يفوقه حلاوة الحياة. كان ينام وعلى صدره صورتها، ويستفيق، مُعانقاً صورة ماضيه، يعاني بُعدها كمن فقد جزءاً ثميناً من روحه. لم يستطع أن يستمتع

بحلاوة زواجه منها قبل أن تتعثرهم الكارثة بلعناتها، يجلس في الليل وحيداً، يحتضن قطعة من ملابسها، يشم عطرها، يقدم لنفسه العزاء في غيابها الداكن.

في جانب آخر، كانت سلام تعيش في جحيم آخر، تعاني من وجود رائد، ذلك المريض الذي لم يترك لها مجالاً للراحة، مستمراً في محاولاته لإقناعها بالحب، لكن قلبها كان مُقفلاً، وتحاول جاهدة أن تبعده عنها، لتدور الأحداث بين مشاعر جنونية وصراخ وصمت مؤلم.

استطاع إياد أن يتحرك في دوائر معقّدة، ويتحدث إلى الشبان ويستجوبهم حول رائد، لكنهم جميعاً نفوا عنه كل ما يمت للصحة بصلة، ما زاد من شكوكه حول زاهر، ذلك الذي يبدو وكأنه يعلم بكل شيء، ما عدا المكان الذي يوجد فيه رائد. فما لبث أن قرر إياد توظيف رجلين لمراقبة كل تحركاته. ومع ذلك، كان الانقطاع عن رائد ينمو بشكلٍ مخيف، فقد كان هاتفه مغلقاً وكأنما أُغلق على سرٍ عميق، وأيضاً كانت الشرطة ما تزال تحقق في اختطاف سلام، لكن نتائجها كانت خالية من الدلائل.

في المساء، جلست سلام تنظر للأمام بشرودٍ، كأن الزمن قد توقف من حولها. لم تكن بمفردها، فقد كان رائد يراقبها بنظراته الغامضة، وفجأةً، أطلق ضحكة عالية تعكر صفو الوقت:

"انظري إلى نفسكِ، حبيبتي. ألا تحزنين على نفسكِ في هذه الوضعية؟ لماذا لا تطيعينني وتكونين لي؟"

نظرت إليه بجمود، ثم ابتسمت بسخرية:

"بل أنت انظر إلى نفسك، قل لي، هل هذا هو شكل الرجل الشهم الذي يستحق أن أكون معه؟"

انتفض رائد من مكانه، مترنحاً كالسفينة في عاصفة، وتوجه نحوها، اقترب لدرجة التصاقه بها. جفلت من قربه، حاولت الابتعاد، لكنه أمسك بمعصمها بقوة، لينخفض برأسه نحو شفتيها ويهمس من دون خجل:

"أريد طفلاً منكِ."

تململ الذعر في قلب سلام، جحظت عيناها، وعجزت عن استيعاب كلماته. كانت تشعر كأنها قد تعرضت للصفع، بينما كان هو ينظر إليها بحب وأنانية. تهادرت دمعتان على وجنتيها، فعاجلها بحركة مريبة، يمد يده ليجفف قسوة عواطفها.

"ولكن ليس الآن، بل حين تتخلصين من ذلك اللعين، وعندها سأتزوج بكِ."

لقد كانت الكلمات تنخر في عمق روحها، ولم تستطع أن تُصدّق ما تسمعه. لم تعرف إن كان يقصد ما يقول، لكن تلك الصورة من الرفاهية التي لطالما حلمت بها مع ينال حيّت في عمق ذاكرتها. صمتت، مبتلعة تلك الغصة التي تتراوح بين الحذر والفضول، ليتابع رائد بتدفق:

"ألا تحلمين بطفلٍ صغير نربيه معاً؟."

سال الدمع من عينيه حين تبادر في ذهنه بصورة الطفل، بينما أغمضت سلام عينيها بوجعٍ، مسترجعة آخر لحظاتها مع ينال، عندما أخبرها برغبتها في إنجاب طفل. هل جن جنونه؟ هل اختل توازنه، أم أن هذا الرجل حقاً يحتاجها بهذا الابتذال؟. شعرت بشفقة تتسرب إلى قلبها، ولماذا كانت تتعاطف معه؟ تنهدت بقوة بعيداً عن عيونه، وشيءٌ من الصمت طغى على الجو.

"أحتاجكِ أكثر من أي شيء، حبيبتي. أحتاج لحبكِ، لقلبكِ، لحضنكِ.. أريد طفلاً منكِ."

همس بفم عاصف بالفراغ، كأنما كل كلمة ينطق بها كانت عذبة.

وكأن تعويذة سحقت عقله، ليغط في النوم العميق على فخذيها، بينما كانت هي تنتحب بصمت، يعتصر قلبها بأالآهات. كانت تكرهه، لكنها رغم ذلك، كانت تشفق عليه. تنهدت وقد سكنت الفكرة في ذهنها، لتتحرك بحذر.

فكّرت بمصيرها فمدت يدها إلى جيبه تبحث عن المفاتيح، لكنها لم تستطع سحبهم، وبتوتر رهيب تمكنت من التقاط هاتفه. تحركت رويداً لكي لا توقظه، ضغطت عدة أرقام لتطلب رقم ينال، ومع كل رنة كان قلبها ينبض أكثر عنفاً، ثلاث رنات حتى جاء صوته القوي مملوءاً بالقلق:

"نعم، من معي؟"

تصاعد نبضها كعاصفة عاتية حينما انبلج صوته عبر الهاتف، كان كالشمس التي تشرق في قلوب المحبين بعد ليالٍ من الظلام. دقات قلبها المتعاظمة بعنف، كادت تخترق صمت المدينة الخارق، لتهزه من سُباته. ولكن لم يكن هنالك ردٌ يأتي من خلف الخط، وبتعجب حاجبيه يتقاطعان في حيرةٍ جعلته يكرر بصوتٍ مفعم بالقلق:

"من معي؟"

يا إلهي، كم كانت تشتهي سماع ذلك الصوت الأجش الذي يحمل بصمة تعبه، فتعلقت به كطفلة تهيم في فكر والديها. ابتلعت ريقها، لكن اللغة خانتها، فخرجت الكلمات بصوتٍ يرتجف ولم يكن سوى همس باكي:

"حبيبي، ينال."

فور سماعه لصوتها المُتعب، انتفضت أعضاؤه واعتدل جالساً، بينما تسارعت أنفاسه، وصدى قلبه يطرق بعنفٍ كطبيعة عاصفة لا تلبث أن تشتعل. تحدث بصوتٍ متلهفٍ وقد أُغرق بالشوق:

"سلام، حبيبتي، هل هذه أنتِ؟ أين أنتِ ياقلبي؟ قولي لي، سأذهب إليكِ الآن."

انتفضت مشاعرها وهي تحاول التماسك، لكن كلماته لم تكن كافية لتهدئة العاصفة في صدرها. بتلك النبرة المحطمة، تابعت في بكاء:

"صدقني، لا أعلم. رائد هو من اختطفني، أنا في مكانٍ بالغابة، ولا أعرف أيّ غابة."

شعر بفزع يتآكل بجسده، ارتجف قلبه لمجرد سماع نبرتها المُفزعة، محاولاً أن يكتشف حوله خيوط الأمل، وهمس:

"حبيبتي، حاولي أن تصفي لي المكان."

شهقتها كانت بمثابة صرخات من عمق الوجع، وجسدها يختزل قدراً كبيراً من الألم، حولت كلامها إلى كلمات جافة:

"لقد أخذني إلى كوخٍ صغير ومهجور في وسط الغابة، ولكن لا أعلم أين الموقع."

تنهد مع شعور خفي من الأمل المقرون بالخوف، فقال بسرعة، لكن بصوتٍ مليء بالوعد:

"حسناً، لا تقلقي، حبيبتي، سأعيدكِ إلي، صدقيني، ولكن هل أذاكِ؟ هل لمسكِ؟ تحدثي، سلام، أرجوكِ".

احتدم بكاؤها الخافت، كأنما كانت تخبره كل ما ترك في قلبها من آلام، وواصلت بعبءٍ ثقيل:

"لقد ضربني كثيراً، ولكنه لم يلمسني. إنه يريد أن يطلقني منك ليتزوجني، أرجوك ينال، لقد مللت من هذا الألم، أعدني إليك أرجوك."

تفتح قلبه كزهرةٍ من جليدٍ في زهر الربيع، ووراء تلك الألوان القاتمة، تكاثرت مشاعر الكراهيّة تجاه هذا الشاب اللعين الذي لا يرى فيها سوى لعبته. استحكمت أنفاسه، حتى انحدرت دمعة غير مرئية على خده، كيف لابنته المدللة أن تتعرض لهذه المعاملة، قلبه ينفطر لمجرد التفكير في ذلك. حدثها مُهدئاً على رغم الشوق المُلتهب:

"حسناً، حبيبتي، صدقيني، سأعيدكِ إلي، سأبلغ الشرطة وسآتي إليكِ، لا تقلقي، ياقلبي، سآتي."

عجبت الأرض حوله من غموض الجواب الذي لم يُسمع، ولم يشعر بأي انطباع للراحة، حتى صرخ باسمها وكأنه ينادي روحاً فقدت في غياهب عتمة. لكن لا شيء جاءه من بعيد سوى صدى الأنين المنقوص. زاد الارتجاف في

قلبه مع تلك الفكرة التعسة، بلّ الذعر بوجود رائد حولها لتقطع مكالمتهما. حاول الاتصال مرةً أخرى، لكن الخط لم يعطِه ما كان يتوق إليه؛ كان الصوت يشير إلى أن الرقم خارج الخدمة.

جن جنونه، فصرخ واضعاً نفسه في عاصفةٍ من اليأس، يركل كل ما حوله، قلبه ينفطر من الألم. وعندما اقتحمت والدته الغرفة بفزع، كانت الدموع تنحدر على وجنتيها بغزارة، وهي التي لم تكن تعرف أن جنونه كان نابعاً من أنين زوجته الصغيرة التي فقدت في خضم الأحداث. استحضر إحساس قوي بالفقد واليأس، وهي تتأمل حالته المشتتة.

جلست بجانبه، وضعت يدها الرقيقة على كتفه، تكاد تتفكك من الموقف، لكنها حاولت أن تهدئه قائلة بين دموعها:

"اصبر، بني، اصبر، وستجدها. لا تقلق، ستعود إليك."

لكن الكلمات لم تكن كافية لتصحيح تلك الفوضى القلبية التي تقصفت بينهما، وعت المفاجآت الشاهدة على صفحات حزنهم. لقد كان يحمل على كتفيه أعباءً تفوق طاقته، يحاول بؤساً أن يستعيد شيئاً من المفقود، ولكن كيف يمكن لشخصٍ أن يلتقط الأشياء من آثار الظلام حينما يشتبك المصير مع خيوط الكارثة؟

تحدث ينال بأنفاس متسارعة ومتلهثة، كمن طاردته أمواج من الهموم والآلام، قائلاً:

"لقد هاتفتني!"

فتحت عينيها على مصراعيها، كأنما اكتشفت شيئاً يغير مجرى حياتها، وسألت بحماسٍ متوجس:

"متى هاتفتك، وماذا قالت لك؟ أين هي، ينال؟ أجبني!"

ابتلع ريقه بصعوبة، محاولاً أن يحتفظ برباطة جأشه أمام هذا الاندفاع العاطفي. جاءه الصوت كصدى آهات في عقله:

"منذ قليل، يجب علي أن أبلغ الشرطة."

لم يكمل جملته حتى نهض بسرعة وغير ثيابه ثم توجه نحو باب المنزل، متحملاً على كاهله مسؤولية إنقاذ حبيبته، زوجته، ورفيقة دربه. كان عازماً على خوض غمار المخاطر مهما كانت، كفارس يبحث عن رحيق الأمل في أرضٍ موحشة.

في تلك اللحظات المليئة بالتوتر، كانت سلام تشعر بصوت همهماته خلفها. جفلت بشدّة، وأخذ قلبها يدق بنشوة الخوف، باغتها الاستجابة السريعة بفصل الخط، وأطفأت الهاتف كأنما أرادت أن تُحيي حلماً بعيداً. تنفست الصعداء عندما رأته ما زال غارقاً في نومه العميق. كانت تتوق إلى الاتصال بزوجها مجدداً، ولكن المفاجأة كانت أن الهاتف خارج الخدمة، بسبب تلك المنطقة النائية التي اختُطفت فيها. ولحسن حظها، نجحت في الاتصال به في أول محاولة، وكأن القدر يمهّد الطريق لأملها.

ارتفعت مشاعر الشوق والألم في قلبها، وهي تدعو بصمتٍ من جوفها أن ينجح ينال في استعادتها، لتعود إلى حضنه. نظرت حولها بخوف، متفحصّة أركان الكوخ الصغير، تبحث عن مفتاح نجاتها. بدأت في التفتيش بين الأشياء بلا جدوى، ولكن الأمل لا زال يسكن أعماقها. تلاشت تلك النظرة اليائسة قليلاً، وبدت ملامحها مصممة على مواجهة هذا الكابوس.

اقتربت منه بخطوات تحاكي أنفاس الفراشة، وقلبها يدق كدفعة تحذيرية من الخوف العلني على استيقاظه المفاجئ. راحت تبحث في جيوب سترته، تعيد الفحص برغبة يائسة. وكم كانت تبذل جهدها لتؤجل نزف دموعها، محاولة العثور على المفتاح في أعماق جيوبه. ولكن في النهاية، أشرقت الفرحة في عينيها كنجمة في وسط الليل المتجاوب. وجدتها وسحبتها بهدوء وكأنها تحمل بين يديها كنزاً ثميناً، ورغبتها في الهروب كانت تتفجر داخل قلبها، لكنها أبقت ذلك الفرح في كنف الصمت.

توجهت نحو الباب المنتظر، كم كان يأمل قلبها بالتنفس في عالم حقيقي بعيد عن كوابيسها. فتحت الباب بحذرٍ، وأيّ علاج آخر قُدّم إليها، اكتمل بخروجها إلى الهواء الطلق. وأقفلت الباب خلفها بهدوء، انتشرت نسمات الرياح على وجهها، فشعرت بنشوة الحرية والفرح وتنفست الصعداء، همّت بالركض مبتعدة عن مكان الجحيم الذي تحملت فيه ألم الأيام القاسية.

وبعد الكثير من الركض عاد إليها الصوت المدمر لرائد وهو يناديها، وصدى تهديداته يتردد في أفكارها. صدمها شعور الخوف، وعلت دقات قلبها إلى ذروتها، وكأنها تهمس في سرّها:

"كيف استيقظ؟ ماذا أوقد تلك النيران في داخله؟ كيف فتح الباب؟"

ركضت بأقصى سرعة، كانت خطواتها تتكرر كأغنية من الأمل المتأجج، حاولت أن تبتعد، رغم أن صوت رائد كان يلاحقها ككابوس متجسد، وبدت كفراشة محاصرة في شبكات العنكبوت. شعرت بالتعب يتسلل إلى عظامها، لكنها كانت ماضية، تندفع من دون هوادة حتى تنفست بصعوبة أمام شجرة ضخمة، كما لو كانت تحتمي من عاصفةٍ قاسية.

ولكن ذلك الصوت استمر في دق نواقيس الخطر؛ قربها من الجحيم الذي فرّت منه جعلها تعيد لنفسها الشجاعة، وتعاود الركض بعزمٍ وكأنها تدعو الله أن يُنجيها من براثن ذلك المجنون الذي كان يطاردها. وصلت أخيراً إلى الطريق العام، كان كل أملها أن تصادف أيّ سيارة تشكّل لها طوق النجاة.

بينما كان ينال قد أبلغ قسم الشرطة وأطلعهم على كل التفاصيل، وتلك المكالمة التي أجرتها سلام عبر هاتف رائد ساعدتهم في تحديد موقع الكوخ بصعوبة. حمل قلبه آمالاً متلاطمة وهو يرافق مجموعة من العساكر، وعزيمته لم تتزعزع في إنقاذ صغيرته من براثن ذلك الجاني العابر الذي سلبه فرح حياته.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يصلوا إلى الكوخ الصغير، دون أن يضيعوا ثانية. اقتحموا المكان بأسرع ما يمكن وتم تفتيشه بدقة، ولكن لم يجدوا أحداً. كان شعور الخواء يتجلى كغيمة كآبة في الأفق، وعيناه صادفتا قلادة صغيرة بداخل الغرفة. انتفض قلب ينال بشكلٍ لا يوصف، وكأنه "Sمرصعة بالفصوص الألماسية على شكل حرف " احتوى كل آلام العالم.

فرقة العساكر اتفقت على أن يتفرقوا، يتجولون بقرب المكان، على أمل أن يحدث ما يُمكن له أن يقود إليهم سلام. وضع ينال كل ما عنده، مدفوعاً بلا يأس، مُحتفلاً في داخله بمشاعر كل الأمل، على أن يُعيدها إلى حضنه، حيث تكتمل السعادة وتنحط الأحزان بعيداً.

في ذروة الفوضى، كانت سلام تلهث، تتسابق بعيداً عن رائد، بقلب مثقل بالرهبة وطاقة قد شارفت على النفاد. لا تكاد قدماها تلامسان الأرض، وهي تحاول أن تجد لنفسها مَنفَذاً، ولكن لا شيء حولها سوى ظلال الأشجار التي تراقبها في صمت، ورائحة الخوف التي تملأ الأجواء. توقفت أخيراً، وقد ارتعشت أنفاسها المرهقة، ودموعها تبدأ بالنزول على وجنتيها، وهي تنظر إلى الأفق المظلم بشيء من اليأس.

في تلك اللحظة، رأى رائد براعم الأمل تتلاشى أمام عينيه، فازدادت سرعته في الجري، محاولاً اللحاق بها، وكأن قلبه يتحرق شوقاً لرؤيتها. تملؤه رغبة لا يمكن السيطرة عليها. دفعته هذه الرغبة إلى زيادة سرعته، فصوت قلبه يكاد يطغى على كل شيء، حتى على صوتها الذي يناديها من أعماق الخوف.

وفيما كانت سلام تستعد للهرب من قبضته، طغى صوت رائد المنادي باسمها كعاصفة هوجاء. فاستدارت ببطء، عيونها تتسع في مواجهة ذلك المزيج من المكر والغل الذي كان واضحاً في عينيه. كانت الأنفاس تتقطع بين شفتيها، في حين أن قلبها كان يُطرَق بعنف، وكأنما سيخرج من بين حنايا صدرها.

"ها قد طل قمري، كيف تتجرأين على الفرار، حبيبتي؟"

همس بنبرة شريرة، وبصوتٍ حاد، كأن كل حرف ينغرس في قلبها كخنجر مكشوف.

تأوهت، وهي تحاول تمالك نفسها:

"أرجوك، رائد، اتركني، دعني أذهب".

كان رائد يضحك بشراسة، ضحكته تعكس كيف أن جنونه قد بلغ ذروته:

"هل جننتي؟ لقد بحثت طويلاً لأجدكِ، وأنتِ الآن تطلبين مني أن أتركك؟ لا تهمسي بمثل هذه الكلمات، عزيزتي، وإلا سأقطع لسانكِ هل تفهمين؟"

صوته كان يعلو، يملأ الأجواء بالخوف، ويجعل سلام ترتعد. كانت دموعها تنهمر، تتراقص على وجنتيها، ممزوجة بأحاسيس الضعف واليأس، وهي لا تُدرك كيف ستنجو من هذا الجحيم.

ولكن حين همّ خطوة نحوها، انقطعت أفكاره مع أضواء السيارة التي اقتربت في الأفق، مما أزعجه وأثار غضبه، فأغمض عينيه ليحمي نفسه من ضوءها الساطع. في نفس اللحظة، هبط ينال من السيارة، حالما رأى سلام، عينيه امتلأت بالشوق والحنان، وكأنهما تعكسان ألوان الطيف المنسي.

لكن يد رائد كانت قد أحكمت قبضتها على سلام، وقد رفع مسدسه نحو رأسها، كأنما هو مستعد ليشعل نيران الفوضى التي تحمل في أعماقه. نظر إلى ينال بسخرية، وكأنما يحاول تفكيك أعضائه بأعينه قبل أن يتكلم:

"ها قد طل قمرنا الثاني، لماذا جئت إلى هنا؟ كيف علمت بمكاننا يا ينال؟"

كان ينال يتوجس خوفاً على زوجته، فقد أدرك تماماً أن رائد قد تجاوز حدود الجنون. وعلم أنه على استعداد لارتكاب فظائع لا يمكن تصورها، بل قد يكون، في جنونه، معلقاً على حافة الموت. حاول أن يتمالك شجاعته، وهو يقول بصوتٍ مفعم بالقلق:

"رائد، لا تعبث بالنار، اتركها لي، ودع كل منا يذهب في سبيله."

في ظل ذلك الموقف المأساوي الذي كان يضج بالخوف والرهبة، كان ينال يشعر بقلبه يتراقص بين دوامة القلق والذعر، ونظرة صغيرته الخائفة ترسل قشعريرة في عظامه. كان صوت رائد الضاحك يتردد في أذنه، ضحكاته المستفزة ترن في آذانه كطلقات مسدس، مشددة الضغط على صدره، فكأنما كانت لديه القدرة على استنزاف ما تبقى له من شجاعة.

"أنتَ تحدثت عن ذهابنا في سبيلنا، صحيح؟ حسناً، سأدعك ترحل وأنتَ حيٌّ تُرزق، لكن سلام ستبقى هنا، وهي ملكي الآن، اتفقنا؟"

تسارعت أنفاس ينال، وكأنها تتسابق في سباق مع الزمن، تسيطر عليه هواجس توشك أن تجن به. لا يُحتمل الاقتراب من رائد، لأن الخطوة القريبة قد تعني تهديداً مباشراً لزوجته، وفي ذات الوقت لا يستطيع الابتعاد، فحبه لسلام يجذبه كالحديد المغناطيسي. رفع صوته بثبات مُتكلّف، متوسلاً في عمق قلبه أن يسمعه:

"اطلق سراح سلام، إنها زوجتي، ولا شأن لك بها."

ورغم برود صوته، كانت حدة ملامحه تعكس عواطف مضطربة، وهو يرد بصوتٍ أقرب إلى الصراخ، المملوءٍ بالغضب:

"لا، لن تنال مرادك هذه المرة، سلام ملكي، لي وحدي. هل تفهم؟ لن أدعك تأخذها مني أبداً"

كان ينال في صراع داخلي ضارٍ، حيث اختلط بكاء سلام بنحيبها، ساهم في تفكيك أعصابه. وفي تلك اللحظة، أقبلت القوات الأمنية، ولكنها كانت قد وصلت في الوقت الضائع، شاهدت المنظر الذي تجمد في أعينهم، مشهدٌ مليء باليأس والخطورة، يكادون يختنقون من عدم قدرتهم على إنقاذ سلام من بين يدي رائد المندفع نحو حتفه.

توجه الضابط إليهم، محاولاً استعادة السيطرة:

"رائد، سلم نفسك؛ لا مفر من العواقب."

لكن رائد لم يعِ ما حوله، بل ملكته ضحكات الجنون، متمسكاً بسلام، وجدانيته تتراقص في عينين مليئتين بالكراهية.

في تلك اللحظة، تبادلا ينال وسلام نظرات ذات مغزى، وكأن لغةً غير مرئية كانت تربط بينهما. بحركة سريعة، ضغطت سلام كعب قدمه ثم أَقدمت على تنفيذ فعل سريع.

تراجع، فاستغلت سلام الفرصة واندفعت نحو زوجها، بينما دوى صوت الطلقة في الهواء كعصف رعد. تجمدت عينا سلام وينال، وبدت الأمور وكأنها تتراقص ببطء. هوت سلام على الأرض، براءة وجهها تنطفئ، وكأنها تودع الحياة.

صرخ ينال، بمزيج من الذهول والألم يعصف به، محاولاً إيقاظها بشدة في صرخاتٍ يملأها الخوف:

"سلام، استيقظي! لا تتركيني!"

وعندما أمسكت به الفوضى، كان رائد قد أمسك به العساكر، أصوات ضحكاته تتلاشى وهو يُحمل بعيداً، عالِماً أنه قد ارتكب فظيعة لا تُغتفر.

في رواق المستشفى، تململ ينال في قلق وكُتبت قيود الألم على وجهه. يداه فوق رأسه، عيونه محمرة ودموعه تنهمر بلا نهاية. عصف الذكرى به، كيف كانت حالتها بعد إطلاق النار، كيف بدت تطفو في دمائها، وكأن العالم استدار في دوامة من الفوضى.

وها هو الآن، يجلس بانتظار أن يعيد له القدر ما فقده. مرت ثلاث ساعات، لم يظهر أحد، لا طبيب ولا ممرض، وكأنهما قد تركوه ليغوص في بحر من اليأس. قلبه المتألم يحترق، يفكر في كل لحظة، لا يستطيع تقبل فكرة خسارتها.

فجأة تقدم الطبيب، انتفض ينال ووالدته سناء، يتقدم نحوهما وكأن الأعصاب مشدودة في جسده كله. وبلهفة مُمزقة، يستجدي الطبيب:

"كيف حالها؟ أخبرني، هي بخير أليس كذلك؟ أرجوك، قل لي أنها بخير!"

ابتلع الطبيب ريقه بحزن، وتنهد عميقاً فاجأه بأن الجواب لم يكن كما أراد:

"سيد ينال، كانت الإصابة صعبة. أخرجنا الرصاصة من ظهرها بصعوبة بالغة. كانت في العمود الفقري."

جرس الإنذار دوى في قلب ينال، وقلبه يكاد ينفجر، بينما والدته سناء تكاد تفرغ من دموعها عندما تحدثت بصوتٍ متقطع، مفعم بالخوف:

"ماذا يعني ذلك، أرجوك؟ هل هي بخير؟ طمئننا!"

كانت ملامح الطبيب تحمل الحزن بالفعل، متوعدة بأيام صعبة قادمة:

"هي بخير لكن... قد تحتاج لفترة طويلة من العلاج، وستخضع لعلاج فيزيائي لعلاج حركة قدميها."

قبل عدة ساعات، كان إياد جالساً في منزله، يراقب ظلال الوحدة تتراقص على الجدران، بينما كان قلبه مثقلاً بالفكر لأجل سلام. ظلت حياة شريكة حياته، غارقة في حزنها البادي على ملامح وجهها الجميل. دموعها كادت تشرق فتحة الأمل من أعماق قلبها، وهي تفكر في وضع سلام وما حدث لها. كان إياد يعيش حالة من القلق، لا يدري أن صديقه ينال قد نجح في العثور عليها، ومن ثم انطلق لإنقاذها.

حاول إياد الاتصال بينال عدة مرات، لكن صوت الهاتف الصامت كانت كمن تنبئه بأن شيئاً سيئاً قد حدث. ثم جرب الاتصال بوالدة ينال، لكنها أيضاً لم تجب. انتابته حالة من العجب والتوتر، لكنه قرر الانتظار، في أملٍ أن يتصل به ينال.

لكن في خضم هذا الارتباك، كانت أفكاره تنحصر حول خطط لمستقبله مع حياة، حيث قرر أخيراً أن يوقع على أوراق الطلاق. غير أنه في أعماقه، أدرك كيف شوهت فكرة الفراق حياته، فبدأت الذكريات تتقافز أمام عينيه: ابتسامة حياة، وعطفها وحنانها. أي حياة هذه التي سيعيشها بدونها؟ لقد أدرك أنه اعتاد على وجودها في كل تفاصيل حياته، بل عشقها بكل جوانبها، لذا لن يجرؤ على التوقيع على تلك الأوراق.

تراجعت حواف القرار في ذهنه، واستقر فيه شعور بأن الحب هو الأكثر قوةً، وأنه يريد أن يتجاوز الماضي ليتقدم بها نحو حياة جديدة ملؤها السعادة والهدوء. لكن، بينما كان يغوص في أحلامه، قد تكون قنبلة موقوتة محطمة تنتظره على عتبة الباب.

صوت رنين الجرس انطلق كالرعد، ليعكر صفو أفكاره، فنهض متوجهاً إلى الباب، في انتظار أن يكون ينال، وهو يشعل في قلبه أملاً بعيداً. ولكنه، عند فتحه الباب، وجد نفسه في مواجهة أكثر شخص لم يكن يتوقع عودته إلى حياته: "رهام"

عينا إياد اتسعتا في ذهول، فقد كانت تلك المرأة واقفة أمامه بابتسامتها العذبة، كأنها تترقب لحظة تجدد المشاعر المفقودة. وما أن نطقت باسمها، ألقت برق الشوق على ملامحها، لتخطو نحو الأمام بخطوات واثقة. نطقت بكلمات فيها من الحنين ما يكفي لتمزق سويداء قلبه:

"لقد عدت، حبيبي. اشتقت لك كثيراً."

ابتلع إياد ريقه بصعوبة، فقد كانت أنفاسه تتسارع، بينما كانت حياة تتأمل المشهد من بعيد، قلقاً وفضولاً يحتدم في صدرها. هل له علاقة بهذه المرأة؟ لماذا دخلت للمنزل؟ الأسئلة كانت تتقافز في عقلها، بينما عواطف الغيرة والخوف تتجاذب قلبها.

إياد، الذي أدرك مرور حياة إلى قاعة الوقت، استجمع شجاعته ليقابل رهام بنظرة متصلبة، فصدمه وقع وجودها. بصوت جاف، قال لها:

"ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟"

ابتسمت له بخفة، وأشاحت بنظرتها تجاه حياة وكأنها لا تعترف بوجودها، لتتحسس وجنته برقة، قائلة بصوت محاط بالدلال:

"جئت لكي أراك. لقد اشتقت لك كثيراً، ألم تشتاق لي أنت؟ ما بك إياد؟ هل نسيت حبنا؟"

نظرتها الجادة كانت كالسيف يخترق قلبه. استجمع نفسه ليرد بحدة:

"أخرجي حالاً من منزلي. لا يوجد أي حب بيننا ولقد نسيتكِ منذ زمن."

ضحكت برقة، كأنها تتحدى كل شيء من حولها، ثم قالت:

"لا تكذب، حبيبي. نحن كنّا نحب بعضنا كثيراً، ألا تتذكر؟"

ابتسم بسخرية، كأنما قد وجد في كلماتها ما يثير عجباً وغضباً في آن واحد. تتحرك ملامحه بشكل جليد، ليقول بنبرة جادة وحادة:

"هكذا وقد نطقتي بها أنتِ، كنّا."

نظرت إليه رهام بعينين متقدتين، بحرارة الغضب والحقد المتجذّر. كانت الكلمات تتلوى على لسانها، لكنها ترددت في النطق. سمعت صوته يتابع، وكأنها غاصت في دوامة الماضي:

"لقد كنتي في ذلك الزمن. لكنني تقدمتُ إلى الأمام. قضيت حياتي وتحولت آلامي إلى دروس ولم أتوقف عن النضوج. حتى وجدتُ شريكة حياتي، تلك التي تستحق كل لحظة في عالمي."

تسارعت نبضات قلبه، وكأن شجاعة جديدة تلزم روحه لتظهر له الحقيقة المؤلمة. تطرق عينيه إلى الأفق البعيد، وكأن الأمل الجديد يلوح له، بينما تتدفق ذكريات الحب القديم بين خيوط الزمن. شرعت شفتاه في تفريغ مشاعر مختلطة كان يحاول مكابدتُها، قبل أن يتابع:

"لقد أدركت أن الوقت لا يعود إلى الوراء. أنا الآن هنا، أعيش لحظاتي مع من أحب، والتي تستحق أن أكون معها من أعماق قلبي."

تشنجت عضلات وجه رهام، وكأن تلك الكلمات كانت تبث ناراً في خلاياها. فتحت فمها لترد، لكنها وجدت نفسها عاجزة عن نطق أي شيء. كان ختام حديثه كالصخرة التي تسقط في مياه راكدة، لتفجرها إلى دوامات عاصفة.

نظرت حياة إلى إياد، عيناهما تلتقيان في لحظة من الصمت المشحون بالغضب والدهشة. ثم تحركت نحو زوجها، لتتقدم معبرة عن مشاعرها. وعندما اقتربت، احتضنته برفق، وسط ترددات انكسار قلبها، وقالت بصوتٍ خافت، لكن مليء بالعزم:

"تشرفت بكِ، يا مدام رهام."

لقد كانت تلك الكلمات بمثابة رصاصة في قلب رهام، التي نظرت إلى حياة بحقد وغيرة تشتعل في عينيها. ابتسمت برسمية، لكن ملامحها كانت تخفي مكراً عميقاً، لتخرج كلماتها مثل سم زعاف:

"حبيبي إياد، كيف يمكن أن تكون هذه زوجتك وأنت قد خدعتها لتوقع على ورقة طلاقها؟ ألم يكن هدفك الانتقام منها؟ ها! والآن، أخبرني، هل تطلقت منك أم ماذا؟"

كان وقع هذه الكلمات كالصاعقة، هزّ كيان حياة وعقل إياد. ساد الصمت لحظات وكأن الزمن قد توقف، وارتعشت صور الماضي المؤلم في ذهن إياد. كيف تمكنت هذه المرأة اللعينة من معرفة مخططه؟ لم يكن قد تحدث عن ذلك مع أحدٍ، حتى ينال، فلا بد أنها جاءت لتدمر ما تبقى من حياته. تساءل في نفسه: ما هي دوافعها؟ ولماذا تعود بعد كل تلك السنين؟

عادت حياة إلى الواقع، عينيها اللامعتين والدموع تتلألأ، لتوجه حديثها إلى إياد، وصوتها مرتبط بالألم:

"إياد، ما الذي تقوله هذه المرأة؟"

ابتلع ريقه بصعوبة، وسعى لتمسيد على وجهه ليخفي الارتباك، واحتاج إلى شجاعة لتقديم الحقائق، قائلاً:

"كانت حبيبتي، ولكننا انفصلنا منذ زمن. أنا لا أريدها، صدقيني، أنا أريدك أنت فقط، حياة."

كان صوت رهام يخرج كصرخة مستعارة من جراح قديمة، ثم قالت بغل:

"أهاً، حسناً يا سيد إياد، لقد كنت حبيبتك، ولكن ماذا عن المخطط الذي كنت تفعله بحقها؟ ها؟"

تجمدت حياة في مكانها، وكأنها تلقت صفعة في قلبها، ثم زاد الألم في أحشائها عندما سألت:

"هل ما قالته صحيح، إياد؟"

نظر إليها بحزنٍ وعمق، محاولاً للتبرير:

"اسمعيني، أنتِ يجب أن تفهمي و..."

قاطعت كلامه وصرخات قلبها تملأ المكان:

"أجبني، إياد!"

كان النضال في صدره أكبر من أن يحتمله، فخفق قلبه بشدة، وأغمض عينيه ليحيط بنفسه بنسيم الهدوء، لكنه أمام رهام، ولّى وجهه، محملاً بنظرات حقد لا مراء فيها، ليقول لها بلهجة شديدة:

"ما الذي تريديه أنتِ أيتها اللعينة؟ لماذا عدتي بعد كل هذه السنين؟ لقد خنتي ثقتي، والآن جئتِ لتخرّبي علاقتي بزوجتي، أيتها الحقيرة!"

صرخاته كانت تطلق موجات من القوة والخوف، بينما رهام تصرخ من الألم، مشدودة تحت ضغط يده المحكم على شعرها:

"أرجوك، إياد، اترك شعري، أنت تؤلمني!"

ولكنه لم يتركها، بل جاء بعاطفة فقدت كل الغلاف، ليحدثها بصوتٍ محموماً كالنار:

"اخرجي من حياتي، وإلا أقسم لكِ أنني سأقتلكِ، ولا يهمني أحد. اذهبي بعيداً"

كان صراخه يتردد في أرجاء المنزل، يدفع حياة إلى حالة من الذهول. لم يكن صوتها المرتجف يملك القوة ليتجاوز طنين مفجر الموقف:

"لم تجبني، إياد."

نظر إليها بجفوة، يعكس قلقه:

"اسمعي، حياة، لا تصدقي ما تقوله تلك الغبية. لقد عادت لتخرّب علاقتنا، فقط لا تستمعي لها، اتفقنا؟"

ابتسمت بحزن وسخرية، وكلماتها تنزف ألماً:

"أجبني وكن صادقاً، قل لي، لمَ كل هذا؟"

تنهد بعمق، وكأنما يحاول أن يزفر كل آلام العالم من صدره. أغلق عينيه لحظة، في عتمة خياله، تمزق الكوابيس حلمه المتبقي، متحدياً كل ما كان يجعله سعيداً. كان يتمنى لو يستطيع عكس الزمن، ليعود إلى أحضان زوجته التي عشقها بكل حواسه، ويعيد بناء حياتهما الممزقة. بعد لحظات من التردد، ابتلع ريقه بصعوبة ليقول:

"نعم، ما قالته صحيح. لن أكذب عليكِ. لكن صدقيني، تراجعت عن قراري عندما أدركت أنني لن أستطيع العيش بدونكِ."

تجمدت ملامح حياة، كأنها تلقت صدمة كهربائية. نظرت إليه بألم، والعتاب يتراقص في عينيها، فتحدثت بصوتٍ مملوئ بالدموع:

"لماذا إياد؟ ما الذي فعلته لك؟ فقط قل لي، أنا أعطيتك كل ثقتي. لماذا فعلت هذا بي؟"

ابتلع ريقه مرة أخرى، هذه المرة كان طعم مرارة الأسئلة يختلط في حلقة نفسه. النظرة التي سكنت في عينيها كانت مثل خنجر يغوص في قلبه، وآثار الألم والانكسار كانت تتجلى فيهما، مما جعل لسانه يذوب في صمته، عاجزاً عن إخراج الكلمات العالقة في صدره. حينها، اندفعت صرخة حياة عبر أفق المكان:

"لماذا؟"

حاول إياد التقدم نحوها، مشعلاً بجسده كل ما بوسعه لتهدئتها، لكن في تلك اللحظة، انتفضت حياة كعصفور جريح، وأبعدت نفسها عنه بخطوة، صدى قلبها القديم ينزف من جراحات الماضي. نظراتها كانت تحمل بقايا الجراح التي لم يتم شفاءها بعد، وهي تقول له محذرةً:

"ابتعد عني، ولا تلمسني. أنا لستُ ضعيفة، وصدقني، سأتعامل مع محنتي بنفسي وأكون قوية. أنتَ من لم يعد له مكان في قلبي، وسأكتفي بنسيانك فقط، لأنك لم تُستحق حبّي وثقتي."

أنهت جملتها بنظرة حادة، كأنها سيف يقطع أوصال الماضي، وبدأت في الصعود نحو الأعلى، حيث كانت الحاجة لتوضيب أغراضها تدعوها للرحيل. بينما ظل إياد متجمداً في مكانه، وكأن خبر الفراق قد أصابه بضعفٍ، وجد أن صدى كلماتها قد تعلقت في قلبه، تتردد كصدى موسيقى حزينة.

تراكمت الأفكار في ذهنه، ولم يكن يستطيع الهروب من حقيقة واحدة كانت تهاجمه بشراسة: (لن يعود لحياتي معنى بدونكِ). كأن كل خيوط الواقع تنسدل من فوقه، فتتركه في فراغ قاتم. كل من حوله كان يمتزج مع الذاكرة، بينما صور حياة تتراءى أمامه، ملأى بالعاطفة والحنان، والعشق الذي لا يستطيع نسيانه.

هذا الفراق لم يكن مجرد لحظة، بل كان موتاً بطيئاً، مشاهدته وهو يغرق في البحر العميق من الحيرة والخسارة، دون القدرة على الاستغاثة. ومع كل ذلك التوتر، كانت تلك اللحظة تكشف عن جانب آخر من روحه، القوي والمتحطم في ذات الوقت. لا أحد يدرك سر القلوب المكسورة، لكن كل واحد منهم يحمل في قلبه قصته، تلك القصة التي تنسج من خيوط الحب والألم، وها هو يعيش الآن في خضم أوجاعه، في انتظار ضوء الفجر الذي قد يحمل له بصيص أمل.

عندما يرتسم الفراق في الأفق، تبكي العيون وتغرق المقل في بحور من الدموع، وكأن القلوب تخاطر بالحياة في نهر من الألم. يختلط الفراق باحتضان طويل، تنفصل الأجساد لكن الأرواح تبقى ملتصقة بخيوط الحب العتيقة. وفي خضم هذا العذاب، ماذا نقول عن تلك الأنفس التي تبكي دون أن تتفوه بكلمة وداع؟

هل تكون النهاية حقاً وداعاً؟

ليس كل الفراق يحمل طابع الوداع، وليس كل وداع يعكس الفراق. بل إن الفراق الحقيقي يمسّ أعماق القلوب، والوداع هو أسى المشاعر التي تنسحب عندما يصبح الدواء مجرد أداة تخدير بعد سقوط الجرح. إنه لحظة تَلاشي الأجساد، وذلك بينما تبقى القلوب محبوسة في أمكنة الذكريات، تبكي الوجوه وتختبئ الدموع في كهوف الشعور القابع في الأحشاء.

ذُهل الشاب عندما طال به الحزن، فقدت حياته نكهتها برحيل زوجته وحبيبته. ثلاث سنوات، والوقت يمر ببطء كأنه دهر، فقد تخرّب عالمه، واستنزف كل سعادة كانت تحت مظلة الحب. مرّت أيام وليالٍ مليئة بالعذاب؛ إذ حطّ عليه الفقد كالعاصفة، فازداد بروده، وتراكمت الأحزان في زوايا قلبه. فقد فقد الرغبة في الحياة، وسكن اليأس في عينيه، لتصبح كل لحظة تمر كالعمر بأسره.

لم ينسى ذلك اليوم حينما حَزَمت أغراضها ورحلت، حيث لم تسعها كلمات اعتذاره وصراخه، فقد كانت امرأة مُصممة على قرار الانفصال. أبت رضوخ آلامه، وكأنها قد رحلت إلى أرضٍ لم تطأها أقدام القلب من قبل. طلبت الطلاق مراراً، وأرسلت له رسائل عميقة تدعو إلى الفراق، ولكنه رفضه كان قاطعاً. رفعَت دعوى في المحكمة، ومع ذلك، كان إصراره صامداً كالجبل.

لقد حاول بائساً أن يجد سبيل عودتها، لكن كل مساعي اللقاء باءت بالفشل، فعاد إلى حياةٍ مظلمة، يخالط النساء، يبحث عن ملامحٍ تشبه معرفته القديمة، وكأن كل امرأة تشبه ظلال حب حياته. كل عناق كان مجرد فرصة لنسيان ذكرياته المؤلمة، وفي كل الليالي، احتضن قلبه ملامح مختلفة، لكنه لم يكن سوى شبح يلاحق الظلال.

وفي ذروتها، كانت البراعم الحزينة تنمو في فؤاده، جعلها تلهبه بنيران الأمل المفقود. سفرها لبلادٍ بعيدة حجب عنه كل ما كان يحلم به. عجز عن الوصول إليها، وكلما ازداد بحثه، كانت تنسحب أكثر، تاركةً خلفها فراغاً وغموضاً. لكن حياتها لم تتمحور حوله، حيث تكرر ظهور المدعوة تُدعى رهام، تلك التي نمت من أوهامها، محاولة للإغواء والاستفزاز، غير مدركةٍ أن روحاً جريحة لا تنتعش بسهولة.

لكن رغم محاولاتها المتكررة، صرخات نبضهِ كانت تنفضها بعيداً، يقذف بها خارج نطاق راحته، إذ لم تكن سوى ذكرى اختارت أن تتجسم باستعارة الألم. تلك التي كانت سبب فراقه عن حياة، هي التي عادت لتقلق كينونته. رهام، بحملاتها العقيمة، اعتقدت أنها تستطيع طرق باب قلبه، لكنها لم تدرك أن قلبه، وحيداً ودميماً، قد ترك تلك الأبواب مغلقة في وجه كل من لا يملك مفتاح الحب الحقيقي.

للأسف، حتى تبريراتها المُهزوزة حول فرض الأهل وترتيب المصير لم تُعتد من قبله، إذ لم تكن تمنياته بها أكثر من عواطف مُحبَطة. فقد سفحت سعادة الماضي، وعاد إليه شعور فقدان الحياة الخاصة، فقط ليجد نفسه غارقاً في ذكرياته المريرة.

حياة، كانت حباً حقيقياً، لكنها قد أصبحت جزءاً من ماضيه، وها هو يعيش في عتمة الوحدة، تأنّ روحه باسمها. لقد حصد ما زرعته تلك الخيارات، مرفوع الرأس أمام الأشباح التي تجوب أرجاء ذاكرته. قلبه يناديها، لكن لا وجود لها سوى في عمق الصدى الذي يرحل في العدم.

نستطيع أن نكذب على أنفسنا، ونتظاهر بأننا نسينا، بينما نعلم في أعماقنا أننا نغطس في بحر من الأكاذيب، نقول تلك الكلمات لنحمي قلوبنا الوجلة وراحتنا النفسية. وهكذا، تخدع تلك المرأة الرقيقة نفسها مراراً وتكراراً، مُعلنة ببرود أنها استغنت عن حبها. لكنها لم تنسَ، ولم يتغير شيء؛ أياماً قضتها معه، ولحظات مضت بين ضحكاتهم ونظراتهم، كل تلك الذكريات رحلت لكنها ظلت مخلّدة في صميم قلبها.

أسعدتها فكرة أنها استطاعت تغيير واقعها، لكن خيانة الحب غرسَت في قلبها طعنةً لا تمحى. في يوم رحيلها، شعرت وكأن روحها قد انتزعت من بين ضلوعها، وكأن الحياة نفسها قد تخلت عنها. رغم كل آلام الفراق، يظل عشقها عالقاً في داخلها، شعور يتسلل عندما يتغلب الحنين على برودة الفراق. لقد تلقت منه الكثير من اعتذاراتٍ مُهشمة، لكنها فشلت في الإكتراث بها.

حياة، التي كانت سابقاً فتاة رقيقة تخاف من أبسط الأمور، أثبتت للعالم أنها ليست كذلك بعد الآن. تحوّلت إلى امرأة باردة وقوية، تحمل نظرة من الغموض والثقة، وبدلاً من اللجوء إلى أحضان والدتها، استأجرت شقةً بأموال تركها لها والدها قبل رحيله، مُتجنبةً معرفة والدتها بخياراتها المفاجئة.

لكن مع كثرة اتصالاته، ومحاولاته لاستعادة حبهم المفقود، لم تعد حياة تحتمل الأمر، وهربت بعيداً، مُهاجرةً إلى ألمانيا، وما لم تعرفه في تلك اللحظة، هو أن في أحشائها كانت تحمل قطعة حقيقية من إياد.

عندما وصلت إلى ألمانيا، اكتشفت أنها حامل في شهرها الثاني، فرحت بمولودها، وكان الحمل بالنسبة لها بمثابة إثبات قوتها على نفسها وعلى العالم. أرادت أن تربي طفلتها بمفردها، مُحرمة إياها من رؤية والدها، وكأن هذا هو العقاب الأقصى الذي تستطيع تقديمه له. لم تكن تُدرك تماماً أنها ستكون بحاجة للمساعدة في تربيتها، ولكن الغضب كان يُخفي عقلها في كل زاوية.

رغم قوتها، ظلت تعاني في صمت، كالكثير من الأمهات اللواتي يواجهن صراعات الحياة. ولكن في أعماق قلبها، كان الحنين يتسلل كما يتسلل الضوء عبر النوافذ المحجوبة. كانت تُدرك جيداً أن كلما واجهتها مشكلة، كان يشتعل في قلبها شوقٌ غير مُحتمل لذلك الذي أحبته. في تلك اللحظات، كانت تتذكر كيف لمّا اصطدمت بمشاكل الطلاق، قررت أن تهرب إلى عالم جديد، لكن الحنين بقي مُلتصقاً بها.

أكملت حياتها بخطى ثابتة ولم تسمح لأي شيء بأن يُعيق تقدمها؛ واصلت دراستها حتى حصلت على بكالوريوس علم النفس. وقد فازت بإعجاب الكثير بسبب روحها القوية وعزيمتها التي لا تنكسر، وهي الآن تستعمل كل اشراقها لتستجيب لآلام الآخرين.

لكن وسط كل ذلك، ظهر شخص مُختلف عن الآخرين، شاب يُدعى حسن، التقاها بالصدفة في أحد شوارع ألمانيا. كان يخطط للعودة إلى بلاده، لكن عندما سمع قصتها، قرر البقاء. أصبح متنفساً لها، الصديق الحقيقي الحامي الذي كان يساندها بلا شروط. عانى قلبه عندما علم أنها تزوجت وأصبحت حاملاً، لكن ما زاد من ألمه هو الألم الذي عانت منه في غيابه.

مع مرور الوقت، أثبت حسن أنه حقيقي، وشهد ولادة طفلتها التي أسمتها "رهف"، وقد تشابهت معها تماماً في عينيها البراقتين. على الرغم من المساعدة التي قدمها حسن في تربيتها، إلا أنه لم يكن يقدم لها حنان والدها، وكان يعلم ذلك جيداً. هكذا، ومع مضي الوقت، أدركت حياة أنها تريد شيئاً واحداً فقط، تربية ابنتها في مناخ من الحب والأمان.

وها هي طفلتها، التي تشرق حياتها بنور البراءة، قد بلغت من العمر عامين وثلاثة أشهر، وقد أسمتها "رهف". لم تعد حياة تشتهي شيئاً من الدنيا سوى تلك النعمة الصغيرة، تسعى لتربيتها وتغمرها بفيض من الحنان الدافئ. لكنها تتوق إلى رؤية إياد بجانبها، لتشاركه اللحظات السعيدة التي تملأ قلبها، وبينما تتمنى حضوره، تظل أسرار الجراح العميقة تعيقها عن مسامحته أو نسيان ما فعله بها.

منذ تلك الحادثة المأساوية التي غمرت حياتها بظلام طويل، أصبحت سلام لا تمشي على قدميها، فقد شُلّت حركتها وكأن صاعقة من الحزن نزلت عليها. لم يكن يسهل عليها تقبل الفكرة، فقد تحطمت آمالها وتلاشت أحلامها، لكن إيمانها بالله وصبرها كانا من الألواح التي أسندت عليها روحها الضعيفة. مع مرور الأيام، بدأت تواجه واقعها الجديد، وتعلمت كيف تتأقلم مع كرسيها المتحرك، الذي أصبح وكأنه جزءاً من كيانها.

في خضم تحديات العلاج الفيزيائي التي خاضتها، تحملت آلاماً وأوجاعاً لا تطاق. رغم كل ما عانته، كان يشرق في قلبها نور من الأمل، وهو حب زوجها ينال الذي كان بجانبها كظلها، لم يتخلّى عنها يوماً، بل أحاطها بحضنه وحنانه. كان دائماً يؤكد لها بأنه لن يتخلى عنها، مهما كانت الظروف، حتى لو ظلت على هذا الحال إلى آخر العمر. لكن بالرغم من ذلك، كانت ولا تزال تشعر بالقهر والنقص، كأنها عبء على قلبه الصادق.

سلام، التي كانت تظن أن إعاقتها حرمتها من أن تكون زوجة كاملة، لم تكن تطيق أن ترى ينال يعاني بسببها. تساءلت بصمت دائم: ما ذنبه؟ فهو ليس مُلزماً بتحملها. ومع ذلك، ظل هو قانعاً بما لديه، يستمد سعادته من ضحكتها وكلماتها الرقيقة. حتى قبلة بسيطة من شفتيها كانت كفيلة بأن تحلق بروحه في فضاء من السعادة.

غير أن هناك من ظل يُذكرها بنقصها، وتحديداً منار، ابنة عم ينال. كانت تلك الفتاة تجسيداً لكل ما يخيف سلام، حيث كانت تسخر منها بعبارات شائنة، وتأكل قلب سلام بكلماتها السامة. كانت تزرع في نفسها القنوط، وكأنها تتلذذ برؤيتها تنفطر، مما كان ينتهي بسلام، منهارة في فراشها، تبكي بحرقة ومرارة.

حاولت منار بكافة الطرق أن تلتصق ينال، وأن تُظهر له عيوب سلام، لعله يختارها بدلاً منها، إلا أن ينال كان عازماً على صدّها. لم يتردد في طردها بعد أن أساءت إلى سلام بكلمات لا تُغتفر. في إحدى المرات، تجرأت بالحديث بالسوء عن زوجته، وكأنما لم تعرف حدود الأدب، فما كان من ينال إلا أن انتفض غاضباً، وطردها تماماً حتى خاب أملها من رؤيته مرة أخرى.

على الرغم من محاولاتها المستمرة لتحريض عائلتها ضده وافتعال المشاكل، ظل ينال صلباً كالجبل، ولم يتزعزع. ترددت سلاسل الكلمة في أروقة منزله، لكن رحابة قلبه كانت أكبر من كل تلك الصعوبات، حيث كان يدعم سلام من خلال والدته، التي ظلت تقف بجانبه وتقوي من عزيمته وتكون له كالسند. كانت موفرةً لسلام كل عاطفة كانت تحتاج إليها، كبنفسج بحضور الربيع بعد شتاء قارس.

وفي أوقات الشدة، كان ينال يُقسم بحبة لها، مُخاطباً إياها بصوت هادئ: "سأظل هنا، لن أتركك أبداً، ولا شيء في العالم يمكن أن يضغط علي أو يُثني من عزيمتي تجاهك. لقد أنعم الله علي بك، وأقسم أنني سأتخلى عن الدنيا بأسرها ولن أهجر قلبك يوماً"

كان صوت وعوده بمثابة جرعة من الأمل لكل الحزن الذي تسرب إلى روحها. فقط باستطاعته أن يجعلها تشعر بأنها لا تزال كاملة، وأنها لم تفقد شيئاً من إنسانيتها. لقد منحها حبّه القوة لتُدرك بأنها رغم كل ما مرت به، لا تزال تمتلك شيئاً جميلاً في حياتها.

وبهذه الطريقة، انصهرت حكايتهما معاً، عبر طريق مليء بالعقبات والخيبات، لكنهما ظلا يرفرفان في سماء الحب، متحدين كل صخب الحياة وعواصفها.

استطاعت مها أخيراً أن تعبر إلى ضفة المسامحة، وعادت علاقتها بأختها ريمة لتزهر من جديد، كزهور الربيع التي تنمو بعد برودة الشتاء القاسي. لقد كان قلبها مليئاً بالسعادة، حيث تمت خطبتها منذ ثلاثة أشهر لذلك الشاب الذي احتل مساحات من روحها، والذي يدعى طارق. كان طارق أكثر من مجرد رفيق درب، فهو كان سليم النية وصادق المشاعر، إذ تحمل تحديات كثيرة في سبيل إقناع مها بحبه وإيمانها به، حتى أنه تحمل الصد والرفض من جانبها.

كان طارق معيداً في الجامعة حيث تدرس مها، يفصل بينهما سبع سنواتٍ من العمر، لكنه لم يعبأ بسقف الالتزامات المرسوم بينهما. بل تعلّق بها، معجباً بأخلاقها، بابتساماتها، بحيويتها. كان يراقب كيف تشرق عيناها عند الحديث عن أحلامها، ومع مرور الوقت انقلب إعجابه إلى حبٍ عميق، فصارحها بمشاعره. لكن مها، بقلقها وخوفها من الماضي، لم تكن لتبالي، عابرة كلماته كما يفعل النسيم بأوراق الشجر.

لكن طارق لم يستسلم. كان له عزيمة أفضل من جدران تفصل بين القلوب، فاستمر في التعبير عن مشاعره حتى تمكن من اختراق أسوار قلبها. وها هما اليوم، بعد ثلاثة أشهر من الخطبة، يعيشان في سعادة لا توصف، كنجوم تتلألأ في سماء صافية، حيث علمت مها أن ليس الجميع مثل مهند، فقد عثرت على إنسانٍ صادق، يستحق حبها ويُقدر نفسها. هي الآن تعيش في أبهى حالاتها، لكن بداخلها كان يخيم خوف لا يغادر، كان يختبئ من أعباء الماضي كظلٍ ينسحب في الزوايا المظلمة.

أما ريمة، فلم تكن بمثل حال أختها، إذ ما زالت أسيرة حب مهند، تلملم أشلاء الذكرى، تخط جراحها القديمة من بين حروف ذكراها الجميلة. لم تستطع أن تنسى لحظاتهم المشتركة، رغم كل محاولاته للعودة إليها، فقد كاد يلتف قلبها

حول نوره. ولكنها وبعنفوانٍ قاطع، أبت أن تعود لتلك العلاقة المعقدة. كانت مها تقدم لها النصيحة، ولكنها كانت كالنسيم مع الزهور؛ تمر دون أن تترك أثراً.

تدهورت حالة مهند النفسية بشدة، وأصبح المرض جزءاً من حياته، حيث لم يستطع الاحتمال أكثر. لكن في لحظة عجزه، اضطر للدخول إلى المستشفى، وعاش شهرين هناك يعاني من جنحه المظلم. زارته ريمة وحاولت أن تخفف عنه، لكن العلاقة لم تكن كما كانت يوماً. جاء وقت الشفاء، واستعاد صحته، فطلب منها أن تكون زوجته، ولكنها كانت تماطل، تخشى التسرع وتعلق أمالاً جديدة.

لكن مهند كان يعاني من عدم الصبر، وكما يحمل النجم نور الأمل، اتفق مع مها على أن اليوم المصيري قد حان. اتفقا على أن يأتي مع والديه ليتقدم رسمياً لخطبة ريمة في ذلك اليوم المحدد، بينما كانت المشاعر تتداخل بين الترقب والألم، حيث يتواجه قلبان يخفيان أسطورة لا تزال تتأرجح بين الحب والدمع.

وقفت ريمة أمام المرآة، تتأمل الفستان الوردي الناعم الذي أضفى لمسة من الرقة على طلّتها، بينما شعرها الحريري انسدل على كتفيها كخيوط من الشمس. كانت تجلس على حافة الانفعال، قلبها ينبض بتوتر لا يهدأ، كأنه يتراقص على أنغام لحظات فاصلة في حياتها. كيف تجرؤ على أن تتخذ قراراً يمكن أن يكسر به قلب أختها، التي عانت من أجل الحب واستحقاقه؟

تندفع إليها مها، بشغف الابتسامة التي تضيء وجهها، متنكرة في فستان رقيق أسود يتلألأ كجواهر مطعّمة في عتمة الليل:

"هيا، لقد وصلوا!"

تنطق الكلمات بحيوية تضج بالحماس، وكأنها ترسم صورة مستقبل مشرق يجمع بين قلبين منسجمين.

لكن صدى كلماتها يصطدم بجدران قلب ريمة، فتشعر بألم يعتصر صدغها. جحظت عيناها، واهتز جسدها بقوة، كما لو أنها سمعت صدمة من واقع مرير. كانت تتخيل كل هذا، لكن إدراكه صار حقيقة أمام عينيها:

"لا، لا أرجوكِ، لا أستطيع، أنا حقاً لا أريده!"

تخرج الكلمات من بين شفتيها كالزفر، تفيض بما يخفيه قلبها من حيرة وخوف.

تدرك مها أن أختها تعيش صراعاً بداخله نور وحب وهجران. لم تكن ريمة وحدها في هذه اللحظة، بل كانت عباراتها تعكس صراع طيف مهند الذي لا يزال يلوح في أفق ذاكرتها. كانت تحاول نسيانه، لكنها لم تفعل سوى أن أغرقت في دوامة الذكريات المؤلمة التي تغلغلت في قلبها.

"ولكنه هنا من أجلك يا ريمة!"

ترد مها، محاولة تهدئة العواصف التي تجرف أختها:

"هو يستحق فرصة جديدة، وأنت تستحقين الحب أكثر مما تعتقدين!"

كانت كلماتها تتردد في الأجواء كشلال من الأمل، لكن ريمة من خلف عواصفها، لم تجد سوى الحيرة تسكن قلبها.

تتساقط كلماتها في السكون الذي يعم الغرفة، بينما تعبر أنفاسها المتقطعة عن الارتباك الذي يحتل كل زاوية من مشاعرها:

"أخبريني، هل يمكنني حقاً فعل هذا؟"

تقترب مها منها، وتمسك بيدها بلطف قائلة:

"أنا هنا من أجلك، مهما كان قرارك. لكن تذكري، الحب ليس جريمة، إنه هدية. لا تفوتَي الفرصة."

تتداخل أنفاسهما في تلك الغرفة، لتصبح اللحظة مهيبة كإعصار يجمع بين الأمل والخوف. ومع كل دقة قلب، تنتظر ريمة أن تحسم قرارها، وهي ترى في عيون أختها تعبيراً يفيض بالحب، وتلاحظ أن عواطفها تسبح في بحر متلاطم من الرغبات والمخاوف، عالقة بين الماضي والمستقبل.

ابتسمت مها بخفة، كنسمة ربيعية تحمل عطر الأمل، وقالت بوضوح:

"هيا أيتها البلهاء! إن الناس ينتظرونك. لا تنكري، أنتِ في أعماق قلبك لا تزالين تريدينه، هيا!"

ابتلعت ريمة ريقها بتوتر، وكأن الكلمة كانت من الغصة التي تملأ الحلق، لترد برعشة في صوتها:

"ولكن ألم تنسي ما حدث؟"

وارتسم التردد على ملامحها كشمعة تتأرجح في مهب الريح.

نفخت مها خديها بقوة، وكأنما كانت تحاول أن تزيح هموم ريمة عن عاتقها، ثم قالت:

"أيتها الحمقاء، كل ما حدث في الماضي لم يعد من شأننا. أنا أيضاً قد نسيت ولم أعد أبالي به، وقد تمت خطبتي وأنا الآن سعيدة مع طارق. فما المانع من أن تكوني مخطوبة، أيضاً؟"

تنهدت ريمة بعمق، وكان صوتها خافتاً مخنوقاً بالخوف:

"لا أعلم، لكنني خائفة جداً. أرجوكِ، ساعديني!"

وكانت عيناها تتوسلان، تحمل في طياتها قلقاً يصعب وصفه.

حركت مها رأسها بيأس، وكأنما قد نفد صبرها، فقالت:

"بماذا يمكنني مساعدتكِ؟ لا داعي للخوف. ثم إنكِ إذا رفضتي، سيعود مهند إلى المستشفى، وستتدهور حالته كما حدث من قبل، بل لعله أسوأ. هل تريدين ذلك؟"

جحظت عينا ريمة كأن الأفق قد انفتح أمامها بوضوح تام، ونطقت بدهشة:

"لا، لا أريد أن يحدث له شيء!"

ضحكت مها بخفة، كأن الضحكة كانت ذريعة لتفريغ التوتر:

"أرأيتِ؟ ما زلتِ تحبينه. هيا، هيا، الناس ينتظروننا ويريدون سماع جوابك. هيا"

أمسكت يدها وجذبتها خلفها بكثير من الحماس. بينما كان قلب ريمة يقرع كطبول الحرب، إذ كانت تخفي سعادة لا توصف لأن العذاب الذي يلازمها تجاه أختها قد بدأ يتلاشى.

عندما دخلت الفتاتان بين الحضور، التقت عينا ريمة بعيني مهند. كانت تلك النظرات تتقاطع كأنها تخبر قصة لا تحتاج إلى كلمات. شعرت بالتوتر، وهي تلقي التحية عليه وعلى عائلته، ثم جلست بجانب أختها ووالدتها، وقلبها يتردد بين الهزيمة والانتصار.

كان مهند ينظر إليها بعيون مفعمة بحبٍ لا يُقاوم، وكأنه لا يُصدق بأن الحلم أصبح حقيقة. الحديث كان يدور حول مراسم الخطبة.

حين جاء الدور على ريمة ليتبين رأيها، تملّك الخوف مهند، فقد حلّ الصمت كالثقل على الأكتاف. نظراتهم كانت متصلة، ولم تعد ريمة تجد الكلمات، وكان إلحاح مها همساً ثابتاً في آذانها لتوافق.

ابتلع مهند ريقه بشغف الوقت، قلبه يشتعل بشوقٍ وقلق، ينتظر أي علامة من ريمة. وفي لحظة من النضال الداخلي، انفصل صدى صوتها، متهدج لكنه عميق:

"موافقة."

ما أن نطقت كلمتها، حتى كانت كلمتها ضوءاً يشق عتمة الشك، هربت ريمة من بينهم كأنها طيف، بينما أسرعت مها وراءها، مبتسمة بفرحٍ يغمر قلبها.

عندما سمع مهند بموافقتها، ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه، كأن سحب الشك قد انقشعت عن سماء قلبه. تنهد براحة ليبدأ حديثهم عن موعد عقد القران، ومواعيد الزفاف، وكل شيء تأجّل طويلاً بسبب القلق والألم.

....

كان المشهد في عيون سمر متشابكاً بين الفرح والانتقام، إذ لم تستطع أن تخفي سعادتها العارمة عندما علمت بخبر انفصال ابنتها حياة عن زوجها. تلك الفكرة التي تجلّت أمامها كإشراقة في ظلام حياتها، كانت في نظرها سبباً للاحتفال. ومع ذلك، لم تستطع تصديق ما سمعته حتى زارت إياد، لتتحقق من صحة الخبر.

لكن ما واجهته كان مشهداً مروعاً. كان غضب إياد كبركان ثائر، ينفث عن بركان مستعر من مشاعر الذل والإهانة. لم تكن سمر في حالٍ تسمح لها بالتراجع. كانت عيناها تلمعان بالخوف، بينما قلبها يرقص على أنغام الندم جراء تصورها لحياة ابنتها كما تريد:

"لم أكن أتصور أنني سأصبح هذا الكائن المتعجرف! أنا الأم، من المفترض أن أكون الملاذ!"

همست لنفسها، لكن لم يكن هناك أحد ليستمع.

مرّت الأيام، وكأنها سحابة تمر بلا غيث. تعجبّت سمر من عدم مجيء حياة لطلب التوحد مجدداً، كما كانت تتخيل أنه من واجبها:

"لكني أمها، وهي بحاجة إلي!"

إيقاع أفكارها لم يكن يتماشى مع الحقيقة المُرة. وتبخّر الحلم عندما علمت بخبر سفر ابنتها، واعتقدت أنها ابتعدت عنه وكل ما يذكرها به. في تلك اللحظة، أنطفأت شمعة من الأمل.

مضت الأشهر، وبدأت سمر تتردد على إياد، محاولة إثارة مشاعره وإعادة استدرار اهتمامه. غرقت في التفكير وكلها أمل، لكن ما لقيته من التصدي كان كالصخر. كان نظر إياد إليها مصحوباً بعدم الاكتراث، وأنفاسه تتحدث بلغة الاشمئزاز والقرف، كأنها كانت كابوساً يطارده بلا رحمة.

ومع مرور الزمن، تحوّل الأمر إلى استهزاء لا يطاق، مما دفع إياد إلى أن يتحرك بشكل درامي. كان يستمد قوته من فقدان الشعور، ولما علم بهروب حياة وتخليها المؤكد عنه، صاغ خطته بإحكام، مثل النحل الذي يجمع العسل ليبني مملكته. فجاءته الفرصة وبرزت، فزمجر في هدوء، وزج بسمر إلى السجن تحت مشاعر مهينة بفعل تهمة تهريب المخدرات.

شعرت سمر وكأن الحياة قد خذلتها، كما لو كانت صخرة تتدحرج إلى الأسفل بلا توقف. كانت محتجزة في قيعان الزنزانة، حيث ليس هناك ضوء أو أمل. عزلتها جدران السجن عن الحياة الرغيدة التي لطالما حلمت بها، وأصبح مستقبلها مجرد ذكريات مرعبّة.

وبين لحظات الضعف، خيمت عليها خيوط من الأعماق، لتجعلها تتساءل عن الخيارات التي اتخذتها في حياتها:

"ما الذي فعلته بحياتي، وبحياة ابنتي؟"

ومع كل نظرة إلى تلك الجدران القاسية، تاهت في بريق الذكريات والندم، حتى رحل الأمل الفاتر كقنديلٍ انطفأ في عتمة السجن، مزيج من مشاعر الخسارة والفقد، يجسد رواية لم تُروَ بعد.

جلس حسان في صومعة من أفكاره، كما لو أن الزمن توقف من حوله. لم يطرأ عليه أي تغيير، وكأن الحياة قد جعلته سجيناً في روتين مؤكّد. علم بسجن سمر، لكن الخبر مرّ عليه كالعاصفة التي تمر بلا أثر، فلم يعطِه أي اهتمام. في أعماقه، كان يشعر بسعادة خفية، كما لو أنه تخلص من ضغوطات ائتلاف حياتهم المشتركة. وبدلاً من ذلك، اقترب أكثر من إياد، بعد أن علم بانفصاله عن زوجته.

كان حسان يشعر براحة غريبة في هذا القرب، رغم أنه لم يكن لديه أي مصلحة واضحة من وراء ذلك. اقترب منه فقط لأجل العمل، حيث انضم إليه في عدة صفقات تجارية، مما ساهم في توسيع الشركة بشكل ملحوظ. وها هو الآن، يجمع أغراضه ليبدأ رحلة جديدة إلى ألمانيا، بناءً على طلب إياد، بهدف توقيع عقدٍ جديد مع الشركة الألمانية.

صباح اليوم التالي

بعد أن وطأت قدماه مطار ألمانيا، توجه حسان إلى الشركة، قلبه يضج بالطموحات الجديدة، بينما كانت خطواته واثقة كنبضات الإيقاع في قلب المحارب. وصل إلى مكتب الاجتماعات حيث يُعقد لقاء توقيع العقد مع ذلك الرجل الغامض الذي لم يلتقه من قبل. بعد التحيات والمجاملات، تم توقيع العقد، وأصبح كل شيء راسخاً.

بينما كان حسان منهمكاً في الشكليات، كان يتلقى نظرات متوجسة من حسن، الذي لم يكن يدري أن هذا الرجل هو من أرسله إياد. فضول حسن تزايد، ورغب في معرفة المزيد عن قصة حسان، لذا دعاه إلى مكتبه بعد الانتهاء.

في غضون دقائق، كان حسان جالساً مع حسن في مكتبه، حيث تدفقت الأحاديث كجدول مائي نقي.

لكن فجأة، انفتح الباب على مصراعيه، ودخلت حياة ومعها ابنتها الصغيرة. ومع ذلك لم تكن تعرف أن المشهد سيتغير بشكل دراماتيكي. عندما نظرت إلى حسان، تجمدت في مكانها، وجحظت عيناها كأنها رأت شبحاً من ماضيها.

حيث كان حسان يلتقط تفاصلها، كما لو أن هناك خيوطاً من الماضي نسجت حكاية بينهما. كان يحاول تذكرها، وخلال ثوانٍ مثّلت آلاف الذكريات في ذهنه. وعندما تلاقت عيونهما، صعق بحقيقة أنها أمامه، وعاد صوته يتردد في صمت المكان:

"حياة؟"

نظرت حياة نحو حسان بصدمة، كأنما وقع عليها صاعقة من السماء، انعقد لسانها عن النطق وكاد قلبها يتوقف من المفاجأة. لم يخطر في بالها يوماً أن تصادف هذا الموقف الغير متوقع، أن يلتقي بها بعد كل تلك السنوات، كانت حالة تخرج عن نطاق التفسير، وكأن القدر يسخر منها، ويجعلها تعيش لحظة عصيبة لا يمكن وصفها بالكلمات.

كان حسان ينظر إليها، بعيون واسعة، مليئة بـ أسئلة لا تعد ولا تحصى، أسئلة تتصارع في رأسه: ما الذي جاء بها إلى هنا؟ كيف تعرف حسن ولماذا تحمل بين ذراعيها تلك الفتاة الصغيرة؟ لم يصدق أن الحياة أوقفته أمام هذا المشهد، في تلك اللحظة كان عقله يصارع لإيجاد تفسير، لكن لم يكن هناك سوى الفوضى.

فهو كان يعلم أنها انفصلت عن إياد، ذلك الرجل الذي رفض الطلاق، والذي لم يكن له وجودٌ حقيقي في حياتها. لكن ماذا عن هذه الصغيرة التي تجلس في حضنها؟ هل من الممكن أن لا تكون ابنة إياد؟ استنكر عقله الفكرة؛ لأنه كان يعرف حياة جيداً، ويعلم أنها لم تكن لتقع فريسة لصفات والدتها. كان حسان، الرجل ذو الأربعين ربيعاً، يحمل نظرة حكيمة، كأنياب الأفعى الحذرة، يعرف ما يعنيه الحب وما يعنيه الفراق.

حاولت استجماع شتات أفكارها، وابتلعت ريقها بصعوبة لتقول، في محاولة لإخفاء اضطرابها:

"أستاذ حسان، ما الذي جاء بك إلى هنا؟"

أجابها بابتسامة باردة:

"إنها صدفة جميلة، أليس كذلك؟"

همست بابتسامة يتملّكها التصنّع، وهي تتوجه نحو المقعد أمامه، جالسةً وواضعة ابنتها في حضنها، محاولةً إخفاء تلك العاصفة التي جارفة داخلها:

"أجل، ربما."

دون أي مقدمة، همهم بحزم:

"ابنتكِ."

مرت دقات قلبها كطوفان في جوف المحيط، فحركت رأسها بإيجاب مكره، وتنهدت بعمق كما لو كانت تحاول التخلص من أثقال العالم. تابع حديثه، بينما كانت عيناها تشتعل بالانفعالات:

"والسيد إياد لا يعلم بها، أليس كذلك؟"

احتقن وجهها بلون الخجل والصرامة، وكأن جدران الضغوط قد انزلقت حولها. أجابت بصرامة لم تخلو من انفعال:

"أستاذ حسان، أرى أنه ليس لَكَ شأنٌ بهذه الأمور، ولا داعي لجلب سيرته أمامي."

ابتسم ببرود غريب، وكأنما تلك الابتسامة كانت حادة، تغرز فيها مما أثار اشمئزازها. وفي صمت مطبق، كان حسن يتابع المشهد، حيث أراد منحها الفرصة لتتحدث، ولم الشمل، لكن ضميره كان ينفث الحذر في أذنه.

عندما قرر الخروج من المكتب، كان قلبه يعتصر بحزنٍ، فكل ما يريده هو سعادة حياة. تنفست حياة بعمق، امتلأت بالحنق من تصرف حسن، لكنها لم تستطع أن تعبر عن ذلك. كان حسان ينظر لها مطولاً، عينيه تتفحصان تفاصيلها وكأنما يكتشف شيئاً جديداً.

نظرت الفتاة إليه بهدوء، ثم خمّنت خجلاً في صدر والدتها، مما جعله يبتسم، وكأن نوراً استنار في قلبه. فأراد أن يتواصل مع الصغيرة، وجذب عطفه إليها، متوجهاً بالحديث إليها:

"ما اسمكِ يا جميلة؟"

نظرت له نظرات ملفوفة بالبراءة، قبل أن تختبئ خجلاً في حضن والدتها. اتسعت ابتسامة حسان لتجيب حياة:

"لقد أسميتها رهف"

همهم حسان بإعجاب وقال:

"اسمٌ جميل."

تنهدت حياة بقوة، كطفل مضطرب، وسألت باندفاع:

"ما الذي جاء بك إلى هنا؟"

ابتسم حسان بخفة، وكأنما أراد أن يخفف حدة التوتر الذي يسيطر على الجو، وقال:

"لقد جئت هنا لأوقع العقد مع هذه الشركة بناءً على طلب السيد إياد. لكن بعيداً عن ذلك، لقد حدث الكثير في غيابكِ."

قابلته بضحكة ساخرة، تحمل الكثير من استنكارها لتلك العلاقات المعقدة: "السيد إياد، مممم... أليس هو ألد أعدائك؟"

انفجر ضاحكاً بصوت مرتفع، وكأن جملتها كانت نكتة طريفة:

"لا يا عزيزتي، إياد لم يكن يوماً من أعدائي؛ بل أنا أحترمه جداً، لذلك أعمل معه منذ سنتين."

حركت رأسها بإيجابية لكنها كانت تشير إلى تصرفها البارد، قائلة ببرود:

"جيد."

نظر إليها بدهشة، متسائلاً ما إن كانت هذه هي حياة الفتاة الرقيقة، التي كانت سريعة البكاء، والتي عرفها؛ فقد تبدل كل شيء في ظهورها المعقد. خلال جلسته معها، لم يرى منها سوى تلك البرودة الساحرة، شخصية تتسم بالجموح، وكأنها تحمي قلبها وراء درع من الحديد. تنهد بقوة، محاولاً اختراق الحواجز التي أقامتها، ليطرح سؤالاً صريحاً:

"لماذا تركتي زوجكِ وابتعدتي عنه؟"

نظرت له بحدة، وتجاهلت تعبيره:

"يبدو لي أن هذا الموضوع عائلي، ولا يحق لك التدخل فيه."

ابتسم باستهزاء، وكأنما أراد أن يفك شيفرة سلوكها:

"اسمعيني جيداً مدام حياة. أنا أعلم تماماً ما أقوله، وأفهم أن رأيكِ هو أنكِ ترفضين تدخلي، لكن أعتقد أنكِ ارتكبتِ خطأً جسيماً بفعلتكِ هذه."

استمرت في الاستماع له ببرود، ولم تبدي أي رد فعل على كلماته، وكأن عقلها غائب في زوبعة من المشاعر. بلل شفتيه، وأردف، عازماً على إيصال رسالته: "لنفترض أن لديكِ الحق في تركه والانفصال عنه؛ لكن لا يحق لكِ أبداً أن تمنعيه من رؤية ابنته إلّا إذا كانت ليست ابنته حقاً."

احترق وجهها بشعاع غاضب، وكأنها أشعلت ناراً داخل نفسها، لتقول بحنق:

"لقد تماديت كثيراً في كلامك. رهف ابنته، وليست ابنة رجل غريب، لكنني لن أريه إياها أبداً. سيكون هذا جزاء فعلته معي وغدره بي."

ابتسم بسخرية فيما كان يعدل هيئته، ثم همّ بالرحيل، وقال:

"أنتِ حقاً لا تعلمين ما الذي تريدينه، يا حياة."

توجه نحو الباب، لكن قبل أن يمسك بمقبضه، صدح صوتها كما لو كان جرس إنذار:

"ليكن في علمك سيد حسان، أنا لست كوالدتي المحترمة، وهذا أولاً. ثانياً، أرجو منك أن لا تخبر سيدك بشيء، وأن تنسى أنك رأيتني أيضاً"

استدار نحوها، ثم نظر إليها بجديّة قائلاً:

"إن لم يعلم الآن عن ابنته، فسيعلم لاحقاً. لن تبقى هذه الطفلة دون والد يحميها ويشاركك في تربيتها. ولا تنسي أنك ما زلتي على ذمته. فكري ملياً يا حياة، وستدركين أنني أتحدث لمصلحتكِ ومصلحة ابنتكِ التي لا ذنب لها في خلافكِ مع والدها."

أنهى حديثه وفتح الباب لكنه استدار مرة أخرى وأردف:

"وبالمناسبة، والدتكِ قد سُجنت منذ عام بتهمة المخدرات، وسلام قد شلت قدميها ولم تعد تستطيع المشي. وتلك المدعوة رهام اختفت من حياة السيد إياد بفضل تصرفاته. أما عن زوجك، فلا أستطيع أن أصف لك حالته بعد رحيلك. أعود وأكرر، فكري ملياً وعودي إلى بلادكِ؛ لأن العناد لن ينفعكِ."

بكلمات حادة وعميقة، أنهى جملته وخرج من المكتب، متوجهاً إلى الفندق ليضع أغراضه قبل أن يعود إلى وطنه في اليوم التالي، بينما كانت أفكاره تشتبك مع ضميره الذي يناديه ليخبر إياد عن زوجته وابنته التي لاي علم بها.

في صباح اليوم التالي، انطلق حسان نحو المطار بخطوات تتسابق مع الزمن، متمنياً في أعماق قلبه أن لا تكون الطائرة قد أقلعت بعد. كان الشعور بالقلق يتجلى في عينيه بينما تتلاشى المدينة خلفه. حالما وصل إلى المطار، ارتفع صوت النداء للركاب واستعدوا للصعود إلى الطائرة، كأنه نداء القدر. وقف ليلتقط أنفاسه، وشعور من الارتياح يتسلل إلى قلبه عندما علم أنه لم يفوته موعد الإقلاع.

بسرعة احترافية، اتجه نحو الطائرة، التي أقلته نحو وطنه بعد قضاء أربع ساعات كانت كالساعات الأبدية في انتظار العودة. عند وصوله إلى مطار بلاده، انطلق خارجاً ليستقل سيارة أجرة متجهاً إلى منزله. بمجرد وصوله، استحم سريعاً وكأن المياه كانت تُنظف روحه من الأعباء التي تكالبت عليه، ثم ارتدى ملابسه واحتضن أوراقه بحزم، قبل أن يخرج نحو شركة إياد.

لم يمضي وقت طويل حتى وصل إلى الشركة. وقف أمام باب مكتب إياد، وطرق الباب بخفة، ثم دخل. ابتسم حين رآه وتوجه نحوه معانقاً إياه بحرارة. بعد السلامات المعتادة، تبدد الدفء عندما تحدث إياد ببرود مريب:

"ها، ماذا فعلت؟"

تنفس حسان بعمق، وكأن كل ما أخفاه عنه انهمر دفعة واحدة:

"كل شيء تحت السيطرة. لقد وقعنا العقد، والصفقة قد تمت."

همهم إياد بفضول ليتذكر:

"ما اسم الشاب الذي وقعت معه العقد؟ ذكرني به، فقد نسيته."

عبارة إياد جعلته يتذكر حياة فتنهد بقوة، قبل أن يقول بتردد:

"اسمه حسن سلمان."

عند سماع اسمه، ضاقت عينا إياد للحظات، وشرد قليلاً، وكأنه يغوص في بحور الماضي، قبل أن يقطعه صوت نفسه:

"حسن سلمان... لقد سمعت بهذا الاسم من قبل، لكنني لا أذكر أين."

ابتلع حسان ريقه، مستشعراً التوتر الذي بدأ يتصاعد، ليقطع إياد سكوته بقوله: "آه، تذكرت! أجل، أجل، لقد عرفته. كان أحد أصدقائي."

لم يكن لدى حسان ما يقوله، لذا صمت بغموض. استمر إياد في حديثه كأنه يتحاور مع ذاته:

"لكنه تحدث معي منذ فترة طويلة، قال لي إنه سيعود إلى البلاد. ما السبب الذي منعه إذاً؟"

نظرت عينا حسان بعمق إلى عيني إياد، واحترق قلبه بأفكار متلاطمة. تمنى لو يفتح فمه ليتحدث، لكن الكلمات كانت مُعطلة في حلقه. أخيراً جمع شجاعته ليقول بصوت خافت:

"مؤكد أن هناك شيئاً مهماً قد منعه من المجيء."

همهم إياد بتشويش معتاد، قائلاً:

"سأتحدث معه لاحقاً لأستفسر عن أحواله."

تنفس حسان بعمق، مثقلاً بعبء الكلمات التي أثقلت صدره.

"أريد أن أحدثك بموضوعٍ هام"

بدأ بتردده، وكأنه يخطو على حبال مشدودة.

حرك إياد رأسه بإشارة إيجابية، لكنه رد عليه ببرود، حيث كان واضحاً أنه لا يملك الوقت الكافي للغوص في أعماق المشاعر:

"أنا أستمع."

ابتلع حسان ريقه بصعوبة، وبدأت الكلمات تتراقص في ذهنه:

"مم... أنا أريد أن... أقصد أنني، يعني... أريد أن أقول..."

قاطعه إياد بعنف، مستغرباً:

"ما بك، حسان؟ لما تتحدث بهذه الطريقة الغريبة؟"

بلل شفتيه بلسانه، وكأنه يحاول تخفيف جفاف المشاعر التي تتجمع في صدره: "ليس كذلك، أستاذ إياد، ولكن الموضوع هو..."

لكن إياد، وكأنه يقرأ أفكار حسان، قاطعه للمرة الثانية، مضيفاً بتفهم مزيّف: "حسناً، حسناً، يبدو أنك متعب من السفر. اذهب واسترح قليلاً، سأراك غداً."

تنهد حسان بيأس، وكأن العالم قد سقط على عاتقه. نهض ببطء، وخرج من المكتب، وهو يصارع نفسه، ويؤنبه ضميره حول ذلك الأمر المهم الذي يخفيه عن إياد، متسائلاً كيف يمكن أن يتجاهل ما يمتزج في قلبه من مشاعر معقدة.

بينما كان إياد يجلس على مقعده بعد مغادرة حسان، انطلقت أنفاسه في احتقان من الهموم. تنهد بقوة، ثم أخرج من درج مكتبه صورة تلك الفتاة التي عذبت فؤاده، ولم ترحمه يوماً بقرار انفصالها عنه. كانت ملامحها تتلألأ كنجمة ضائعة في سماء مظلمة، تدور حول قلبه المتلاشي.

ظل يتأمل في الصورة، ينيب عينيه نحو عينيها الساحرتين، وكأنهما تسرقان منه سحر اللحظات التي عاشاها معاً، حيث تلاقت أرواحهم في عالمٍ خاص. اعتصر قلبه عندما تذكر ضحكتها، تلك الضحكة التي كانت تعزف لحن السعادة في أركان ذاته، والأوقات الجميلة التي تمردت على الزمن، وكأن الفراق لم يكن له وجود.

"أشتاق إليكِ"

همس وهو ينظر إلى صورتها، كأنها تثبت له أنه ما زال نابضاً بحبها. في كل ليلة كان يؤمن بأن اشتياقه لها أصبح جزءاً من وجوده، لا يمكنه التخلص منه، رغم فراقهما:

"عشقي لك لم يغب عن قلبي، إنما تطاير في زوايا ذاكرتي، كنجوم مخفية تحت الغيوم."

أخذ يردد اسمها في نفسه، متخلصاً من سلاسل الذكريات التي كانت تهدف إلى ربطه بالواقع المؤلم. كان يعرف أن تلك العلاقة كانت نغمة لم تنتهِ، موسيقى لا يزال يتردد صداها في نفسه. وهي كما كان يتمنى، عادت لتظهر في خياله، لتعيد إحياء كل ما يغلي في داخله من مشاعر.

كانت سلام كعادتها جالسة على كرسيها المتحرك، تداعب بيدها السنارة، مشغولة بفن الحياكة ومبتكرة ألواناً من الصوف الرفيع. اليوم كان الوشاح الذي تعمل عليه مخصصاً لزوجها، بلون رمادي خافت يعكس حبه للموضة وذوقه الراقي. كان ذلك صوفاً ناعماً برائحة الجهد والحب، وهما عنصران يتداخلان في كل غزلة تُنسجها.

تعلّمت سلام فن الحياكة بعد أن اقترحت عليها والدة ينال فكرة تدريبها على العمل بالسنارة؛ لتجد نفسها غارقة في جمالية الإبداع، تستمتع بالجلسات الهادئة التي تحلق بها بعيداً عن همومها. لكنها وعلى الرغم من ذلك، كانت تعيش بعض الأيام القاتمة، كالتي سيطرت على شعورها بعد مغادرة سناء للتسوق.

فجأة، قطع صوت رنين جرس الباب صمت البيت الدافئ. استشعرت تعجباً من الزيارة غير المتوقعة، إذ لم يزرهم أحد منذ مدة. تنهدت بعمق متسائلة في نفسها عن هوية الزائر الغامض، وبدأت تدفع بعجلات كرسيها نحو الباب.

ببطء، فتحت الباب لتجد نفسها أمام منار، التي أشرقت بابتسامتها العذبة وكأنها شعاع شمس في يوم عاصف. دخلت بسرعة وأغلقت الباب خلفها وكأنها دخلت بعجز عن مغادرة.

"أعلم أنكِ متعجبة من مجيئي، لكنني جئت للتحدث معكِ أنتِ خصيصاً."

جاء كلامها، يحمل في طياته نغمة مخادعة.

نظرت سلام إليها، ولم تفقد ذلك الحذر المتيقظ، فرفعت حاجبها مستفسرة. ومع ذلك، حركت رأسها بإيجابية مترددة، قبل أن تستدير بكرسيها نحو الصالة. تبعتها منار بنظرة خبيثة، كأنها تعتزم بدأ لعبة قديمة.

ما إن جلست منار حتى بدأ التوترُ المُفتعل يلوح في وجهها، وبللت شفتيها قبل أن تتحدث بلسان مُعتذر مطلياً بالدهاء:

"سلام، لقد جئت لأعتذر منكِ ومن ينال عن كل ما بدر مني. أنا حقاً نادمة على تصرفاتي وكلمات الأذى التي وجهتها لكِ في الماضي. صدقيني، جئت بنية صافية، أريد أن نبدأ صفحة جديدة."

استمعت سلام بتركيز، لكن كلمات منار مرّت كنسيم صيفي خفيف على عقلها، دون أن تترك أثراً. كانت سلام فتاة حكيمة، تدرك زيف المشاعر من نظرة واحدة، لحظتها تأكدت أن منار أتت بخبثها. ابتسمت في وجهها ابتسامة مصطنعة، مرسومة بعناية في محاولتها المؤلمة لتوضح عدم تصديقها لحديثها.

تنهدت سلام بعمق مكسور، كأنما استشعرت ضياع كلماتها:

"أتريدين فعلاً أن تصلحي الأمور بيني وبينك؟"

قالت، وسردُ الحديث أشبه بانكسار نغمة الحزن في قلبها.

حركت منار رأسها بإيجاب، بينما تألقت عينيها بشغف مبالغ فيه. ردّت سلام بأسلوبٍ حاد وكأن كلماتها تصهر في قلبها:

"حسناً، أريدكِ أن تخبري عائلة ينال بمنتهى الصراحة أنكِ أنتِ من أخطأتِ بحقنا، وأنكِ قد افتعلتِ المصائب لتصلي إلى مرادكِ، وهو ينال. وفي نهاية المطاف، لن تكذبي عليهم في شيء، لأنكِ أنتِ حقاً من صنعت تلك الفوضى، وكان هدفكِ الوحيد هو زوجي."

شددت سلام على كلماتها الأخير، وكأنها تُدخِلها في عقل منار كخنجر، مما جعل وجه الأخيرة يحتقن بشدة، ولعبت أمواج القلق على ملامحها. تنفست منار بعمق، محاولة استعادة رباطة جأشها، وقالت بنبرة متهالكة:

"حسناً، سأفعل ما تشائين. ستعود علاقة ينال وعائلته إلى طبيعتها، ولن أفتعل أي مشاكل بينكما مرة أخرى. وكل هذا لأثبت لكِ حسن نيتي، عزيزتي."

ابتسمت سلام بابتسامة باردة وساخرة، متفهمة لعبة منار لكن متحفظة في أمرها. لم تكن بحاجة لكلماتها، كانت تعلم أنّ خلف ذلك التظاهر بكلمات الاعتذار نية خفية. بللت منار شفتيها، محاولة تغيير الأجواء:

"حسناً، ما رأيكِ بكأس عصير بارد الآن؟ سأصنع لكِ ولنفسي."

ابتسمت سلام لها بابتسامة تحمل مختلف المعاني:

"لا مانع لدي."

اتسعت ابتسامة منار، لتنهض عازمة على الذهاب إلى المطبخ، حيث زغردت في خاطرها أفكارٌ ظلامية. ما إن دخلت إلى المطبخ حتى ارتسمت على وجهها تعابير قاسية، نظرت حولها وكأنها تبحث عن ضحية لإجرامها. غمرت الكأسين بالعصير، ثم أخرجت من جيبها علبة صغيرة وفتحتها بخفة. لم تتمالك نفسها من الابتسام بتشفٍ وكأنها تتخيل وجع سلام وهي تتلظى بمصيرها.

في تلك الأثناء، دخل ينال إلى المنزل، ووجهه متلألئ بالحب والحنين. وعندما وقعت عينيه على سلام، تسارعت نبضات قلبه وهرع نحوها يعانقها بشغفٍ بالغ، مما جعل وجنتي سلام تشتعلان خجلاً. همست بخجل:

"لدينا ضيوف."

عقد ينال جبينه متعجباً وسأل:

"من هم الضيوف وأين هم؟"

ابتسمت بخفة محاولة تفادي التوتر:

"منار في المطبخ."

جحظت عينا ينال، وعبس وجهه بقلق:

"كيف سمحتِ لها بالدخول إلى هنا، سلام؟"

ربّتت باهتمام على كتفه، محاولة تهدئته:

"لقد جاءت لتصحيح الأمور بيننا، واعتذرت لي. وهي الآن في المطبخ تُعد العصير لنا."

لكن وجه ينال احتقن بالشك، وقد تدفقت عليه موجة من الغيظ:

"أقسم أن هذه الفتاة جاءت لتفتعل المشاكل لا أكثر."

تنفست سلام بعمق، محاربة لأفكار الفوضى التي تجمعت في ذهنها:

"هذا رأيي أيضاً، ولكنني أريدك أن تكون معي في ما سأفعله الآن، حتى أكتشف نواياها الحقيقية."

توجه ينال نحوها، ممسكاً بيدها برقة، وقلوبهم تتلاقى في لحظة قوية:

"أنا معكِ في كل ما تريدين. سواء كان الأمر متعلقاً بإحباط خططها الماكرة أو بتحقيق سلامك وهدوء بالك."

ابتسمت سلام له، وعينيها تتلألأ بحبٍ عميق حين بادلته نظرة تتراقص فيها الأماني. اقترب منها ينال، والتقط شفتيها بقبلة عميقة وشغوفة، كانتا خلالها كعالمين مستقلين يسكنهما شغفٌ متفجر. ولكن في تلك اللحظة الدافئة، دخلت منار لترى ذلك المشهد، وكأنما نشبت بينهما خيوط متشابكة من الغيرة والألم.

احتقن وجه منار بشدة، وتملكها قهرٌ عاصفٌ وغضبٌ مكبوت. لكنّها تماسكت لحظة، محاولَةً استعادة سلامتها الداخلية. حمحمت ببرود، مما أدى إلى فزع ينال وسلام، اللذان تراجعا بسرعة عن تلك اللحظة الحميمية. وقف ينال، محدقاً في منار بجمود، بينما أخفضت سلام رأسها خجلاً، وجهها أحمر كدماء تتدفق في شرايين قلبها.

ابتسمت منار بوجه ينال، وكأنها تحاول استعادة ثقتها:

"كيف حالك ينال؟"

نظر إليها بلؤم، يعكس ما يعانيه من انزعاج، ليجيب بعبارات مختصرة:

"بخير."

تنهدت منار بقوة، محملة بعبء الندم في كلماتها:

"أنا حقاً آسفة على كل ما بدر مني في السابق. أرجوك، أريدك أن تسامحني. صدقني، لن أعد أضايقك أنت وسلام أبداً."

همهم ينال على مضض، وكأنه يعود إلى البساطة في الحديث:

"حسناً، لا بأس."

اتسعت ابتسامة منار، وشعرت بنشوة الانتصار عندما اقتربت من سلام، وقد أقرّت بحقيقة مشاعرها الكامنة. وضعت كأس العصير أمام سلام مبتسمة ابتسامة نصر مختبئة خلف زيف نواياها. وقفت تتأمل سلام وهي تمسك بكأسها، تمثل صورة الضحية المسلوبة الإرادة، وكانت ابتسامة النصر لم تفارق شفتيها وهي تراها تهمّ بشرب العصير.

لكن، في تلك اللحظة، نظر ينال إلى سلام بنظرة ذات مغزى يُخفي خلفها كل ما يجب أن يُقال. رمشت له عدة رمشات في محاولة لإخفاء ظلال القلق.

"انتظري، سلام، لا تشربي من هذا الكأس!"

صادح صوته، موقِفاً إياها كما لو أنه يستحضر عاصفة من الخوف في أعماقها.

سمعت كلماته التي أشعلت بها الخوف. توقف قلبها في صدرها كما لو أن الزمن قد تجمد. حركت شفتيها، لكنها لم تجرؤ على شرب رشف واحدة، شعور الاختناق ينتشر في أعماقها.

توجه إليها ينال، وبدون تردد أخذ الكأس من يديها، وعزم على توجيهه نحو منار، التي كانت تتابع المشهد بصدمة على وجهها. كان قلبها يدق بعنف، وأنفاسها تتسارع من الخوف، كأنها في معركة مع خيار مميت.

مدّ ينال يده بالكأس إلى منار قائلاً بحزم:

"خذي، اشربيها أمامي."

نظرت منار له بصدمة، وقد دبّ الرعب في أوصالها، بينما كان ينال يقف في مواجهتها وكأنه تمثالٌ من ثقة، حاجبه مرفوع، ونظرة قوية لا تحمل أدنى شعور بالرحمة. صدى صوته الخشن كسر الصمت المهيب المحيط بهما حين قال:

"هيا، ماذا تنتظرين؟ اشربيها."

ابتلعت ريقها ببطء، تحاول صد مشاعر الذعر التي تتسرب إلى أعماقها، لتقول بتوتر واضح:

"لا، لا. ها هو كأسي، سأشربه. لا أريد ذلك."

فاجأها ينال بخطاب واثق:

"أجل، أعلم بأن كأسكِ أمامكِ، ولكن أريدكِ أن تشربي منها قليلاً. أنا لا أثق بكِ، ولربما وضعتي شيئاً في الكأس لزوجتي."

تلعثمت الكلمات في حلقها، ووتيرة تنفسها بدأت تتسارع في حالة من الذعر، لتجيب بصوتٍ قلق:

"لا، صدقني، لم أضع شيئاً في الكأس."

ابتسم بسخرية، يستهزئ بمخاوفها:

"حسناً إذاً، اشربي منها. هيا، لا تترددي."

بللت شفتيها، وراحت تفرك يديها بقلق، بينما كان قلبها يقرع كالطبول، وبخفة العصفور الجريح، رفضت الأمر. لكن نبرة صراخه، التي نذرت بالغضب، تجمع حولهم كفخٍ خبيث، جعلتها تجفل:

"هياا"

انتفضت بمكانها، وسط دمار الهلع الذي احاط بها، وبدأت بالبكاء، تطلب برأفة:

"أرجوك ينال، لا أريد، لا أريد."

نظرة ينال إليها كانت صارمة وشديدة، وضع الكأس على الطاولة وسحبها بقوة من معصمها. تحدث بكلمات متثاقلة من بين أسنانه:

"ما الذي وضعتيه في الكأس أيتها اللعينة؟ ها، هيا أجيبي!"

كان صوته كالرعد الذي يتلو المتاعب، بينما هزها بقوة، مما جعلها تندفع بصراخ مكتوم:

"لا شيء، لا شيء، صدقني!"

حرك رأسه بحركة رفض، ثم دفعها نحو الأريكة بينما اقترب منها بعنف، فبدأ بتفتيش جيوبها تحت صرخاتها المُخنوقة، وعلقت ورقة الخوف في قلبها. لم تفلح محاولاتها لإبعاده، ما دفعه لتفتيش جيوبها فوجد علبة صغيرة. قلّبها بين يديه، فقد اكتشف أنها تحتوي على سم. نظر إليها، وقد صدمه ما رآه: كيف يمكن لهذه الفتاة أن تصل إلى هذا الحد؟ كيف امتد حقدها ليصل إلى التفكير بقتل زوجته؟

تأملته مشاعر الغضب والكراهية، وجعله يتذكر حجم الجرح الذي تسببه هذه الفتاة في حياة سلام. نظرته تحولت إلى حدّة عارمة، وأمسك بخصلات شعرها، هازاً إياها وكأنه يريد أن يخترق أعماقها ويستخرج الحقيقة.

"أقسم بأنني سأجعلكِ تندمين، يا منار! أتريدين قتل زوجتي، أيتها الخبيثة؟ لماذا لا تفهمين أنني لا أراك سوى ساقطة؟!"

كانت كلماته كالأشواك تُجرح في عمق مشاعرها، تسللت عبر هواء الغرفة المتوتر.

"سأخبر العائلة بكل شيء، وسترين ما سأفعل بكِ أيتها اللعينة المريضة!"

هكذا انطلق صوته كالرعد، يحمل عواصف من الغضب والنبذ.

كانت دموع منار تتساقط بهستيرية، مثل مطر غزير، جراء كلمات ينال الحادة التي نالت من كرامتها وعجزها عن إخفاء حقيقتها اللعينة. دفعها بحركة عصبية، وبدأ يمسح على وجهه كمن ينازع بين مشاعره السيئة. كان يلتفت نحو سلام، التي كانت تراقب الموقف بحزن عميق، والدموع تغطي وجنتيها كأنهار تتدفق من عينيها. آلمه قلبه لرؤية محبوبته في تلك الحالة الكئيبة، فكل ما يريده هو أن يرى الابتسامة تنير وجهها، بينما تلك اللعينة تتسبب في جرحها بالكلمات والأفعال.

كز على أسنانه بقوة، واحتدت نظرته المشبعة بالغضب والألم. كيف يمكن لتلك الساحرة أن تفعل هذا؟ كيف لها أن تصرخ بحقد وكراهية بينما صغيرته تبكي وتتألم كالزهور التي تُركت دون ماء؟ استدار نحو منار بنظرة شرسة، وأمسك بخصلات شعرها، جاذباً إياها خلفه كمن يرمي حطاماً عفا عليه الزمن، بينما انطلقت صرخاتها وبكاؤها كأصداء في فضاء فارغ.

أغلق الباب بقوة خلفها، مما أضاف لجو الغضب كل التعقيد. عاد لمحبوبته، جلس عند قدميها وأمسك بيدها يأسرها بقبل متتالية، عينيه تحملان نظرة اعتذار كأنه يعتذر عما بدر من تلك المجنونة. حاول أن يخرج كلماته من بين شفتَيه، لكنه وجد نفسه عاجزاً، لم يستطع النطق بما يجول في خاطره.

ارتفع قليلاً ليأخذ وجهها بين يديه، ويقبلها قبلة هادئة وعميقة، كانت أشبه بترجمة صامتة لما في قلبه. استسلمت له، وبادلته قبلتها مع شهقات خفيفة تخرج من أعماقها. حين ابتعد عنها، تنفسا معاً في تناغم، ونظر إليها بتلك النظرة العميقة التي تعبر عن حبه الأبدي. تلك اللحظة الخالدة، التي لم ترغب في أن تنتهي، بدت وكأنها استمرت إلى الأبد.

"لن أدع أحداً يؤذيكِ، يا قلبي. سأحارب الدنيا بأكملها لأجلكِ وسأظل بجانبكِ، أساندكِ وأحميكِ طوال حياتي."

تطلعت إليه بكثير من الحب والامتنان، شكراً لربها على هذه النعمة التي تسكن في قلبها. صحيح أن الله اختبرها بعجزها وإعاقتها، لكنه لم يحرمها من حنان زوجها ومساندته لها طوال السنين التي فاتت. تنهدت تنهيدة صغيرة، محاولة احتواء مشاعرها، وهمست بصوت رقيق:

"أدام الله وجودك في حياتي طوال العمر، يا رجلي وسندي."

ضحك ينال على جملتها بفرح عارم لا يمكن وصفه. كان قلبه يرقص فرحاً لتلك الكلمات، رغم بساطتها، إلا أنها كانت عظيمة تحمل معاني لا حصر لها. لم يستطع مقاومة إغراء الاقتراب منها مرة أخرى، فالتقط شفتيها بشغف قوي، بينما شعرت وكأن روحها تحلق في السماء.

ابتعدت عنه، ووجهها اصطبغ باللون الأحمر، بينما ارتسمت على شفتيها ابتسامة خجولة. ابتسم لها ينال، وعيناه تتحدثان عن كل ما أصابه في حياته. تحدث بصوت هادئ وخافت، كأنما يهمس بأسرار العشاق:

"حبيبتي سلام، لقد كنت في المستشفى قبل مجيئي، ولدي أخبارٌ سارّة جداً لكِ."

نظرت له بعينين مليئتين بالأمل، وابتسامة تشرع لها كل الأبواب المغلقة:

"ماذا؟ أخبرني، أرجوك."

ابتسم لها وعينيه تفيض بحبٍ لا يُقاس، وكأنه يجلب الحياة في قلبها الموجوع، ليقول بصوتٍ يغمره الأمل:

"لقد أخبرني الطبيب المختص بحالتكِ أن هناك أملاً كبيراً في العملية لكي تمشين بأسرع وقت، إذ رأى الصور الشعاعية الجديدة، وأكد أن نسبة نجاح العملية تبلغ 45 بالمئة."

رغم أن كلماته الأولى رقصت بقلبها فرحاً، إلا أن تلك النسبة التي أعقبتها كانت كالشوكة التي تنغرس في صدرها، فتنهدت بيأس وتساءلت:

"وهل تظن أنها ستنجح، ينال؟"

نظر إليها، عينيه تتلألأ بالتشجيع، وابتسامة مفعمة بالأمل تضيء وجهه:

"أجل، أنا متأكد من ذلك. ستنجح صدقيني. فقط ليكن عندكِ أمل وإيمان بالله، وسترين."

ابتسمت له باتساع، كزهرة تتفتح في صباح مشمس، وحركت رأسها موافقة، ليقبلها قبلة سريعة كأنه يختطفها فضحكت على جملته، وقرصت وجنتيه بخفة، لترد:

"أعشقك، يا أحمق."

في تلك الأثناء، كان لحظات الفرح والتحدي تتزايد بينهما، وكأن العالم الخارجي قد تلاشى. اندمجت أحلامهما وآمالهما في لحن عميق من الحب والاتحاد، حيث جسد للحياة الجديدة، حيث الأمل يتفتح كزهرة على شاطئ البحر.

ثم نظرت له بتعجب، وفضول يعتري ملامح وجهها الناعم، وسألت ببراءة:

"ومتى موعد العملية؟"

تنهد ينال بعمق، ثم أمسك بيديها برفق وقبلها بحنان، وهو يهتف:

"بعد شهر، سنسافر إلى فرنسا، وستكونين هناك. لقد جهزت كل شيء، لا تقلقي يا روحي."

شعرت برغبة كبيرة في الإيمان بكلماته، لكن أثقال الأمل والقلق كانت تزن على صدرها. تنهدت مرة أخرى، وأجابت بعزم لتبث في نفسها القوة:

"سأكون على أمل بنجاحها، طالما ستكون أنت بجانبي."

ابتسم لها، وكأن الضوء قد تجلى في قلبه، وهو يرد بحب:

"أنا بجانبكِ طوال العمر، وإلى الممات."

أبتسمت له ابتسامة عذبة، جعلتها تشعر بالجرأة، واقتربت منه في لحظة من الشغف. وبدون تفكير، طبعّت قبلة عميقة وشغوفة على شفتيه. كانت تلك القبلة كنسمة صيفية دافئة، وسحبته إليها كأنها تغمره في بحر من المشاعر الجياشة.

أحس ينال بأن قلبه يذوب في تلك اللحظة، وذهب بعيداً في عالمها، حيث لا يوجد سوى الحب والحنان الذي يجمعهما. كانت القبلات بينهما تكتسح الحواجز، وتغمرهما في بؤرة من العواطف الجياشة.

....

في ذلك المكان الهادئ، وتحديداً في ألمانيا، تلك البلاد الرائعة التي تحتضن الجمال والسكينة، وقفت حياة على شرفتها، تتنهد بين الحين والآخر، كمن تمر عبر عواصف من الأفكار والمشاعر المتخبطة. كانت عينيها تسرحان في الفضاء، بينما تدور في مخيلتها كلمات حسان التي اخترقت قلبها قبل أن تصل إلى عقلها ومسامعها، وكأنها لعنات ترتفع في الهواء.

"والدتكِ قد سجنت... سلام شُلت قدميها... إياد لا توصف حالته... ورهام اختفت بفضله."

كانت تلك الكلمات تتردد في رأسها، تغمرها بشعور من العجز والوحدة. لم تصدق أن الأمور قد وصلت إلى هذا الحد، وأن كل تلك الأحداث قد وقعت في غيابها.

كان أكثر ما يشغل بالها هو ذلك الشخص، الذي أحرق روحها بكلمات الحب، وأغرقها في دوامة الاشتياق. إن كل نظرة من عينيه وكل لمسة من يديه تركت أثراً عميقاً في قلبها. لا تستطيع إنكار أنها ما تزال تحمل له بعض اللوم والحزن، لكن الشوق يعتصر قلبها حتى درجة الألم. تريد أن تراه، أن تشعر بقربه، أن تتذوق قبلاته ولمساته، وأن تسمع كلماته العذبة ونظراته الهائمة.

"حقاً، الاشتياق موجع بشكلٍ لا يوصف."

تمتمت في سرها، وهي تنظر إلى السماء، تدعو ربها بأن يكون لقاؤها به قريباً، وأن يتجنبوا كل المشاحنات والشجارات، لأنها تعلم جيداً أن معرفته بأمر ابنته ستقود إلى كارثة لا محالة.

تنهدت تنهيدة حارة، وهي عازمة على الدخول إلى الصالة، لكن تجمدت في مكانها عندما رأت ابنتها تقترب منها بخطوات بطيئة. ابتسمت حياة بحب عندما رأت وجه ابنتها البريء، وفتحت لها ذراعيها، تحتضنها بقوة وكأنها تريد أن تؤكد لها أنها لا تزال موجودة.

"حبيبتي، لماذا خرجتِ؟ الجو بارد!"

(ملاحظة: البنت لكنتها تقيلة وبصعوبة حياة بتفهم عليها بس انا عم بكتب بشكل مختصر مشان وفر عليكم لأنو اكيد مارح اكتبلكم بلغة الاشارة يعني)

نظرت إليها الطفلة ببراءة، وعلامات الفطرة على ملامحها الصغيرة، ثم تحدثت بلكنة ثقيلة:

"أريد أن أقف معكِ، مامي."

أجابت حياة بمكر وحب:

"تريدين أن تقفين معي أم أنكِ تريدين الحليب كعادتكِ؟"

اكتسحت ضحكة بريئة وجه الطفلة، وكأنها ترسم البهجة في روح حياة.

فأخذتها بين ذراعيها ودخلت بها إلى الداخل، حيث بدأت تحضر لها رضاعة الحليب الخاصة بها. بينما كانت لحظاتها من الإعداد كفيلة بأن توفر لها بعض السكون، استقرت حياتها في ركن مريح، حيث جلست لتتابع التلفاز قليلاً.

لكن لم تدم تلك اللحظات الطويلة، إذ بدأ قلبها يطرق بعنف حالما سمعت كلمات ابنتها الصغيرة التي كانت بمثابة وصلة الماضي والمستقبل:

"بابا؟"

تجمدت مشاعر حياة للحظة، واهتز قلبها تحت وطأة الكلمة البريئة. كانت الكلمة تحتوي على كل الأوجاع والآمال والذكريات التي لا تُنسى. استدارت صوب ابنتها، وفي عينيها تجسدت ألم حاد، لكنها تمالكت نفسها، عازمة على أن تكون قوية لأجلها.

"تريدين بابا"

أومأت الطفلة لتردف لها:

"بابا سيكون معنا في الوقت المناسب، حبيبيتي. هو يحبكِ كثيراً، وسترينه قريباً"

همست لها، محاولة أن تعكس لها الأمل ابتداءً من قلبها، مشددة على أن الحب لا يتلاشى، بل يتخذ أشكالاً جديدة.

فاجأتها ضحكة الطفلة البريئة، حيث صفقت بيدها الصغيرة كأنما ترددت أصداء الفرح في أرجاء البيت، ثم اقتربت منها حياة، جاذبةً إياها إلى حضنها الدافئ. جلست الطفلة في أحضان والدتها، بينما بدأت حياة تداعب شعرها برفق، وكأنها تحاول شحن روحها بالحب والأمان.

تحدثت رهف ببراءة غير عادية، رغم نبرة اللهجة الثقيلة وصعوبة الكلمات: "مامي، أريد أن أذهب إلى الأرجوحة."

ابتسمت حياة لها برقة، همهمت قائلة:

"حسناً، سنذهب، لكن سألبسكِ ثياباً ثقيلة وقبعة، لأن الجو بارد. ولا تعانديني ككل مرة، وإلا لن آخذك، اتفقنا؟"

حركت الطفلة رأسها بإيجاب، ثم تجهز حياة وأحضرت الثياب الثقيلة وألبستها، وبدأت تزودها بقبعة زاهية ترسم الابتسامة على وجه الطفلة. كانت رهف تتحرك بفضول، تنظر إلى المرآة، مستعرضةً ملابسها وكأنها أهم شخصية في مسرح الحياة.

بعد لحظات من التحضير، خرجت بابنتها، وقفت أمام المدخل، وتطلعت إلى الخارج حيث هدوء الشوارع الهادئة ينتظرهم كصديق قديم. ثم خرجت برفقة ابنتها، لتبدئا رحلة في طرقات هادئة، تسير برشاقة وكأنهما يرقصان في خيال بعيد عن كل الأوجاع.

كانت حياة تستمتع بلحظاتها مع ابنتها، تبتسم لها بينما تضحك الطفلة على كل تعليق تُدلي به وتشاركها براءتها. وبعد نزهة قصيرة، وصلت إلى الحديقة العامة، حيث توجّهت نحو الأرجوحة كما وعدتها. بدأت تهزها بخفة، وضحكات رهف تتصاعد في الهواء كأنها تغازل السماء الزرقاء.

فجأة، اهتز هاتف حياة، وأتتها مكالمة من حسن. أجابت بسرعة:

"أهلاً حسن... لا، أنا لست بالمنزل. لقد أخذت رهف إلى الحديقة العامة للتنزه قليلاً... أجل، بالقرب من المنزل. حسناً بانتظارك، إلى اللقاء."

أنهت المكالمة وعادت لابنتها، متفاعلة مع ضحكات الطفلة، وكأن كل ضحكة تفجر فيها عالماً من السعادة. لم يمض وقت طويل حتى وصل حسن، حاملاً بيديه أنواعاً شتى من التسالي التي حبذا أن تسعد قلب رهف. اقترب منهما بابتسامة لطيفة، وقدّم التسالي للطفلة، ثم جلس بجوار حياة على المقعد الخشبي، حيث تمتزج رائحة القهوة الساخنة التي طلبتها قبيل وصوله.

حاول حسن أن يُخرج الكلمات التي يُريد أن يتحدث بها، لكنه وجد نفسه عاجزاً. نظرت إليه حياة، عرفت من عينيه أنه يريد قول شيء مهم. ثم قالت بصوت واثق:

"ماذا تريد أن تقول، حسن؟"

فوجئ حسن لثقة كلماتها، وابتلع ريقه بترقب، وهو يسأل:

"هل ستعودين إلى زوجكِ؟"

لم تُفاجأ حياة بسؤاله، فقد كانت تتوقعه. تنفست بعمق وتنهدت تنهيدة قوية وكأنها تحمل هموم الدنيا، ثم قالت:

"صدقني، لا أعلم. الشعور بالذنب يقتلني، كوني أبعدت رهف عنه ولم أُعرّضها له. أنا خائفة جداً من أن يطول غيابي، ويعلم في النهاية بها، ويأخذها مني. أنا أعرف إياد جيداً، إنه عنيد، يفعل ما يشاء دون أن يمنعه أحد."

تمنى حسن أن يسمع إجابة مغايرة، لكن كلماتها أحبطته. تنهد بعمق مُحاولاً إحراز بعض السخرية لتقليل حدّة التوتر:

"لا يستطيع أن يأخذها منكِ، فإن الحضانة من حقكِ."

ابتسمت حياة بسخرية مريرة، وكأن الألم يكتنف قلبها:

"في السابق، رفعت دعوى عليه في المحكمة لكي يطلقني، لكنه لم يقبل، أو بالأحرى، لم يستطيعوا إجباره على الطلاق. فهل تظن أنه سيصعب عليه أخذ رهف مني؟ صدقني لا يصعب عليه شيء، وعلينا أن نتذكر أنني لم أعلمه بأمرها، لذا سيكون موقفي ضعيفاً جداً أمامه."

حرك حسن رأسه بشرود، وكأن كلماتها تدور في كيانه، مُدركاً مدى صحة ما قالته. كان يعرف إياد جيداً، يعرف طباعه وسلبياته، ويعلم أنه لا يستحيل عليه شيء. تنفس بعمق، مُنهمكاً في التفكير قبل أن يقول:

"إذاً..."

نظرت حياة إلى عينيه، يُظهران عمق القلق وعدم اليقين، وقالت بتحدٍ قوي:

"أفكر في العودة لأريه رهف وأعلمه بها، ولكنني لن أعود له."

نظر حسن إليها وعينيه تلمعان بأملٍ بالغ، وكأنه يعلق كل أحلامه على كلمتها المقبلة. بلهفة، سأل:

"هذا يعني أنكِ لا تريدينه، ولن تعودي له، صحيح؟"

استغربت حياة، وتعجبت من تلك اللهفة الواضحة في نبرته. أشاحت وجهها عنه، مغلقةً عينيها كأنها تخفي اليأس الذي بدأ يتسلل إلى غياهب قلبها. علمت في أعماقها أن حسن لا يزال يحبها، لا بل يعشقها، ويتمنى أن تكون له، مفارقاً إياها تحت ضغط مشاعر معقدة.

لكن حسن، وقد أذى نفسه بسبب لهفاته وتلميحاته، قام بمسح وجهه بيديه، مُحاولاً تخفيف وطأة الكلمات التى تخرج من فمه بنبرة مهزوزة:

"الأفضل أن تعودي له من أجل رهف."

رسخت ابتسامة خفيفة على وجه حياة، وكأنها محاولة لتخفيف حدة الغضب الذي يعصف بقلبها:

"ربما أعود له، ولكن ليس قبل أن أخرج عينيه الاثنتين."

تلك اللهجة وطريقة حديثها كانتا تحملان في طياتهما نوعاً من المرح، لكنها بالنسبة لحسن كانت كالسهم الذي اخترق قلبه، محطماً كل شيء في طريقه. لم يرغب في أن يظهر لهفته أو حزنه، لذا قرر أن يجاريها في مرحها، فأجاب بمرحٍ مصطنع:

"هذه حياة التي أعرفها، أخرجي عينيه واجعليه يجن منكِ أيضاً!"

ضحكت ضحكة رنانة كأنها تزرع الفرح في المكان، وحركت رأسها موافقة، لكن حسن، رغم ابتسامتها، كان قلبه غارقاً في الحزن. أشاح بوجهه عنها، متنهداً بيأس من حاله وحالها التي وصلت إليها.

أغمض عينيه لفترة، مستشعراً كل ما يدور في عقله، مُؤكداً لنفسه بأنه قد يمر بتجارب صعبة، ولكن الأمل يجب أن يظل موجوداً. فهو يعرف أنه يجب أن يرضى بنصيبه، وبما قسمه الله له.

جلست ريمة برفقة حبيبها، وزوجها المستقبلي، بينما ابتسامة خجولة ترتسم على وجهها إثر كلماته العذبة، تلك العبارات التي تمنح قلبها أجنحة تحلق به في سماء السعادة. كانت أصابعه دافئة وهي تمسك يدها، قبل أن يطبع قبلة رقيقة عليها، بينما عينيه تتأملان عينيها بحبٍ عميق. لم تستطع أن ترد له النظرة، فقد كان خجلها يأسرها، وكأن العالم من حولهما قد اختفى.

ابتسم ابتسامة جانبية، تخللها نفحة من الشغف، قائلاً:

"ريمة، حبيبتي، ما بكِ؟ انظري إلي."

استجاب خجلها لندائه، وعندما التقت نظراتهما، اتسعت ابتسامته وكأنما أُضيء عالمه. ثم أضاف بحماس:

"بعد ثلاثة أشهر سنقيم حفل الزفاف، يا إلهي، لا أصدق أنكِ ستكونين لي."

اتسعت ابتسامتها هي الأخرى، تجسدت فيها مشاعر السعادة المرتبطة بحياتها الجديدة:

"وأنا أيضاً لا أصدق."

لكن سرعان ما تلاشت تلك السعادة عندما تساءل بخفة:

"بالمناسبة، ماذا عن أخاكِ؟ ألن يعود؟"

عبر الحزن على ملامحها، وبدت كزهرة تذبل:

"لا أعلم، صدقني لقد اشتقت له كثيراً."

نظر إليها بغيظ هزلي، محاولاً أن يخفف من وطأة الحزن:

"وأنا، أين ذهبت؟ ها"

ضحكت على جملته، فكانت ضحكتها كعصفور يغرد في فجر جديد:

"أنت في القلب، حبيبي."

عُضّ على شفته السفلى قبل أن يقترب منها، ويخطف قبلة سريعة وخاطفة كنسيم عابر. شهقت بخفة عند تلامس شفتيهما، ونظرت إليه بخجل، مما جعلها تخفض رأسها سريعاً، فتوسعت ابتسامته وهو ينظر إليها بحب عميق، مُعبراً عن شوقه لخجلها الذي يعشقه.

بينما من الجهة الأخرى، كانت مها جالسة مع خطيبها طارق، ولم تختلف عن شقيقتها بشيء؛ فقد كانت أيضاً تُغرق في عبارات الغزل، تُبادل طارق الابتسامات الخجولة بين الفينة والأخرى. وعندما رآها تتورد وجنتاها، خفق قلبه بشغف، فصدح صوته الخشن، حالماً بكلمات أثارت فيها همسات القلب:

"مها، حبيبتي، أنا لا أفهم لماذا أصرّ والدكِ على إقامة حفل زفافنا في نفس اليوم الذي سيقام فيه حفل زفاف شقيقتك وخطيبها. هل حقاً من الحكمة أن يحدث كل هذا في يوم واحد؟"

شعرت مها بارتباك في داخلها، لكن ثقتها بنشوة الحب انتشلتها من حيرة السؤال. نظرت في عينيه، حيث كان حبها يردد في صدى كل كلمة، وردت بلطف:

"تعلم أن أبي يحب أن تكون الأفراح مجتمعة، ربما ليكون هناك جو من الاحتفاء المزدوج. وبلقائنا، سيكون حديث المدينة."

كان قلبه يثقل بالحنق، تنهد بغيظ ليتحدث بنبرة غاضبة:

"يا إلهي، مها! أنا مغتاظ للغاية، سأجن! أريد يوم زفافنا أن يكون مميزاً، مجرداً من كل شيء، معاً فقط، دون أي أحد. يا إلهي، ما هذا؟"

ضحكت مها على تعبيرات وجهه المليئة بالاستياء، فطارق ذلك المعيد المثقف الذي يحترمه كل الطلاب لشخصيته القوية الواثقة، يبدو الآن كأنه شاب مراهق تعصف به مشاعر الشغف والقلق. قرصته برفق من وجنته، مما جعله يُنظر إليها بنظرة غيظ، لكن تلك النظرة سرعان ما تحولت إلى ابتسامة حين قربها إليه، ليقبلها قبلة قوية عميقة، غير تاركٍ لها مجالاً للفرار من تلك المشاعر.

مع حلول المساء، كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر، إذ كان إياد جالساً في مكتبه، مرخياً جسده على الكرسي، مغمضاً عينيه. كان يتخيل حضور حياة، صورة تعود إليه في كل لحظة، تملأ ذهنه كطيف لا يفارق روحه. لا وألف لا! لن يخرجها من رأسه، ولن ينساها أبداً، تنهد بعمق عندما سمع صوت طرقات الباب، وأذن للطارق بالدخول.

دخل حسان، والتوتر يكسو ملامحه، فأشار له إياد بالجلوس. فجلس متنهداً بقوة، ليتحدث:

"لقد مررت على منزلك، وقالوا لي الحراس إنك ما زلت في الشركة."

حرك إياد رأسه ببرود، قائلاً:

"لا أريد العودة للمنزل."

همهم حسان بقلق:

"اسمعني جيداً، أريد أن أقول لك شيئاً مهماً جداً، وأتمنى أن لا تغضب مني."

أجابه ببرود وجمود:

"إذا كان الشيء الذي تريد أن تقوله لي يغضبني، فسأغضب."

ابتلع حسان ريقه، مُحاولاً استجماع شجاعته:

"حسناً، افعل ما شئت، لكن سأقول وأريح ضميري."

همهم إياد بجمود:

"أنا أستمع."

بلل حسان شفتيه، محركاً قدميه بتوتر، تنهد بقوة ولم يستطع التحدث. فجأة، خرج صوت إياد، ممتزجاً بالجمود والإصرار:

"تحدث حسان."

مسح حسان على وجهه، مُغمضاً عينيه، فقال بسرعة كمن يلقي بحجر ثقيل:

"لقد رأيت حياة عندما كنت في ألمانيا، وهي الآن لديها طفلة صغيرة منك، وعمرها سنتين"

31

لم يستطع إياد استيعاب كلمات حسان، فقد بدت له كالصاعقة التي تهدم ما تبقى من عالمه. تسارعت أنفاسه، وابتلع ريقه بصعوبة، بينما كان الصمت يسيطر على المكان إثر الصدمة الغامرة. كان حسان يراقبه، يعلم جيداً أن صديقه لن يتمالك نفسه في ظل هذا الخبر الخاطف. لكن حسان كان مستعداً لتحمل عواقب تلك الكلمات، مؤمناً أن عودتها إلى حياته، مع تلك الصغيرة ليحتضن شغف العائلة، يستحق كل الثمن.

نظر إليه إياد بعيون ملؤها عدم التصديق، ليبتسم بسخرية مرعبة وهو يقول:

"حسان، ماذا تقول؟ كيف؟ كيف حدث ذلك؟ لا.. لا.. أنت... "

وقف مذهولاً، لم يستطع إكمال جملته من شدة الصدمة، ثم أطبق على شعره بقوة، كمن يحاول كبح فوضى داخل عقله قبل أن ينتفض بعنف، وهو يتحدث بصوت مرتفع مختلط بالمشاعر الجارفة:

"كيف حدث ذلك، حسان؟ أجبني! ماذا تقول؟"

تنهد حسان بعمق، محاولاً كسب وقاره وسط العاصفة:

"صدقني، أنا أقول لك الحقيقة. لقد رأيتها في ألمانيا، وجاءت إلى مكتب حسن خلال وجودي هناك. التقيت بها بالصدفة. لا أعلم ما علاقتها به، لكنني متيقن أن الطفلة الصغيرة هي ابنتك."

سقطت تلك الكلمات كالصخور على قلب إياد، مما جعله يقترب من حسان، ممسكاً بقميصه من ياقته، وعيناه تتقدان بالألم والغضب:

"أتعلم ما يعني كلامك حسان؟ أتعلم ماذا سأفعل بك إذا كنت تكذب؟"

ظل حسان ينظر إليه بجمود، حاملاً على كاهله ثقل ما يقوله:

"أنا لا أكذب. إذا أردت اذهب إلى ألمانيا، وستجدها هناك، وستعلم بكل شيء."

دفعه إياد بعيداً عنه، وظهره يعود للاتجاه المعاكس، بينما كانت عيناه تراقبان الأفق بشغفٍ وشر:

"مؤكد أنني سأذهب، وسأجدها أيضاً."

عمت حالة من الصمت المكان لدقيقتين مؤلمتين، بينما إياد لا يزال على وقفته، يحاول استيعاب كلمات صديقه. وحسان يقف في سكون وكأن الزمن قد توقف. أخيراً استدار إليه إياد، ووسط ترقبٍ متقطع، سأل:

"هل قلت لي أن الطفلة عمرها سنتين؟"

تحرك حسان برأسه في اتجاه الموافقة، قائلاً:

"نعم، تقريباً. أو أكثر بقليل، لقد كانت حاملاً عندما رحلت وتركتك، وقد أطلقت عليها اسم رهف. إنها جميلة جداً ولديها بعض من ملامحك."

انتهت جملته بابتسامة عابرة، لم تُعد بريق عينيه بينما يتحدث عن جمال "رهف"، في حين كانت الدموع تتجمع في عيني إياد، مدموغة بالهلع والألم. كيف فعلت به ذلك؟ كيف استطاعت أن تحرمه من ابنته؟ ألهذا الحد كان الحقد ينبت في قلبها لتغرس فيه شظايا الفراق؟ كانت مشاعره تتصاعد بشكل قاسي؛ لا يحق لها أن تفعل هذا، أن تحرمه من ابنته.

اشتد فكه، وكز على أسنانه، والخارطة المظلمة لنظرة الموت كانت تبرز في عينيه. بدأت لتوها المعركة، ولن يتهاون معها أبداً. أصبحت تلك الروح الانتقامية تنمو داخله، عازماً على استرجاع ابنته من بين يديها، حتى لو تطلب الأمر جلبها عنوة. رغبة الانتقام الممزوجة بحق القول، جعلته يشعر بأن لديه الحق في ما يريد، ولن يمنعه أحد من استعادة عائلته.

في صباح اليوم التالي، كان ينال يجلس برفقة إياد في مكتبه، حيث كانت الأجواء مشبعة بالتوتر والغياب. لم يكن إياد على طبيعته المعهودة، بل كان غارقاً في بحر من الأفكار المظلمة، ينظر إلى اللاشيء بشرود، كأن الدقائق تمضي أمامه بلا جدوى. كان عقله مشغولاً بذكرى زوجته وابنته، تتصارع في داخله أسئلة بلا نهاية، تشتبك كأشواك في قلبه: كيف يبدو وجه ابنته؟ هل تحمل ملامح والدتها، أم أنه قد أورثها شيئاً منه؟ ماذا تفعل الآن؟ وكيف تؤمن لها حاجياتها اليومية؟ وهو يتساءل: هل تشعر بالراحة بدونه؟ أم أنها تشتاق إليه كما يشتاق لها؟

كانت تلك الكلمات كرصاصات تنطلق نحو قلبه الموجع. لكنها كانت أنانية، برباطة جأش لا تصدق! ثم تساءل: ما علاقتها بحسن؟ هل يمكن أن يكون حباً جديداً يزهر في قلبها، بينما هو لا يزال محبوساً في ظلال ذكرياتهما سوياً؟ هل يعلم حسن أنها لا تزال زوجته؟ إذا كان يعلم، فلماذا لم يخبره بمكانها؟

تجمدت ملامح وجه إياد حين تذكر وقوف حسن قرب زوجته، وكأن شعلة من الغضب قد اشتعلت في داخله. "لا يحق له الاقتراب منها، ولا أن يحميها هي وابنته!" تلك كانت الأفكار تتراقص كالعواصف في رأسه. كان عليه أن يهدأ من ثورته، أن يسيطر على جنونه، بينما هو يستعد لسفره إلى ألمانيا ليكتشف كل شيء.

"سأعيدها، هي وابنتي، ولن أدعهما يسقطان في براثن رجل غريب!" كانت تلك العبارة تتردد في ذهنه كترنيمة، تجلب له القوة. كيف يُعقل أن لديه ابنة صغيرة؟ هل فعلاً أصبح أباً؟ كانت تلك الأفكار تتراقص في مخيلته، مما جعله يبتسم ابتسامة هادئة بينما يتخيل ابنته بين أحضانه، ترسم البراءة في ملامحه.

بينما كان ينال يجلس مكتوف اليدين، يراقب ملامح وجه إياد التي كانت تتغير بين الحزن والابتسامة، واكتشف بدهشة أنه منذ ثلاث سنوات لم يرى صديقه يبتسم بهذه الطريقة. "ماذا يحدث له؟" تساءل في نفسه، بعد أن شعر بالملل من شروده الطويل. حمحم ينال قليلاً لجذب انتباه إياد لكن دون جدوى، فالجاذبية التي كانت تجمعهما في السابق تلاشت كأنها عَبَرَتْ كنسمةٍ خفيفة.

لم يكن أمامه سوى الصراخ ليخرج صديقه من فورة أفكاره:

"إياااااد!"

استفاق إياد من غفوته فجأة، جفل من صوته ونظر له بحدة، كأنما استفاق من كابوس لطالما طارده، قائلاً بانفعال:

"واللعنة، أيها الغبي! ما بك؟"

نظر له ينال بصدمة واضحة على وجهه:

"يا إلهي! ماذا يحدث لعقلك؟ أنا جالسٌ معك منذ مدة، وأنت لا تعيرني أي اهتمام، بل تبدو كالأبله تبتسم بلا سبب يذكر!"

أغرقه شعور بالسخرية والقلق في آن واحد، بينما تتصارع في داخله مشاعر الارتياع والشفقة تجاه حالة صديقه. استمر ينال في محاولة جادة لجذب انتباهه، لكن عيون إياد كانت لا تزال محملة بأثقال الفراغ، تبحث عن شيء قد ضاع.

تنهد إياد بعمق، كأنما كان يحمل من هموم الحياة ما يفوق طاقة البشر، متجاهلاً كلمات ينال التي حاولت إثارة انتباهه. بوضوح وحزم، أعلن:

"سأسافر اليوم إلى ألمانيا."

رفع ينال حاجبه بدهشة، وكأن المفاجأة قد حاولت التسلل إلى عقله:

"ولماذا؟"

أرخى إياد جسده إلى الوراء على الكرسي، مستشعراً الحرية التي بدأت تتسلل إلى قلبه كنفحات هواء ناعمة، ثم أضاف بابتسامة تعكس انتصاراً داخلياً:

"لكي أعيد زوجتي وابنتي إلي."

وخيل إلى ينال أن الكلمة الأخيرة قد صُدمت بشكل واقعي صداه، إذ لم يستطع استيعاب ما سمعه. جفل لدقائق، وكأن صاعقة قد نزلت عليه، بينما كانت الكلمة التي بدأ يتردد صداها داخل عقله كتمعين لحنّ خافتٍ... "ابنتي". لم يكن أي شيء طبيعياً في كلام إياد، وقد بدأ ينال يشعر أن صديقه قد فقد عقله تدريجياً، وتصورات غامضة بدأت تتشكل حول فكرة العودة إلى ما فقده.

بينما كان إياد يتابع صدمة ينال بمرح، والإبتسامة تزين ثغره كطفل حصل على جائزته المفضلة. انتفض ينال، وابتلع ريقه بصعوبة، ليرد بتعجب:

"ماذا دهاك، يا رجل؟ هل جننت؟ ماذا تعني بزوجتي وابنتي؟ من أين أتيت بتلك الطفلة؟ هل هي طفلة غير شرعية مثلاً؟"

انفجر إياد بالضحك، صوته يتردد كالموسيقى، بينما كانت تعابير انزعاج ينال تشتعل بمزيج من الاستنكار والصدمة. عندما هدأت الضحكات قليلاً، قال إياد وهو يمسح عينيه:

"ركز فيما سأقوله أيها الأبله."

حرك ينال رأسه موافقاً، مُركزاً حواسه تماماً على إياد، وهو يستشعر أن حديثه يحمل في طياته تحولاً كبيراً في حياته. بدأ إياد بسرد الأحداث التي جرت، حيث استعرض كل ما قاله له حسان، وكلمات تلك اللحظات كانت كما السحر تضيء ظلامات قلبه. كانت صدمة ينال تتعاظم ولم يجد مخرجاً للذعر، تماماً كما شعر إياد عندما سمع عن تلك المعلومات للمرة الأولى.

حرك ينال رأسه بتشويش، وعبارات الاستفهام تتردد من بين شفتيه:

"كيف يحدث ذلك؟ ما الدليل على صحة كلام حسان؟"

تنهد إياد بشكل جاد، شعور من الهدوء يلبسه كدرع واقٍ في خضم الفوضى:

"لن أخسر شيئاً. سأذهب وسأكتشف كل شيء اليوم بالتحديد. وإن كان كلامه صحيحاً، فلا يمكن لأي حجة أن تمنعها من العودة إلي. وأتمنى من كل قلبي أن يكون ما قاله حسان هو الحقيقة."

همهم ينال برأسه، محاولاً استيعاب الأمر:

"وماذا ستفعل حينها؟ متأكد أنك لن تُهينها، أليس كذلك؟"

ابتسم إياد باستنكار وكأنه يفكر بترتيب خطواته في رقعة شطرنج الحياة:

"سأفعل ما هو أكبر من ذلك، فقط انتظر."

كان يعمل عقله بسرعة، كل لحظة تمر كانت تنقل خيوط الحكاية إلى مشهد جديد. قرر أن يكون عودته إلى عائلته هي بداية جديدة، كأنها شمس تشرق في عتمة ليل طويل. بينما ينال كان يفكر في عمق الصراعات الإنسانية، لم يستطع إلا أن يراقب صديقه وهو يتوق إلى العودة إلى الأمل، حتى لو كان طريقه محفوفاً بالمخاطر. ساد بينهما صمتٌ مؤقت، كل واحد منهما غارق في أفكاره وحساباته، فاستشعر ينال حاجته الماسة لدعم صديقه، في حين كانت أنفاس إياد تتردد وسط نبضات قلبه، وهي تجسّد تصميمه القوي على مواجهة ما ينتظره في الرحلة القادمة.

بتوجسٍ، قال إياد متسائلاً:

"لقد قلت بأنك ستذهب إلى المستشفى لتعرف النتائج حول الصور الشعاعية لزوجتك. ماذا قال لك الطبيب؟"

تنهد ينال براحة، بينما بدأت ملامح الأمل تتسرب إلى وجهه، ثم تحدث بابتسامة تنبض بتفاؤل:

"لقد أخبرني بأن هناك أملاً بنسبة 45 بالمئة، لذلك سنسافر بعد شهر إلى فرنسا لإتمام العملية. بصراحة، أشعر بتفاؤلٍ كبير، وأعتقد أنها ستعود وتمشي مجدداً."

حرك إياد رأسه متفهماً، وبدت ملامحه تعكس الدعاء للأقدار. كانت مشاعر التعاطف تَسْري في عروقه، فهو يتمنى من كل قلبه أن تعود زوجة صديقه، فقد قاست كثيراً من الألم والمعاناة.

في المساء، وتحديداً عند الساعة الخامسة، كان إياد يجلس في صالة الانتظار بالمطار، محاطاً بأوراق مبعثرة من حياته، ينتظر بفارغ الصبر نداء الطائرة التي ستقله إلى ألمانيا. كان الشعور بالتوتر والقلق يدب في قلبه كأنما تشدّ قبضته على روحه. لدى انطلاق النداء للإقلاع، تضاربت مشاعره بين الأمل والخوف، لكن رغبة رؤية زوجته وابنته كانت أقوى من كل شيء.

بعد أربع ساعات من الطيران، هبطت الطائرة في مطار ألمانيا. نَفَسٌ عميقٌ آخر أسقطه عندما وطئت قدماه تلك البلاد. تنهد بارتياح، فقز كانت مشاعر الحنين والشوق تكاد تغمره، مستحضراً صورة وجه ابنته الصغيرة وابتسامة زوجته. اتجه بسرعة إلى سيارة الأجرة، بعزيمة لا تعرف الاستسلام، متوجهاً إلى الشركة الألمانية، حيث سيلتقي بأكثر الشخصيات تأثيراً في حياته، لكنه كان يخطط أيضاً لتصفية حسابات قديمة.

تقدم بخطوات واثقة نحو تلك الشركة الفخمة، حيث كانت الرفاهية عنوان الأناقة. تميز بمظهرٍ جاد، يمشي كأن الدنيا تتبع خطواته. حينما استدل على مكتب حسن، دخل عليه وكأن الغموض يحيط به، ملامحه الباردة تحمل الكثير من الانتظار والترقب، بينما كان حسن مشغولاً بأعماله.

عندما رأى إياد يدخل، جفّل فزعاً؛ قلبه بدأ يدق بعنف، ليس من الخوف بل من القلق على حياة. فقد كان يعرف إياد جيداً ويعلم بجنونه و حدته في التعامل. وقف وراء مكتبه، لكن قلقه كان يتعاظم، وفي صوته ارتجافة:

"أهلاً يا صديقي..."

ابتسم إياد بسخرية، حاجبه يرتفع كأنما يسبح في بحر من المشاعر المتناقضة:

"صديقك هممم..."

تنهد إياد بقوة، اقترب ليجلس على الكرسي المجاور لمكتب حسن، بينما ابتلع حسن ريقه بشدة، مُسترخياً على كرسيه بصمت. وقد صدح صوت إياد البارد في الغرفة، وكأن كلمات تعكس جليداً قد تسرب إلى أحشاء هذا اللقاء:

"أين زوجتي وابنتي؟"

بلل حسن شفتيه، واجتاحت هالة صمت عجيبة في المكان، لكن صبر إياد لم يكن بالطويل:

"لم تجبني."

رد حسن بابتسامة قصيرة يملؤها قدر من السخرية:

"ماذا تريد منهما، ولماذا أتيت؟"

ارتفعت وتيرة أنفاس إياد، وباتت عينيه تحمل نظرة مميتة تلقي كلمات عنيفة كرصاصات، حين همس بحدة:

"واللعنة، لا تحاول اللعب معي. لا شأن لك، فقط دلني على مكانهما."

تجمد حسن تحت نظرة إياد، حبيس الصمت الذي تُرك في الهواء، ثم تنهد بعمق قبل أن يتكلم:

"حسناً، اهدأ. سأدلك على مكانهما، ولكنني أريد أن أحدثك بكل شيء عن حياة بعد ذلك، اذهب إليهما."

كان إياد يواجه معركة داخلية، يحاول أن يتمالك أعصابه بينما تتراقص أفكاره في أرجاء رأسه. كل ما كان يريده هو رؤيتها، رؤية ابنته، لكنه في معركة العقل كان بحاجة لسماع التفاصيل؛ لما فعلته الدنيا فيها. لذلك وجه حواسه إليه مستعداً للخوض في هذه الحقيقة المؤلمة:

"حدثني بكل شيء، حسن، وقل لي ما هي علاقتك بزوجتي."

حرك حسن رأسه موافقاً، وبدأ يستعرض أمام إياد كل التفاصيل المتعلقة بحياة، كأنما كانت رواية مليئة بالأحداث المتشابكة. سرد له قصة حبه القديم لها، كيف كانت قلوبهم تتوق إلى الخروج من جغرافيا عائلية مغلقة وضغط اجتماعي، عندما منعه والداه عن الزواج منها رغم تلك المشاعر الراقية. قص له كيف ألتقيا مجدداً بالصدفة في

ألمانيا، وكيف كان يُساندها في صراعها مع الحياة، مبتسماً بحنان وهو يروي له كيف أن الحياة لم تكن سهلة عليها، وكيف أن رحلتها مع المعاناة في تربية ابنتها قد تفوق الخيال.

كان إياد يستمع بصمت، ملامحه باردة كالألواح الجليدية، ولم يستطع تصديق كم تحملت حياة وحدها من الأعباء. تجمد قلبه عندما سمع تفصيل معاناتها أثناء الولادة، وكيف كانت تلك اللحظات عبارة عن جحيم مؤلم، مرّت به بمنتهى الصعوبة. ابتلع ريقه فيما بدا النار تتأجج في صدره، كأن العذاب الذي ذاقته وهي بعيدة عنه كان ينقض عليه من كل حدب وصوب. ولكن، أكثر ما أثار غيظه هو اعتراف حسن بحبه لها، مما جعله يشعر بأن الغيرة تأكل قلبه شيئاً فشيئاً.

ومع ذلك، حين أظهر له حسن صورة ابنته، تملكت الفرحة عواطفه. تجمعت الدموع في عينيه عنوة، فيما انفرجت شفتاه بابتسامة واسعة على وجهه، وقد بدا وجه ابنته كزهرة تتفتح في فجرٍ جديد، وقد أخذت شيئاً من ملامح والدها. ليعود إلى جمود ملامحه، ويقول بوضوح وهدوء مُصطنع:

"أعطني عنوانها."

تنهد حسن بعمق وبدأ يكتب له العنوان على ورقة صغيرة، كانت كأنها مراسلة تنقل أسرار العمر بين يدي إياد. استلم الورقة بحذر، وكأنها كنزٌ غالٍ ثمين، ثم توجه نحو الباب، لكن صوت حسن أوقفه:

"أتمنى أن لا تؤذيها، صدقني، لقد ذاقت الكثير من العذاب."

أدار إياد وجهه نحوه، لكن البرودة تفيض من عينيه دون أن يتحدث، ثم غادر الشركة وكأن قلبه يقرع كطبول الحرب من شدة الشوق.

وصل إياد إلى المبنى الكبير بعد فترةٍ ليست بطويلة. نظر حوله، وقد كانت أجواء المكان تعكس السكون العميق والأفكار المتشابكة. تنهد بعمق، ثم سار نحو الطابق الثالث حيث تعيش حياة.

عندما رن جرس الباب، لم يسمعه أحدٌ سوى ابنتها الصغيرة، رهف، التي كانت تتابع الرسوم الكرتونية في الغرفة. انتبهت لصوت الجرس وقررت أن تفتح الباب، جرّت صندوقاً متوسط الحجم بصعوبة، ثم وقفت عليه لتصل إلى مقبض الباب.

فتحت الباب بحماس، واندهشت لرؤية رجلٍ طويل ذو وسامة تلفت الأنظار. نظرت إليه ببراءة، وابتسمت بسؤال طفولي صافٍ:

"من أنت؟"

وقف إياد أمامها، وبدت ملامحه تتألق بدموع الفرح، وهو ينظر إليها بعينين تحملان كل مشاعر الأبوة الفائقة. انخفض إلى مستواها، وبصوتٍ مليء بالحب والحنان، قال:

"أنا أباكِ، صغيرتي."

نظرت رهف إلى والدها ببراءة، وهي تضع إبهامها الصغير في فمها، ثم انفجرت ضاحكة بسعادة، مكررةً كلمة كانت بمثابة سحر يُعيد الزمن إلى الوراء:

"هيبي باباا!"

لم تكن الصغيرة قد تعرفت على ملامح أبيها بشكل جيد بعد، ولكن حياة كانت تُظهر لها صور والدها على هاتفها، وقد ساعدتها تلك اللحظات التي استمرت في ذهنها كي تُميزه بعد فترة وجيزة. ارتسمت علامات الفرح على وجه إياد وهو يسمع من صغيرته هذه الكلمة التي كانت بمثابة بشارةٍ لا تُعوَّض. استجاب قلبه للحظة، فرفعها بين ذراعيه، معانقاً إياها بقوة، مستنشقاً رائحتها الطفولية التي تُدخله في عالم من الأحلام. وعبق الحب والحنان يفوح بينهما، كفراشة تتراقص في حقل من الزهور، أخذ في تقبيل وجهها كثيراً، كأن أيام الفراق كانت من الماضي.

في الجهة الأخرى، خرجت حياة من الحمام، ترتدي قميص نوم بأكمام طويلة، وقد كانت تُسرّح شعرها في عجلة. فضولها لابنتها قادها إلى الصالة، وهناك تجمد الزمن. كانت صدمة كبيرة لها، عيناها جاحظتين، وأنفاسها تتسارع كما لو كانت تتسابق مع دقات قلبها الذي بدأ يدق بعنف. لم تصدق أن إياد يقف أمامها مباشرة، كأنه شبح من الماضي يعود ليقلب كل شيء رأسً على عقب. ابتلعت ريقها في رهبة، وعلمت في قرارة نفسها أن الأمور قد تغيّرت، وأن النور الذي كانت تعتقده ماثلاً في حياتها لن يظهر بعد الآن.

بينما كان إياد ينظر إليها من رأسها إلى أخمص قدميها، تفرّس بملامحٍ جامدة تُبرز القوة، وكأن قلبه يختصر كل الحكايات التي دارت بينهما. حينها، بدت عواطفه كالأمواج المتلاطمة، صادرة عنه بصوت خشبي ساخر ملأ المكان:

"أهلاً بزوجتي العزيزة."

32

كانت تناظره بصدمة ممزوجة بالاشتياق، وكأن جميع الذكريات العذبة التي قضتها بجانبه قبل سنوات تغمر حواسها. وكم كانت مشتاقة لسماع صوته، لرؤية ملامح وجهه التي نحتت في ذاكرتها، ولذا فقد بدا لها وكأنها تلقت ضربة قاسية حين انتبهت لوجوده أمامها، بعد فراق استمر لثلاث سنوات. قد تغير قليلاً، فقد هزل جسمه بعض الشيء وازدادت لحيته كثافة، لكن ذلك لم يُحجب بريق ملامحه التي لا تزال تُثير في قلبها تلك المشاعر المُختبئة.

ذاك اليوم الذي مرّ دون أن تراه كان كالوشم القاسي في روحها، وعرفت أنها بلاء تلك الأيام التي أبعدتها عنه وعن حضنه الدافئ. تأملته وهو يحمل ابنته بين ذراعيه، يرسم عليها ملامح الحنان والرعاية، تمنّت من كل قلبها لو كانوا ثلاثتهم معاً كعائلة واحدة تحت ضوء الشمس، قريبين من بعضهم، يشعرون بدفء اللحظات المتشاركة.

بينما كان إياد يراقبها، لم يستطع إخفاء نظرة الشوق والمحبة التي اشتعلت في عينيه. حاول أن يُظهر لها نظرة برودة وابتعاد، لكن قلبه لم يسمح له بذلك. كانت هي أيضاً قد تغيرت عليه، فقد قصّت شعرها، وهو ما أثار في نفسه

مشاعر متناقضة من الحزن والشغف؛ جسدها الرشيق لم يتغير، لا يزال كما في ذاكرته، بل اشتهى أن يستخرج من داخل كل تفاصيلها ألوان الحب المنسية.

تلاشت أفكاره وبدأت تتداخل في ذهنه، فاحتياجاته أصبحت لا تُحتمل. هنا، كان يسأل نفسه في حيرة: هل سيحدث شيء إن سحبها من خصلات شعرها واحتضنها بين ذراعيه الآن؟ بدا مظهرها وهي خارجة من الحمام، بوجهها البريء واللطيف، مُغرياً ويدفعه إلى الجنون. لكن في أعماقه، كان يعلم أنه يجب أن ينتظر، أن يصبر، لأن الحرب ستبدأ بينهما الآن.

عندما التقت أعينهم، كان هناك فهم مشترك للحنين، حتى لو كانت هناك تضاربات خلفه، لكن نظرة الاشتياق بينهما كانت واضحة، ومع ذلك، كل منهما كان يدرك أن هناك مقاومة ستطفو على السطح، وبحكم حبهما الكبير، ستظل الأمور معقدة. طفلتهما الصغيرة، رهف، كانت تراقب والديها ببراءة، غير مُدركة عما يحدث في العالم حولها.

أغمض إياد عينيه محاولاً التماسك، ليحول دون القيام بفعل يمكن أن يندم عليه. وضع ابنته برفق من حضنه ليعلو قوامه الفارع وبخطواته البطيئة نحو حياة. عندما وصل إليها، وجد نفسه يقف مقابل وجهها، تلاشَت الأفكار لتختفي، أراد أن يقاوم نظرة الحنين المتشربه من عينيها المُشرقتين.

بدت عينيها دامعتين، وكأن العالم من حولها قد توقف. ووجدت نفسها تائهة في تلك اللحظة، تسبر غور مشاعره على ملامحه. في تلك الأثناء، كانت تدرك عمق الحزن الذي يختبئ وراء برود وجهه، كما كانت تتأمل بشغف تفاصيل وجهه.

ابتسم بسخرية وهو يقول:

"لم تتوقعي أن يقول لي حسان بأنه رآكِ، أليس كذلك؟"

كانت مغيبة تماماً عن واقعها، ولم تلتفت لكلماته، فقد كانت غارقة في مشاعر الشوق التي تأرق القلب. ومع صوته الذي ازداد بروزاً في مساحة الغرفة، أصبح الأمر أكثر تعقيداً، إذ كان صوته البارد يحمل نغمة مريحة مغرية. لعنتها في سرها، كيف أنها لا تستطيع التغاضي عن حبه، وكم كانت تمقت نفسها لتركه.

"ماذا؟ هل القطة ابتلعت لسانكِ أم ماذا؟"

تجرأت كلماته على مقاطعة تفكيرها، لكنها بدت كالأسرار الجامدة التي تهدر في صمت.

هزت رأسها بطريقة تشي بكل الصراع داخلها، بينما كانت تشعر بأن كل لحظة تمر تسحبها نحو غياهب مشاعر الحب المكبوتة. هي تريد حضنه، تريده بكل عمقها، حتى لو كان العالم كله يجب أن يذهب للجحيم.

ابتلعت ريقها بصعوبة، وكأن الكلمات ترفض الخروج من حلقها، لكنها تجمعت في شجاعةٍ غير متوقعة لتقول:

"لم أتوقع أي شيء. تركت نفسي للمفاجآت، فأنا أحب المفاجآت كثيراً"

ضحك إياد ضحكة رنانة بعثت حرارة في قلب حياة، كالأشعة التي تتسلل عبر الغيوم. كانت ضحكته كالنور الذي ينتظر بفارغ الصبر أن يسقط على الكائنات الهالكة. نظرت إليه بتمعن، وبدورها بدأت تعود خطواتها إلى الوراء حتى انحبست في الزاوية. احتجزها بين ذراعيه، حيث وضع يديه على الحائط، محاصراً إياها بلا مفر. اقترب منها ببطء، وكأن كل حركة كانت تُحسب، وعندما التصق بها، تسللت إلى أنفها رائحة عطره الذي جعلها تذوب بين أحضانه.

تخدرت بمعنى الكلمة من تلك الرائحة، وعرفت بكل جوارحها أنها تريده الآن. كانت تتوق لأن تشعر بأنوثتها، لكي تنام في حضنه، لتختبر شفتيه اللتين كانت تتمنى بشغف أن تغيب بها عن العالم الحقيقي، وفوق كل ذلك، كيف تمكن من الوصول إليها في هذه اللحظة بالذات. ولكن، وهو يراها، كانت رائحة الياسمين المنبعثة منها تجذب روحَه التي اشتاقت لها منذ زمن بعيد.

رفع رأسه بجانب أذنها مغمض العينين، مستنشقاً عبيرها الذي تنحفر بعمقٍ في ذاكرته. ثم ابتعد قليلاً ليتحدث بقرب شفتيها، همس بصوتٍ مليء بالإغواء:

"ستعودين معي إلى البلاد، أنتِ ورهف، وحسابنا سيكون هناك. والآن يا روح إياد وقلبه، جهزي أغراضكِ وأغراض رهف للعودة معي، هيا."

حياة كانت قد أقسمت بأنها لن تذهب معه، لكنها عندما واجهته، تساقطت حصونها كأوراق خريفية، واهتمت بسحره. ولكن سرعان ما استفاقت على نفسها ونظرت إليه بنظرة باردة، لتقول:

"أنا لن أذهب معك إلى أي مكان."

ابتعد عنها قليلاً، وفي عينيه استقر الفرح المُختبئ خلف ظلال البرود، وقد شعرت بالخوف يتسلل إلى قلبها. تنفس بعمق، ثم اتجه إلى ابنته التي كانت تلهو في الصالة، وقد أصبحت الجائزة المنتظرة في هذه الحرب القاسية.

حمل ابنته ووضعها في حضنه، فابتسمت له براءة، ومررت يدها الصغيرة على وجهه. طبع قبلة على وجنتها وسألها بصوت مُشبع بالحنان:

"صغيرتي، ألا تريدين أن تقيمي عند بابا؟"

حركت رأسها موافقة ببراءة ليهمس لها مكملاً، وألقى نظرة سريعة على حياة، وقال بمرح:

"حسناً، ولكن ماما لا تريد أن تذهب معنا. إذاً، ما العمل؟"

رهف، التي لم تفهم جملة أبيها جيداً، قلدته بشكل طفولي قائلة:

"إذاً ما العمل؟"

ضحك إياد بشدة على براءة طفلته، وبدأ يُطبع على وجنتيها قبلات عديدة بينما هي تضحك، مطلقة ضحكاتٍ ناعمة تشبه ترددات الموسيقى في جو الغرفة. لكن حياة، التي كانت تراقب المشهد من بعيد، كان قلبها يهبط ويعلو كأنها تتجه نحو منحدرٍ سحيق. كانت تدعي ألا يحدث ما كان يدور في خلدها، لكن شبح الخوف كان يحوم حولها، وهي تعلم أنها لن تستسلم بسهولة، ولن تسمح له بأخذ ابنتها منها.

إنها ديناميكية محزنة، وكانت تدرك حقيقة أن هذا القلق المرعب ليس سوى بداية لمبارزتها المليئة بالمشاعر والأحاسيس المتناقضة. بينما كان إياد مشغولاً باللعب مع ابنته، واحتضانه لها، كان البعد عن حياة يزيد من غيظها وقهرها. لم يكن هناك أي اهتمام من جانبه بحضورها، بل بدا وكأنه متجاهل تماماً ما كان يختلج في صدرها.

بينما كان مشغولاً بلعبه مع ابنته، اخترقت كلمات إياد الأجواء كبرودة شتاء قارص، ليقول بنبرة حادة:

"ماذا كان يوجد بينكِ وبين حسن، وما هي الاتفاقات التي كنتما تتداولانها قبل أن أتزوجكِ؟"

كانت حياة عالقة في دوامة من الخوف والقلق، وعينيها ترقبان إياد. لم يكن هناك مفر من عذابه إذا سألها، لذلك ابتلعت ريقها بصعوبة، واستجمعت شجاعتها لتقول بصوت متقطع:

"لا شيء."

تلك الكلمة البسيطة كانت بمثابة جرس إنذار لإياد. لم يعد قادراً على احتمال تلك الإجابة المراوغة، بلا دليل على مشاعر عميقة مكتومة في قلبها. كيف لها أن تنكر حقه، وتمنعه من رؤية ابنته، ثم تتحدث معه وكأن شيئاً لم يكن؟ كان يدرك أنه حان الوقت لوضع حد لهذا التلاعب. نظر إليها بنظرة قاتلة غزت جسدها برعشة من الرعب، قلبه كان يغلي بالغضب، لكنه لم يكن يريد أن يُظهر ذلك أمام ابنته.

"لم أصدق متى تعرفت عليكِ، حالما أحببتكِ، وبدأتي تتقبلينني كجزءٍ من حياتكِ."

كانت تلك الأفكار تدور في ذهنه، بينما كان يحاول التحكم في مشاعره. مسح على وجهه بكفه، متنهداً بحدة، ثم ابتسم لابنته قائلاً:

"صغيرتي الجميلة، وحبيبة قلب أبيها، هيا، خذي ألعابكِ واذهبي والعبي في الغرفة."

حركت رأسها بخفة، مضيفةً لمسة من الشقاوة، ثم حملت لعبتها وبدأت تمشي بخطوات مترددة نحو الداخل، مغلقةً الباب خلفها. ومع إغلاق الباب، انتفض إياد من مكانه، وقام بشد حياة من معصمها، والجدية تملأ عينيه وهو يقول بحدة:

"آن الأوان أن تتبدل الأدوار يا حياة، وستذوقين عذابي."

نظرت إليه ببرود، لكن خلف ذلك البرود كان هناك خوف ورعب يتأرجحان في أعماقها. بتوتر جاءت كلماتها:

"ماذا تقصد؟"

تنهد بحدة، وهو ينطق كلمات تحمل ثقلاً كبيراً:

"اسمعيني جيداً. سأذهب الآن، وسأعود إليكِ غداً، وستكونين قد وضبتي أغراضكِ وأغراض رهف لتكوني مستعدة للعودة إلى البلاد."

تعجبت من كلماته، لم تدرك بعد كيف لها أن تتقبل هذه الفكرة. لكنه أضاف ببرود ونبرة تحذيرية:

"غداً عند الساعة الثالثة، إن لم أراكِ وقد وضبَتي أغراضكِ، وأنتِ مستعدة للرحيل، راقبي جيداً ما سأفعله بكِ. هل فهمتي؟"

انتزعت يدها من قبضته بتحدي، قائلة:

"لن أذهب معك إلى أي مكان."

ضحك إياد ضحكة رنانة مستفزة، وبنظرة غامضة ومثيرة، مد يده ليتحسس وجنتها بخفة، وهمس بنبرة تحزي:

"إذاً، فلتتحملي العواقب."

كان للعبارة ثقلٌ كقلادةٍ متدلية فوق رأسها، كلمات أجبرت الحياة على الانبهار وتذوق مُرّ الواقع. حياتها كانت في مفترق طرق، والاختيار كان بمثابة صراع عنيد بين القلوب، حيث لا يمكن لعواطفها المشتتة أن تحملها بعيداً عن الحيرة والخوف. كانت تشعر بأن الأيام المقبلة ستكون حافلة بالتحديات، وستختبر صبرها أكثر مما تتخيل.

أنهى إياد جملته وتوجه إلى غرفة ابنته الصغيرة، مُعتذراً بلطف عن وعده لها باللعب. كان قد اتخذ قراره أن يودعها، لكن شيئاً ما في قلبه لم يكن يتقبل فكرة الفراق. خرج من غرفة رهف، وقد أرسل في خياله أفكاراً مشوهة عن الحياة، قبل أن يتجه إلى الباب. حين رأى حياة لا تزال في مكانها، استدار ليواجهها ببرودٍ قاتل، كمن يضع آخر لمسات لوحة حزن. قال لها:

"أريد أن أعود غداً وأجدكِ جاهزة، وإن لم يحدث ذلك، صدقيني سأدعكِ تأتين إلي بقدميكِ."

لم ترد حياة على كلماته، بل ظلت شاردة الذهن، أو بالأحرى، مندهشة وخائفة. لاحظ ذلك الصمت الذي احتل المكان، لذا تابع قائلاً:

"بالمناسبة، لا تحاولي أن تتذاكي علي وتهربين بالطفلة، لأنه عندها سأجدكِ، وسأجعلكِ تدفعين الثمن غالياً. وهذا وعدٌ مني. إلى اللقاء."

انتهت كلماته بغمزة مُهينة، وابتسامة خبيثة زُرعت على شفتيه، ليخرج من المنزل تاركاً حياة في دوامة من المشاعر المتخبطة والتفكير المشتت. جلست على الأريكة، ودموعها تتدفق على وجنتيها كالسيل الغاضب. كانت تتمنى أن يكون لقاؤها معه مختلفاً، تأمل أن ترى في عينيه بريق الشوق، وأن يُظهر لها حبه وحنانه. لكنها تذكرت كيف أنهالت عليها كلماتها اللاذعة منذ برهة، فهي تعلم جيداً أنه لن يُظهر لها سوى ذلك الجليد المتوقّع.

نعم، لقد كانت تعيش في دوامة من المشاعر المتضاربة، تعلم أنه يمكنه أن يُجبرها على الندم، بل أن يقلب حياتها رأساً على عقب. هو إياد، الذي اعتادت على برودته القاتلة، وهي مستعدة، لكن في ذات الوقت، كانت تتساءل ماذا سيأتي من هذه الحرب المتأججة بينهما. بينما كانت تتأمل هذا التصور، قُطع خيط أفكارها برنين هاتفها. وكان المتصل حسن.

"أهلاً حسن... أجل، أنا في المنزل... لم يحدث شيء... لا، لست أبكي... حسناً في انتظارك."

أنهت اتصالها ورمت الهاتف بعيداً بجانبها، مستنكرة الظروف التي وُضعت بها. نهضت لتتفقد ابنتها، فدخلت غرفتها لتجدها نائمة فوق سريرها، محتضنة لعبتها. اقتربت منها بحب، وعدلت من وضعيتها، وغمرتها بلطف ببطانية، مسحت على شعرها بحنان وطبعت قبلة صغيرة على وجنتها. قبل أن تنسحب من الغرفة متجهةً إلى الصالة في انتظار قدوم حسن.

بعد فترة قصيرة، ركن حسن سيارته بجانب المبنى، ونزل منها عازماً على زيارتها، دون أن يكون مدركاً للنظرات المتربصة من بعيد. كان إياد واقفاً من بعيد، وقد شككت عيناه في حسن وتعلقه بحياة، لذلك ظل منتظراً ليؤكد شكوكه. لم ينفجر غضباً عند رؤية حسن وهو يدخل منزلها، بل اكتفى بمراقبته بلين. كان يدرك تماماً طبيعة حياة، وعفّتها، وإخلاصها. لو أن حياة أرادت الخيانة، لما كانت قد رفضت أن تسمح لنفسها بالتعلق بكائن يشعرها بالأمان.

لكن كل هذا لم يُوقف نيران الغيرة من اشتعال صدره. تمنّى أن تتحدّى الأمر، ولا تستسلم لتهديداته، عسى أن يكون ذلك فرصة لرؤية ماذا يمكن أن يفعل بها، وهو ينتهز الفرصة ليجرّها إلى طريق المعاناة.

في داخل منزل حياة، جلست حياة مع حسن، تسرد له كل ما وقع بينها وبين إياد، بلا نقص أو تجميل. ومع ذلك، كانت نصائحه تبدو ضئيلة أمام ما تمر به. لم يكن ينقصه من الحب لها، بل كان يحاول جاهداً مساعدتها، لكن دعمُه لها كان خرج عن بصيرتها وكأنها تتشبث بموجات من الألم. لكن الأمور لم تسر كما يجب، فقد انتهت اجتماعهما بشجار مُحتدم، مما دفع حسن لمغادرة المكان بوجهٍ محتقن.

في صباح اليوم التالي، قرر إياد أن يتوجه إلى منزل حياة، مدفوعاً بأمل غامض في نفسه. كان يتوق إلى أن ترفض الطلب الذي سيتقدم به، ليترك لها طعم العذاب الذي غمر قلبه القاسي طيلة السنين الفائتة بعيداً عنها. كان يُفكر في تصفية الحسابات وفتح صفحات جديدة في حياتهما، يسعى لإنشاء عائلة مترابطة ومتحابة كأيامهما الخوالي التي لم تَعُد.

دق جرس الباب، وانتظر بقلقٍ يدق على قلبه، مرت دقيقتان كأنهما دهر، ولكن لم يفتح له أحد. شعور غريب هبط في صدره، وكأن رياح الغموض لامسته، تلك الفكرة بأن حياة قد اختارت الهروب مع الطفلة أرعبته، ومنحته لحظة من الضعف. تسارع نبض قلبه، واحتقن وجهه بسخونة لم يعرف سببها، حتى ظن أنه قد ينهار تحت ثقل مشاعره.

لكن مجرد خيالاته كانت بعيدة عن الواقع، إذ فتحت حياة له الباب لأول مرة، بوجهٍ جامد وحاد كفصل الشتاء، خالياً من أي لمسة من المشاعر. ابتسم بسخرية استعد لمواجهتها، ودخل منزلها دون أن يعبأ بإلقاء التحية، جلس على الأريكة وكأنه ملك الزمان، حيث كانت تلك اللحظات تحاكي عوالم الأنانية.

نظرت له حياة بغيظ، وبكل قوتها أغلقت الباب خلفها، ووقفت أمامه كأنها درع يحمي عالمها المتعثر. تبادلت عيونهما نظرات حادة، كانت رماح الكلمات تلوح في الأجواء. بدا صوته بارداً تماماً، كأنما لا يعرف شيئاً عن العواطف:

"ألم تتعلمي كيف تحترمين زوجكِ وتقومين بتوجيبه؟ والأهم من ذلك، ألا تدركين بأنه من العيب أن تتركي زوجكِ ينتظر طويلاً في الخارج، بينما تتكرمين وتفتحين له الباب؟"

كانت كل كلمة تنطق بها كخنجر يطعن قلب حياة، وسط اللحظة المتجمدة. نظرته كانت تعكس استعلاءً لا يطاق، بينما الداخل يتقد بلهيب مشاعرها.

أنتفضت عواطفها، لكن كلماتها كانت غائرة في عينيها، لم تقوى على الرد، فكأن كبريائها الداخلي ينهار تحت وطأة كلماته. كان حقاً يشبه الفارس الذي يريد استعادة عرشه المسلوب، لكنه لا يدرك أن تلك العرش لا تبنى بالتهديد، بل بالحب والتفاهم.

ظلت في مكانها، تتأمل في تعابيره، وترسم في ذاكرتها صور الصعود والهبوط بينهما، تُدرك أن الرحلة بعيدة بين التقاطعات المعقدة للقلوب. ولكنها ستُحارب، لن تسمح له بانتزاع تلك القدرة على الرفض، بينما بدا هو كجبلٍ متجمد لا يغير وجهته.

ابتسمت حياة بسخرية وهي تنظر إلى إياد، لترد بلسانٍ مملوئ بالتحدي:

"بما أنك متلهف ومتشوق للدخول، فانتظر قليلاً في الخارج، لن يحدث لك شيء."

همهم لها باستخفاف، وبدت كلماته باردة كالصقيع:

"سأعتبر نفسي لم أسمع شيئاً من تلك الجملة التافهة التي بصقتيها أمامي. والآن، أين رهف؟ ولماذا لم...؟"

لكن عبارته لم تكتمل، فقد قاطع صراخ طفلتهم، وهي تركض نحوه بسعادة عارمة ملأ قلبه بالدفء، فابتسم واحتضنها بين ذراعيه. سرعان ما بدأت قبلاته تتناثر على وجهها كأنها قطرات مطر في صباح مشمس.

نظرت له برغبة عارمة في الاستمرار بمشاعر الفرح، وسألت:

"بابا، هل سنذهب للبيت؟"

أجابها بابتسامة عريضة:

"بالطبع، عزيزتي، سنذهب لمنزلنا ونعيش سوياً."

الابتسامة التي ارتسمت على وجه الطفلة كانت كإشراقة شمس دافئة في قلب إياد، مما زاد من سعادته وهي تتقبله بسرعة. ومن زاوية الصالة كانت حياة تتابع الموقف باحتقان، مشاعر متباينة تتصارع داخل قلبها. كانت غريزتها الأمومية تتألم؛ كيف لها أن تترك ابنتها تختار بينه وبينها؟ لكنها كانت تعرف في أعماقها أنها لن تسمح بحدوث ذلك.

فجأة، صدح صوتها الحاد، متجاوزة تلك التحفظات:

"أنا لن أذهب معك إلى أي مكان، وحتى رهف ستبقى معي. وبالنسبة لرهف تستطيع المجيء لرؤيتها إن أردت!"

ابتسم إياد باتساع وبدا كأنه يقف على شفير انتصاره:

"يبدو أن السنوات التي قضيتها بدوني جعلتكِ تنسين من هو إياد، أليس كذلك؟"

أشاحت بوجهها عنه بتحدٍ، ولم تجب، كأن الجمل التي تُحاول تشكيلها تتجمد في حلقها. وعادت إليه تلك النبرة الباردة التي كانت ترافقه:

"اذهبي، وجهزي أغراضكِ أنتِ ورهف، وإلا فلن تكوني سعيدة بما سأفعله."

انفجرت مشاعرها من صميمها، وعبر وجهها الغضب:

"أنا لن أذهب إلى أي مكان، ولا أريدك أبداً، وحتى رهف لا تريدك! ومهما حدث، لن أسامحك على غدرك بي."

ضحك إياد بقهقهة مستفزة، كانت كالصخرة التي تُحطّم الهدوء في قلب العاصفة:

"حسناً، كما تشائين."

تلك الكلمات كانت كالرصاص الذي اخترق جدار الأعصاب لديها، بينما كانت الأجواء تتصاعد في تصعيد ملتهب. كل واحدٍ منهما كان يستعد لجولة جديدة من الحرب، حيث منكسرة الآمال والمشاعر المُعذّبة. كان المكان يغلي بالتوتر، وسط برود نسبي يغلف كل عبارة تتناثر بينهما، كأنهما يرقصان على حافة الهاوية، وكل طرف يحاول أن يدفع الآخر نحو القرار الذي قد يكون له ما بعده.

وبينما كانت رهف لا تزال في حضن أبيها، تجسدت صورة مثالية عن الفرح العائلي، لكنها في عيون حياة كانت تمثل كابوساً غير قابل للتصديق.

وقف وهو يحمل ابنته بين ذراعيه ككنزٍ ثمين. توجه إلى غرفتها، تاركاً حياة تواجه شعوراً متقلباً بين رعب الفقد وخوف العودة إلى واقعها. أغلق الباب خلفه، وبدأ بتجميع أغراض ابنته في حقيبة صغيرة. كان وجهه ينم عن نية قوية لا يرتجف أمام طرقات حياة القوية وصراخها المتزايد، وكأن صراخها لم يصل إلى أذنه.

عندما انتهى من تجهيز الحقيبة، اقترب من ابنته، ورمقها بصوت هادئ يحمل طيفاً من الحنان المختبئ خلف جدول من الثقة:

"صغيرتي، سآخذكِ معي الآن، وستأتي في المساء ماما إلينا، اتفقنا؟ لن أدعكِ بحاجه لشيء، سأجلب لكِ كل ما تتمنينه."

حركت الطفلة رأسها برغبة وبهجة ملأتها البراءة، فاحتضنها في ذراعيه بينما حمل حقيبتها. ومع ذلك، كانت حياة من خلف الباب، تتوسل وتبكي، تصارع بين رغبتها في الاحتفاظ بفلذة كبدها ومنع إياد من أخذها. لكن قلبه الحديدي لم يلين، ولم يُعرَ اهتماماً لتوسلاتها.

ينقل خطواته نحو الباب، رغم صوتها الملتهب الذي كان يصرخ بالاستغاثة، أخرج ورقة من جيبه ورماها بوجه حياة. كان وقوع الورقة كالسهم الذي يخترق صميم روحها:

"سأعيد رهف معي، وهذه الورقة تثبت أنني من حقي أخذها، خاصةً وأنكِ لم تَعلمينِي بذلك، وهذا جعل جميع الأمور تسير بما يناسبني. لم أشأ أن نصل إلى هذه النقطة، ولكنكِ أجبرتني على ذلك."

لقد كان برود صوته يترك أثراً كجليدٍ ثقيل يثقل الأجواء، لكن استمر في كلماته:

"بالمناسبة، منزلي معروف لديك، إذا أردتِ العودة، أنا لا مانع لدي. والآن انظري للمرة الأخيرة إلى رهف، لأنه من المحتمل أنكِ لن تعودي وترينها إذا استمريتي في عنادكِ. وداعاً."

أنهى كلامه بنبرة قاسية وحادة وكأنما يقطع خيط التواصل، ثم خرج من المنزل يحمل بيده ابنته التي كانت تتابع الموقف ببراءة وحزن. عيناها الواسعتان تلتمعان بالأسف على رؤية والدتها تبكي، وكان هذا ينفذ كخنجر إلى قلب حياة.

خرجت حياة من منزلها، وهي تتوسل إليه وتبكي، وقد لحقت به إلى الشارع بملابس النوم وحافية القدمين، لكن إياد لم يُظهر أدنى اهتمام بدموعها ولا لتوسلاتها. ركب في سيارة أجرة متجهاً إلى المطار، وهو واثق تمام الثقة بأنه اتخذ القرار الصحيح بأخذ ابنته منها. في قرارة نفسه، كان يعلم أن حياة ستلحق به، وأنها ستعود لا محالة من أجل ابنتها.

تلك اللحظة التي ارتسمت على ملامحه لم تحمل ندماً، بل شعوراً بالتأكيد، وكان يتوق إلى اليوم الذي ستعود فيه حياة، وبعد مرور الوقت، ستعتاد على الوضع الجديد. كان يأمل أن تسامحه على ما فعله، وأن تبدأ الحياة من جديد، هكذا وتدريجياً، يعود كل شيء كما كان، ويعود الحب الذي ربط بينهما.

وفي الطريق إلى المطار، كان يفكر في أن قلبها المتألم سيتصالح مع ما حدث، وأن الحرارة التي ذابت تحت قدميه لن تعيد عواطفهما، بل ستفتح نافذة جديدة للتواصل. كان يحلل كل الحيّز الممكن، ويتخيل الأوقات التي قد يجلسان فيها معاً، يقرآن كتاباتهما قديماً، ويمران بسيطرتهما على هذه الأحداث بمرور الزمن.

لكن في تلك اللحظة، كان قلب حياة يمتلئ بمشاعر الفراق، محاولاً الخروج من أزمة الشوق والحنين إلى الماضي، وفي زوايا عقلها، كان الأمل يتشكل مجدداً، وهي تطمح إلى استعادة ابنتها مهما كان الثمن.

33

في المساء، عندما انزوت الشمس خلف الأفق مفرقة أشعتها كما تفترق الأحلام عن واقعٍ قاسٍ، وصل إياد إلى منزله، حاملاً بين ذراعيه طفلةً ناعسةً تمثل براءة الحياة. فقد غفت بعد يوم طويل من اللعب والضحك، فأنزلها برفق على السرير الوثير، حيث كان السكون يعزف لحنه الهادئ. وامتد بجانبها، محتضناً إياها بحنانٍ بالغ، قبل أن تنقلب روحه إلى نومٍ عميق، فقد كانت نومةً تبحث عن ملاذ ينسيه أعباء يومين من السهر والتفكير.

وفي منزلٍ آخر، كانت حياة تعيش أصداء الألم والخذلان، حيث كانت تجلس وحيدةً برفقة حسن، الذي أتى كالعاصفة متسابقاً إلى جانبها بعد أن هزت صوتها الباكي أركان الحياة من حوله. عيناها اللتان هما ممرات لبحرٍ من الدموع، تفيضان حزناً وعذاباً، وسرعان ما اندلعت نيران أشجانها من جديد. كان حسن، الذي يشعر بعجزه أمام ما رآه، يحاول بقدر الإمكان أن يهدئ من روعها، لكن خفقات قلبها كانت تعلو على كلماته.

"حياة، اهدئي قليلاً. لا تعتقدي أن إياد سيبعد ابنتكِ عنكِ. ما بكِ؟"

حاول أن يفهم عمق جرحها.

لم يكن لديها من الكلمات ما يُعبر عن قهرها، فقد كانت مشاعرها منغلبة كما أمواج البحر العاتية، وغاصت في بحرٍ من دموعها، وهي تنادي بعنفٍ اسم ابنتها. حقدت على إياد في تلك اللحظة، وازداد حنقها على كل من حولها، وكأنها في مطرحٍ من الزمن ضاعت فيه ألوان حياتها كلها.

"لقد قسى عليّ كثيراً... أخذ مني ابنتي، وضعني أمام خيارين مرعبين. إما أن أعود له أو أودع حبيبة قلبي إلى الأبد، وأيّاً كان الاختيار، سأخسر."

سكت لحظة، ثم تنهد رافعاً رأسه لعله يتغلب على حالة الإحباط:

"حسناً، اهدئي وسترين ابنتكِ قريباً، صدقيني."

شهقت بحشرجة:

"هو لم يأبه لتوسلاتي ودموعي! قسوة قلبه طغت على إنسانيته. تركني بين خيارين صعبين، وحين اندلعت نار الخلاف، حالت بيني وبين ابنتي."

في تلك اللحظات، امتصت عذاباتها، لكنها تصاعدت إلى ما هو أبعد من ذلك: "كيف لي أن أنسى كل تلك اللحظات المريرة؟ كيف لي أن أتاجل عن شجوني، عن جروحي العميقة؟ لقد كنت في كنف رجلٍ يعدني الحب، وإذ به يتحول إلى قسوة وضربات وإهانات مستمرة."

تنهد بقوة مجيباً بحنية:

"عزيزتي حياة، لقد آن الأوان لتتركي آثار الماضي خلفك وتستعيدي خطواتك نحو مستقبلك مع من يحبك حقاً، فهو ينتظرك ويرغب في أن تعودي إلى أحضانه. لا تدعي أفكار الماضي تعكر صفو زمنك الجديد، بل ركزي على ابنتك التي هي بحاجة ماسة إلى حبك ورعايتك. ولا ذنب لها أن تقف بين نارين. هي تحتاج إليك وإلى والدها أيضاً، كما أنك أنتِ في أمس الحاجة إلى شريكك. لذا، اجعلي من حبكما نبراساً يضيء درب حياتكما ويعيد الأمل إلى قلوبكم."

وبدت عيناها مثل ظلام الليل، عميقتين، غائبتين عن وعيها، وعادت لتنظر إلى حسن بحدةٍ لم تعهدها:

"أريدك أن تخبرني: كيف أعود له، بينما كان استغلني طوال الوقت؟ كيف لي أن أغفل عن غدره، وأنا التي تحملت الكثير من عذابه؟ لم أعد أستطيع التحمل، لقد عانيت حتى صار كل شيء حولي رماداً."

تساقطت دموعها كحبات المطر في عاصفة رعدية، لكأنها ترسم على وجنتيها ملامح تلك القصة المؤلمة:

"لقد فقدت والدي، ومنذ ذلك الوقت، لم يعد لي أحد. حتى أنت، تركتني حين كنت في أمس الحاجة إليك! آه، كم سأمت من هذه الحياة، سأمت من كل من حولي، سأمت من تلك الوجوه التي تتشابه بالخيبة."

كل كلمة احتوت صدىً من الحزن والخيبة، إذ افتقدت حياة الأمل في عيون من حولها، وقلبها الذي كان يعتصره الألم، تضخَّم ليذهب إلى أبعد مما تحتمله طاقتها.

صرخت حتى انتهت نبراتها، وصار صدى كلماتها يحمل في طياته أوجاع الأيام الماضية.

تجمد الزمن حول حسن، الذي أُصيب بصدمةٍ من إشراقة القتامة في نفس حياة. ها هي الحياة المُنكسرة تعصف بها كما كان العاصف بشجرةٍ عريقة. أدرك تماماً أن كل تهدئة يقدّمها لها تبدو بلا قيمة.

بعد فترة من الصراخ والتشنج، سقطت حياة مغشياً عليها، مثلما تسقط ورقة تجرفها الرياح في غياهب السكون، وامتلأ المكان بصمتٍ قاتم. فقد رحلت إلى عالمٍ من اللاوعي، حيث لم يعد هناك من يراها، ولم يعد الألم يتردد في أعماق قلبها المكسور.

في صباح اليوم التالي، استيقظ إياد على ضربات خفيفة على وجهه. فتح عينيه ببطء، كمن يخرج من عتمة حلمٍ قديم، ليرى أمامه ابنته الصغيرة، جالسة ببراءةٍ تجسّد صفاء الطفولة. أقسم أنها كانت لحظة سحرية، حيث انبثقت فيه مشاعر لم يشعر بها منذ وقتٍ طويل. ابتسم لها بحبور، ثم انتزع نفسه من فراشه ليحتضنها برفق، قبل أن يطبع قبلة دافئة على وجنتيها المدورتين كثمار جنّة.

"بابا، أريد الحليب!"

نادت رهف بصوتها العذب، ممزقةً صمت الصباح بخفة.

"حاضر يا قلب بابا وروحه."

أجابها، وهو يشعر بالفخر والحنان يغمره.

حملها وتوجه بها إلى الأسفل، منادياً على الخادمة رباب، التي كانت تراقب المشهد بابتسامة دافئة، تشرق من عينيها مثل شمسٍ تشرق في سماء صافية. أمرها بإعداد الفطور وتجهيز رضاعة الحليب لابنته، وكانت رباب كعادتها تمتثل للأوامر بفرح، ذاهبةً لتلبية طلباته.

بينما كان إياد يتجه إلى صالة منزله، أعطت له اللحظات القليلة مع رهف شعوراً بالسرور. بدأ يلاعبها بحركات لطيفة، حيث كانت ضحكات الطفلة الصغيرة تملأ المكان كموسيقى تبعث الحياة في أركان قلبه. لكن فجأة قطع صوت جرس الباب هذا الهدوء، وما لبث قلبه أن دقّ بقوة محدثاً صدىً في أضلاعه؛ تخيل للحظة أن حياة قد عادت، لكن مخاوفه تجسدت في لحظةٍ قاسية عندما افتح الباب ليكتشف أن من يقف على عتبته هو ينال.

ابتسم ينال ببرود، محدثاً إياد بابتسامة قد تكون مغرية:

"ما بك؟ ألن تدعني أدخل؟"

أغمض إياد عينيه في محاولة لتهدئة نفسه، ثم نظر إلى ينال وقد امتلأ داخله بالغضب:

"اللعنة عليك، هيا ادخل، إلهي، أليس لديك مكان آخر تذهب إليه؟"

تفاجأ ينال بشدة من رده واستمر في ابتسامته الماكرة:

"حمداً على السلامة، هيا، ابتعد عن طريقي."

دفعه ينال بكتفه ليدخل إلى المنزل، بينما ظل إياد واقفاً هناك، الغيظ يتمخض في صدره كغليان بركان. تمنى لو أن حياة كانت هنا، تمنى أن يرى وجهها من جديد، ولكن الأمل في لقائها اختفى في ثنايا ذلك اليوم. فجأة دوَّى صراخ ينال في المكان، فاندفع إياد نحوه بسرعة، متسائلاً:

"ما بك؟ لماذا تصرخ؟ هل حدث شيء؟"

كان ينال يقف أمام رهف، التي كانت تجلس على الأريكة، مستغرِبةً وليس في عينيها إلا البراءة، تضع إصبعها الصغير في فمها وتنظر إليه بعينين مثل عيني القمر. بدت دهشته مصاحبةً للحب، إذ قال بدهشة:

"يا إلهي، من تكون هذه الصغيرة؟ إنها جميلة جداً!"

استحالت تلك الفرحة إلى توتر في صدر إياد، نظر إليه بدهشة مختلطة بغضبٍ بسيط، قبل أن يقول:

"أيها الأحمق! لقد ذعرتُ ظننت أنك في خطر!"

ظل ينال يتأمل جمال الطفلة، كأن حديثه تأخر يومين طوال. فأجاب إياد بقليل من الفخر، مُعطياً إياها مكانةً في قلب الحديث:

"إنها ابنتي، رهف."

عبرت عيونه عن قصةٍ مختصرة، قصة الحب والألم، والسعادة المفقودة. بينما ينال، الذي انبهر بجمال الصغيرة، بدا عاجزاً على إدراك كل تفاصيل تلك القصة التي تداخلت في فصول حياة إياد، والذي كان قد نسي قدراً كبيراً من الأبعاد في زحام العواطف والمشاعر.

تجسد المشهد لحظة عاطفية مفعمة بالحب والبراءة. كان ينال، الذي لا تُخفيه صدمته، مُستسلماً لبراءة الطفلة التي بين ذراعيه. تفتح شفتاه بابتسامة واسعة، متوجهاً إلى رهف، ليأخذها بين ذراعيه ويدور بها في فرحة غامرة. قبل رأسها ووجهها، كأنما يودع فيها كل عواطفه، تاركاً لها آثار قبلاته التي تحمل رائحة الأمان والحنان. كانت رهف، بحاجبيها المرفوعين وعينيها الساطعتين، تحاكي الطفولة بكل براءتها، تعكس أشعة الشمس في عينيها.

أخذت رهف تتأمل ينال، ثم نظرت إلى والدها ومدت يديها له بإيماءة طفولية: "احملني".

بدت الابتسامة ترتسم على وجه إياد، مليئة بالفخر والسرور، وهو يستقبل ابنته بين ذراعيه. قبلها على وجنتها، قائلاً بفخر:

"صغيرتي ألم يعجبكِ ينال؟ إنه صديقي".

ولم يمر وقت طويل حتى انطلقت عبارات الغضب من ينال، الذي أبدى استياءه:

"اصمت، أتعلم يا إياد؟ لا أصدق أن هذه الجميلة هي ابنتك".

نظرة التعجب ارتسمت على وجه إياد، وهو يسأل باندهاش:

"ولماذا لا تصدق؟"

ابتسم ينال بشغف طفولي:

"لأنها جميلة وأنت لست كذلك. بالتأكيد ورثت جمال والدتها".

حدّق إياد فيه بنظرة حادة، متراجعاً عن المزاح:

"اصمت بحق السماء".

ضحك ينال بصوت عالٍ، بينما عاد وأخذ رهف منه، وعاد ليقبلها بقبلات متتالية، حيث حاولت رهف أن تبتسم، كأنما تشاركهما لحظة من اللحظات السعيدة. توقفت حركته فجأة، وسأله بفضول:

"بالمناسبة، أين حياة؟ ألم تأتي معك؟"

تنهد إياد بتهكم، ليمتد نحو الأريكة، مودعاً آماله برؤية حياة:

"لا، لقد عاندتني ولم تأتي. لذا جئت برهف على أمل أن تأتِي بقدميها إلي".

أطلق ضحكة رنانة في الفضاء، مُعلناً:

"لقد توقعت ذلك، حقاً!".

في تلك اللحظات، تقدمت الخادمة حاملةً رضاعة الحليب، مُنبّهةً إيَّاهم بأن الفطور جاهز. تنهد إياد، مُستعداً لمواجهة يومه الجديد:

"هيا، دعونا نفطر".

نهض ينال، مستمراً في حمل رهف بين ذراعيه:

"حسناً، لنذهب، فلم أتناول فطوري في المنزل".

وجه إياد نظرة جانبية ساخرة:

"لقد توقعت ذلك يا غلطة عمري".

كان الضحك يملأ المكان، مسافراً عبر زواياه، بينما اتجه الاثنان نحو المائدة لتناول فطورهم الشهي مع مشاعر دافئة. وبعد أن انتهوا من تناول الطعام، دخل إياد إلى غرفته ليغيّر ثيابه، مُستعداً لمواجهة تحديات عمله المتراكمة منذ يومين.

أوصى ينال على رهف، مكلفاً إياه بأن يأخذها إلى منزلهم لتراها والدته وزوجته، إذ استشعر حاجته لأن تبقى ابنته بين أحضان الأسرة المحبة. أعفاه من العمل لليوم، تاركاً وراءه واجباته وعالم الأعمال المُنهك.

في مساءٍ دافئ، حيث تراقصت ظلال الأضواء الخافتة في زوايا منزل ينال، جلس إياد مع صديقه وزوجته ووالدته، مُحاطاً بنبع من الحُب والفرح الذي يتجسد في وجه ابنته الصغيرة، كانت رهف، بملامحها الطفولية وضحكاتها العذبة، تُضيء المكان كما يضيء القمر ليلة ربيعية. في تلك اللحظات، تلاقت أعينهم، مُعبرين عن إعجابهم ودهشتهم من جمال هذه الكتلة من البراءة التي بين أحضان والدها. لقد أحبوها بعمق، وكأنها قطعة من قلوبهم، واعتنوا بها بكل حنان.

تدريجياً، بدأت رهف تتأقلم مع الأجواء المحيطة بها، تثرثِر بتلك الكلمات الثقيلة التي تلجلج عند لسانها، مما كان يُشعل ضحكات الحاضرين. كانت كل حركة وسلوك منها كفيلة بأن تضيف لمسة ساحرة للمكان، حيث اجتمعوا حولها كأنها تميمة حظهم. انقضت السهرة بين ضحكاتهم وذكرياتهم، ومرت كالحلم، حتى جاء الوقت الذي حان فيه لذهابهما.

رفع إياد ابنته بين ذراعيه، عائداً بها إلى منزله، بينما مضى ينال وزوجته إلى غرفتهما، حيث دارت بينهما مناقشات تتسم بالحب والاهتمام. بدأت سلام، بحماس مشوب بالحنان:

"يا إلهي، إن رهف جميلة وناعمة، أشعر وكأنني أريد أن أعضها، إنها لذيذة للغاية!"

ابتسم ينال بمرح، ثم قال بفخر:

"عندما تتعافين وتمشين على قدميكِ، سنعمل على جلب واحدة مثلها."

انتهت جملته بابتسامة مشاغبة، لكن سرعان ما تدفق خجلها، ليظهر على وجهها معالم القلق. نظر ينال إليها بقلق، يسألها برقة:

"ما الأمر، سلام؟ ما بكِ، حبيبتي؟"

تنهدت وكأنما تحاول احتواء مخاوفها:

"أشعر بالخوف من العملية."

أقبل عليها ينال بحنو، مُداعباً مشاعرها المرهفة:

"لا، لا، جميلتي، لا تخافي! بإذن الله، ستنجح العملية، وستعودين للمشي بكل حيوية. أنا بجانبكِ، حبيبتي، لا داعي للقلق."

حركت رأسها موافقة، بينما ابتسامة خفيفة ترتسم على وجهها على أمل الفرج:

"بقي عشرة أيام على موعدها."

همهم ينال بإيجابية:

"أجل، وستنجح، أنا متأكد من ذلك."

اقترب منها ببطء، التقط شفتيها بقبلة عميقة، كانت كافياً لتجعل قلبها يذوب شوقاً له.

في تلك الأثناء، وعند إياد، عندما وصل إلى منزله، أمر الخادمة بتحضير العشاء، مُتوجهاً بابنتِه، مشاركاً إياها تلك اللحظات الهادئة. تناولا العشاء معاً، ضاحكين، يلعبان، حيث كانت طفولتها تُنعش روحه، وتعبه يذوب بانسيابية ضحكاتها؛ كانت تجد في تلك اللحظات الأمان.

ثم، فجأة، سمع صوت رنين الجرس يخترق صمت المنزل، متعجباً من الزائر في هذا الوقت المتأخر. نهض بخطوات سريعة نحو الباب، وفتح الباب ليقع نظره عليها. كان متوقعاً مجيئها، لكنه لم يتوقع أن تكون بهذه السرعة، وها هو يقف أمامها مبتسماً استعداداً لاشراقة جديدة في حياته.

"أهلاً بكِ، لقد توقعت زيارتكِ. تفضلي، المنزل منزلكِ يا زوجتي العزيزة."

لكنها تحدثت بإيقاع بارد، كأنما جليد الحزن يحاصر كلماتها:

"أريد أن أرى ابنتي."

ابتسم إياد بمكر، كأنما تستحضر ملامح الابتسامة شبحاً من البهجة في قلبه، قائلاً:

"تقصدين ابنتنا"

لكنها لم تعره انتباهاً، فقد دخلت إلى المنزل بوقار، رغم أن قوامها الممشوق كان يثقل عليه بمشاعر القلق. لاحظ ملامح التعب على وجهها، والهالات السوداء التي تحيط بعينيها، وكأنها عاشت لياليٍ لا تنتهي من القلق والحزن. تنهد بعمق وهو يغمض عينيه، يتمنى أن تُجلي عليه الساعات عواصف الغضب والقلق، ثم دخل إلى الداخل حيث وجد حياة، مُحتضنةً رهف بين ذراعيها، تبكي بحرقة، تُقبلها في كل شبر من وجهها.

أحس إياد بسهم من الألم يخترق قلبه؛ فقد حرم حياة من ابنتها ليوم واحد فقط، ورغم ذلك، كانت لوعة الفراق تأكلها. وعندما سمع ضحكات ابنته، تأكد من أنها تعيش لحظات السعادة برفقة والدتها. تنهد جالساً بمراقبة المشهد، مُحاولاً استيعاب رؤية لم الشمل الذي كان في ذات الوقت مؤلماً.

كانت حياة قد عادت برفقة حسن، لكن الأخير اتجه إلى منزله بعد أن أوصلها إلى عتبة منزلها. كأنها تكسر صمتها قائلة:

"أريد أن ننفصل عن بعضنا، أريد الطلاق يا إياد".

قهقه إياد وفي البداية كانت ضحكته خافتة، لكنها سرعان ما تحولت إلى ضحكة صاخبة ساخرة:

"هل بعدكِ عن ابنتكِ ليومٍ واحد فقط جعلكِ تتفوهين بكلمات غير قابلة للإدراك؟"

أطلقت عينيها نظرة تحمل سخرية مستترة، ثم ردت ببرود:

"لا، بل على العكس، أنا حقاً أريد الطلاق. وسآخذ رهف معي. لا تقلق، سأظل هنا، ولن أسافر. عندما تريد أن ترى ابنتك، لن أمنعك. تعال في أي وقت، لا مانع لدي".

ضحك بصخب مرةً أخرى، ثم قال:

"حسناً حسناً، انهضي وغيري ثيابكِ وارتاحي قليلاً. مؤكد أنكِ متعبة من طريق السفر"

تنهدت بتململ، وقالت:

"لست متعبة، وأنا أحدثك بجدية، لا تسخر من كلامي. أريد الطلاق".

ابتسم لها بإذلال، يُظهر تحكمه:

"وهل تظنين أنني سأفعل ما تريدينه؟"

ابتسمت حياة بسخرية، مُحملةً كلامها بجرح:

"وكيف سترضى بأن تعيش مع امرأة تكرهك وتمقتك؟"

ابتسم بسخرية مشابهة، مُختبئاً وراء قناع من القوة:

"بل على العكس، أنا متأكد أنكِ لا زلت تحبينني"

نهضت بعنف، قائلة بحدة:

"إياد، أنا لا أمزح. أريدك أن تطلقني، وسآخذ رهف معي"

نهض إياد بعنف مماثل، مُمسكاً بمعصمها بقوة، وعيناه تشعان بالحدة:

"لن أفعل ما تريدينه. هل فهمتي؟ ستظلين هنا لأجلي، ومن أجل رهف أيضاً، كفى عناداً"

انتزعت يدها من بين يديه، وصرخت بغضب:

"اللعنة عليك! لماذا لا تفهم؟ أنا لا أريد العيش معك!"

ابتسم بمكر، متحدثاً ببرود لاستفزازها أكثر:

"لا ترفعي صوتكِ أمام طفلتنا، لكي لا تخاف وتنفر منك. هذا لن يكون في صالحكِ أبداً"

أنهى جملته بابتسامة تملؤها الحيلة، بينما هي تنظر إليه بحدة، مُصممة على موقفها:

"أريد الطلاق فوراً، ورهف لن أتنازل عنها نهائياً"

استرخى بجسده على الأريكة، وأجاب بغموض:

"حسناً، كما تريدين، لا مانع لدي"

فجأة، ارتسمت على وجهها علامات الصدمة، بينما كان هو يردف بمكر:

"وأيضاً، لا أريد رهف، سأجعلها تبقى معكِ"

تجمدت في مكانها، مشدوهة من تغيره المفاجئ، وقد صُعقت بشدة، بينما رآها ينهض ويتوجه نحوها بخطواتٍ بطيئة، واقفاً أمامها، يضع يديه في جيوبه، ويتحدث بابتسامة ماكرة:

"سأطلقكِ، وسأدعكِ تأخذين رهف، ولكن لن تأخذيها فوراً. وإنما بعد ثلاث سنوات، سأحرِمكِ منها كما حرمتني منها، وبعدها سأعيدها لكِ. مارأيك؟"

34

سكونٌ مهيبُ عمَّ المكان بعد أن أطلق كلماته التي كالصواعق، تنفجر في فضاء الغرفة، محدثة دوياً في قلب حياة. نظرت إليه، عيناها جاحظتان مملوءتان بالدهشة وعدم التصديق، وكأنها تستجوب ما سمعته:

“ماذا تقول أنت؟ كيف تقوى أن تحرمني من ابنتي التي لم تبدأ بعد خطواتها في الحياة؟ ثلاث سنوات، كيف يستطيع قلبي أن يتحمل مثل هذا الفراق؟”

ابتسم بسخرية جليّة، وهو يتحدث ببرودة كمن يتأمل مشهداً قاسياً:

"وكيف طاوعك قلبكِ على حرماني منها كل هذه المدة، لم تحرميني فقط، بل جعلتيني غريباً عن حياتها، لم أكن أعرف بوجودها حتى."

هزت رأسها، عاصفةً من الإنكار، وكأنها تكافح ضد حقيقة مريرة، وهمست:

"لقد كنت منتزعها منّي ليوم واحد، وكاد عقلي ينفجر. كيف تأمل أن تحتمل روحي غيابها لفترة طويلة كهذه؟"

استمتع بنظرتها الشديدة، وهمهم بصوتٍ خافت، يحمل نبرة انتصار:

"يجب أن أحرّمك منها كما فعلتي، وحينها نكون قد تساوينا، كنا على السواء في عذاب الفراق."

اشتعلت عيناها بكراهيةٍ مستحيلة، وبصوتٍ صارم، واجهته:

"أقسم لك، لن تُدرك أبداً كيفية فعل ذلك. أيُّ قانون سيسمح لفتاة صغيرة بالعيش بعيدة عن أحضان والدتها؟"

ضحك بمرارة، وكأنه يذرف دموع سخرية غير مرئية:

"هممم، وأيُّ قانونٍ ذاك الذي يسمح لامرأة مثلكِ بفعل ما فعلتي؟"

نفثت في وجهه ضحكة مماثلة، تجسّد سخرية مؤلمة:

"الآن، وقد جئت لتذكرني بالقانون، أين كان هذا القانون حينما سارعتِ لرفع قضية الطلاق؟ لماذا لم يكن ذا أثر عندما عجزوا عن إنهاء مسيرتي معك؟"

توقفت الكلمات في حلقه لحظة، لكنه سرعان ما عاد ليقول بصوتٍ جليدي:

"أسألي نفسكِ، أيُّ قانونٍ في هذا العالم سيسمح لي بفعل شيء لا أرغبه؟"

كانت نظرتها له مليئة بالذهول، وجعاً يعتصر قلبها. بلل شفتيه وتقدّم نحوها بنظرة تحذيرية تشي بشيء خطير، قائلاً:

"استمعي إليَّ جيداً حياة. لقد كنت رحيماً بكِ، ولم أحرّمكِ من رهف، بل عرضت عليكِ العيش معنا والعودة لي فقط من أجلها. أما الآن إذا كنتِ مصممةً على الطلاق، فليكن، لكن لا تحلمي برؤية ظفر رهف. سآخذها لتنعم بنوم هادئ، وعندما أعود، سيكون لديكِ القرار الذي أنتظره. فكّري جيداً في الأمر."

أنهى حديثه وكأنما بصق بأفكاره في وجهها، مما جعلها تتجمد في مكانها، وكأن الزمان قد توقف. حمل ابنته، التي بدت على ملامحها علامات النعاس، وصعد بها إلى الغرفة، تاركاً حياة على الأريكة، تتخبط في دوامة أفكارها. كانت تعرف، بل متيقنة، بأنها لن تستطيع مواجهة جبروته، وأن لا شيء سيمنعه من تحقيق ما يريده.

فأفكارها تتأرجح بين شدة الموقف وواقع ابنتها، فتكررت في ذهنها كصدى مزلزل: جيد، هي لا تحبه ولا تعشقه، إنما ستبقى هنا لأجل رهف وحدها، فقط من أجلها. هو لا يعني لها شيئاً، ولن تأبه له، لكن تلك الكلمات كانت كالعقدة التي تكبل روحها.

أخذت نفساً عميقاً، تاركة علامات الحزن تضيء وجهها، ورفعت عينيها لتجده مستنداً على الحائط، ضاماً يديه إلى صدره، بابتسامة جانبية وماكرة، كمن يُفكر بخطّة مُحكمة. حدقت في عينيه، وابتلعت ريقها بصعوبة، إذ أدركت أنه فعلاً سيقودها إلى الجنون. كان يرتدي برمودا سوداء وقميصاً ذا حمالات باللون الأبيض، مما جعل التوتر يتسلل إلى أوصالها، ولم تستطع أن ترفع عينها عنه، خوفاً من أن تستسلم لنداء أحضانه.

"لم أسمع جوابكِ بعد."

جاءت كلماته ناعمة وهادئة، كأنه يهمس بها في أذن قلبها، وكأن ذلك الصوت الحاد والغاضب اختفى تماماً.

ابتلعت ريقها بصعوبة، وشعور التوتر يتسلل إلى أطراف أصابعها المرتجفة، بينما إياد يقف أمامها، عينيه تتلألأان بشغف المتعة وهو يتأمل توترها وكأنما يشهد عرضاً خاصاً. أخيراً، بعد صمتٍ ثقيل، صدح صوتها الذي خالطته محاولة للهدوء، وكأنها تخرج الكلمات من أعماق قاع محيط من القلق:

"م ... مم، حسناً... سأبقى."

توسعت ابتسامة إياد، وقد غمرته سعادة مفاجئة، فتوجهت إليه بجسدها بالكامل، موجهةً سبابتها في وجهه بحزم، وسرعة كمن أرادت أن تبدي قناعتها:

"فقط من أجل ابنتي، صدقني."

همهم بابتسامة خبيثة تخفي خلفها معاني متعددة:

"حسناً."

اقترب منها قليلاً، وكأن كلماتهم تتحول إلى همسات من عطر، وسراب مغري ينساب في أذنيها:

"ولكن حقاً، من أجل رهف فقط؟ أنا زوجكِ أيضاً، وحبيبكِ، مابكِ؟"

ابتعدت عنه بتوتر واضح، تنفر من مسافة القرب التي ألقت بظلالها على حذرها، لتقول بحسم:

"لا، ليس من أجلك، بل من أجل رهف. والآن، أريد أن أنام، أين غرفتي؟"

صدحت ضحكة إياد رنانة كصدى جرس في فراغ الغرفة:

"غرفتكِ هي غرفتي، حبيبتي، أم أنكِ نسيتي ذلك؟"

نظرت إليه باستنكار، وكأن كلماته كانت كفقاعات هواء تتلاشى في وجود ريح باردة:

"وهل تظن أنني سأنام معك في نفس الغرفة؟ أنت حقاً ساذج."

لكن ابتسامته خلت من الصدمة، إذ تمسح الكلمات السلبية التي ألقتها عليه، وتجاهل كلمة "ساذج" بعذوبة:

"حسناً، سأخبر الخادمة بأن تجهز لكِ غرفة، وستنامين بمفردكِ، بينما أنا ورهف سننام في غرفتي."

انتفضت حياة، كأنها تلقت صدمة كهربائية، وصرخت بعنف:

"لا! رهف ستنام معي. هي دائماً تنام بجانبي، وفي أحضاني، هل فهمت؟"

ابتسم بمكر، مغازلاً براءة مصطنعة وهو يتحدث كطفل يلعب:

"حسناً، هي تنام في أحضانكِ، ولكن هل يمكنني المشاركة معها والنوم في أحضانكِ؟"

نظرت له بغضب، وعينيها تتدفّقان بسخرية:

"أنا لا أفتح أحضاني سبيلاً للناس."

ضحك ضحكةً رنانة أخرى، وقد تلاشت سحب الغضب:

"حسناً، لكنني لست غريباً، فأنا زوجكِ، أم أنكِ نسيتي ذلك؟"

توترت حياة عند سماع كلماته، وكأنها تلقت رصاصة في قلبها:

"لا، لم أنسى. أوف! حسناً... سأنام اليوم في غرفتك، وغداً سأجهز غرفة لي لكي أنام بها أنا ورهف."

نظر إليها بنظرة ملؤها الاستمتاع، وابتسم ابتسامة عريضة، وكأنه يمسح عن وجهه غبار الهموم. كان صمته حاملاً همساً من الشغف، إلا أنها سرعان ما تبدلت ملامحها عندما أصدرت صوتها، وهي تهمس بحدة:

"فقط اليوم، ورهف ستكون الحاجز بيننا. أقصد، ستنام بيننا، هل فهمت؟"

تفجرت ضحكاته بصوت عالٍ، كأنه كان يتوق إلى هذه اللحظة. اقترب بجرأة، قائلاً:

"حبيبتي حياة، كأنكِ تلميحين لي بشيءٍ ما، أليس كذلك؟ إن أردتي العلاقة، فأنا جاهز. لا تعلمين كم أنا مشتاقٌ إليكِ، إلى جسدكِ الذي أعشقه بشغف لا ينطفئ."

أشاحت بوجهها عنه، غارقة في صدمة ولم تستطع كبح غضبها، فجمعت كل طاقتها لتقول:

"أنتَ أحمق، ليس لديكَ أخلاق، لعنة الله عليك!"

رفع حاجبيه بطريقة مغيظة، مقترباً منها همساً:

"اذهبي واصنعي لي فنجان قهوة، هيا."

نظرت إليه بغضب شديد، وردت بحسم:

"لن أذهب ولن أفعل لك شيئاً! اذهب إلى الجحيم، أيها اللعين إياد. أكرهك!"

ضحك باستفزاز، وكأن فرحته كانت تتغلب على كل شيء:

"حسناً، إذاً، سنبدأ الحفلة هنا، ما رأيكِ؟"

لفتت نظرها إليه بغيظ، ومن ثم توجهت بخطوات متسارعة نحو المطبخ. صوتها كان عالياً عندما قالت:

"قهوتك سادة، حسناً، حسناً!"

ضحك بصوت عالٍ وتضاحك مع نفسه، وهو يشعر بسعادة غامرة بمشاغبتها وحنقها منه. نعم، ها قد عادت حياة، ولكن بعباءة جديدة تحمل بين طياتها تحدياً لا يُستهان به.

أنجزت تحضير فنجان القهوة، وخرجت نحوه بخطوات أكثر هدوءً، رغم أنها كانت تحمل غيظها معها. وضعت الفنجان أمامه، لكنه اكتفى بنظرات المكر، بينما احتفظ بفنجان القهوة على الطاولة. هو يعلم تماماً ما تتعمده من مواقف، ليبقى لها طعم المغامرة في كل زوايا تعاملاتهما.

جلست أمامه، رافضة خطوة التعاطف، وكأن الغضب يحيط بها، وقد ضمت يديها إلى صدرها. كتم ضحكته ثم قال محاولاً تغيير الأجواء:

"ما بكِ؟ تبدين كأنكِ تحملين عبء الجبال على أكتافك، هل تتجاهلين شعور راحتكِ؟"

نظرت له بعينين غائرتين في السخط، دون أن تنطق بكلمة، فقط أشاحت بوجهها عنه، لتنبذ أي بادرة للحديث. غير أن ضحكته كانت تتلاعب بمشاعره، وخاطبها مجدداً ببراءة:

"تعالي واجلسي بجانبي."

نهضت وجلست قريباً منه، لكن دون أن تتفوه بحرف، كابحةً أي شعور قد يفضح حالة الاضطراب في قلبها. حاولت إبقاء غيظها قيد السيطرة، وفي أثناء ذلك، مدّ إليها فنجان القهوة:

"خذي، اشربي القهوة وهدّئي أعصابكِ."

تأفأفت عند سماع نبرته، ولكن كان قد حان الوقت لتدرك أنها نسيت وضع الملح في القهوة. ارتشفت الرشفة الأولى، لتجحظ عيناها بمزيج من الصدمة والاشمئزاز، ولفظتها إلى الخارج بينما كانت تسعل بشدة. ضحك عليها بصخب مبتهج، كأنه قد انتصر في معركة صغيرة.

هرع إلى جلب الماء، وبسرعة تناولت كأس الماء منه ليجري في عروقها كالسهم، وكلما زادت تجربتها مع القهوة، زادت ابتسامته خفة ونشوة.

وهو يجلس بجانبها، اقترب من أذنها همساً:

"زوجتي الصغيرة لا تزال حمقاء وبريئة، لقد نسيتي أنكِ وضعتي الملح في فنجان القهوة. بالهناء والشفاء، يا قلبي."

نظرت حياة له دهشة، لم تصدق ما سمعت، ومشاعر الغيظ تأكلها من الداخل كالنار التي تأكل الخشب. إدراكها بأن إياد قد تلاعب بها جعلها تشعر وكأن أضواء الغرفة قد انطفأت. لقد رصد حركاتها الطائشة، فرأى بعينيه كيف أضافت الملح إلى فنجان القهوة، وبهذا التصرف البسيط، رمى بمدركه لمزاح غير مألوف. نهض إياد مبتسماً بتحدٍ، لتلقي على ملامحه اللطيفة تلك الابتسامة الخبيثة التي كانت تجعله يبدو أكثر مقتاً.

"الله أكبر على كل شيء! أرأيتي كيف عاقبكِ الله فوراً؟ أنتِ تستحقين ذلك، حبيبتي. هيا أكملِي فنجان القهوة، وتتبعي خطواتي لتنامي يا بقرتي الصغيرة."

أنهى عباراته الساخرة وخرج من الصالة، بينما كان صدى ضحكاته المستفز يتردد في الأرجاء، وكأنه يرسل رسائل سخرية لها.

لم تملك حياة إلا أن ترفع صوتها عالياً، بينما اللعنة تتفلت من شفتيها مثل دوي الرعد:

"اللعنة عليك، يا ابن معين! اللعنة عليك! أكرهك! أكرهك!"

تلاشت نبرات صوتها في أرجاء الغرفة، وهي تشدّ شعرها من شدة الغيظ والحنق. كيف يمكن أن تكون بهذا الغباء، وقد وضعت الملح في فنجانه بنية جريئة؟ شعور الإحباط يحاصرها، لتسحب نفسها بعنف، وتعدّ العدة لتلقي وعودها بالأفعال المروعة، لكن في اليوم التالي.

في صباح اليوم التالي، تململت حياة في فراشها، وأشعة الشمس تلامس خديها. نهضت بنصف جسدها لترى طفلتها، رهف، تجلس بجانبها وتلعب بلعبتها الصغيرة، بينما كان إياد ينام على بطنه، عارياً من أعلى جسده. زفرت حياة بحنق، مُستضيفةً في قلبها مزيجاً من الغضب والانجذاب لجماله. صحيح أن مظهره كان مثيراً للغاية، ولكنه كان يُطيل الأيام الصعبة مع شعور القهر الذي يثقل أنفاسها.

ابتسمت لرهف، وحملت عزيزتها لتقبلها بحنان:

"صباح الجمال، صغيرتي."

ابتسمت رهف ببراءة طفولية، وردت:

"صباح الخير مامي."

قبلت والدتها برقة تنبض بالحب، مما أدى باتساع ابتسامة حياة، التي حملت ابنتها وتوجهت بها إلى الأسفل، لا تزال تفكر بخطة لتغيظ إياد وترد له اعتبارها.

ولدت في خيالها فكرة شقية، وعندما التقت بالخادمة رباب، التي لم ترها منذ خروجها من المنزل، تجمع الشوق في قلبها. احتضنتها بحب، وهي تخبرها بإعداد رضاعة الحليب لرهف وفنجان قهوة لها. لم تمضِ خمس دقائق حتى عادت رباب، حاملة الطلبات، وجسّد حديثهما روح الألفة والمحبة التي تجمعهما.

جلست حياة ترتشف من فنجان القهوة، تتذكر كيف ارتشفت من القهوة المالحة البائسة، فتسرب الدفء إلى جسدها الملتهب. لكن سرعان ما استقامت عازمة على الانتقام، نهضت باتجاه غرفة النوم حيث كان إياد لا يزال نائماً، وكل شيء ساكن.

تسللت بروح من الخبث، وتفقدت أرجاء الغرفة، لتقع عيناها على فنجان كبير، موضوع بتحدٍ على طاولة صغيرة بجانبه. بإتقان ولعبة الشيطان في قلبها، انتزعت الفنجان بيدها ورمته بكل قوتها، ليتحطم إلى أشلاء، ويتناثر الزجاج في كل الاتجاهات.

استفاق إياد من نومه بفزع، قلبه ينبض بالخوف، كأنه يظن أن مصيبة لاحقته. نظر بجانبه فإذا بحياة واقفة أمامه، تتصنع التوتر وتخفي ابتسامة استهزاء.

"ماذا حدث؟"

تلعثم صوته، مما أعطى نشاطاً زائداً لقلقه.

ابتسمت في سرها، لكنها قاتلت من أجل أن تبقى ملامحها هادئة، وردت عليه بلطف مزيّف:

"لا شيء، فقط كنت أريد أن أوقظك، لكن الفنجان وقع وتحطم دون قصد."

أضائت عينيها بنظرة منتصرة، بينما نظر إليها بغموضٍ وحيرة، يدرك ببطء أنها تمتلك خطة دراماتيكية. بادلته النظرات، مستعدّة لتحدي الجملة الأخيرة، مخايلةً كما لو كانت تواسيه.

"حسناً، سأتركك ريثما تهدأ، وتذهب الرعبة منك."

قالت ذلك وصوتها يرقص بين السخرية والتنبيه، كالساحر الذي يرمي عينيه إلى الأفق برسم أوهام، تاركةً لديه حكماً نهائياً لم يدرك بعد أبعاده الدفينة.

خرجت من الغرفة، وعيني إياد تراقبها كالنيران المشتعلة، وكان التوعد يلوح في ملامحه. ليهمس إياد بمكر:

"حسناً، تريدين اللعب أيها المتمردة العابثة؟ دعيني أريك كيف أتلاعب باللعبة." نفخ خديه ونهض متجهاً إلى الحمام ليغتسل بسرعة. وارتدى ثيابه، وخرج مُسرعاً إلى عمله.

في الأسفل، كانت ابنته تتراقص فرحاً نحو والدها، فتحت ذراعيها على مصراعيهما، ليحتضنها ويتنقل بقبلات متتالية على وجنتيها. لكن حين تلاقت نظراته بنظراتها، كانت هناك شرارة من المكر، فأرسلا لبعضهما نظرات تبادلتا تحدياً صامتاً. ثم انتقلا إلى مائدة الإفطار، وعزمت على مواجهة اللعبة التي بدأتها حياة.

عندما وصل إلى الشركة، كان يجلس في مكتبه مشغول الفكر، إذ دخل ينال مبتسماً ووجهه يعكس خفة الظل. رحب به إياد، بينما كان ينال يضحك من أعماق قلبه كما لو كان يشاهد مسرحية كوميدية على خشبة المسرح عندما حدثه إياد بكل شيء حدث.

"ما الذي يضحكك أيها الأحمق؟"

سأل إياد بغضب ممزوج بسخرية.

"لا شيء، لكن أعان الله تلك الفتاة التي ابتلاها بوالدين مثلكما"

رد ينال، وهو لا يستطيع كبح ضحكاته.

عبس إياد في وجهه، متسائلاً:

"لماذا تتحدث بهذه الطريقة؟"

كتم ينال ضحكته بصعوبة، وقال:

"هل ستظلان هكذا إلى الأبد؟"

"لا أدري، صدقني. الأمور أصبحت معقدة."

همهم إياد بفكر مشتت.

"اجلبها إلينا، لترى أمي وسلام، ولتكن لنا مناسبة في مساء يوم معد"

قالها ينال قبل أن يستأذن ويغادر.

ظل إياد سارحاً، يفكر في خُططه المدبرة للانتقام من حياة، وهو ينوي أن يلقنها درساً لن تنساه. ابتسم بخبث، ثم أمسك هاتفه وطلب رقماً محدداً. كان قلبه يخفق بحماس، وأعطى تعليماته للحارس: أن يُخبر حياة بأنها بحاجة للبحث عن أوراق مهمة موضوعة في ملف أزرق في غرفته. استنكر الأمر الحارس، لكن إحساس الواجب والإلحاح بدا واضحين على وجهه.

فوجئت حياة بذلك الطلب العجيب عندما جاءها الحارس ليخبرها بأن السيد إياد غاضبٌ جداً، وأن هذه الأوراق تعدّ مسألة حياة أو موت بالنسبة له. تنهدت بعمق وتجولت في أرجاء الغرفة، تبحث بين الأوراق والأشياء المبعثرة، لكن دون جدوى. خصصت دقائقها الثمينة للبحث في المكتب، لكن لم تعثر على أثر الملف.

أخيراً، عاد إياد إلى المنزل، مُتظاهراً بالغضب، وتوجه نحو غرفته بوجه عابس. رأى حياة تبحث بقلق واضح، فانتفضت ملامحه.

"أين الأوراق؟"

انفجر غضبه بصوت عالٍ كأنها كالسهم أصاب قلب عذاباتها.

نظرت حياة إليه، صدمتها كلماته خشية اللحظة:

"ما الذي يحدث، إياد؟ وما شأني بملفاتك؟ أنا هنا أبحث في كل مكان."

تسرب القلق إلى صوتها، بينما اقترب منها، مُمسكاً بمعصمها بإحكام:

"لا تتظاهري بالجهل، حياة، كان على الطاولة، ومن المؤكد أنك ستجدينه فوراً!"

ابتلعت ريقها بصعوبة، تحاول السيطرة على اشتياقها للإجابة الصحيحة: "أقسم لك، لقد بحثت هنا وفي المكتب، ولم أجد شيئاً"

أغمض إياد عينيه محاولةً لتهدئة أعصابه المتوترة، ثم فتح فمه ليخاطب حياة بصوت يرتجف من الانفعال:

"اسمعيني، حياة، هذا الملف يعتبر بالنسبة لي مسألة حياة أو موت. إذا كنتِ تتعمدين المزاح أو خبأتي الملف فقط لتغيظيني، فأرجو منك أن تتحدثي بوضوح ولا تدعيني أعيش في حالة قلق كهذه."

نظرت له حياة بخوف وقد أطبقت على شفتيها، وأجابت بقلق:

"صدقني، لم أخبئ شيئاً، ولم أجرؤ على الاقتراب من أغراضك أبداً، كما أنني لم أى أي ملف على الطاولة."

ارتفعت لهجة صوته بشكل مفاجئ، كأن صراخه كان زئير وحشٍ جائع:

"إذاً، أين ذهب؟"

جفلت حياة من شدة صراخه، كأنما هزها الزلزال، واحتجزتها مشاعره المتضاربة. أمسكها من معصمها بحركة قاسية، وهتف:

"اسمعيني جيداً، حياة. إن لم تعثري على الملف فستشعري بجحيمي. هل تفهمين؟ هيا، ابحثي عنه!"

ابتلعت ريقها بصعوبة، واستشعرت ضغط عينيه الثاقبتين يراقبانها كعقابٍ صاعق. بدأت تبحث في زوايا الغرفة، تفحص كل شبر فيها. ولم يزد توترها إلا أكثر عندما رأت نفاذ صبره؛ فقد انتظرها ساعة كاملة، هي تبحث وحيدةً لكن دون جدوى. معالم التعب تبدت على وجهها الشاحب، فقالت بصوت مليء بالإرهاق:

"لم أجده، افعل ما شئت بي. لقد تعبت جداً، صدقني."

ابتسم إياد بمكر، وضحك ضحكة مستفزة كانت كالسحر الأسود، تنبعث من أعماقه. اقترب منها، وجلس بجانبها بهدوء غير أنه كان مشحوناً بالتحدي:

"في الواقع، لا يوجد أي ملف ضائع يا حبيبتي."

نظرت حياة إليه بعدم فهم، وهي لا تزال غارقة في صدمتها. اتسعت ابتسامته الماكرة، وهو يستكمل حديثه:

"هذا هو الرد على فعلتكِ في الصباح، يا قلب إياد."

تنفس بارتياح، ونظر لها بنظرة تفوق كل الأبعاد، من مزيج التشفي والمرح. همّ بالنهوض ليبارك نفسه بنصر الغلبة، لكنه قبل مغادرته، أطلق جملة استفزازية: "حسناً، سأتركِكِ الآن تلتقطين أنفاسك قليلاً، وليذهب التعب من جسدك."

أنهى جملته وخرج من الغرفة كأنما كان يخوض معركة، متوجهاً إلى ابنته الصغيرة ليقضي وقته معها. بينما ظلت حياة مسمرة في مكانها، لم تصدق أن شخصاً يمكن أن يتمتع بهذا القدر من الخبث والذكاء. كانت عاصفة من الغضب تعصف بها؛ قادها إلى الجنون وزرع في قلبها غيظاً لا يُحتمل.

انفجرت بكاءً، تنفست بصعوبة، وهي تصرخ في روحها المتألمة:

"اللعنة عليك، يا إياد! سأريك، حسناً سترى من هي حياة"

أخفت وجهها بين الوسائد، تبدأ القطرات الحارة تتساقط كسحب ثقيلة، يحمل الألم والغيظ معها، لتصبح عزلتها جسدٍ من مشاعر مختلطة، تقاوم سطوة ذكرياته وتهدد شغفها بتحدٍ جديد.

مرَّت عشرة أيام، كأنها عقدٌ من الزهور المتشابكة، وعادت حياة وإياد يمارسان لعبة المقالب ببعضهما البعض كما القط والفأر، ينسجان لحظات من المرح تحمل عبق الغضب والمشاعر المتناقضة. إذ كل ليلة، يجبر إياد حياة على النوم معه في غرفته،فيما كانت ابنتهما تستمتع بأجمل أيامها في ضوء الفرح المشرق. كانت الطفلة ترى بعينيها حركات أمها المليئة بالغيظ وتصرفاتها الطفولية تجاه والدها، وكأنما كانت تطل من نافذة الحياة وتراقب عالماً مليئاً بالتناقضات.

ومع مرور الأيام، أخذ إياد حياة ورهف إلى منزل ينال، حيث انتظرت سلام بفارغ الصبر عودة صديقتها وحبيبة قلبها، التي لم يعد يشغلها شيء إلا أن تكون بجوارها إلى الأبد. ومع قدوم يوم العملية كان قلبها مشدوداً بين الأمل والخوف، لكن وجود زوجها بجانبها كان يشجعها ويشعل في نفسها شعلة من الأمل في نجاح العملية الجراحية.

ها هما الآن في فرنسا، وتحديداً في إحدى المستشفيات العالمية الكبيرة، التي تضم أفضل الأطباء والجراحين. كان الخوف يتسلل إلى قلب سلام، حيث رائحة الأدوية تعبق في أرجاء غرفة العمليات، وفي لحظة، شعرت بأنها ممددة على السرير، ترتدي رداءً أخضر مخصصاً للمرضى، متمنية بشدة أن تكون عقارب الساعة تمضي ببطء أكبر لتُخفِّف وطأة الخوف.

دخل الطبيب وهي مبتسمة، يحمل في عينيه طمأنةً تسعى لتخترق حواجز القلق في نفسها:

"كيف حالكِ، أيتها الجميلة؟"

ابتلعت ريقها بصعوبةٍ، محاولة إخفاء رعبها:

"بخير..."

همس الطبيب مُشجعاً:

"لماذا كل هذا الخوف، يا سلام؟ لا تقلقي، كل شيء سيكون على ما يرام."

هزَّت رأسها برفق، متشوقة إلى تلك الطمأنينة، بينما كان نبضات قلبها تتسارع كأجنحة الفراشات. تنهد الطبيب بعمق ثم قال:

"حسناً، ابدئي بالعد إلى العشرة."

لم يكن هناك خيار آخر، احتملت ذلك الشعور المرعب، وبدأت بالعد بطريقة متقطعة بينما كانت يد الطبيب تدعمها في عملية التخدير:

"…6 – 5 – 4 – 3 – 2 – 1 …"

وهنا، غاصت في ظلامٍ كامل، فتوقفت أصوات الحياة من حولها، وهُناك، في عالمها الخاص، بدأ الطبيب وفريقه العمل كملكة النحل، يعملون معاً بحذر لتخليص سلام من إعاقتها، وفتح الأبواب المغلقة في حياتها.

أما في الردهة، فقد مرت خمس ساعات على ينال، وقد كان قلبه مستمراً في التقلص كعصفور في قفص ضيق، يعاني من ضياع روحه. تلك الساعات قد مرت عليه كما لو كانت دهراً من العذاب. بينما هو غارق في جوف دعواته إلى الله، لم يفتُر عن الصلاة، آملاً أن يُنجي زوجته ويشفيها، شاعراً بالقلق يشتعل في داخله كالنار التي تلتهم كل ما حولها.

وأخيراً، ظهر الطبيب من غرفة العمليات، متوجهاً نحو ينال الذي انتفض من مكانه، وكأنما أطرافه قد تجمدت جراء الانتظار. انطلق إلى الطبيب متحدثاً بقلقٍ لا يُحتمل:

"ماذا حدث؟ أرجوك، أخبرني كيف حالها؟"

تلك الكلمات كانت تتراقص على لسانه كجرس الإنذار، تحمل بين طياتها شغف الأمل في معرفة مصير سلام. كانت الشفافية في عينيه مزيجاً من الحزن العميق والترقّب، فيما كان وقت الانتظار يهزّ كيانه، كالذي يقف عند حافة الهاوية، ينتظر للخطوة التالية التي ستغير مجرى الحياة.

تنهد الطبيب بعمق، مغمضاً عينيه للحظة وكأنه يستمد من أعماق نفسه القوة واليقين. ثم فتح عينيه ليبتسم ابتسامة واسعة كأنها إشراقة شمس بعد عاصفة.:

"مبارك، يا سيد ينال! لقد نجحت العملية، وزوجتكِ في صحة جيدة."

كان وقع الكلمات كالصاعقة على قلب ينال، صدمة تغمره بفرح وسعادة لا تُصدّق. جحظت عيناه في دهشة، وكأن الفرح يُخطف من بين أنامله:

"حقاً؟ حقاً نجحت عمليتها؟"

تساقطت دمعتان من عينيه، هما دموع الفرحة الخالصة التي لا تُعبر إلا عن شعورٍ عميق في تجاوز حدود الوصف. ضحك الطبيب، غارقاً في سروره:

"صدقني، العملية تمت بنجاح. وستعود وتمشي من جديد."

ابتسم ينال، وكأن قلبه انفجر بفرحٍ لم يعرفه من قبل. دموع الفرح هطلت من عينيه، تسيل كجدول عذب في يوم صيفي مشمس. لم يعد يُصدق ما يسمعه، فكان هذا أجمل خبر في حياته. احتضن الطبيب بقوة، متلقياً تلك اللحظات الثمينة، وهمسات الشكر تتسلل من بين شفتيه ليمتدح خالق السماء والجمال.

فصل الطبيب العناق برفق، ضاحكاً، ليُخبره:

"بالمناسبة، هي بحالة جيدة، وستستيقظ بعد عدة ساعات."

حرك ينال رأسه بفرح، تتلألأ دموعه على وجنتيه. لكن الطبيب أكمل بجدية:

"لكنها لن تستطيع المشي فوراً. من المحتمل أن تكون حركتها ثقيلة بعض الشيء، وستشعر بالألم قليلاً، لكن لا تقلق، مع الوقت ستعتاد على ذلك، وستعود للسير بشكلٍ طبيعي، دون شعور بالألم."

تنفس ينال بعمق، كأنه يُخرج الأنين الذي كان مختبئاً طوال هذه الفترة، ثم تحدث مبتسماً:

"حسناً، شكراً لك. أنا حقاً أشكرك."

ابتسم الطبيب مجيباً:

"الشكر لله، يا سيد ينال. بعد قليل، سَيُنقلون زوجتك إلى غرفة خاصة، وسيكون بإمكانك رؤيتها. والآن، عن إذنك."

أنهى الطبيب جملته، وانصرف إلى مكتبه، بينما انهمرت دموع الفرح مجدداً على وجنات ينال. كانت هذه الدموع كالعطر، تنشر عبق السعادة في القلب. لقد أنعم الله عليه وعلى سلام، نجحت العملية، وخرج من بين ظلال الخوف إلى نور الأمل.

مر أسبوعٌ منذ أن وطأت أقدام ينال وسلام فرنسا، والفرحة تعلو وجهيهما كأنوار شمس تشرق بعد عاصفة مظلمة. كان الحماس يسكن عيونهم، فرحاً بعودة سلام إلى طبيعتها. حاولت سلام رغم الألم المبرح الذي كان يشتعل في قدميها، أن تحصد ما تبقى من عافية، وتحاملت على نفسها بخطوات مترددة. كان الألم يُعصر قدميها كما يُعصر القدر العنيد، لكنها لم تستسلم، وبدأت تمشي عدة خطوات تحت أنظار ينال المُحبّة.

أخبرها الطبيب بعدم الضغط على نفسها، مُنبهاً بضرورة الاطمئنان على صحتها قبل كل شيء "قومي بالتحرك قليلاً، وعندما تشعرين بالألم، لا تترددي في التوقف." وعندما سارت بضع خطوات، شعرت بشيء من التحسن، رغم أن الأوجاع ما زالت تفتك بها. كانت تكتشف شيئاً فشيئاً أن القدرة على الحركة تُعني المزيد من الحرية.

ينال، الذي لم يتركها لحظة واحدة، كان جالساً بجانبها كالحارس الأمين، يُساندها بتشجيعه ومساندته، كأنما كل لحظة تمر هي منحة غير متوقعة. سعادته كانت تشعّ من داخله، حيث أزهر الأمل من جديد بقدومها إلى حياته، وكأنها زهر يروي الأرض العطشى. وقد أخبر ينال والدته، وإياد، وحياة بنجاح العملية، ولم تسعهم الدنيا من الفرح، وكأن الفرح قد انتشر في الأرجاء كعطرٍ يعبق في الأجواء.

في الجهة المقابلة، كانت حياة لا تزال تُصارع عنادها، تعزف على نغمة تُغضب إياد. كان يجن منها، وهي مجرد طفلٍ يرفض اللعب في الرمال دون أن تخرج عن إطارها. كان إياد يحاول بكل جهدٍ استعادة تلك الحياة الطبيعية التي جمعتهما، لكنها كانت تنأى بنفسها بعيداً، مُعمقةً الفجوة بينهما. وغالباً ما كانت تُسقط الكلمات اللاذعة في وجهه، ليكون الحوار بينهما كعاصفة غير متوقعة.

مُنذ يومين، تجرأت حياة وأخبرت إياد برغبتها في زيارة والدتها. لكن رد فعل إياد كان حاداً، عاصفاً ببرودة المشاعر:

"لا، لن تذهبي، بعيداً عني!"

تملكتها خيبة الأمل، وغضبٌ ينمو في قلبها كأعشاب ضارة، وكأن عواطفها تغلي تحت ضغط تلك الكلمة. بينما كانت في أركان المنزل، تراقب حركات والدتها بطرف عينها، وتضحك ببراءة، تماماً كما أراد إياد. فقد كانت الفتاة تعي شيئاً من تلك المقالب العائلية، تُدرك أن والدها يسعى لخلق جو من المرح حول محيطهم.

في تلك الأثناء، كانت والدة ينال، سناء، قد استوطنت منزل إياد. كانت قد وصلتها أخبار الحياة الجديدة التي يعيشها إياد، وتمنت أن تُحقّق شيئاً من السعادة بين العائلة، ولكن حياة كانت تُخطط لتستفيد من وجودها لتبتعد عن إياد. لكنها، للحقيقة، كانت مخطئة؛ إذ حتى مع وجود سناء، لم يتغير الحال كثيراً. كان إياد يفعل بها العجائب، فتارة تجده يُغضبها وتارة أخرى يُشعل في قلبها مشاعر متباينة.

سناء، التي كانت تراقب تحركاتهما بفضول ولذّة، تضحك في سرها. تدرك أن حياة لم تمنح إياد الفرصة لإثبات حبه الدائم، ورغبتهم في العيش معاً في تناغم. وقد تركت الموقف يتصاعد، بدعوةٍ ليتجه الزوجان لتحرير شغفهما وحبهما، لتعود الأمور إلى مسارها الصحيح بعد نوبات الغضب والحنق. فقد كانت سناء واثقة بأن إياد يحمل قلباً مفتوحاً تجاه حياة، وأن حبّهما سيُزهِر أمام عواصف الغضب.

تدور الأيام كحلقة مزدوجة، في حين أن منار، ابنة عم ينال، تحمل على عاتقها براءة مفقودة بعد أن هزت أسرتها بعملٍ نُسجت خيوطه بالتسرع والهمجية. لقد علمت العائلة بحقيقتها الدفينة، وتبرأ منها والدها بعباراتٍ كانت كُخناجرٍ جُرح بها فؤادها. لكن في أعماق قلبها، كانت تشتعل نيران الندم. أقسمت لنفسها وللأسرة بأكملها ألا تعود للسير في طريق الظلام، وليكن لها مسارٌ جديد يسير في ضوء الشمس.

اليوم، باتت منار تعيش حياتها بحلة جديدة، قلبها أبيض ونقي، تعيش كل لحظة وكأنها هبة. تتوجه بدعاءٍ صادق إلى ربها، طالبةً عفوه ومسامحته على ما كانت تسعى للقيام به من أذى. تغيرت بشكلٍ جذري، كمن يخرج من قيدٍ مُحبط إلى فضاءٍ واسعٍ من الحرية.

وجاء حسان، ذلك الرجل الذي وجد نفسه متمسكاً بجذور الحياة، مخيماً في شركة إياد التي أثبتت بأنها ملاذه الأحدث. كان قلبه مملوءاً بالفرح لعودة حياة إلى زوجها، لنجاح العملية التي أنقذت سلام. وبينما هو يستشعر نعمة القلوب الطيبة في حياته الجديدة، شعر بشيءٍ من الحزن على الماضي، لكن سرعان ما أدرك أن نقاء قلبه قد منح له حياةً أفضل مئة مرة من تلك التي عاشها برفقة سمر.

عاد ينال إلى بلاده، يحمل في قلبه فرحة الانتصار وابتسامة الفرح، برفقة زوجته الصغيرة سلام، التي أثبتت إرادتها الصلبة وتحديها للألم. بعد فترة من العلاج، وجدت سلام قوتها مجدداً، وقد عادت تمشي على قدميها بخفةٍ كأنها فتاة صغيرة تتعلم خطواتها الأولى. كانت ترغب بشغف أن تُسرع في الذهاب إلى حياة، كما أنها كانت تطمئن قلبها بأنها سترى والدة ينال هناك أيضاً.

عندما دخلت سلام إلى منزل إياد ورأت سناء، علت الدهشة وجهها. لم تصدق عينيها حين رأت سلام تخطو نحوها، تتقدم بخطى بطيئة. ركضت سناء نحوها، ودموع الفرح تنساب من عينيها، محتضنةً إياها في عناقٍ حار، تتمتم بكلمات الشكر لله على نعمة الشفاء، فتلك الفتاة لم تعد مجرد زوجة ابنها، بل أصبحت كابنتها تماماً.

في تلك الأثناء، كانت حياة تشاهد الموقف وكأنها تشاهد فيلماً يفيض بالعواطف. لم تتمالك دموع الفرح، وركضت نحو سلام، تحتضنها وتقبلها بفرحة تجتاح كل خليةٍ في جسدها. بينما اكتفى إياد بالمصافحة، عاكساً تحيته الرقيقة واهتمامه بها، مُباركاً لها سلامتها ونجاحها في الشفاء. احتضن ينال بحب، مملوء بالشوق والامتنان، وهو يُبارك له بعودة زوجته للمشي..

غمر الجميع فرحة عودة سلام، وكانت تعيش اللحظات الذهبية محاطةً بأحبائها، تستشعر قوة التعافي، وكأنها قد انتزعت من ظلال الإعاقة إلى نور النعمة. قضوا سهرتهم في جو عائلي مليء بالدفء والضحك، مع ضحكات رهف التي كانت تضيف لحناً خفيفاً كما لو كانت نجمة تلمع في سماء ليلي، بفضل تلك الطفلة الجميلة التي جعلت من كل زاوية مسرحاً للهرج والمرج.

وبعد رحيل سلام وينال ووالدته كان إياد يخيم عليه الصمت. جلس في غرفة المعيشة، مغموراً في أفكاره وأحاسيسه المتضاربة. تراجع إليه شعور الضيق الذي ما انفك يُراوده، وكأن فترة الجفاف في علاقته مع حياة باتت تمزقه من الداخل. "ألم يحن الوقت بعد لعودتنا إلى ما كنا عليه؟" تساءل في داخله، متمسكاً بأملٍ ضئيل، بينما كان يستعيد ذكريات أيام الحب والسعادة.

"لما المكابرة، يا حياة؟ لماذا لا تعودين إلى حياتك الطبيعية مع زوجك الذي يعشقك بكل جوارحه؟"

كان يتساءل مثقلًا بخيبة. وقد غصت مشاعره في بحر من الحيرة، فقرر النهوض نحو غرفته، ليواجه مشاعره بكل شجاعة، للتقرب من تلك المرأة التي أسرت قلبه، والتي كانت بمثابة الوتد الذي يعقد عليه آماله.

أما حياة، فقد كانت تُغفل همومها أثناء تنييم صغيرتها في غرفتها الطفولية المُحلاة بألوان السعادة. بعد أن تأكدت من نوم ابنتها، تسللت بابتسامة مخادعة إلى غرفتها، حيث كانت تدرك ما الذي ستقوم به هذه الليلة. كانت دائماً تختار أجمل ما لديها من ملابس، لتظهر بأبهى طلة قد تُغري أي قلبٍ من حولها.

اليوم، ارتدت حياة فستان أسود قصير وأسدلت شعرها الذي يتراقص كأمواج البحر؛ استنشقت عطرها الساحر الذي يعشقه إياد. ثم، انتقلت برشاقة إلى سريرها، إذ بدأت تعبث بهاتفها بانشغال.

عند تلك اللحظة، دخل إياد، مُتفاجئاً بالمنظر أمامه، وقد اعتراها شعور مُختلط من الإثارة والغضب. كانت تلك الصورة ترسل الشرارة إلى قلبه؛ ابتلع ريقه وتنفّس بعمق، مُحاولاً السيطرة على انفعالاته. نفخ خديه بغيظ، لكي يُسألها بنبرة تعكس حيرة مكبوتة:

"حياة، هل تتعمدين إغاظتي أم ماذا؟"

لم ترفع حياة نظرها عن هاتفها، بينما تحدّثت بلا مبالاة، وكأنها لا تُدرك أن كلماتها قد تشعل النيران في صدره:

"ولماذا أُغيظك؟"

نفخ خديه من الغيظ، وكأنما اندلعت عاصفة في داخله، ليجأر بصوتٍ يحاول أن يكون حاداً:

"إذاً، لمن تتزينين كل يوم، للجناني مثلاً؟"

أطلقت ضحكة رنانة، كانت كالموسيقى التي تبث الحيوية في مكان مغلق، وجعلت إياد يبتلع ريقه بتوتر:

"وما شأن الجناني؟ أنا فقط أرتدي ما يُعجبني، وما أحب. ثم، أنا في المنزل والجو حار، لذلك أرتدي هكذا."

تمتم إياد بغيظ:

"ترتدين هكذا لأن الجو حار بينما أنا أشتعل بالنيران! هاه، يا حبيبي."

سمعت جملته وكتمت ضحكتها، لتتحدث بنبرة بريئة وصوتٍ ناعم، كما لو كانت تلقي جملة من قصيدة:

"هل قلت شيئاً؟"

نظر إليها إياد بغيظ، وكأنه يقاوم انفعالاته المتدفقة، ثم قال باندفاع:

"لاااا!"

ضحكت على مظهره المضطرب، وكأن تلك الضحكة كانت مؤلفاً جديداً يروي قصة حبهما. همست بكلمات مختصرة، ثم عاودت النظر إلى هاتفها، فيما بدأ إياد يقضم أظافره، يحرك قدمه بتوتر، صوت أنفاسه المضطربة يعبّر عن صراعٍ داخلي.

نفخ خديه بغضب، كمن يُحاول كبح عاصفة داخلية، لكن فكرة خبيثة لمعت في ذهنه. ابتسم بخبث وقال بصوتٍ مُغرٍ:

"مم، فعلاً، الجو حار. حسناً أنتِ ابقي هكذا بينما أنا سأخلع جميع ثيابي، عزيزتي."

جحظت عيناها من هول ما سمعته، وكأنما صُدمت بتسريبات من قنبلة:

"ماذا؟ ما الذي تقوله أنت؟"

ابتسم بتهكم وكأنما الانتصار على غيظها أصبح هدفاً مُلّحاً بالنسبة له:

"كما سمعتي."

زاغ نظرها بارتباك عندما رأت حركاته وهو يخلع التيشرت والبنطال، محتفظاً بلباسه الداخلي فقط. انفجرت مشاعرها، وابتعدت بوجهها عنه، كأنها لا تريد رؤيته:

"يا إلهي، كم أنك عديم الأخلاق! ارتدي البنطال على الأقل!"

ابتسم إياد ابتسامةً مُستفزةً، وأضاف ببراءةً مُزيفة:

"لماذا؟ فَالجوُّ حارٌّ، وأنا في منزلي وغرفتي، والتي أمامي زوجتي، فلماذا الخجل؟"

نفخت خديها بغضبٍ، وحركت رأسها موافقةً، وقالت:

"حسناً، حسناً، كما تشاء. أنا سأنام."

أنهت جملتها، ثم استدارت إلى الجانب الآخر لتنام، مُعطيةً إياه ظهرها. بينما نظر إليها بخبثٍ، وحرك رأسه بتوعدٍ. أطفأ الأنوار، ثمّ تمدد بجانبها، حتى التصق بها. شعرت به خلفها، لكنها ظلت ثابتةً، لا تبدي أي ردة فعل. مد ذراعه واحتضنها، مُقرباً إياها أكثر، فأبعد شعرها عن عنقها، ليُبدأ بطبع قبلاته الدافئة على رقبتها، وهو يتحسّس جسدها، بينما كان استسلامها له يتزايد، واستمرت وتيرة تنفسها تتسارع بشكلٍ ملحوظ.

كانت تفكر فيه، في حضنه الدافئ، في قبلاته، وفي لمساته، ولذلك استسلمت له، وفقدت حصونها أمامه، لم تستطع أن تقاوم أكثر من ذلك، فالتفتت إليه، وأمسكت بوجهه بكلتا يديها، لتُقبّله قبلةً عميقةً، جعلته يذوب بها، وبادلها قبلتها بسرعةٍ وجنونٍ. وفي تلك الليلة تحديداً، اشتعل عشقهما من جديد، قضيا ليلتهما بسعادةٍ غامرةٍ، متقربين من بعضهما، متلاحمين أكثر، ويعود عشقهما يتجدد ثانية.

استيقظ ينال بكامل نشاطه وحيويته، وكانت العادة تُشير إلى وجود زوجته بجانبه. لكنه تفاجأ بعدم وجودها، مما أثار تساؤلاته الداخلية. نهض بسرعة، توجهً نحو الصالة، لكنه لم يجدها، حتى والدته لم تكن موجودة. نفخ خديه بقوةٍ، وذهب إلى المطبخ، حيث ابتسم لا إرادياً عندما رأى سلام تعدُّ القهوة، غير منتبهةٍ لوجوده.

اقترَب منها ليحتضنها من الخلف، ويدفن وجهه في عنقها، مما جعلها تشهق بخفة، ثم قالت:

"ينال، ما بك؟ حبيبي، حمحم على الأقل!"

ابتسم ينال باتساع، وطبع قبلةً دافئةً على رقبتها، ليقول بلطف:

"صباح الجمال."

ابتسمت له، مُجيبةً:

"صباح الخير والسعادة."

انتهت من إعداد القهوة، وتوجهت برفقته إلى الصالة، وهي تتحرك بخطواتٍ بطيئةٍ وحذرة. جلسا معاً وبدأ ينال الحديث:

"حبيبتي، أين والدتي؟"

ابتسمت بخفة وهي تصب له القهوة، وقالت:

"قالت إنها تريد زيارة صديقتها، ثم ستذهب برفقتها للتسوق. لقد عرضت علي الذهاب معها، لكنني لم أرغب في تركك بمفردك."

همهم ينال بابتسامة دافئة، واقترب لاحتضانها بخفة، احتسيا القهوة معاً، ثم فكرت سلام في شيءٍ مميز، فقالت:

"أريد أن أتنزه قليلاً. ما رأيك أن تأخذني إلى مكانٍ جميل، حبيبي؟"

همهم ينال لها، مُجيباً بغموضٍ:

"وما هي مكافئتي؟"

ابتسمت سلام بخفة، مُجيبةً:

"عندما نعود سأعطيك إياها."

تحدث ينال مرة أخرى، مُصراً على معرفة المزيد:

"أجل، ولكن ما هي؟"

عبست سلام بوجهها، مُشيرةً إلى أن الوقت ليس مناسباً:

"انتهينا، عندما نعود سأعطيك إياها. هيا، أرجوك!"

أنهت جملتها بوجهٍ بريءٍ، كجروٍ صغيرٍ يطلب الحنان. ابتسم ينال باتساع، مُستسلماً لرغبتها:

"كما تأمر أميرتي، هيا، لنغير ثيابنا."

ابتسمت له، ونهضت معه وهي تمشي بخطواتٍ بطيئةٍ، ليغيّرا ثيابهما، ثمّ خرجا من المنزل للتنزه قليلاً.

لقد قضيا أجمل وقتٍ معاً. عادت روح سلام المرحة والجميلة، لكنّ الأمر لم يخلو من بعض المشاحنات بينهما. كان ينال يمازحها ويغيظها عندما ينظر إلى الفتيات، ويُمدحهنّ أمامها. بينما كانت سلام تموت من الغيظ، وقد توعدته بأفظع الأفعال، لكنّها سَتَنفذها في المنزل.

قضيا يومهما بالتنزه والتسوق، جلسا في مطعمٍ فاخر، طلبت سلام كميةً كبيرةً من الطعام والحلوى والآيس كريم، وكثيراً من الأكل اللذيذ. كانت تأكل بنهمٍ، غير مباليةٍ لنظرات العالم التي تناظرها باستغرابٍ وصدمة، بينما كان ينال يُراقبها باستمتاعٍ وابتسامةٍ، ويضحك عليها بين الحين والآخر. حسناً، لقد وعدها بأن هذا اليوم هو يومها، لذلك، كل طلباتها مجابةٌ وأوامر.

انتهيا من طعامهما، ثم خرجا للتسوق. بينما كانا يمشيان، رأت سلام دباً كبيراً في واجهة إحدى المحلات التجارية، فصرخت من سعادتها، وطلبت من ينال أن يشتريه لها. وطبعاً لم يخيب ظنها، واشترى لها الدب على الفور، وحمله لها طيلة الطريق، وهو يتمتم بغيظ، بينما كانت هي تأكل من التسالي التي اشتراها لها أيضاً.

انتهى وقتهما، فعادا إلى المنزل بعد مدةٍ طويلةٍ من التسوق والتنزه. وإلى حد الآن لم تكن والدة ينال قد عادت، لأنها اتصلت به وقالت إنها ستتأخر مع صديقتها. وطبعاً حالما وصلت سلام إلى المنزل، حدثته بدلع:

"حبيبي، لم ننتهي من حسابنا بعد."

نظر إليها بتعجب، مُتسائلاً:

"أي حساب؟"

همهمت له بحاجبٍ مرفوع، وقالت بغيظ:

"ألم تذكر نظراتك للفتيات ومدحك بهن؟ ها ها."

ضحك عليها باستمتاع، مُجيباً بلهجةٍ مُشاكسة:

"بلى أذكر، وأرني ماذا ستفعلين؟"

ابتسمت سلام بمكرٍ، وكأنّها تُخطّطُ لمُزحةٍ جديدة، مُجيبةً:

"حسناً حبيبي، اجلس على الكرسي، هيا."

سحب الكرسي، وجلس عليه بينما غابت سلام لدقائق، ثمّ عادت وبيدها حبلٌ طويلٌ، مما جعل عينان ينال تجحظان من الدهشة، وهو يقول:

"حبيبتي سلام، ماذا ستفعلين؟"

ابتسمت بمكرٍ، مُجيبةً:

"انتظر قليلاً، وستعلم."

ابتلع ينال ريقه بقلقٍ، وهو على علمٍ بأنّ صغيرته المشاكسة ستُفاجئه بأمرٍ غير متوقع. اقتربت منه لتبدأ بلف الحبل حوله، وربطه، ثمّ وضعت شريط لاصق على فمه، بينما كان ينظر إليها بغيظ، وهي تناظره بمكرٍ واستمتاع، وكأنّها طفلةٌ صغيرة تُشاكس أُخاها.

انتهت من ربطه، وقالت بتشفي، ونبرة صوتها مليئة بالبهجة:

"هذا ما سأفعله بك كلما رأيتك تنظر إلى فتاةٍ غيري، وليس بعيداً بأن أقطع نسلك أيضاً، يا عزيزي."

التفتا لسماعهما صوت ضحكات أحدهم، ليجدان سناء أمامهما تضحك بصخبٍ على منظر ابنها، وقد سمعت جملة سلام. بادلتها الضحكة، بينما نظر ينال لهما بغيظٍ بالغ، وأشاح بوجهه عنهما، مُحاولاً إخفاء حرجٍ طفيفٍ يُعاني منه.

مرّ شهرٌ كامل، ولا شيء جديد في حياة أبطالنا، سوى العلاقات الجيدة التي تقدمت للأمام، وخصوصاً بالنسبة لإياد وحياة. لقد عادت حياتهما الطبيعية المليئة بعشقهما وجنونهما، لا يكلان ولا يملان من بعضهما، يعيشان أجمل أيام حياتهما، وبرفقتهما كتلة البراءة والجمال، رهف. كما أنّ سلام تحسن وضعها كثيراً، وأصبحت تمشي بشكلٍ طبيعيٍّ، وقد عادت علاقتها بزوجها كما كانت في أول زواجهما، مما جعل ينال لا يرغب بترك زوجته ولا الخروج من غرفته أيضاً، كما أن حسن قام بدعوة إياد وحياة، وينال وسلام، إلى حفل زفاف شقيقتيه، وقد وعدوه بتلبية الدعوة.

ها قد حلّ يوم الزفاف المنتظر، يومٌ تزينت فيه قلوب ريمة ومها بالسعادة، وحلّت عليهما بمشاعرٍ لا تُوصف. بدت كلٌّ منهما كالبدر في سماءٍ صافية، بفستانها الأبيض الرقيق، وزينتها الخفيفة التي أبرزت جمالها الآخاذ. شعر مهند بكلّ المشاعر الجميلة والمُريحة، وهو لا يصدق أن حبيبة قلبه ريمة ستصبح له وأخيراً، بينما كان طارق في أشدّ سعادته، حيث أنعم الله عليه بأنشراح قلب محبوبته له وموافقتها على أن تكون حلاله وزوجته.

كانت علامات التوتر باديةً على مها من شدة خوفها لأول ليلة زواج، بينما شعرت ريمة بقليلٍ من التوتر، لكنّ مهند كان يُطمئنها، ويهمس لها بكلماته الغزلية الحانية بين الحين والآخر، مما جعلها تطمئن وتشعر بالراحة.

وها قد تمّ عقد القران لكلّ ثنائيٍ تحت التصفيقات الحارة، والتمنيات الطيبة لكلٍّ منهما. وطبعاً لم ننسى حضور إياد وزوجته، وينال وزوجته، الذين كانوا موجودين في الحفل، وقد بدت حياة وسلام بكامل أنوثتهما ورقتها.

توجّهوا جميعاً للرقص، ومن بينهم إياد وحياة، التي كانت تُبتسمُ لزوجها بحب، وهي تُخبّئ له خبراً مُؤكّداً بأنه سيسعده. صدح صوتها الرقيق، قائلةً:

"حبيبي، لدي خبرٌ مفرحٌ لك."

ابتسم لها بحب، ليقول:

"وما هو يا قلب حبيبكِ؟"

ضحكت بخجل، مُجيبةً:

"سيصبح لنا ولدٌ آخر، أنا حامل."

36- الخاتمة

مرت خمس سنوات تبدو كالعمر بأسره، سنوات من الحب الذي يعانق الفؤاد، والعشق الذي يلفظ أنفاس الحنين، سنوات مليئة بالعذاب والضيق، والدموع التي تنهمر كالمطر، والشوق الذي يتغذى على الذكرى، والسعادة التي نادرة الوجود بين شتات الأحزان.

كان حسن شاب حسن الخلق ووسيم الوجه، ينسج أحلامه بين جدران قلبه المعذب. ظل يتخبط بمشاعره كعصفور محلق، سرعان ما عاد إلى قفصه بعد أن عادت حياة ذات يوم إلى حضن زوجها، فرغم أنه عشقها بكل جوارحه، إلا أن الأقدار كانت قد كتبت لها قصة لم يكن هو بطلها. علم في أعماق قلبه أنها الفتاة التي تنبغي أن تحمل لقبه، لكن الأقدار فرضت قانونها القاسي، فحملت هي لقباً آخراً، وعاش هو جرحه بعمق.

تجاوز حسن تلك الشائكة، وتحمل مرارة الفراق، إلى أن تزوج وأنجب ابنه أوس، ذلك الكائن الصغير الذي بعث الأمل من جديد في قلبه، وأعاد له بعضاً من بهاء الحياة. وبعد أن تزوجت شقيقتيه، قاده القدر مجدداً إلى ألمانيا، حيث التقى صدفةً بمنار، ابنة عم ينال. منار التي عانت بدورها من حبها الميؤوس لـ ينال، الذي ظل يحبو بعيداً عن متناول يدها، فقررت أن تدفن مشاعرها في وطن آخر، بعيداً عن ذكرياتها المؤلمة.

سافرت منار إلى ألمانيا لتكمل مشوارها الأكاديمي، في سبيل الحصول على الدكتوراه، وبعد جد واجتهاد، أصبحت اليوم متخصصه في الجراحة، تفخر بإنجازاتها. لم تكن تتمنى لحسن أن يكون شريك حياتها، بل تصارعت مع نفسها

في تقبل ما منحته الحياة. لكن حسن، بصدقه وطيبة قلبه، شجعها وأحبها رغم أن الحب الذي جمع بينهما كان مبنياً على الامتنان أكثر من العشق.

وفي ألمانيا، ووسط الأقدار المُرَّة، اجتمعا وتأزر كل واحد منهما الآخر في ملمات الحياة، وتجاوزا مراراتهما سوياً، وشيدا مستقبل جديد يبعث في قلوبهم الأمل. كانت اللحظات تنساب بسلاسة، كالنهر الهادر الذي يغسل كل أحزانهم.

واليوم، دخل حسن منزله الذي عانق الهدوء، متعجباً من الزينة والأنوار الخافتة التي تكسو المكان. لقد خيمت عليه مشاعر الغموض، ونادى بصوتٍ عالٍ زوجته، لكن الصمت الطاغي كان هو الجواب. تقدم بخطوات مترددة إلى الصالة، وما إن أنيرت الأضواء، حتى اهتزت نفسه لمحيا زوجته، اللامع في ثوبها الأحمر، الذي كان يعكس جمالها الفاتن، وهي تحمل بين ذراعيها ابنهما الصغير.

أشرقت ملامح حسن حين رأى تلك الابتسامة المحملة بالحب، ليعبر عن دهشته:

"ماذا يحدث؟ ماذا عن كل هذه الزينة، عزيزتي؟"

ابتسامة زوجته اتسعت، ولطفت مشاعرها العميقة حين قبلت صغيرها على وجنته قبل أن تضمه برفق إلى الأريكة. تقدمت نحوه كحزمة من أزهار الياسمين، وأحاطته بأذرعها:

"كل سنة وأنت سالم، عزيزي، اليوم هو عيد ميلادك، أليس كذلك؟"

وسرعان ما ابتسم في بلاهة، وكأنه اكتشف سراً لطالما غفل عنه:

"يا إلهي! صدقيني، لقد نسيت!"

ضحكت بخفة كأنها تلقي بزهور الفرح حولهما. ولم يمهلها، فعانق خصرها بحنان:

"لكنني أشعر أن الله قد وهبني زوجةً رائعة، تذكرني دوماً بعيد ميلادي..."

قبلته من وجنتيه بخفة فضحك حسن قائلاً:

"ألا تعلمين أن خير الأمور أوسطها، حبيبتي؟"

هزت رأسها برقة، بينما أسكتت ضحكاتها بقبلة رقيقة على وجنته، أعادت الابتسامة إلى وجهه، ثم همس برفق:

"سنقضي بعض الوقت مع أوس الحبيب، ثم نكمل الليلة بمفردنا، ياحلوة."

استمرت تلك السهرة في رقصٍ وضحكٍ، فرحٌ ومشاعر متداخلة حتى غط الطفل في نوم عميق، كأنما سمع نداء السعادة في أحلامه. انتقل حسن ومنار إلى غرفتهما، حيث بدأت سهرتهما الخاصة، لتكمل تلك اللحظات السعيدة، كعهدهم بالوفاء للوعود وللفرح، مرفرفين بجناحي الحب والاطمئنان..

يسكن مهند وريمة في مملكة من السعادة الباهرة، حيث ينسجان حياتهما بخيوط الحب اللامتناهي، ويشعران مع كل نظرة، وكل لمسة، بأن العشق يجري في عروقهما كأنه نهر عذب لا ينضب. لم يكن مجرد شعور عابر، بل كانت تلك المشاعر تشتعل في قلبيهما كل يوم، غارقة في نهر من الرغبة والحنان. هو يحبس أنفاسه من شدة الوله وهو يتأمل عيونها، تلك العيون التي تشعّ كنجوم الليل، وما زال غير مصدق أنه نال شرف امتلاك قلبها وعشقها.

مرت السنين، وتحقق حلمه في أن تصبح ريمة زوجته، تلك التي لطالما تمنّاها، وها هي الآن بجواره، تضفي على حياته ألواناً من السعادة لم يعرفها من قبل. كان كثيراً ما يجلس في صمته ويتأمل كيف بدأت قصتهما، كيف جمعتهما الأقدار، وكيف كان الفضل لشقيقة زوجته، التي تعجز الكلمات عن شكرها.

تأمل في ليلة البارحة، حيث احتضنتهما السعادة، ولم يملك نفسه حين تذكّر كيف قضاها في أحضانها. لقد كانت بحق أجمل ليلة عاشها على مر الزمان. لكن فجأة، ومن وسط أفكاره الحالمة، انتفض بفزع عندما رأى ريمة تقفز عليه، كعصفور يختار حريته فجأة.

بفزعٍ عابس، أمسك بها وأجلسها برفق على قدميه، وردد من بين شفتيه:

"ريمة، هذه المرة هي المئة التي أذكرك فيها بالهدوء، وألا ترعبيني بهذا الشكل كالبلهاء، حبيبتي."

وتحدّق به بعبوس، حاملة في عينيها توجهاً غاضباً، لكنها لم تستطع أن تخفي ابتسامتها أيضاً:

"أتعني أنني بلهاء؟"

ابتسم بسخرية خفيفة، وتأملها بحب:

"لا، أنتِ لستِ بلهاء، بل جارة أمي، ألم أخبرك أن تبقين هادئة من أجل الطفل."

علت وجهها ابتسامة عريضة، بينما وضعت يدها على بطنها المنتفخة، تداعبها بيدها برقة:

"لا تقلق، لن يحدث لطفلي أي مكروه."

ابتسم بحب عميق، وهو ينظر إليها بقلبٍ مشبع بالمشاعر، قائلاً:

"أعشقكِ أنتِ وطفلنا."

تناثر الضحك الخفيف بينهما، بينما أقبلت ريمة تقرص وجنته برقة مذهلة:

"ألن تذهب معي إلى الطبيبة اليوم؟ سنعلم ما جنس المولود."

أجاب بحب، وعينيه تلمعان:

"بالطبع سأذهب معكِ، حبيبتي."

لكن ذاكرتُه تخلصت من الخيوط بفعل شيءٍ ما، وعقد حاجبيه مفكراً بحيرة: "ولكنك في الشهر الخامس، كيف نستطيع معرفة جنس المولود؟"

نظرت له ببراءة، جوانب وجهها مشحونة بالمرح:

"بلى، لقد أخبرتني الطبيبة بأنني في الشهر الخامس، وأنني أعرف جنس المولود."

حرك رأسه ببطء، مستنكراً، وهو يهمهم بهدوء:

"ظننت أنك تعرفين في الشهر السابع."

هزت رأسها بتحدٍ وهي تضحك:

"أحمق؟"

عندما رأته ينظر إليها بعبوس من جديد، لم يستطع أن يحبس ضحكاته قبل أن يقول بِدعابة:

"ماذا عن ليلة البارحة؟ كانت جميلة، أليس كذلك؟"

ارتسمت خجلاً على وجنتيها، لكنها أعادت القليل من جدّيتها، وهي تنظر إليه: "اصمت يا لك من منحرف!"

تفجرت ضحكاته، مداعباً مشاعرها الهشة:

"يا حبيبة قلبي، نحن متزوجان منذ خمس سنوات، وأنت لا تزالين تخجلين مني!"

أخذت تقلد كلماته بصوتٍ ساخر، بينما هو لا يملك إلا أن يضحك على تصرفاتها العفوية. وبعفويةٍ لم يسبق لها مثيل، طبع قبلة رقيقة على رقبتها، مما جعل خفقان قلبها يشتعل.

"أعلم أنكِ تفهمين ما أريد، لكن سأتركك الآن مؤقتاً... فقط ريثما نعود، ثم سترين ما سأفعله بكِ."

نظرت له بنظرة بريئة، قائلة:

"لكن الطفل سيتأذى!"

هز رأسه نافياً، وهو ينظر إليها بحيلة لطيفة بهمس:

"سأكون هادئاً وجميلاً، ولن أؤذيكما، صدقيني."

لكنها لم تستطع كبح غضبها، نهضت فجأةً، وأطلقت لسانها تتلوى بالشتم بصوتٍ منخفض، بينما انفجر هو بالضحك على خجلها الممزوج بالغضب.

لم تكن رحلة زواجهما خالية من العقبات، فقد عانت ريمة في بداية حياتها الزوجية من مشاكل في الإنجاب، نتيجة لرعبة قد تعرضت لها في طفولتها، وكان مهند هو السند الذي لا ينهار. لم يكن فكره في الانجاب يفصل بينهما، بل كان يرافقها مع كل زيارة للطبيبة، يدعمها بوجوده، وبحضوره الذي كان يمكن أن يُشعرها بالأمان.

لكنهما، وبفضل قوة الإيمان والصبر، بُشّرا بالطفل المنشود في حياة ريمة، وكأن الله قد استجاب لدعواتهم وأمانيهم. شعر مهند كما لو عاد به الزمن إلى اللحظة التي تلقى فيه خبر قبول ريمة به كزوج، فرحة تعمق حبه لها وتثبت العلاقة. ومع كل صعوبة، كان دوماً هو من يسعى لمصالحتها، حتى ولو كانت هي المخطئة. كانت اللحظات العابرة تُعيد لهم الذكريات وتؤكد راسخةً أن الحب أقوى من كل تحديات الحياة.

وهكذا، استمرا في نسج أحلامهما، يحتفلان باستمرار بفرحتهما، وأشواقهما، ويؤمنان بأن كل ما مرا به لن يغير في حبهما بل سيكون دوماً طوق نجاة في بحر الحياة المتلاطم بالمشاعر والأحداث.

كانت حياة طارق ومها تنبض بالهدوء والسكينة، مغطاةً بوشاحٍ من العشق والجنون السرمدي. كان طارق يُحسن معاملة مها، يُقدّر رغباتها كأثمن الجواهر، ولا يزعجها كما يفعل العديد. كانا يتفاهمان بلغةٍ عذبة، تحكي تفاصيل أيامهما المليئة باللحظات السعيدة والتحديات القليلة التي لا تكاد تذكر. وكأن الحياة تكتب قصتهما، تارةً تُدخل فيهما مشاحناتٍ طفيفة، لكن روحهما تنجح دائماً في استعادة التناغم.

عندما يغضب طارق، لا ترفع مها صوتها، بل تصمت ذلك الصمت الذي يُخفي وراءه عاصفة من المشاعر. كانت تحفظ كل تفاصيله في قلبها، حتى أدقها، ولا تسمح لنفسها بالرد عليه. فقد اعتادت على هدوء طارق، ذلك الرجل الذي تحسّ بضعفٍ عميق عندما يُشعرها أسراره عبر نظرات عينيةٍ تصف الفراق والحنين. كانت تعهد له بأن تكون له السند في كل المواقف، وعندما يشتعل بركان غضبه، تدع له الوقت ليهدأ، ثم تتودد إليه بروحٍ تحمل كل حبها، تكتفي بمعاتبته بلطفٍ بينما هو، بكلمات من أسف وندم، يُغلق فصول العتاب برائعة من العشق.

في يومٍ من الأيام، زل لسانه فجُرحت كبرياءها بكلماتٍ قاسية، وليس كما اعتاد. لقد كانت تلك اللحظة بمثابة يقظة مأساوية للروح، فقد دام تجاهلها له ثلاثة أيام، عاقبت قلبه المتعطش بحسابٍ قاسٍ، مما زاد من عذابه وحنينه. كان لا يُصدق نفسه كيف رضي بعلته، وكيف عادت إليه كأن شيئاً لم يكن، تعود لتهمس في أذنه برقةٍ تذيب قلبه. لقد عشقها في كل حالاتها، بل حتى في حزنها، لأنها دائماً ما تُعيد له طاقته التي يمنحها لها بكل ما أوتي من قوة.

في تلك اللحظة الساكنة، جلست مها في صالة منزلهم العابق بحبٍ ودفء، تحتضن صغيرتها "ليان"، تلك الفتاة البريئة ذات الثلاث سنوات، التي تشبه والدتها في كُنهها وملامحها الهادئة. كانت تتأمل ألبوم ذكرياتهما، تبتسم بذكاءٍ لكل صورة تمر في عقلها، كل صورة تحكي قصة، وكل قصة تُجسد لحظة من الحب. كانت ليان تلعب بلطفٍ بالصور، تضحك عندما ترى والدها ووالدتها، ما يضفي على المكان روح الفرح.

فجأة، دخل طارق بابتسامة تُشرق كأشعة الشمس، وتقدّم نحو مها ليحتضنها برفق، كأنما يُريد أن يُعوضها عن كل لحظةٍ مرت في غيابه. ثم ابتعد قليلاً ليميل نحو ليان، تلك الملاك الصغير، مُطلقاً قبلةً على وجنتها تُعبر عن محبةٍ لا تعرف الحدود. ولما جلس بينهما، نظرت مها إليه وهي تعاتبه بلهجة هادئة، تفوح منها رائحة العتاب المحبب:

"حبيبي، لقد تأخرت كثيراً عن موعد الغداء، هل كل شيءٍ على ما يُرام؟"

ابتسم لها بخفة، تلك البسمة التي تُعبر عن كل ما يحمل من مشاعر، طبع قبلة على يدها واستطرد قائلاً:

"أجل، حبيبتي، ولكنني أُجبرت على التأخير بسبب اجتماعٍ مع المسؤولين لمناقشة أمور الطلاب..."

تبادلوا نظرات المحبة، ولم يسعها إلا أن تُرسم ابتسامة على شفتاها، بينما سألها:

"وكيف حال والدكِ؟ هل أصبح بخير؟"

نظرت إليه برضا، ودونت في قلبها أن لا شيء يسعدها أكثر من رؤية طارق يهتم بعائلتها، فحركت رأسها بإيجاب، فرددت بصوتٍ مفعم بالهدوء:

"أجل، الحمد لله، أصبح بخير وبأحسن حال."

ومضى الوقت سريعاً حتى اجتمعوا على مائدة الطعام، حيث كانت عيونهم تلمع بالألفة والسعادة. جلست بجانب طارق، وضعت صغيرتها في حضنها، ليُمسك طارق يد ليان ويقبل كفها برقة كأنه يتلذذ بنعمة الأبوة. تلفتت إليه مها

برقة، وشغف، بينما كانت تضع الطعام في طبقه، لتُزيد من شغفهم وتبث في قلوبهم الشغف من جديد. كانت لحظاتهم المليئة بالمشاغبات كفيلة بنسيان مشاحناتهم الصغيرة.

نظرت إليه بخجل، فانحرفت بوجهها بعيداً عنه كأنها تحاول إخفاء لهيب مشاعرها المتقدة. استخدمت يديها لتغذي ابنتها، بينما تجرعت هي بضع لقيمات كادت ترفضها أمام الهيبة التي انتابتها. كان طارق، يمازحها على مائدة الطعام، وكان لهذا المزاح حلاوة لا تُقاوم فاقت حلاوة الأطباق. كان شعورها بالخجل قد بلغ ذروته حين بدأ يتلمس جسدها، وكاد يُسمع دقات قلبها كأجراس تدق في فضاءٍ صامت. شهقت بقوة، ناهضةً من غفوة الاستسلام، لتلتقي عينيها به، مُستغربةً، بينما كاد يحبس ضحكته القلبية بين شفتيه.

"ما الذي تفعله، طارق؟ طفلتنا بيننا، يا رجل!"

همست بتوتر، بينما تسربت كلماتها كنسمة هواء مُختنقة.

جاء ضحكه كشلال متدفق، إلا أنه لم يُعلق على كلماتها، بل اكتفى بإيماءةٍ تُشير إلى توعدٍ لا يمكن إنكاره.

وما لبثت أن انتهى غذائهم، نهضت مها كنسمة عابرة، مصممة على غسل الصحون، بينما طارق أخذ بيد ابنته الصغيرة نحو غرفتها ليُغطّيها بحجاب النوم، عازماً على جعلها تأخذ قيلولة هانئة، في حين يحاول قتل الوقت بطرق خاصة مع والدتها.

تنفس طارق الصعداء برفقة هذه اللحظة من الهدوء، ثم نهض متوجهاً إلى الصالة، فوجد مها غارقة في شاشة التلفاز بعدما أتمت مهمتها في غسل الصحون. نظر إليها بعينين تملؤهما المكائد، ثم اقترب منها بخطوات سريعة وأخذها في أحضانه. بدأت تتخبط في احتضانه، تتلوى بدلالٍ يشبه رقصات الأمل. عجز طارق في تلك اللحظة عن مدافعة إعجابه، فقد خارت قواه أمام جمالها وفتنتها، وكأنها بدلاً من أن تكون مجرد امرأة أمامه، أصبحت سحراً يتدفق في عروقه.

أخذ يتأمل وجهها بطريقة مُبهمة، همس بصوتٍ خافتٍ كأنما يعدها بشيء يحمل في طياته جنون الحياة:

"سأحرق كل خلية في جسدكِ، جميلتي."

توردت وجنتاها كأزهار الربيع التي تبتسم لها شمس الصباح. عندها، احتضنها بين ذراعيه، مُصطحباً إياها إلى غرفة النوم، حيث تنفصل عن عالمهم الخارجي، لتدخل في رحلة خاصة بهما وحدهما. كان هناك في تلك المساحة الخاصة، عالماً يسكنه الحلم والحنان، حيث أراد طارق وزوجته أن يحتفلا بمشاعرهم، ويلتقطا كل لحظة طريقة دافئة كالعناق الذي يربط بين قلبيهما.

يحيط ينال بسحرٍ من نوع خاص، ذلك العاشق الولهان الذي تراقصت أحلامه بألوان الطيف السبعة؛ فحياته، منذ لقائه بسلام، تزينت بأشعة السعادة والجمال. لم يكن ليصدق أن كل هذا الجمال، بكل ما يضج به من عواطف، قد

منح له ولعالمه الخاص. فقد كان يحلم بوجودها قربه، ويدعوا أن يحمل قلبها بين ذراعيه، وتمنّى أن تصبح زوجته منذ أن كانت تلك الفتاة الصغيرة بملامحها الطفولية الساكنة في ذاكرته.

ومع مرور الزمن، تحقق حلمه بعد صبرٍ طويلٍ، ليصبح واقعاً تخفق له قلوب العاشقين؛ كان كل ما يحمله في صدره هو الرغبة في إسعادها، وفي رسم الابتسامة على وجهها كزهرة تتفتح في فصل الربيع. كان يجلس في لحظات صفاء، يتأمل تفاصيل ملامحها؛ يتفرس في عينيها اللامعتين وكأنهما مرآتان تعكسان عمق روحه، ويستعيد في ذاكرته ذكريات الطفولة التي عاشها برفقتها، حيث كانت براءتها تقطّع صمت الأيام وتجعل لكل لحظة نكهتها الخاصة.

حين تتسلل إلى ذهنه ذكرياته معها، تصطف الابتسامة على شفتيه وكأنها شمس تشرق في أفق حياته؛ ففكرة أنها أصبحت زوجته، وتحمل اسم عائلته، تمنحه شعوراً لا يوصف بقيمة الحب وعمق الارتباط. يعاملها بوداعة كالأرض التي تحتفظ بماء المطر، فإذا نُسِبت إليها جميع الأمنيات والأحلام، جفت أوجاعه وكأنها لم تكن. فهي التي تقدّسه، وتجعل من قلبه ملاذاً آمناً حيث يسرد لها خفايا الروح وكأنها قمر يعكس سحر لياليه.

في ذلك المنزل الدافئ، كانت سلام تعد العجائب، هي ابنتيها الصغيرتان، حلا وهلا، التوأم اللتان لم تتجاوزا الأربع سنوات. كم كان ينال سعيداً بفكرة كونه والداً لهاتين الفتاتين، وكم كانت سعادته تتضاعف حين اكتشفت سلام أنها حامل بعد زفاف ريمة ومها. كانت الفرحة تحملها الأجواء، وتراقص الجميع في حفل احتفالي مبهج؛ فوالدة ينال لم تستطع احتواء فرحتها حين علمت بأنها ستصبح جدة، وهي تفيض من دموع السعادة التي لم تتوقف.

أحيانا عندما يحين الوقت لرحلة تنزه واستجمام مع عائلته، كان ينال يختار أن يبقى بجوار سلام وبناته. كيف يسمح لنفسه بتركهن بعيداً عنه؟ الفكرة كانت مستحيلة! فلا يدري كيف سيمضي سبع ساعات بلا أنفاسها تجاور أنفاسه، أو كيف سيحيا تلك اللحظات دون أن يحتضن عذرية براءتهن.

تضحك سلام داخلياً عندما يخطئ في تمييز ابنته؛ فحلا وهلا هما انعكاسات لشخصيتها، حيث تحاكيانها بضحكاتهما وشقاواتهما. وكأنما قد أُشبعت روحها بمرآة تحاكي كل جزءٍ منها، مما يزيد من عشق ينال ويُغذي شغفه. فهو العاشق الذي يسافر بخياله بين الورد والأشواك، مُتسلحاً بحب لا نهاية له، يحيك تفاصيل حياته بلمسة من سحر وجودهن.

كان ينال يستغرق في الحياة اليومية، يتنقل بين هموم العمل وحنان العائلة، لكنه كان دائماً يخطئ بين ابنتيه. ينادي على حلا بـ "هلا"، وينادي على هلا بـ "حلا"، مُتحيراً بين ملامحهما المتشابهة والضحكة المتألقة التي تملأ المنزل. لكن تلك الأخطاء لم تكن إلا مدعاة لضحك سلام، .

ومع ذلك، لم تخلُ تلك الضحكات من جزاء خاص، وهو ما يناله زوجها في خصوصية غرفتهما بعد تلك النوبات من الضحك. ولكن دعوني أعود قليلاً، فسلام قد استلمت شركة والدها القديمة، وعادت إلى الحياة العملية بعد استعادة عافيتها. لقد سعت بإخلاص لتحقيق وعدها لوالديها، وكأن روح الإصرار والتنفيذ تظهر في كل خطوة تأخذها نحو النجاح.

مع ذلك، ولدت بناتها التوأم بعد وقتٍ قصير من التأمل في الانتعاش المهني، وكان ينال، بحذرٍ بالغ، يُفضل أن تبقى سلام بعيدة عن العمل في هذه المرحلة الحاسمة. كانت الشركة تتطلب جهداً مضنياً، ولهذا السبب طلب منها أن تشعر بالراحة حتى تضع حملها. ومع مرور الوقت، قررت أن تُبقي على توازن دقيق بين عملها ورعاية أبنائها، بدعم من والدة زوجها التي كانت كالأمل في عينيها.

وفي إحدى اللحظات الساحرة، كانت سلام تُبدع جنونها بطريقتها الخاصة. ارتدت قميصاً حريرياً داكن اللون، بحمالاتٍ رقيقة، ولفّت ابنتيها الصغيرتين بنفس اللون. وكان المشهد ولا أجمل: ثلاثتهم يقفزن على السرير، يجمعهم ضحكٌ حقيقي ويملأ قلوبهم فرحاً حقيقياً. وفي تلك اللحظة، دخل ينال إلى الغرفة، ليجد نفسه أمام مشهد يُذهله، بفكه الذي كاد يلامس الأرض من هول ما رآه.

لكم كان قلبه يرفرف، مع معرفة كم أن زوجته مجنونة، إذ أن جنونها في هذه اللحظة قد تجاوز كل حدود المعروف. لم يتمالك نفسه من الضحك، فكلما نظر إليهن زادت بهجة روحه. التفتت إليه سلام، بنظرة تتضمن كل شيئ من الفرح، ثم صاحت بأعلى صوتها:

"هييي، يا فتيات، لقد أتى بابا، هيا تعاليا!"

وما هي إلا لحظات حتى انطلقت الفتاتان نحوه كالعصافير في الصباح، يصيحان في تجاويف المكان:

"هيييي، باباااا!"

كانت القفزات تتبادلهن، وعندما قفزت سلام برفقتهم نحو ينال، ضحك بأعلى صوته حتى كادت الغرفة تهتز في نغمات البهجة.

احتضن عائلته الصغيرة، يُوزع القبلات بينهن كأنه يوزع أزهاراً، فأعطى كل واحدةٍ منهن نصيبها، لكن كانت طريقة احتضانه لسلام مختلفة، مميزة، تُعبّر عن عمق مشاعر الحب والإحترام. وقد انتقل بهم إلى الصالة، وعيناه تلمعان بنظرات دافئة، متأملاً تلك الألوان المتلألئة التي ارتدتها سلام وبناته في تناغم واستسلام استثنائي.

ضحك ضحكة رنانة، تأملها بفضول وسعادة، ثم جذبها نحو حضنه مُندهشاً:

"ما الذي فعلتيه بالفتيات؟ لقد جننتن بالكامل!"

أجابته سلام بدلالٍ وجاذبية حيوية، مثل نسمة من الهواء المنعش:

"أجل حبيبي، أنا وفتياتي اتفقنا على ارتداء نفس اللون من أجل رجلنا وسندنا، أليس كذلك يا فتيات؟"

لترد الفتاتان معاً في لحظة سعادة متناسقة، تصرخان ببراءة:

"أجل مامي!"

في أجواء تطغى عليها براءة الطفولة، خيمت ضحكات يشبه ترديد الألحان، حينما نطقت حلا، الفتاة الصغيرة ذات الشعر الأسود المتموج، بكلمة "الفتيات". كان الضحك يتناغم مع تردد صدى كلمتها في أركان الغرفة، إذ تقدمت نحو والدها، بابتسامة مفعمة بالأمل والتوقعات، وطبعَت قبلةً رقيقة على وجنته، مشعلةً شرارة البهجة في قلبه:

"بابا، نريد أن نذهب إلى الملاهي يوم العطلة"

قالتها بحيوية طفولية تلونت بها كلماتها، وعيونها تلمع كنجوم في سماء حالكة.

ابتسم ينال، بمزيج من الحنان والفخر، وقال بلطف:

"حسناً، عزيزتي هلا، سآخذكن في يوم العطلة إلى حيث تشئن".

لكن في لمحةٍ سريعة، عبست حلا، مما أثار استغراب ينال الذي أطلق تساؤلاً عابراً:

"ما بكِ، صغيرتي؟".

ضمّت حلا ذراعيها إلى صدرها، وعبر وجهها الصغير حذرٌ وألم واضحان، حيث تطابقت ملامحها مع ملامح أختها هلا التي كانت تعكس نفس المشاعر، وظلت سلام، تكتم ضحكتها بلطف، لكن حلا بدأت ترفع صوتها شيئاً فشيئاً، كأنها تعبر عن ثورة براءتها:

"بابا، أنا حلا! حلاا! ولست هلا! يا إلهي، كم مرة سأعيد كلامي؟ أوووف! سأمت منكم جميعاً!".

انتهت كلماتها بصراخ ملأ المكان وأيدٍ تلوح في الهواء، مما جعل ضحكات ينال وزوجته، تعلو في الفضاء، تتسابق مع صدى الغرفة فتتهادى كأمواج بحرٍ ضاحك. بينما هلا، التي اعتادت على هذه الهجمات الغاضبة، كانت تراقب الموقف بإبهامها الصغير في فمها، تلونت ابتسامتها بالألفة والنقاء.

حمل ينال ابنته حلا بين ذراعيه مبتسماً فاشتعلت ضحكاته كشرارات من نار، ثم اقترب من هلا، عانقها بحب، وقال:

"حسناً، أنا آسف، هذه هلا، وأنتِ حلا، اتفقنا؟"

أشار إلى كل واحدة باسمها، لكن حلا، كعصفور صغير يعبر عن حرية صوته، عارضته قائلة:

"لا! أنا حلا وهذه هلا!"

عادت ضحكة أبيها لتعلو، وكأنها تعزف لحن سعادتها، وقال:

"أيتها الصغيرة البلهاء، وما الفرق؟"

نظرت إليه بحنق، ومن عينيها انطفأت بقايا استياءٍ، ثم أجابت بكلمات تفيض براءة:

"الفرق هو أنك قلت اسم هلا أولاً، يا سيد بابا!"

هنا كانت ضحكة ينال تتكرر كأنها صدى خافت، بينما تحمل قلبه حباً جارفاً، نطق بين ضحكاته:

"حسناً، كما تشائين، أنتِ حلا وهذه هلا"

ابتسمت حلا بابتسامة عريضة، وجعلت عيناها تتلألأ كنجوم تتلألأ في سماء هادئة، بينما عبست هلا بوجهها الصغير، وكأن عبوسها يجسد سحابة غيم في ذلك الفضاء المشمس. لم يفت الأمر على ينال، الذي نفخ خديه كمن يحاول معالجة موقف مربك، ثم قال بصوتٍ عالٍ يتسم بالمزاح:

"يا إلهي، ماذا أفعل الآن؟ حسناً، أنتِ هلا، وهذه حلا"

صرخت حلا بغيظ وعناد كفراشة موجعة، تغار بشدة وهي تفتخر بقوتها أكثر من أختها هلا. احتل الخوف وجه ينال من صراخها المفاجئ، لكنه لم يكن في وسعه سوى التظاهر بالجدية. عندها تدخلت سلام، الأم الرقيقة المنسوجة من خيوط المرح، لتقول بمرح:

"حسناً، حسناً، يافتيات. أنا ماما سلام وهذا بابا ينال، وأنتِ حبيبتي حلا، وهذه حياتي هلا، هيييي!"

أنهت جملتها بصرخة محملة بالبهجة، مما جعل قلب الفتيات ينبض بالسرور، واحتفلن بضحكاتهن بينما يصفقن مع والدتهن المجنونة، كأنهن يُؤلفن لحناً يملأ أرجاء الغرفة بالحياة والفطنة.

بينما كان ينال يراقب ذلك المشهد الأنيق، لم يستطيع إلا أن يضحك من تصرفاتهن الطفولية التي تملأ المكان بالحب والنور. تنهد بعمق، وقد تنفس السعادة، ونظر إلى سلام التي كان يتألق فيها نضار جديد، فغمز لها، لكن سلام، برومانسية مفاجئة وغرورٍ ساخر، أشاحت بوجهها عنه وبدأت تلعب بخصلات شعرها الأسود الحريري كأنما تسرد قصة غير مُعلنة.

حاول ينال التعجب من تصرفاتها، لكنه كان يُعاني من غيظ مُلّح، فما كان من سلام إلا أن نظرت له من طرف عينها مبتسمة بمكرٍ يلُفها الغموض، فعاد إليها بنظرة بريئة تتوهج فيها مشاعر الحب، وتردد له همسة ناعمة في أذنه:

"حبيبي، في المساء، صدقني سأجعلك بأعلى مراحل سعادتك"

عضّ على شفته السفلى، وكأنه يخبئ سراً خطيراً، ثم رد بخبث:

"أعشق جرأتكِ، يافتاتي"

انفجرت ضحكاتها في الفضاء، وكأنما كانت تزرع الأمل والقوة في قلوب الحاضرين. انضمت الفتيات إلى والدتهما بفرح مما جعل المجلس يفيض بتلك الضحكات المُبتهجة، رغم أنهن لم يكن يدركن سبب الضحك، لكن كأن هذا الفرح جزء من نسيج عائلي حميم.

احتضنهن ينال بحب، وكأن قلبه ينفجر من الفرح ليدرك أنه قد رُزق بثلاث فتيات صغار، لا صغيرتان فقط، بل كواكب مضيئة تنير سماء حياته. كانت اللحظة تعكس جمال الحياة برمتها؛ عواطف تتدفق كالنهر، وضحكات تنشر الفرح كحبات الندى على ورق الشجر، لتترك أصداء حبٍ عائلي عميق، كما لو أن كل ضحكة كانت تكتب فصلاً جديداً في قصتهم المشتركة.

في المساء العابق بالتوقعات، اختارت سلام أن تنفتح على ألوان الليل. ارتدت منامة قصيرة تتلألأ بلونها الأسود كظلامٍ حالك يكتنفه النور الخافت، بينما كانت لمسات المساحيق الخفيفة تبرز جمال ملامحها، وتضفي على شفتيها لوناً صارخاً يجذب الأعين. وفي تلك اللحظة، دخل ينال، كالعاصفة الهادئة، ليكتشف بوضوح تلك الكتلة من الإثارة التي تقف أمامه. عضّ على شفته السفلى، محاولاً إخفاء تأثير المشهد عليه، لكنه لم يتمكن من مقاومة الانجذاب نحوها.

اقترب منها بخطوات وثيقة، كأنه يلملم شتات نفسه، واحتضنها بقوة، مستنشقاً عبير عطرها الذي يعانق عقله وينقله إلى عوالم أخرى. التفت يداها الناعمتان حول رقبته، ونظراتهما تطوف بفراشة الحب التي ترفرف في قلوبهما. التصق جبينه بجبينها، وهمس برفق:

"أعشقكِ يا أميرتي"

ضحكت بدلال، وكأن ضحكتها تعزف لحناً خاصاً بينهما. لكن فجأة، اجتاحت عينيها لمحة من الجدية؛ كأنما تذكرت شيئاً مهماً. فقالت بنبرةٍ مشوقة:

"حبيبي، أريد أن أذهب إلى حياة غداً، وسإخذ معي حلا وهلا، طبعاً"

همهم ينال بهدوء، محاولاً الاحتفاظ بجو من المرح:

"حسناً حبيبتي، لكنني لن أعطيكِ جوابي إلا بعدما ننتهي من ليلتنا هذه لأرى قدراتكِ ووعدكِ لي، ولنرى إن كنت ستستطيعين إقناعي أم لا"

لمعت عينا سلام بحاجب مرفوع ومكرٍ لطيف، فتحت مقابلته همساً مغازلاً: "حسناً، يا سيد ينال، سأريك من هي سلام"

وبحركة رشيقة، ابتعدت قليلاً عنه، ثم دفعت به برفق إلى الوراء ليسقط على السرير. نظر لها بصدمة، وكأن واقع اللحظة قد اختلسه، لكن لم يُعطى له الوقت الكافي للانشغال بردة فعله، إذ سرعان ما امتلكت شفتيه بقبلة عميقة وشغوفة أذابت كل ملامح الجدية. لم يكن له إلا أن ينغمس في لحظة نشوة جعلته يذوب معها، ويهمهم باستمتاع.

تذكّر كيف وعدته بأنها ستوصله إلى أعلى درجات سعادته، وها هو الآن يغدو أسير تلك اللحظة السحرية. لقد تحداها، أراد أن يرى إن كانت قادرة على إقناعه، ولم يكن ذلك أمراً صعباً عليها. كانت تمتلك قدرات كافية تجعل كلاً منهما يطير من السعادة، تلك السعادة المشحونة بالحب، التي تلون السرير بألوان الذكريات الجميلة، لتشهد على عشقهم الذي ينبض بالحياة.

إياد وحياة

ما أكثر العجائب في حب إياد وحياة!

حياة، تلك الفتاة التي تبلل قلبها بحب إياد حتى أن رشفة عشق واحدة منه تكفي لتغمرها في أحلامٍ وردية. لكل منهما عالم خاص، عالمٌ يمزج بين الرغبات المتأججة والحنين الجارف. كانت تلقي بنفسها في حضنه كل ليلة، وكأنها تبحث عن مرفأ آمن في عاصفة الحياة، وهو بدوره، كان يروي لها حكايات العشق بعباراتٍ مسكرة تُذيب كل مخاوفها.

تقدس حياة كل تفصيلة من تفاصيل شخصه، تتحمل مزاجه وتصرفاته الغريبة كما لو كانت هي المُلاك الحارس الذي يحميه من عواصف الحياة. وبدوره، كان يراها كالتاج الذي يزين مساره، يحب في عينيها بريق الحكايات وكأنها تعكس له دنيا كاملة من الشغف والمغامرة. يهوى ضحكتها، تلك الضحكة التي ترسم في وجهها حفرتين صغيرتين، كأنهما علامتان للحب العميق الذي يسكن قلبه.

ليس غريباً أن يجذب كل منهما الآخر كالمغناطيس، ولكن المحن والتجارب كانت تحاول التفريق بينهما. لقد افترقا لفترة، ولكن عقله كان مثقلاً بغيابها، وكأن ظلاماً قد غمر حياته التي كانت مشبعة بالأمل عندما كانت بجانبه. حدثت تلك الهزات حتى كان عليه الاعتراف بصوتٍ خافت:

"هيا بنا نعود دوماً لبعضنا".

الآن، عشر ليالٍ قد مرّوا منذ أن سافر إلى كندا للبحث عن عمله، في تلك الليلة الحزينة حيث نامت حياة عارية من حضنه، وهي واقفة في شرفتها، كان قلبها يشتعل شوقاً له، وكأن كل لحظة تمر بدون حضن إياد تعادل دهراً من الفراق. "كم أحتاجك يا إياد"

همست لنفسها، وتنتظر العودة.

وفي تلك الأثناء، رن هاتفها كأنه ينبهها للحياة من جديد، ليظهر على الشاشة اسم إياد. امتلأ قلبها بالسعادة وكأن العام قد عاد ليصبح ربيعاً:

"اشتقت لك"

نطقت بها شفاهها بلهفة تملأ الفراغ الذي تركه، وكان صوته المشوق ينطلق عبر الهاتف، مناجياً إياها:

"لكن اشتياقي لك، يا روحي، لا يضاهيه شيء".

ضحكت برقة، كما لو كانت الموسيقى تعزف في خلفية كلماتهم، وأجابت:

"متى ستعود؟ قلبي يشتاق لك بحجم السماء، والنهار لا يُشعرني إلا بالفراغ"

تنهد إياد، وأفكاره كانت تتراقص كأمواج البحر، في محاولة للتخفيف من وطأة البعد الذي يفصل بين قلبين متعانقين. ليجيب:

"لا أدري، يبدو أني مضطر للبقاء هنا في كندا لشهر كامل. تلك الصفقة مهمة للغاية، وتحمل الكثير من العمل، حبيبتي"

تدحرجت دمعة حارة على خد حياة، كأنها تعكس حجم الشوق والألم الذي يعتصر قلبها. بكلماتها التي كان فيها نبرة قلق، قالت:

"ولكنني أفتقدك بشدة، والأولاد أيضاً يحتاجونك. كيف يمكن أن تغيب عنّا شهراً كاملاً؟"

كبت ضحكته التي تعضه من الداخل، عضّ على شفته السفلى ثم تابع بحذر:

"حبيبتي، اصبري قليلاً، لن يطول غيابي، صدقيني"

أحست حياة بثقل تلك الكلمات، لكن قلبها المكسور استجاب برغبة اليأس وقالت:

"حسناً حبيبي، كما تريد... سأنتظرك"

ابتسم إياد بخفة تشبه نسمات الربيع التي تبعث الحياة في كل شيء، ثم همس بنبرة تحمل عبق الألفة:

"ماذا ترتدين الآن، أيتها الحمامة؟"

ابتسامة خجولة تعلقت على وجه حياة، بينما اتخذت نبرة براءة، لتجيب: "أرتدي منامة قصيرة باللون الأحمر، فالجو حار للغاية، حبيبي"

تسربت لهجة الشغف إلى قلبه، وهو همهم بإغراء:

"كم أتمنى أن أحتفل بليلة رائعة معكِ يا قلبي"

ضحكت برقة، تحمل كل معاني الدلال، وأجابت بلهجة مغرية:

"عُد سريعاً وستجد نفسك أسعد رجل في الدنيا، صدقني"

كان حديثها كبلسمٍ لجروحه، لكنه في الوقت نفسه كان يمزق نفسه بشغف لا يُطاق. فقد كانت تلك الكلمة، كتلك الشرارة التي تشعل ناراً داخل صدره، زفر تنهيدة حارة، وكأن أغنية حب قد انطلقت من قلبه، ليقول بغضبٍ مكتوم: "حياة، سأعود بسرعة، وعندها لن أرحمكِ، لن أترك لك مجال للراحة، فسنمارس أفعال العشق حتى شمس الصباح"

ضجت ضحكتها العالية، كأنها تتحدى حدود البعد وغياب الجسد، مما أوجب عاصفة من الغضب الخفيف داخل إياد:

"يا إلهي، ما أفعل بك! أنت تُذوبيني بضحكاتك ودلالك وصوتك الذي يشتعل في صدري"

تنهد بحنقٍ مزيف، وهو يحاول الحفاظ على جدية ملامح وجهه، لكنه لم يستطع إخفاء لهفة العشق:

"حياة، اذهبي الآن، وعندما أعود، سيكون لنا حساب كبير لنُصفّيه. اتفقنا، ولكن أتعلمين، أنتِ فتنة يا امرأة"

ضحكت حياة مجدداً على كلماته الغاضبة، وكأن ضحكتها كانت تعزف لحناً خاصاً يخفف من وطأة المشاعر المكبوتة في قلبها. قالت، وهي تُخفي خلف صوتها لمسة من الدلال:

"حسناً حبيبي، اهدأ. سأذهب، يا روحي، سأذهب، لكن انتبه إلى نفسك، أتفقنا؟"

همهم إياد بكلمات مليئة بالغيظ وكأن كلماتها هي التي تُشعل نيران غضبه، وهو يحاول التمسك بهدوئه:

"حسناً، حسناً، وأنتِ انتبهي إلى نفسكِ جيداً وإلى الأولاد. إلى اللقاء"

استمرت ضحكاتها في خفتها، وهي تدري جيداً أنه لم يعد يحتمل مكالمتها. ودعته بلطف، ثم أغلقت الهاتف وتنفست بعمق، ترسم ابتسامة على وجهها بينما تتجه نحو غرف أطفالها. كان ذلك البيت مليئاً بالحب، وواجهتها تفاصيل حياتها اليومية التي كانت كل زاوية منه تذكرها بالشغف الذي يملك قلبها.

أما إياد، ذلك العاشق الذي تعالت أنفاسه عند إغلاق الهاتف، فزفر زفرة قوية كأنما يُخرج بها كل هموم الغربة والمشاعر المتناقضة. جمود وجع قاسٍ لم يدم طويلًا، سرعان ما استبدلته ابتسامة مختبئة. غداً سيعود إلى وطنه،

حيث الشغف ينمو وكأن الأرض تثمر حبه بين ثنايا الهزات. سيعود لرؤية من أنارت حياته، وتملك قلبه بجمالها، وسيرى أولاده الذين هم بستان أحلامه، اشتاق لهم بحجم الكون، هما ووالدتهم التي لا تُقدّر.

لقد كذب عليها حين ادعى أنه لن يعود إلا بعد شهر تقريباً، لكنه لم يستطع مقاومة الرغبة في مفاجأتها. كان يعرف أن المفاجآت السعيدة ستضيء وجهها الذي يشرق كلما رآه. هذه الفكرة جعلت قلبه يرتعش فرحاً. صبره فقط كان يحتاج إلى يومٍ واحد، فقط ساعات تفصل بينه وبين عناقها.

أصبح لدى إياد وحياة عائلة صغيرة جميلة، رهف، ابنتها ذات الست سنوات، التي تشبه أمها في رقتها وجمالها، ومُراد، ابنهم الصغير ذو الأربع سنوات، الذي ورث ملامح إياد، كانت رهف تتعلّم في مدرسةٍ قريبةٍ من المنزل، تُزهرُ أيامها ببراءةٍ وفرحٍ، بينما كان مُراد يُشبه النّور الصغير الذي يملأ بيتهم بالضحكات والحيوية.

عادت سمر، والدة حياة، لتُحطّ رحالها على عتبة بيتهم. لم تكن سمر نفسها، بل كانت امرأةً جديدة، تُحاط بأخلاقٍ جديدة، ومظهرٍ مُختلفٍ تماماً.

كان وجهها يُشعّ بالهدوء والخشوع، فكانت قد لبست الحجاب، واختفت تلك النظرات المُجرّحة التي كانت تُرافقها في السابق. كانت سمر خائفةً من ردّة فعل إياد، فخشيت أن يُطردها عندما تذهب لترى ابنتها التي اشتاقت لها بشدّة، وشعرت بالذنب تجاهها، والحسرة التي أكلتها لأنّها طوال تلك السنوات لم يسأل عنها أحدٌ في السجن.

ذهبت إلى ابنتها، واندهشت حياة من وجودها، لكنّها لم تستطع مُقاومة اشتياقها لها، فترتمّي في أحضانها فوراً. لم يُرد إياد أن يُحزن زوجته ويُطرد والدتها، خاصةً بعد أن لاحظ عليها تغيرها الكبير.

كانت سمر قد أصبحت محتشمةً، وكأنّ الله قد تاب عليها من بعد ما ارتدعت عن طريق الفواحش والذنوب. شعرت سمر بسعادةٍ لا تُوصف عندما رأت حفيديها الصغيرين، ودموعها أخذت مجراها على وجنتها، وهي تتمتم بكلماتٍ شكرٍ لله لأنّه قد أنعم عليها، ووهبها هذه اللحظة برؤية أحفادها وابنتها.

في ذلك اليوم، ظلت سمر طوال الوقت عند ابنتها، ولم يعارض إياد أبداً، بل طلب منها أن تبقى عندهم، لكنّها أبت ذلك، وودعت ابنتها وأحفادها، واحتضنتهم الحضن الأخير، لأنّها كانت مُقرّرةً على السفر إلى خارج البلاد.

سافرت سمر دون إخبار ابنتها، لقد تابت إلى ربها توبةً نصوحة، وأعطت عهداً على نفسها أمام الله بأنّها لن تعود إلى طريق الفاحشة مرة أخرى، كما أنّها وعدت نفسها بأنّها ستعود في يومٍ من الأيام لكي ترى ابنتها وأحفادها الصغار.

لكنّ المفاجأة لم تنتهِ عند هذا الحد، فقبل سنتين، سافر حسان، وافتتح شركة أخرى خارج البلاد، وكان يتواصل مع إياد وينال من هناك، ولا تنقطع أخبارهما عنه.

وكما ذكرتُ سابقاً أنّ سمر قد سافرت منذ عدة أشهر، وقد التقت بحسان، وعندما رأى التزامها وتغيرها الكبير بنفسها وبتصرفاتها، لم يتردد باتخاذها زوجةً له، وعرض عليها الزواج، لكنّها رفضت عرضه، ولم تُحبّذ فكرة الزواج أبداً

لم يشعر حسان باليأس، بل أصرّ على قراره، ليُقنعها بعرضه، خاصةً وأنّها حقّاً قد تغيرت، وأصبحت امرأةً ثانية، جميلة وعفيفة وهادئة ورزينة.

وقد تفاجأ الجميع، وصدموا حقّاً عندما علموا بأنّ حسان قد تزوج سمر، وهما الآن يعيشان سوياً تحت سقفٍ واحد، لكنّها هذه المرة كانت علاقةٌ شرعيةٌ، مليئة بالمودة والرحمة.

في صباح اليوم التالي، استيقظ إياد وكأنّ قلبه يُحلّق في فضاءٍ من السعادة، نسمات الأمل تعانق روحه، وابتسامة واسعة لا تفارق شفتاه. كان نشاطه يفوق الوصف، كأنّ كلّ خلية في جسده تنبض بالشوق والحنين. لم يعد بإمكانه الانتظار أكثر، فبمجرد انطلاق المسافرين من المطار، قفز إلى داخل سيارة الأجرة التي انتظرته، وطلب من السائق أن يمضي بسرعة نحو منزله، حيث عائلته.

ومع اقترابه من المنزل، كانت علامات الفرح والترقب تُشرق على ملامحه. وعندما فتح باب المنزل بهدوءٍ حذر، رآى طفليه يلعبان في الصالة، تشتعل البهجة في عينيهما كأنهما نجمتان تلتمعان في سماء الحياة. كانت رهف ومراد يغوصان في عالم من اللعب والضحك، ليتدفق إحساس السعادة في قلبه، فيبتسم بلا وعي.

فور أن فيضت مشاعر السعادة إلى عينيهما، أطلقا صيحاتٍ عفوية من الفرح، ومدّوا أذرعهم نحوه. انحنى إليهما واحتضنهما بحبٍ كبير، وكأنّ العالم بأسره قد اختفى بين ذراعيه.

تحدثت رهف بحماس، وابتسامتها تحمل البراءة:

"بابا، اشتقنا لك كثيراً كثيراً!"

ضحك إياد، وعيناه تتلألأن:

"وأنا أيضاً، ياروح بابا"

عندما نظر إلى مراد، سأله بلطف:

"وأنت أيها الصغير، ألم تشتاق لي؟"

اقترب مراد ليقبل وجنتيه، وتربعت السعادة على ملامحه:

"اشتقت لك كثيراً يا باباا"

اتسعت الابتسامة على وجه إياد، وقال بصوتٍ مفعم بالمحبة:

"أين ماما؟"

فأجابت رهف بابتسامة واسعة، وغمازتها الصغيرة تضيء وجهها:

"هي في المطبخ تعد لنا كعكة كبيرة بالشوكولا!"

همهم إياد بلهجة تُعبّر عن حماسه:

"حسناً، انتظراني هنا، سأذهب لأراها، ومن بعدها سآتي لأريكما ما جلبته لكما، اتفقنا؟"

صرخا معاً بفرح:

"هييي، بابا، أنت الأفضل!"

ضحك إياد على لطافتهما، وتنهّد بقوة، وكأن قلبه يقرع كالطبول في صدره، مشاعر الحب تنبض فيه. وعندما دخل المطبخ، وجد نفسه ينظر لها بمظهرها المثير واللطيف. كانت حياة ترتدي قميصاً أزرق بحمالات، ومريولة الطبخ، مشغولة بخلط المكونات برقة.

أحس برغبة ملحّة لجذب انتباهها، فحمحم، مما جعلها تلتفت له بسرعة، وعينيها تتسعان من الدهشة:

"إياد!" شهقت بقوة عندما رأته يقف أمامها بابتسامة عاشقة.

عضّ على شفته السفلى، ومدّ ذراعيه نحوها، وقبل أن يصل إليها، قفزت في أحضانه كفراشة تعانق وردة، لتستقر في ثنايا ذراعيه بقوة. احتضنها حتى كاد أن يكسر ضلوعها، ولكنها كانت مستمتعةً بذلك الحضن القاسي، وتلك الرائحة التي تجعلها تذوب في غمرته.

أطلق زفراته بسعادة، وعيناه تنهمران بالحب والحنان، وهو يرفعها قليلاً عن الأرض، مُقابلاً وجهها بوجهه. أنغام الفرح تغمرهما، وابتسم في عينيها اللتين تشعّان بالأمل:

"لقد اشتقت لكِ بحجم السماء والأرض"

ضحكت حياة بسعادة، مُجيبةً إياد بتلك النبرة التي تُذيب قلبه:

"وأنا أيضاً حبيبي، ولكن ألم تقل لي بأنّك لن تعود إلا بعد شهر؟"

همهم لها بلطف، وعيناه تشعان بمكرٍ:

"لم أستطع المقاومة عندما سمعت بتلك المنامة القصيرة، لذلك أتيت لكِ بسرعة البرق."

ضحكت حياة بقوة، وقبل أن يُسقطها في أحضانه مجدداً أعطته إيّاه قبلةً لطيفةً. أرادت أن تبتعد عنه، لكنّه قبّل شفتيها بقبلةٍ عميقةٍ وشغوفة، وكأنّها كلماتٌ صامتةٌ تُعبّر عن حبه المُشتعل.

ومع حلول المساء، وفّى ينال بوعده، وتوجه إلى منزل صديقه، إياد، ليشاركهم السعادة التي اختطفت قلوبهم. كان ينال وسلام حاضرين، وكان الأطفال الصغار هم أبطال السهرة، فكانوا يُصدرون ضحكاتٍ ناعمة، وأحاديثٍ بسيطة تُضفي سحراً على الأجواء.

حلا، ابنة ينال، ركضت نحو إياد بعيون غاضبةٍ، مُخبرةً إياه بنبرةٍ طفولية: "عمي، قل لمراد بأنّ يترك هلا ويلعب معي، هيااا"

ضحك إياد على جملتها، ونادى على مراد الذي جاء إليه سريعاً، كتم إياد ضحكته، وقال لابنه:

"لماذا لا تلعب مع حلا؟ انظر كم هي جميلة!"

نظر مراد إلى حلا بغرور طفولي، مُجيباً:

"لا، ليست جميلة، وأنا لا أحبها، أحب هلا فقط، وهي أجمل منها."

نظرت إليه حلا بغضب، وشُدّت شعره، وقالت:

"أيّها المدلل الصغير، اصمت، فكلّانا نفس الإصدار، ونفس الشكل، يا أحمق!"

انفجر الجميع ضاحكاً على جملة حلا، التي كانت تُعبّر عن طابع شخصيتها المُتحكّمة، وكأنّها ليست في الرابعة من عمرها، بل أكبر من عمرها.

تحدث إياد ضاحكاً:

"حسناً، إذهب أنت إلى هلا، وحلا ستلعب مع رهف، هيا."

توجه مراد إلى هلا، بينما ظلت حلا واقفةً في مكانها، وعابسة الوجه، ليوجه إياد حديثه إليها:

"هيا، اذهبي والعبي مع رهف، هيا حبيبتي."

تحدثت حلا بغضب طفولي:

"في المرة القادمة، تقول اسمي أولاً، وبعدها تقول اسم هلا؟"

نظر إياد لها بتعجب، ولم يستوعب كلماتها، بينما انفجر ينال وسلام ضاحكين. همهم لها إياد عندما فهم مقصدها، وقال:

"ااا حسناً حسناً، فهمت كما تريدين، حلا، اذهبي والعبي مع رهف، وهلا تلعب مع مراد، اتفقنا؟"

نظرت حلا إلى إياد بنظرة ملؤها الغرور، وضعت يديها الصغيرتين على خصرها، والتوت شفتيها بعبوس مضحك، مما جعل إياد يتجمد مكانه بين صدمة وابتسامة. نفخت خديها بقوة، ثم قالت بتذمر:

"أعانني الله على هذه العائلة وعلى حماقة أبنائكم"

أنهت جملتها وتوجهت نحو رهف، بينما ظل الجميع يحدق ببعضهم في دهشة، قبل أن ينفجروا ضاحكين على جملتها الطريفة التي تجسد سلوك طفلة بعقلٍ كبير. تبادلوا الضحكات، وكأنّهم كانوا في مسرحية كوميدية تُظهر عفويتهم وسعادة تلك اللحظة.

ومع انتهاء السهرة، انطلق ينال وسلام مع ابنتيهما نحو نزلهم، بينما حياة توجهت بذهنها المتشوق إلى أطفالها، مُتجهة لتنيمهم. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى غفيا، فتنهدت بعمق متمنيةً لحظة من الراحة والثقة، ثم انتصبت نحو غرفتها.

حالما دخلت، استقبلها إياد بعيون تحمل تلك النظرة اللعوبة التي تعرفها جيداً، فابتسمت له بخفة، تقترب لتقع في أحضانه، وكأنها تسعى لتشبع نفسها من رائحته وعطره الآخاذ. ابتعد قليلاً، ليُقبلها قبلة عميقة، جعلتها تذوب بين يديه، ثم مددها على السرير، وجبينه ملامس لجبهتها، ويلتقط أنفاسه كحالها.

تحدث بصوتٍ متهدج، مشبع بالعاطفة:

"أعشقكِ."

ابتسمت وهي تتغنج، لتقول بلطف:

"وأنا أموت بك عشقاً، يا رجلي وسندي."

ابتسم لها بحب، ثم اقترب ليقبلها مرةً أخرى، لكنهما قُطعت اللحظة عندما سمعا طرقات متتالية على الباب. عقد إياد حاجبيه باستغراب، وظهر على وجهه الخوف من أن يكون أحد أولاده يسعى للنوم معهما. كتمت حياة ضحكتها، وانطلقت نحو الباب لتفتح.

كان مراد يُركض نحو الداخل بمرح، مُتمدداً على السرير بكل أريحية، قائلاً: "أريد أن أنام معكما."

نظر إليه إياد، وفي عينيه نظرة تُظهر استغراباً وغيظاً يجاهد للصمود، بينما حياة كانت تلتزم الصمت وكأنها تُحاول جاهدةً كتم ضحكتها. أمسكه إياد بعنف مصطنع، وقال بغضب:

"اسمعني، أيها الصغير، اذهب ونم في غرفتك، واترك لنا بعض الخصوصية أنا ووالدتك، هيا إلى الخارج، كي لا أركلك وتصل إلى سابع سماء!"

نظر مراد له ببلاهة، بينما لم تستطع حياة أن تُخفي ضحكتها، مما جعل إياد يرسل لها نظرة غيظ غامضة. همهم في محاولة للسيطرة على الموقف:

"حسناً، اضحكي على مزاجكِ، لكنكِ ستبكين بعد قليل."

تظاهرت حياة بأنها تُكتم ضحكتها ليقول مراد ببراءة وصراخ:

"أريد أن أنام معكما عاااا!"

نظر إليه إياد بغضب مكتوم، ثم رمى مراد على السرير وهو يردد بغيظ:

"هيا، نم أيها القرد الصغير، اللعنة على حظي، يا إلهي!"

ضحك مراد ضحكةً طفولية، بينما تمدد على السرير، وتوجهت حياة لتنام بجانبه. نظر لها إياد، وعيناه تُشير إلى أنه على مشارف الانهيار، ثم صرخ:

"هل ستنامين؟"

انتفضت حياة في مكانها، وأجابت بصوتٍ هادئ:

"لا، لا لن أنام."

تمدد إياد على السرير، والغيظ يأكل قلبه كالنار، بينما كانت حياة تُحاول جاهدةً تهدئة ابنها الصغير، ليُغفو بين ذراعيها. لم تمرّ سوى لحظات قليلة حتى سمعا صوت طرقات خفيفة على الباب، فنظرا لبعضهما في صدمة، وكأنّ القدر يُخطط لهما لمزيدٍ من المفاجآت.

نهضت حياة لتفتح الباب، فوجدت رهف تقف أمامها، وعيونها تُحمل غضب طفولي، وكأنّها تُحارب الظلم الذي يطالها. دخلت فوراً لتقول بحدة:

"مُراد يُسمح له بالنوم معكما بينما أنا لا أليس كذلك؟ سأنام هنا، يعني سأنام هنا!"

أنهت جملتها بتحدٍ، ووجهت نفسها نحو السرير لتنام بجانب أخيها، بينما إياد كاد أن يُفجر نفسه من الغضب. نظر لزوجته بابتسامةٍ حانقة، وعلّق بسخرية: "حبيبتي، اخرجي وابحثي في الخارج لعلّ وعسى يكون هناك أطفال ودعيهم يدخلونليناموا معنا أيضاً، هيا هيا!"

لم تستطع حياة تحمل مزيداً من تلك اللحظات الكوميدية، فسقطت أرضاً وانفجرت ضاحكة، كأنّها تُطلق سيلاً من الضحكات التي تكسر حاجز الصمت وتملأ البيت بالبهجة. بينما احتقن وجه إياد من الغضب، لم يستطع مقاومة منظرها المضحك وهي ممددة على الأرض، مُغشيةً عليها من الضحك، فشاركها الضحك بهدوء، وكأنّ ّه يُقرّر أن يُخفف من حدة تلك اللحظة.

بدأ مراد ورهف يُقلدانها ويضحكان على مظهرها، ثم قفزا على السرير، يُرددون بتناغم طفولي:

"ماما المجنونة!"

بينما إياد حرك رأسه بيأس، وهو مبتسم، وكأنّ ّه يشكر القدر على وجود تلك العائلة التي تُضفي على حياته طابعاً مختلفاً.

" أُحبكِ بجنون

وأعشقكِ بهوس

أموت في اليوم مائة مرة إن لم يحتويني صدركِ ودفءُ أنفاسكِ

تنطفىء أنوار مدينة قلبي بغيابكِ

وتذبل أزاهير حياتي برحيلكِ

وأذوب من الشوق وأنتِ أمامي

ترتجف كل أوصالي بلمسةٍ من يديكِ

وأثملُ وأنا أُبحر بالنظر في عينيكِ "

.. النهاية ..

تمت بإذن الله